# بيعة النساء

## في القرآن والسيرة

تأليف
الدكتور أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

# بيعة النساء

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٢٢٤٥

بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١. - جوال ٨٥٢٥٨٦ ٣.

Http://www.dar-alyamama.com

e-mail: alyamama@scs-net.org

# بيعة النساء

## في القرآن والسيرة

تأليف

الدكتور أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



# الإهداء

إلى السائرات

على نهج المبايعات



أهدي هذا الكتاب

أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمةُ وعرضُ الكتاب

* الحمدُ للهِ ومَنْ يُحْمدُ سوى الله ، ولا إله إلاّ الله ، وما منْ إلهٍ إلا الله ، وسبحان الله ولا ينبغي التّسبيحُ إلا لله ، واللهُ أكبرُ ولا كبير إلا الله ، وأستغفرُ الله ومَنْ يغفر الذّنوب إلاّ الله ، ذلكم الله ربّكُم الذي قامتِ الدّلالةُ على ربوبيته في سجلّ شَهِدَ الله ، واحدٌ بدليلِ لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله ، أَحَدٌ بدليل قُل هو الله ، فردٌ بدليل لا تتخذوا إلهين اثنَيْن إنّما إلهكُم الله ، عليمٌ بدليل قُل إنْ تخفُوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمْه الله ، سميعٌ بدليل قد سمعَ الله قولَ التي تجادلك في زوجِها وتشتكي إلى الله ، بصيرٌ بدليل وقلِ اعملوا فَسَيرى الله ، خبيرٌ بدليل وما يخفى على الله من شيءٍ في الأرضِ ولا في السّماء الحمدُ لله ، قديرٌ بدليل ولئن سألتَهم مَنْ خلقَهم ليقولنّ الله ، مريدٌ بدليل ألا له الخلقُ والأمرُ تباركَ الله ، متكلّمٌ بدليل وكلّم الله ، لا شريكَ له بدليل فادعوا مَنِ استطعتم من دونِ الله .

* أحمدهُ حمداً مباركاً على نعْماه، وأصلّي وأسلمُ على محمّد بن عبد الله ، الذي اختاره ربُّنا واجتباه ، وأحبَّه وارتضَاه ، وعظّمه وكرّمه ورفعَه على

مَنْ سِواه ، صلّى الله عليه وسلم ما سجدتْ لله جِبَاه ، ونطقَتْ ألسنةُ التّوحيد بـ: لا إله إلاّ الله :

| | |
|---|---|
| ماذا أقولُ بمدحِ ذي الشَّرفِ الذي | أثنـــىٰ عليـــهِ اللهُ فـــي آيـــاتِـــهِ |
| شَــرفُ الــوجــودِ ونــورُهُ وبحــورُهُ | مِــنْ فَضْلــهِ وجمــالــهِ وهبــاتِــهِ |

و:

| | |
|---|---|
| لو أنَّ ثوبـاً حِيْكَ من نَـسْجِ تسْعَـةٍ | وعشـريـن حـرفـاً فـي عُـلاهُ قصيـرُ |

* ورضي اللهُ عن أصحابهِ ولا سيّما أبا بكر الصّدّيق الذي نزلَ فيه آية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ وعُمرَ الذي وافقَ حكْمُهُ حكْمَ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ، وعثمانَ الذي شملتْه آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وعليّاً الذي نزل فيهِ وبالمؤمنين آية: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ فهؤلاء الأحبابُ أحبابُ الله ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ و:

| | |
|---|---|
| يقـرُّ لهـم بـالفَضْـل كـلُّ مـوحّـدٍ | ويقضـي لهـم بـالسَّعْـد كـلُّ حكيـمِ |

* ورضي اللهُ عن المؤمناتِ المبايعاتِ على ألا يشركْنَ بالله ، فشملتهنَّ مغفرةُ الله ، واستغفرَ النّبي لهنَّ الله ، فكُنّ من أنصار الله :

| | |
|---|---|
| إنّـي اهتـديـتُ مـن الكتـابِ بـآيـةٍ | فعلمـتُ أنَّ عـلاهُ ليـس يُضَـاهَـىٰ |
| إنَّ الــذيــنَ يبــايعــونَــك إنّمــا | فيمـــا يقـــولُ يبـــايعـــونَ اللهَ |
| صلّــوا عليــهِ وسلّمُــوا فبــذلكــم | تُهـدىٰ النّفـوسُ لـرشْـدِهـا وهُـداهَـا |
| وكــذا السّــلامُ عليــه ثــمّ عليهــمُ | وعلــى عصــابتــهِ التــي زكّــاهَــا |
| أعنِي الكرامَ أولي النُّهى أصحابَه | فئـةَ التّقـى ومَـنْ اهتـدىٰ بهـداهَـا |

*وبعد:

* إنَّ موضوعَ بيعةِ النَّساء في ضوءِ القُرآنِ الكريمِ والسِّيرةِ النّبويّةِ من الموضوعاتِ المهمّةِ التي لم تلقَ الاهتمامَ المناسبَ من الباحثين والمصنّفين ، فمعظمُ مَنْ تصدّوا لهذا الموضوع كانوا يمرّونَ عليه دون أنْ يعوجُوا ، ودون أنْ يبيّنُوا أهمية هذه البيعة ، ودورَ النِّساء فيها ؛ مع العلْم أنَّ للمرأةِ دوراً واضح المعَالمِ في عصْرِ الرّسالةِ ، بل إنّ كثيراتٍ كُنّ منَ الأوائلِ في سجلّ العظائم ،

وسجّلْنَ أوّليّاتٍ ميمونةً في تاريخهنّ الزّاهر المُونِق ، كما تركْنَ آثاراً لا تزالُ مشرقةً إلى يومنا هذا تحكي أعمالهنَّ وترويها للعالَم كلِّه ، وترسمُ ما قُمنَ به مِنْ جليلِ الأعمالِ في جميعِ المجالات .

* ودعوني أقفُ معكم على بعضِ الآثار المحمودةِ للمبايعاتِ في عصْر النّبوّة ، لنعلَم أيّ مجدٍ بلغْنَه ، وأيّ سبقٍ نلْنَه ، وأيّ شرفٍ لبسْنَه ، وأيّ معنى نظمْنَه :

لا تكُــنْ لائمــي إذا اهتــزَّ عطْفــي    مــن سَمـاعــي لكــلّ معنــى نظيــم
كــلُّ مــنْ كــان فــي ريــاضِ المعــانــي    غُصنــــاً هــــزّهُ مــــرورُ النّسيــــم

* لقد كانتِ المبايعاتُ للهِ والرّسولِ أمّهاتٍ وعالماتٍ وفقيهاتٍ وداعياتٍ ومحارباتٍ وآسياتٍ وصانعاتٍ كلّ فضيلة في دنيا الخيرات .

* فأمّنا وسيّدتنا خديجةُ أوّلُ المؤمنين والمؤمنات ، ولها مناقبُ لا تُعدُّ ولا تُحصى ، ولا يُدرَكُ أدناها ولا يُستَقْصَى .

* وسميّةُ بنتُ خبّاط أوّلُ الشّهداء والشَّهيدات .

* وأمُّ سلمةَ وليلى بنتُ أبي حثمة كانتا أوّلَ المهاجرات .

* وأمُّ كلثوم بنتُ عقبة أوّلُ المهاجرات بَعْد الحُديبية .

* وأسماءُ وعائشةُ بنتا الصديق أوّل مَنْ علِمَ بالهجرةِ النّبويةِ إلى المدينةِ المنوّرة .

* وأمّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيان ، وأمُّ الفَضْل بنتُ الحارث ، وزينبُ بنتُ النبي ﷺ سبقْنَ أزواجهنّ إلى ظلالِ الإيمانِ ودوحته .

* وسبقتْ أمّ كلثوم بنتُ عقبةَ أهلَها في الإسلامِ والهجرة .

* وسبقتْ أمُّ الخير بنتُ صَخْرٍ أمُّ أبي بكر زوجَها إلى الإسلام .

* وسبقتْ أمّ كلثوم وسهلةُ بنتا سُهيل أباهما إلى الإسلام .

* وسبقتْ أمُّ حبيبة وفارعةُ بنتا أبي سفيان أباهما إلى الإسلام .

* وسبقت فاطمةُ بنتُ صَفْوانَ بن أميّة أبَاها إلى الإسلام .

* وسبقَتْ فاطمةُ بنتُ الخطّاب أخاها عمرَ إلى الإسلام ، وكان الباعثُ على إسلامه ما سمعَ في بيتها من آيات القُرآن الكريم والذِّكْرِ الحكيم ، بل إنَّ ليلىٰ بنتَ أبي حثمة هي التي فتّتتْ قشورَ الغِلْظَة العمريّة عن قلبهِ عندما كانت تستعدُّ للهجرة إلى الحبشة مع زوجِها عامرِ بنِ ربيعة ، فتفرّستْ في عمرَ ثُمَّ شعرَتْ بأنّه سيُسْلمُ وصدقت فراستُها فيه ، فأسلمَ وغدا الرّجُلَ الثّاني في الإسلام بعد أبي بكر رضي الله عنهما .

* وكانتِ البغومُ بنتُ المعدّل السَّبَبَ في إسلام زوجها صفوانَ بنِ أميّةَ ، وردّه إلى جادّةِ الصّواب ، وجَذْبهِ إلى ينْبوع الهدى والهدايةِ والموردِ المحمديّ ، وإن كنتُ أنسى فلا أنسى السّيدة أمَّ حكيم بنتَ الحارث التي سبقت زوجَها عِكْرِمة إلى الإسلام ، وأتتْ به إلى النّبيّ ﷺ آخذةً له الأمانَ والعفْوَ ، فاستقبله ﷺ وسماه : «الرّاكب المهاجر» .

* وسبقَتْ أمُّ أيمن الحبشية نساءَ الموالي إلى دوحةِ الإسلام ، وكذلك حمامةُ أمّ بلال بن رباح ، وأمُّ عبيس ، وزنّيرةُ ، والنّهديتان ، وبركةُ بنتُ يسار ، وسميّة رضي الله عنهنَّ .

* وكان لنساءِ الأنصارِ دورٌ كريمُ الأثَرِ في السَّبْقِ إلى العَظَائمِ ، وإلى سدّة الفضائل .

* فهذه أمُّ عمارة ، وأمُّ منيع كانتا أوّلَ نساءِ الأنصار المبايعات ، بل إنَّ أمَّ عمارة أوّلُ أنصاريّةٍ مقاتلةٍ في تاريخ الإسلام .

* وكانت أمُّ سعد بن معاذ وصُويحباتُها أوّلَ المبايعاتِ بعد الهجرة النّبويّة .

* وكانت أمُّ سُليم بنتُ مِلْحانَ السّبب في إسلامِ زوجها أبي طلحةَ الأنصاريّ ، وكان مهرُهَا إسلامَه .

* وكانت أمُّ حرامَ بنتُ مِلْحان المرأةُ الصّالحةُ أوّلَ مجاهدةٍ في البحر ، وأولُ مَنْ غَزَتْ في البحرِ من النّساء ، وهي حميدةُ البرِّ ، شهيدةُ البحرِ رضي الله عنها .

* وكان للنّساء دورٌ بارزٌ في مطلع شَمْسِ الرّسالة المحمّديّةِ ، فمن ذلك أنَّ

رقيقةَ بنتَ أبي صيفي بن هاشم هي التي حذّرتِ النّبي ﷺ ليلة الهجرةِ من غدرِ قريش؛ وأنَّ التي كانت تعرفُ مكانَه ﷺ في غارِ ثور وهو مهاجرٌ امرأةٌ هي أسماءُ ذات النّطاقين ، وأنَّ التي وصفَتْ لنا الشّمائل المحمديّة امرأةٌ هي أمُّ مَعْبد ، وأنَّ أوّل هَديةٍ دخلت على النّبي ﷺ بعد الهجرة قصعةُ طعامٍ أرسلتْها امرأةٌ هي النّوارُ بنتُ مالك أمُّ زيد بن ثابت ، وأنَّ بيتها كان أطول بيتٍ حول مسجدِ النّبيّ ﷺ ؛ وأنَّ أوّلَ ما أُذِّنَ كان من فوق بيتها ، فكان هذا البيتُ أوّلَ منارةٍ في الإسلام في المدينةِ المنوّرة .

* إنَّ هذا الموضوعَ طويلٌ وطريفٌ وممتعٌ ، ولا يسعنا في هذا العرضِ إلاّ أنْ نقدّمَ موجزاً لما أسلفناه لِتَتمَّ الفائدةُ ، ويعمَّ النفعُ بإذن الله .

* إنّ هؤلاء النّساء كُنّ عالماتٍ بحقيقةِ البيعةِ التي بايعنها ، كما كُنّ عالماتٍ بحقيقةِ دعوةِ الإسلام ، وعرفْنَ أنَّ النّبي محمّداً ﷺ مبعوثٌ إلى الرّجالِ والنّساءِ سَواء ، لذا فإنهنّ رافَقْنَ الدّعوةَ الإسلاميةَ مِنْ أوّل يومٍ من أيّامها إلى وفاةِ النّبي ﷺ ، وقدمْنَ ما يُرضي اللهَ ورسولَه ضمنَ الحدودِ المُتاحة لهنَّ ، وبالتّالي فقد أنزلَ اللهُ فيهنَّ آياتٍ تُتلى في المحاريبِ إلى ما شاءَ اللهُ تعالى وسمّى سورة كبيرة باسمِهنّ .

* قسمتُ الكتابَ إلى أربعةِ أبوابٍ رئيسيةٍ ، يحتوي كلُّ بابٍ على عدّة فصول ، وحرصتُ من خلال أبوابِ الكتابِ وفصولهِ أنْ أتحدَّثَ عن معظم ما يتعلّقُ بحياةِ النّساءِ في ظلالِ البيعةِ المباركةِ ، وألقيتُ الأضواءَ على لمحاتٍ من حياةِ النّساء قديماً ثمّ حياتهنّ في الإسلامِ ، والتزامهنّ بالبيعاتِ المختلفةِ بما بايعْنَ اللهَ ورسولَه عليه ، وذكرتُ أطوارَ البيعاتِ في العهدِ النّبوي بشيءٍ من التّفصيل مع نبذةٍ عن حياةِ بعضِ المبايعاتِ ، ودورهنّ في بيعاتهنّ ، وما قدمْنَ من أعمالٍ جليلةٍ ، وفضائلَ جسيمةٍ .

* وقد حاولتُ تصحيحَ بعض المفاهيمِ المغلوطةِ في تاريخ النّساء المبايعاتِ خاصّة ، وتاريخ النّساء بعامّة ، وأشَرْتُ إلى المكانةِ المتميّزة التي حظيتْ بها المرأةُ عَصْر ذاك ، مُخالفاً ما وردَ عن كثيرٍ من المُستغربين والمُتنطّعين الذين حاولوا إهمالَ شأْنِ المرأةِ في العهدِ الذّهبي الزّاهر ، عَهْدِ

النّبوةِ العظيم ، كما نرى كثيراً من النَّاس يُلصقُون التّحقير بالمرأةِ وينتقصون حقوقَها في أشياءَ كثيرة ، ويحكُمون ـ مؤكّدين ـ ضعْفَ عقْلِ المرأة ونباهتِها في كلّ مجال ، وفي كلّ زمان.

* ونحن بدورنا نقولُ لهؤلاء ومَنْ سلَك مسْلكَهم ودَارَ في فلكِهم: «أين كان ضعْفُ عقْل سيّدتنا أمّ سلمة المخزوميّة حينما أشارتْ على النّبي الكريم ﷺ مشورتَها الميمونةَ عقب صلح الحُديبية؟ وماذا عن المرأتَين: أمّ عمارة وأمّ منيع اللتَيْن بايعتا النّبي ﷺ في العقبةِ والإسلامُ يومئذٍ مضطهدٌ؟ وماذا عن أمّ عمارة حينما ثبتَتْ يومَ أُحُدٍ تفدي رسولَ الله ﷺ بنفسِها وأهلِها وقد فرَّ رجالٌ ورجالٌ؟ وماذا عن أمّ سُليم بنةِ مِلْحان التي جذبَتْ بحكمتِها وعقلِها أبا طلحةَ إلى دوحةِ الإسلام فأسلمَ ونَعِمَ وغدا من فرسان المدرسة النّبوية؟ وَقَبْلَهُنّ جميعاً أمّنا خديجةُ ذاتُ العقْلِ والفِراسةِ والحصافةِ في مواطنِ الفضائلِ جميعها؟! ماذا عنهنّ جميعاً ، وعن عشراتٍ ومئاتٍ غيرهنّ شهدتْ لهنّ المواقفُ الصَّعبةُ بالحكمةِ الحسنةِ والعقْل الرّاجح»؟!

* ولمَّا شرعْتُ في إعدادِ هذا الكتابِ عُدْتُ إلى مئاتِ المصادرِ القديمةِ والمراجعِ الحديثةِ ، ليكون العملُ أقربَ إلى الصَّواب ، ولتستفيدَ منه النّساءُ والفتياتُ بل والرِّجال والشَّباب.

* كان في مقدمةِ المصادر: القُرآنُ الكريمُ وعلومُه وكتبُ التّفسير قديمُها وحديثُها وهي كثيرةٌ جدّاً ، فكنتُ أختارُ ما يتوافقُ مع الصَّحيح مُستعيناً بذلك بأسبابِ النّزولِ وكتبِ الحديث ، وكانت هذه المهمةُ شاقّةً جداً ، وإن كانتْ سهلة باديءَ الأمْر ، لكنَّ المنصفَ الخبيرَ سيدركُ مصداقَ ما أقولُ عندما يجدُ كثيراً من الأحكامِ والأخبارِ مجلوةً بثوبٍ صحيحٍ ، وحُلّةٍ جميلةٍ مونقةٍ موثّقة بالمصادرِ الموثوقةِ المتنوعة.

* وقد ثنَّيتُ بكتبِ الحديثِ وشروحِها وهي لا تكادُ تُحصى ، واستفدتُ كثيراً منها وخصوصاً شروح البخاري ومسلم والتّرمذي ، إذ وجدتُ كثيراً من أسماءِ المبايعاتِ منثورةً في الأبوابِ تحكي فضائلهنّ ومواقفهنّ العطرة المستقاة

من القُرآنِ والسّيرةِ ، كما توضِّحُ بعضَ الأحكامِ التي تتعلّقُ بهنّ وبحياتهنّ وبيعاتهنَّ.

* أمّا ثالثُ المصادرِ التي أفدتُ منها فكانت كتبُ السَّيرة النّبوية وشروحُها ، والمغازي ، والشّمائل ، فكثيرٌ من المواقفِ والرّوايات اقتبستُها من السّيرةِ النّبويةِ لابنِ هشام ، ومن السّيرةِ الحلبيةِ لعليّ بنِ برهان الحلبيّ ، وصحيح السّيرة النّبوية لإبراهيم العَلي ، وغيرِها منَ السِّيرِ والدّراساتِ الهادفة ، وكنتُ أربطُ بينَ ما وردَ في هذهِ السِّير ، وبين القُرآنِ الكريمِ والحديثِ النّبوي ؛ لتكون الشواهدُ موثّقةً ، والأحداثُ أقربَ إلى الصّحة ، فهناك كثيرٌ من الأمورِ جاءت في السّيرة النّبويّة ولها حكْمٌ في القُرآنِ الكريم أو أصْلٌ في الصَّحيحَيْن ، لذلك كنتُ أنوّهُ إلى ذلك ليستفيدَ طُلاّبُ العلْمِ ومحبّو الحقيقةِ.

* وتظْهَرُ كتُبُ التّراجم والطّبقات وهي تحتلُّ مكاناً رحْباً بين المصادر ، إذ إنَّ هذه الكُتُبَ تنقلُ لنا صورةَ الشّخصية التي نترجمُ لها ، وتضعنا أمامَ أبرزِ الملامحِ لها ، كما تذكرُ أهمَّ سماتِها وآثارِها وبدايتها ونهايتها ، وكثيراً ما تذكرُ هذه المصادرُ كتُبَ الحديثِ وآياتِ الأحكامِ التي تخصُّ الشّخصية المُترجم لها ، ومن هذه المصادر: الطَّبقاتُ الكبرى لابن سعد ، وأُسدُ الغابة لابن الأثير ، والوافي بالوَفيات للصّفدي وغيرها.

* كما كان لكتبِ الفقْه والأحكامِ مكانٌ أثير بين مصادرنا ، لأنّها تسهمُ كثيراً في إيضاحِ الإشكالِ في أمْرٍ يخصُّ المرأةَ ، ومن أمثلة ذلك الحكْمُ الذي يخصُّ الفُريعةَ بنتَ مالك ، وسُبَيْعَةَ بنتَ الحارث ، وأمِّ كثلوم بنت عقبة ، وغيرهنَّ.

* ويُضَافُ إلى هذه المصادر كتب الأدبِ المتنوّعة التي اقتطفتُ من أزاهرِها كثيراً من الأخبارِ الجميلةِ التي يعبَقُ بشذاها هذا الكتاب ، وخصوصاً فيما يتعلّقُ بالحِكَمِ والمأثورات ، كما كان لدواوين كثيرٍ من الشّعراء نصيبٌ في هذا الكتاب ، بالإضافة إلى كتب التّاريخ المشهورة ، كتاريخِ الطّبري ، وكاملِ ابنِ الأثير ، والبداية والنّهاية لابن كثير وغيرها.

* كما يُضافُ إلى المصادرِ كتبُ اللغة ومعاجمُها ، من مثل: لسانُ

العرب، والقاموسُ المحيط، والمعجمُ الوسيط، وأساسُ البلاغة، والصِّحَاحُ، وغيرُهَا؛ وكذلك كتُب المواضعِ والبلدانِ التي تفيدُ كثيراً في تحديدِ المعَالمِ والآثارِ ومن هذه المصادر: المغانمُ المُطابة، ومعجمُ البُلدان، ومعجمُ ما استعجم، وتاريخ المدينة المنورة، والمعالمُ الأثيرة في السُّنَّة والسِّيرة وأخبار مكة، وغيرها.

* وهناك مصادرُ أخرى غنيةٌ بالمعلوماتِ المفيدةِ سيجدها القارىءُ مبثوثةً في ثنايا الكتاب.

* كانت البدايةُ في إعداد هذا الكتاب منذُ بضعِ سنين، واستغرقتْ منّي صياغتُهُ زمناً طويلاً، إذ إنَّ كثيراً من القُرّاءِ الأحبّاء لم تَعُدْ تُرضيْهم الكتاباتُ التّقليديةُ، وكثيراً من المحبّين يُشجّعني على المُضي في تقديمِ الأساليبِ المُشْرقةِ والمعاني الرّائقة بأثوابٍ جميلة، وحقائقَ مرتبطةٍ بالقُرآنِ والسُّنّة.

* وها أنا ذا أحقّقُ رغبتَهم ـ فيما أحسبُ ـ واضعاً أمامَ عيني مرضاةَ الله عزّ وجلّ أوّلاً، ثمَّ بيانَ الحقائق وتبيينَها فيما يتوافقُ مع الحقائقِ الثّابتة دون لبْسٍ أو إيْهَام.

* ولا يحسبنَّ الذين يُطالعون كتابنا هذا بأنّا حصلنا على مادّته بسهولةٍ؛ وقد يقولُ أحدُ النّاس: «إنَّ موضوعَ بيعةِ النّساء من الموضوعاتِ التي كَتَبَ فيها كثيرون». ونقول لهؤلاءِ: «لا ريبَ في أنَّ لكلّ باحثٍ أو كاتبٍ طريقَتَه في التَّصنيفِ وعَرْضِ الموضُوعَات، إلاّ أنّني في حدودِ إطلاعي لم أجدْ ـ إلى الآن ـ مَنْ تحدَّثَ عن بيعةِ النّساء في ضوءِ القرآنِ الكريمِ والسّيرةِ النّبوية بشيءٍ من التَّفصيل والإيضاح، فمعظمُ مَنْ تصدّوا للكتابةِ عن هذه البيعةِ أشاروا إلى بيعةِ النّساء عند فتحِ مكّة، أو بيعتهنّ بعد صُلْح الحديبية وامتحانهنّ ومرّوا مرورَ العابرين، ولم يدخلُوا في التّفاصيل. لذلك حاولتُ أنْ أتحدّثَ عن بيعةِ النّساء وأطوارِها منذ البعثةِ النّبويةِ إلى فتحِ مكّةَ، وعرضتُ ذلك مفصّلاً وموثّقاً في البابِ الثّالث الذي يُعْتَبَرُ روحُ هذا الكتاب وريحانُه، وعمودُه الفِقْري، وتحدثتُ عن البيعاتِ جميعها في العهد النّبوي: المكّي والمدَني، مع التّقديمِ

لكلّ بيعةٍ بلمحةٍ موجزةٍ توضّحُ الهدفَ منها ، مع ذكْرِ طائفةٍ من المبايعات ، ثم ترجمةٍ وافيةٍ لحياةِ بعضهنّ».

* سيدركُ القارىءُ الحصيفُ المُنْصِفُ مدى الجهدِ الذي لقيتُه في لَمِّ شتَاتِ المعلوماتِ ونظمِها حتى برزَتْ على الشّكل الذي هي عليه الآن ضمنَ دفتَي هذا الكتاب؛ وسيدرك القارئ أيضاً قيمة الحواشي وأهميتها وندرتها ، وأنها بيّنت كثيراً من المفاهيم والمعلومات ، وهي بحقّ جزء مهم من الكتاب؛ وهي كالحِلْية النادرة للحسناء العَروب؛ كما أنَّ كثيراً من أَحْبَائي القُرّاء ، سيجدون المتعةَ والفائدةَ ، وهم يطالعون هذا الكتابَ الذي حرصتُ كثيراً بأن يكونَ سميرهم في مجالِسهم وندواتِهم وأنْ يكون فيه الجديد النّافع بإذن الله عزّ وجلّ.

* لذلك أطلبُ ممّن يقرأُ ما أكتبُ أنْ يخُصَّنِي بدعوةٍ خالصةٍ منه في ظَهْرِ الغيب ، وأنْ يرفدَني بملاحظاتِهِ ويزوّدني باستدراكاتهِ كي أتجنَّبَ الخطأ ، فأنا بشَرٌ أخطىءُ وأصيبُ ، والكمالُ لله عزَّ وجلَّ ، وأنا مِنْ أشدِّ الناسِ حرصاً على اتّباع الحقّ والصّواب ، وتقبُّلِ النّقد من أي محبٍّ للحقّ والخيرِ ، وشعَاري دائماً ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

* اللهـم علّمنا مـا ينفعُنـا، وانْفَعْنـا بمـا علّمتَنَـا، وزدْنـا عِلمـاً يـا ربَّ العالمين...

* اللهمّ احْشُرنا في زُمْرةِ المُبايعين الذين رضيتَ عنهم ، واجْعَلْنا في معيّة سيّدنا محمدٍ ﷺ ، وافتحْ علينا فتوحَ العارفين.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دمشق ـ حرستا ـ حي الشّيخ موسى
٩ ذو الحجة ١٤٢٢ هـ

وكتب
د. أحمد خليل جُمُعَة
الحرستاني الدّمشقي

# الباب الأول

## حياة النساء قبل الإسلام وبعده

الفصل الأول : أحوال النساء وحياتهن قبل الإسلام

الفصل الثاني : منزلة النساء ومكانتهن في الإسلام

الفصل الثالث : علوم النساء ومعارفهن في الإسلام

الفصل الرابع : السابقات إلى الإسلام

الفصل الخامس : دور السابقات في مرحلة الدعوة بمكة

الفصل السادس : السابقات في دار الأرقم

الفصل السابع : السابقات في الهجرة إلى الحبشة

الفصل الثامن : السابقات في الهجرة إلى المدينة المنورة

# الفصل الأوّلُ
# أحوالُ النّساء وحَياتُهُنَّ قبل الإسلام

* كانت المرأةُ في بعض المجتمعاتِ قبل الإسلام شيئاً يمتلكُه الرَّجلُ كما يمتلكُ بعضَ العجماواتِ ، لتؤدّيَ له بعضَ ألوانِ المنافعِ من غير أنْ يكونَ لها حقٌّ في شيءٍ ، إلاّ ما يراهُ هو حِفاظاً على مُلكهِ ، واستمراراً لمنفعتهِ ، وقد وصلَ الأمرُ ببعض المجتمعاتِ إلى أنْ تجتزَّ شعورَ النساء[1] لبيعها كصوفِ الغنم وأوبارِ النَّعم ، وكان للرّجلِ مطلقُ الحريّةِ في أنْ يجمعَ منهنَّ ما شاء بلا عددٍ ، وأنْ يُطلِّقَ منهنَّ ما شاء له هواهُ وميولُهُ ، وقد طالَ الأمدُ على ذلك حتّى تعوّدتْ بعضُ النِّساءِ على هذهِ الحياة ، فصارتْ لا ترى لِنَفْسِها حقّاً مع الرَّجُل .

* ومن أمثلة بعضِ المجتمعات أنَّه قضتْ معتقداتُ الهند وشرائعُها

(١) «النساء»: اسمُ جمعٍ لامرأة ، لا واحد له من لفظه. وكذلك «النّسْوة» اسم جمع امرأة ، لا مفرد له ، وهو اسم جمع قلّة مثل النّساء. قال أبو البقاء الكفوي في « الكليّات »: «النسوة: اسم جمع ، فيقدر لها مفرد ، وهو نساء ، كغلام وغلمة لأنّها اسم جمع للمرأة ، مؤنَّث من بنات آدم مَنْ بلغت حدّ البلوغ». ومن الجدير بالذكرِ أنَّ لفظ «النساء» قد ورد في القرآن الكريم (٣٨ مرّة) بصيغة النّساء. وجاء مرتَيْن بصيغة «النِّسوة» ومن الفوائد اللطيفةِ في هذا المجالِ أنَّ لفظَ: «النِّسوة ، والنُّسوة ، والنُسوان»: هذه كلّها جموعٌ للمرأةِ من غيرِ لفظها ، والنّسبة إلى النّسوة: نِسوي أو نُسوي ، بكسرِ النُّون أو ضمّها؛ والنّساءُ جمعُ نِسْوةٍ إذا كثُرنَ ، والإضافة إلى نِسْوةٍ: نُسَيّة ، ويُقال: نُسَيّانٌ ، وهو تصغير الجمع. وكما يُقال للرَّجُل: مَرْءٌ ، للأنثى: امرأةٌ؛ يقال للرجل: إنسانٌ وللمرأةِ: إنسانٌ ، وإنسانةٌ ، وإنْ كانت إنسانةٌ عاميةً.

القديمةُ: «أنَّ الوباءَ والموتَ ، والجحيمَ ، والسُّمَ ، والأفاعي ، خيرٌ من المرأةِ!» ، وكانت حياتُها تنتهي بموتِ سيّدها ومالكها ، فإذا رأتْ جثمانَه يُحرقُ ، وجبَ أنْ تلقيَ بنفسِها في نيرانه ، وإلا حاقتْ عليها اللعنةُ الأبديةُ ، وماتت موتاً اجتماعياً ، فيتحاماها الأقربون ، ويفرُّ منها الرّجالُ كأنّها وباءٌ ، وربّما فرضوا عليها أنْ تعمدَ إلى تشويه نفسِها إمّا بحلْقِ الشَّعْر ، أو جدْعِ الأنف ، أو ما شابه ذلك . . .

* يقول «مانو» في كتاباتهِ وأساطيره عن الهند: «إنّه يجبُ على المرأةِ أنْ تخضعَ لحاميها ـ الزّوج ـ وعليها أن تكونَ في حالةِ الاعتماد الكليّ عليه؛ أما بالنّسبةِ للميراثِ فإنّه يكونُ عن طريقِ الذّكور فقط دون البنات إذ يُحْرمُ الإناثُ الميراثَ. وكانتِ الزّوجةُ الهنديةُ تنادي بعْلَها: «يا سيّدي ، أو يا إلهي ، أو يا ربيّ» لأنّهم كانوا يعتبرون الزَّوجَ الإلهَ الصَّغيرَ لها. ومن عادتهم أنَّ الزَّوجةَ لم تكنْ تأكلُ مع بعلِها أبداً مهما كانتِ الظُّروفُ ، وكان لزاماً عليها أنْ تمشيَ خلْفَه بخطواتٍ بعيدةٍ عنه ، وذلك عندما يذهبان سوياً ، بل كان الرّجلُ قد ركَّزَ في نفسها من شعورِ العبوديةِ ما يجعلُها تفتخرُ أنْ تدعوَ نفسَها (داسي) أي: أَمَة لزوجِها وتؤمنُ بـ (بني ورتا) أي: اتّخاذ المرأة من زوجها معبوداً لها وإلهاً. إنَّ الزوجةَ الوفيّةَ هي تلك التي يكونُ عقلُها وكلامُها وبدنُها خاضعاً لزوجها بحيث تكونُ مذلّلةً له ، وعليها أنْ تكلِّمَه بخشوعٍ تام ، هذه هي المرأةُ المُثلى التي تحظىٰ باحترامٍ وتقديرٍ في هذا العالَم ، وتعيشُ في الآخرة مع زوجها»[١].

* وفي روما كانتِ المرأةُ رقيقاً تابعاً للرّجلِ لها حقوقُ القاصرِ ، أو لا حقوق لها علىٰ الإطلاق ، وفي أثينا كانت تُباع وتُشْتَرى.

إنَّ تاريخَ الرُّومان يروي لنا أنَّ مؤتمراً ذا شأنٍ انعقد في روما ، وبحث في أمورِ النساءِ وشأنهنَّ، وحالِ المرأةِ بعموم أحوالها ، واتخذ المؤتمرُ عدداً من القرارات الغاشمة منها:

---

(١) المرأة في الإسلام وقبله لسعيد الحاتمي (ص ٢٠ و٢١) مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ ـ الهند ـ دون تاريخ.

**أولاً**: المرأةُ موجودةٌ ليس لها شخصيَّةٌ إنسانيةٌ فهي لا تستطيعُ أنْ تنالَ الحياة في الآخرة.

**ثانياً**: ينبغي على المرأةِ ألاّ تأكلَ اللحمَ وألاّ تضحكَ ولا تتكلّمَ، فهي رجسٌ من عملِ الشّيطانِ، ولذا فإنَّها تستحقُّ الذُّلَّ والهوان في المجتمع.

**ثالثاً**: على المرأةِ أن تقضيَ حياتها في طاعةِ الأصنامِ وخدمةِ زوجها.

* أمّا المرأةُ عند أهلِ فارس فكانت في انحطاطٍ وذلَّةٍ أيضاً، إذ إنَّ التَّقاليدَ القديمةَ في فارس كانت تهينُ المرأة، وتحقِّرُ شأنها، وتعتقدُ أنَّها سببُ هيجان الشّرور التي توجبُ العذابَ والسُّخط لدى الإله، ولهذا كان الفرسُ يبيحونَ عليها أنْ تعيش تحت أنواعِ الظُّلمِ والقَهْرِ والقَتْلِ.

* وكانتِ المرأةُ لدى بعضِ القبائلِ العربيةِ جزءاً من الثَّروةِ والنَّماءِ، كانتِ الأرملةُ تُعَدُّ ميراثاً لابن المورّث، وكانت هذه العادةُ الظَّالمةُ جاريةً بصفةٍ خاصّةٍ بين قبائلِ اليمن الذين كانوا يعيشون مع أخلاطٍ من الإسرائيلين والصَّبئيين.

* وقد تجاوزَ الأمرُ وطغى الظُّلمُ الاجتماعيُ إلى حدِّ البحثِ في طبيعةِ المرأةِ وإنسانيتها، فكانت تُعَدُّ روحاً شريرةً نجسةً، ورجساً من عمل الشَّيطان.

* وكان أحدُ القسيسين وهو «سان بُونا فنتور» يقول لتلاميذِهِ عن المرأةِ مُحذّراً ومُنفّراً منها: «إذا رأيتم امرأةً فلا تحسبوا أنّكم ترونَ كائناً بشرياً، بل ولا كائناً وحشياً، وإنّما الذي ترون هو الشيطانُ بذاتِهِ، والذي تسمعون هو صفيرُ الثُّعبان»[1].

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع د. عبد الستار سعيد (ص ٥٤٤) جامعة الأزهر ـ ١٩٧٥م. ومثلُ هذه الأقوال كثيرةٌ عند فلاسفتهم مثل قولهم: «قيل لحيّةٍ سامةٍ: أكان يَسُرّكِ لو خُلقتِ امرأةً؟ قالت: أنا امرأةٌ، غير أنَّ سُمِّي في النَّاب، وسمُّها في لسانها».
وقال شوبنهور: «إنَّ المرأة التي تضطرني إلى أنْ أحترمها ما خُلِقَتْ ولن تُخْلَق».
وقال أيضاً: «يسألوني عن الأفعى الليّنةِ الملمَسِ؛ وهي أمامَهم في كلّ وقتٍ، بل في كلِّ لحظة، هي المرأة». وقال: «اتركوا للمرأةِ حرّيتها، ولا تجعلوا عليها رقيباً، ثم قابلوني بعد سنةٍ وأخبروني عن النّتيجة».

* ولقد حدَّثنا التّاريخُ بما كان للمرأةِ في الجاهليةِ العربيةِ من ضروبِ المهانةِ والتّحقير والأذى ، كغيرِها من جاهلياتِ الأرض ، وكانت بعضُ القبائلِ تتشاءمُ بمولدِ الأنثى ، يقول عبّاس العقّاد في كتابه «حقائقُ الإسلامِ وأباطيلُ خصومهِ» : «وبينما أممُ الحضارةِ في إجماعها هذا على تلك النَّظرة الزّرية إلى المرأةِ ، كانت أمّةُ الصَّحراء تقضي فيها قضاءً لا خيارَ بينه وبينَ ما عداه؛ كانت تتشاءمُ بمولدها ، ولا تبالي أنْ تعاجلَها بالدَّفْنِ في مهدِها ، مخافةَ العَار ، أو مخافةَ الإملاق . ومن تلك الزّاويةِ النّائيةِ عن العالَم تقبلُ عليه دعوةٌ سماويةٌ تنصفُها من ظلْمٍ ، وترفعُها من ضَعَةٍ ، وتبسطُ لها كنفَ المودَّةِ والرحمةِ ، وتنزعُ لها من القلوب عدلاً أعيا على الرّؤوس ، وتقيّدُ من مباح الزّواج ما لم يقيّده عرفٌ ولا قانون ، ويجعلُ لها الخيار بين ما ترضاه وما تأباه ، وتستجدُّ لها حياة يستحي المنصف والمكابر أنْ يجحدا فضلَها العميمَ على ما كانت عليه . . . » .

* وكانت بعضُ القبائلِ قبل الإسلام تَئِدُ البنتَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ و٩] .

* ومعنى الموؤدة : هي البنتُ التي تُدفنُ حيّةً ، مأخوذة من الوأْد ، وهو الثّقل ، لأنّها تُثْقَلُ بالتّراب والجندل .

* وكان بعضُ أهل الجاهلية يدفنون بعضَ بناتِهم أحياءَ لخصلتين :

١ ـ كانوا يقولون : «الملائكةُ بناتُ اللهِ»[1] فألحقوا البناتِ به تبارك وتعالى عن ذلك .

٢ ـ مخافة الحاجةِ والإملاق ، وإمّا خوفاً من السَّبي والاسترقاق .

* قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : «كانت المرأةُ في الجاهليةِ إذا حملت حفرتْ حفرةً ، وتمخّضتْ على رأسها ، فإنْ ولدتَ جاريةً رمتْ بها في الحفرة ، وردّت التُّرابَ عليها ، وإن ولدتْ غلاماً حَبَسَتْهُ ، ومنه قول الراجز :

---

(١) انظر : اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي (٢٠/ ١٨٢) دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٩٩٨م .

سَمَّيتُهــــا إذْ وُلِـــدتْ تمـــوتُ  والقبــرُ صِهْــرٌ ضَــامِــنٌ زِمِّيــتُ

* وقيل: «كان الرَّجُلُ إذا وُلدَتْ له بنتٌ فأراد إبقاءَ حياتِها أَلْبَسَها جُبّةً من صوفٍ، أو شَعرٍ، ترعى له الإبلَ والغنمَ في البادية، وإذا أرادَ قتْلَها تركَها، حتى إذا بلغتْ قامتُها ستَةَ أشبارٍ فيقول لأمِّها: طيِّبيها، وزيّنيها حتى أذهبَ بها إلى أقاربها ـ وقد حفَرَ لها بئراً في الصَّحراء ـ فيذهبَ بها إلى البئر فيقولَ لها: انظري فيها، ثمّ يدفعُها منْ خَلفِها، ويهيلُ عليها التّراب حتى تستوي البئرُ بالأرضِ»(١).

* وكان صعصعةُ بنُ ناجيةَ التّميميّ ممن يمنعُ الوأْد، فافتخرَ به الفرزدقُ الشّاعرُ المشهورُ في قوله:

ومنَّــا الــذي مَنَــعَ الــوائِــداتِ  وأحْيَــا الــوئيــدَ فلــمْ يُــوأدِ

* روي أنَّ قيسَ بنَ عاصم جاءَ إلى النّبي ﷺ فقال: «يا رسولَ اللهِ، إنّي وأدتُ ثماني بنات كُنَّ لي في الجاهلية».

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فأعتقْ عن كلِّ واحدةٍ منهنّ رقبة».

قال: «يا رسول الله إنّي صاحبُ إبل».

قال ﷺ: «فأَهْدِ عن كلّ واحدةٍ منهنّ بُدْنة إنْ شئتَ»(٢).

* وهكذا كان الأبُ يئدُ ابنته بنفسهِ، ويحفرُ لها الحفرةَ ثمّ يدفنُها، فكيف يطيقُ أبٌ أنْ يئدَ ابنته بيديه؟ أين ذهبتْ عاطفةُ الأبوة؟ وآصرةُ الإنسانية، وخلقُ الرحمةِ والشَّفقة؟

* إنَّ الوأْدَ صورةٌ بشعةٌ تستدرُّ الدُّموعَ، وتستثيرُ الألمَ، فكيف صَبَرَ الأبُ عليه؟ وكيف احتملتِ الأمُّ آلامَه؟

* ذكرَ المؤرّخون والمفسّرون شيئاً من هذا، وزعموا أنَّ من أسبابِ الوأد

---

(١) المصدر السابق (٢٠/ ١٨٢ و١٨٣). وزعم ابن منظور في «اللساان» أنّه كان في مكة جَبَلٌ يقال له: «أبو دلامة» كانت قريش تئد البنات فيه. (لسان العرب: مادة «دلم»).

(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٨٣).

الغيرةَ على البنات أنْ يُسْبَيْنَ أو يزوجْنَ بغير أكْفَاء ، وقالوا: «إنّ أوّلَ مَنْ فَعَل ذلك قيسُ بنُ عاصم ، ذلك أنَّ تميم منعتِ الإتاوةَ عن النّعمانِ بنِ المنذر ، فحاربَهم وسبىٰ نساءهم ، ثم وفدَ قيسٌ على النعمانِ ليستردَّ السَّبايا ، فآثرن العودةَ ، إلاّ بنته فقد آثَرتْ سابيها على أبيها ، فانصرفَ قيسُ فوأَدَ كلّ بنت ، وجعل ذاك سُنَّة كلّ بنت تُولدُ له ، واقتدتْ به العربُ ، فكان كلُّ سيدٍ تُولدُ له بنتٌ يئدها خوفاً من الفضيحةِ؛ وكان قيسُ يقول: «كنتُ أخافُ سوءَ الأحدوثةِ والفضيحة في البناتِ ، فما وُلدتْ لي بنتٌ قط إلا وأدتُها»[1].

* ونلمح في آياتِ القُرآنِ الكريمِ أنَّ وأدَ البنات يعودُ إلى سببٍ مَعَاشِيٍّ وهو ضيقُ ذاتِ يدِ الرجلِ وفقره[2]، والبنتُ لا تستطيعُ أنْ تساعدَ أباها في جلْبِ العَيْشِ والارتزاقِ ، وكذلك يظُنُّ بعضُ الآباء أنَّهم يربّون البنتَ ، وينفقون عليها ، فيأتي غريبٌ عنهم فيأخذها منهم ، أما الولدُ الذَّكرُ فهو على خلافِ ذلك تماماً ، فالابنُ قادرٌ على مساعدةِ أبيهِ وجلبِ أسبابِ الرّزقِ معه.

* وكان من أسبابِ الوأد خوفُ بعضِ الآباء من ذلّ ابنتهِ بعد موتهِ ، وبهذا قد تضَطرُّ البنتُ إلى الاستجداءِ والذُّلّ ، وفي هذا يقول «إسحاقُ بنُ خلف» عن ابنته أميمة هذه الميميّة الموحية:

| | |
|---|---|
| لـولا أميمـةُ لـم أجـزع مـنَ العـدمِ | ولم أجبْ في الليالي حندسَ الظُّلَمِ |
| وزادنـي رغبـةً فـي العيشِ معرفتي | ذلّ اليتيمـةِ يجفـوهـا ذوو الـرّحـم |
| تهوىٰ بقائي وأهوىٰ موتها شَفَقاً | والمـوتُ أكـرمُ نـزّالٍ علـى الحُـرَمِ |
| أحـاذرُ الفقـرَ يـومـاً أنْ يلـمَّ بهـا | فيكشف السّتْرَ عن لحمٍ وعن وضمِ |

* * *

(١) الأغاني (١٤/ ٧٢) ، ونهاية الأرب (٣/ ١٠٧) مع الجمع والتصرف؛ وفي النفس شيء من هذه القصة؟!!

(٢) قال تعالى مُشيراً إلى هذه النّاحية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

# الفصل الثّاني
# منزلةُ النّساء ومكانتهنّ في الإسلام

* وصف القرآنُ الكريمُ حالَ الرّجلِ في الجاهليةِ حينما كانت تلدُ امرأته أنثى ، فقال عزّ شأنه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ و٥٩].

* من المعلوم أنّه دُفنتْ قبل الإسلام في أرضِ شبهِ الجزيرة العربية من الإناثِ ما لا يعلم عددهنّ إلا العليمُ الخبيرُ خالقُ كلّ شيء ، فقد كان الأبُ الجاهليُ في بعضِ القبائلِ يرى الأنثى[1] عبئاً ، فهي لا تُقاتلُ عن القبيلة ولا تدافع عن أحد ، ولا تدفعُ السُّوء عن نفسِها ، وهي مصدرٌ لجلْبِ العار حين تُسْبى ، إذ يُعيَّر بها الأبُ وتُعيّرُ بها قبيلته.

* ولما جاء الإسلامُ ، وبيّنَ فعْلَ الجاهليةِ القبيح بالوأد ، أدركَ الذين أسلموا سُوءَ فِعْلَتهم بِبَنَاتِهم الموؤدات ، حتى زعموا أنَّ قيس بن عاصم كفَّر عن وأْدِهِ وأعتقَ رقاباً ، وكان سيّدَ بني تميم ، وكان عاقلاً حليماً علّمَ النّاس الحلْم ، وله أخبارٌ تُظْهِرُ مناقبهُ وفضْلَه ، وإذا كان هذا هو الشّأن ببعضِ السّادةِ

(١) «الأنثى»: الأنثى في اللغة: خلاف الذَّكر من كلِّ شيء ، والجمع إناث ، وأَنثت المرأةُ: ولدتِ الإناث ، فهي مؤنث ، وتأنَّثَ: لانَ وتخنَّث ، صار كالأنثى ، وامرأة أنثى: كاملة من النّساء. والأنيث: اللين ، وهو أصل المعنى. وأرض أنيثة: حسنة النبات. ومن الجدير بالذكر أنَّ لفظ الأنثى قد ورد في القرآن الكريم (١٨ مرة). وجاء مثنى بصيغة «الأنثيين» (٦ مرات) ، وجاء بصيغةِ الجمع «إناثاً» (٦ مرات) أيضاً.

الجاهليين الحلماء العقلاء ، فما ظنّك بما فعل سوادُ النّاس في بناتهم؟!

* شدّدَ القرآنُ العظيمُ على الذين يقتلون أولادهم ، ونهاهم عن ذلك في مواضعَ منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] فقد كانوا يئدون البناتِ خشية العار ، وربما قتلوا بعضَ الذّكور خشيةَ الفقْر ، وكان الواحدُ منهم يقتلُ ولده ويغذو كلْبَه ، فجاء الإسلامُ وصحّحَ مفاهيم هؤلاء ، وأرشدَهُم إلى جادّةِ الحقّ وطريقِ الصّواب.

* وهكذا سوّىٰ الإسلامُ بين الذّكَر والأنثى في حقّ الحياة ، وحرّم التّعدّي على هذا الحقّ ، وجعله من أكبرِ الذّنوب التي لا تتفقُ مع تكريم اللهِ عزّ وجلّ للإنسان. كما جعلَ الإسلامُ للبناتِ مزيةً كبرى بأنَّ مَنْ أحْسنَ إليهنّ وربّاهنّ كُنَّ له وقايةً وستراً من النَّار ، ولعلَّ البنتَ تكون أنفعُ من الذّكر قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] وقد كان النّبيّ الكريم ﷺ أباً لأربع بناتٍ أحسنَ إليهنّ أكمل الإحسان وأعظمه ، ولنا في رسولِ الله أكرمُ أسوةٍ وأحسنُها في تربية البنات[(١)] وكلّ شيء.

---

(١) يقولُ الدكتور محمد البلتاجي عن استمرارِ عملية الوأدِ في العصر الحديثِ في بعضِ الدول ما ملخصه: «ولا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ وأدَ البناتِ قد انتهى من العالَم بانتهاء العصرِ الجاهلي ، فنحنُ نعاصرُ اليوم صوراً عديدةً من هذا الوأد ، وما هو في حُكمه. ففي الصّين يسْمَحُ النّظامُ فيها للأسرةِ بولدٍ واحد ، ولما كانتِ الأجهزةُ الطبيةُ الحديثةُ ـ السّونار ـ تستطيعُ الآن رؤيةَ الجنين في بطن أمّه ورؤية جنسه ، فإنَّ آلافَ الأسر إذا ما تبين لها أنَّ الجنينَ أنثى تقومُ بإجهاض الأمّ سرّاً مرةً بل مرات ، وفي القُرى التي لا تصلُ إليها أجهزة السّونار تُقتَلُ الأنثى فوراً عند ولادتها ، حتى أصبحتْ هذه الظاهرة تهددُ التّوازن العددي ـ وهو سنّةٌ كونيةٌ عظيمةٌ ـ بين الذّكور والإناث ، ممّا حمل الحكومة الصّينية على التّفكير في الاكتفاءِ بغرامةٍ ماليةٍ لمن ينجبُ أكثر من طفلٍ واحد ، وقد حدثتنا الأخبارُ في ذلك بمآسٍ هائلة لأنَّ الصّينيين يفضّلون الذّكر ـ وإن كانت به عاهة ـ على الأنثى السّليمة.
وفي الهند يقضي النّظامُ الاجتماعيّ حتّى اليوم بأنَّ الزّوجةَ هي التي تدفعُ المهرَ للزَّوج ، ممّا يحمّلُ أهلها عبئاً كثيراً عند تزويجها ، لذلك تلجأُ كثيرٌ من الأسرِ الفقيرةِ إلى وأدِ الأنثى عند ولادتها أو بيعها لمن يحملها بعد ذلك على احترافِ الدّعارة ، وهناك سوقٌ رائجةٌ في كثيرٍ من=

* وقد ساوى الإسلامُ النِّساءَ والرّجالَ أمامَ التّكليفِ الشّرعيّ ، والجزاءَ الأخرويّ ، دون أيّ فارقٍ بينهما في ذلك ، والآياتُ على ذلك والشّواهدُ كثيرةٌ منها قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣٠ و٣١] وقوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ [الأحزاب: ٧٣] والآياتُ في هذا المجال كثيرةٌ جداً.

*** فلا شكَّ إذن في أنَّ الإسلامَ قد سوّى بين النِّساءِ والرّجال أمامَ التّكليفِ والجزاءِ الأخرويّ [(١)]، ومن هذا المبدأ دعا النّبيُّ ﷺ الرّجالَ والنّساءَ إلى الإيمانِ بما يدعو إليه ، فكان من السَّابقاتِ إليه السيّدةُ خديجةُ بنتُ خُويلد ، وأمُّ عمَّارَ بنُ ياسر ، وأمّ الفضل بنتُ الحارث ، وأمّ أيمن الحبشيَّة ، كما كان من السَّابقين إليه أبو بكر الصّدّيق ، وعبد الرّحمن بن عوف ، وبلال وعليّ رضي الله عنهم أجمعين.**

---

= الدّولِ الآسيوية للدّعارة المنظّمة للصّغيرات اللاتي باعهنّ أهلهنّ من الفقرِ أو خوف الفقر والتّبعات المالية. وفي إطار هذه الأوضاع يستطيعُ المنصف أنْ يقيمَ النّصوص الإسلامية التي أعلتْ من شأن الأنثى ، وسوّت بينها وبين الذّكر في حقّ الحياة الكريمة».
(مكانة المرأة في القرآن الكريم والسّنة الصّحيحة ص ٨٣ و٨٤) بتصرف. دار السلام ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

(١) المرأةُ بين يدي الإسلامِ قسيمةُ الرَّجُل ، لها منَ الحقّ مالَهُ ، وعليها ما عليه ، ولا فضلَ إلاّ أنْ يقومَ الرَّجُلُ بما له من قوّةِ الجَلَدِ ، وبَسطَهِ اليدِ ، واتّساع الحيلة ، فيَلي رياستها ، فهو بذلك وليّها يحوطُها بقوته ، ويذود عنها بدمهِ ، وينفقُ عليها من كسبِ يدهِ ، فأما فيما سوى ذلك فهما في السَّراءِ والبأساءِ على سواء. ذلك ما أجمله اللهُ ، وضمَّ أطرافه ، وجمعَ حواشيه ، بقولهِ تباركتْ آياتُه: «﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. تلك هي درجةُ الرِّعايةُ والحياطةُ لا يتجاوزها إلى قهرِ النّفسِ ، وجحود الحقّ.
(المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢/ ٤٠).

* ولكنَّ المساواةَ في كلّ تعاليمِ الإسلام لا تقومُ على الإطلاقِ والإرسالِ ، وإنّما تقومُ على عناصرَ متوازنةٍ ، وتراعي القدراتِ الخاصّة التي فَطَر اللهُ عليها كلاً من النّساءِ والرّجالِ ، حتى لا تتضاربَ أحكامُ الشّرع الإلهيّ الحكيم ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢].

* ولذلك نجدُ أنَّ الإسلامَ يراعي في شرائعهِ للمرأة أنواعاً معجزة منها :

١ ـ أنَّ الإسلام قد احترمَ شخصيتها ، فصانَها عن الابتذال والإذلال ، ونشلَها من الإهمالِ ، ووضعَها في مكانةٍ محترمة ، وصارت كريمةً مصونةً ، لها حمايتُها ورعايتُها ، فهي المسؤولةُ عن إدارةِ البيتِ ، وتربيةِ الأولاد ، ولذلك قدَّمَها على الرَّجُلِ حيث يجبُ أنْ تقدّم ، وأخَّرها عنه حيثُ يجبُ أن تُؤخَّر ، وسوّى بينهما فيما يتوازيان فيه ولا يفترقان.

٢ ـ قدَّمها الإسلامُ على الرجلِ فيما يتعلّقُ بحقوقها الشَّخصية : الذّاتيةُ أو الماليةُ ، فلَها الأمرُ في زواجها ، وفي حقّ الانفرادِ بملكيّتها الخاصّة استقلالاً عن الزَّوجِ والأولادِ والأهلِ ، وقدَّمها فيما يتعلّقُ بحضانةِ أولادها الصِّغار ، وكل حكْمٍ من هذا النّوع ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

٣ ـ سوَّى الإسلامُ بينهما في كُلّ ما رجعَ إلى أصلٍ مشتركٍ بينهما، كالتّكليفِ والجزاءِ والمسؤولية والحلالِ والحرام في الأطعمةِ والأشربةِ ونحوهما، والجامع في هذا كلّه قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، فكما ترىٰ أنَّ هذهِ قاعدةُ المساواةِ التي تقومُ على أساسِ مقابلةِ الحقوق بالواجباتِ على سواء ، وعندما كلَّفَ اللهُ الرّجلَ بتكاليفَ زائدة عن المرأة ، قُدِّم عليها من هذا الجانبِ فقط ، قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨].

* وهي درجةُ القوامةِ على البيت بما وجبَ على الرجلِ من مهْرٍ ، ونفقَةٍ ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤].

٤ ـ فرّقَ اللهُ عزَّ وجلَّ بين الرّجال والنّساء حيث تجبُ التّفرقة في حُكْم

الفطرةِ التي فطرَ اللهُ النَّاس عليها ، وفي حكْم العَدْلِ ، فأَخَّرهُنَّ عن الرِّجالِ في قوامةِ البيت ، لأنّهم أقدرُ على حَسْم الأمورِ وتصريفها. وأخّرهُنّ كذلك في إباحةِ التعدّد لأنّ هذا مقتضى طبيعتهنّ ، وفرّقَ بينهما في اللباس وحدودِ العورة ، فأمرهنّ اللهُ بمزيدٍ من التّستّرِ والتَّصوُّن حفاظاً عليهنّ وعلى المجتمع كلّه ، ولهذا فقد أباحَ لهنّ الذهبَ والحريرَ دون الرّجال ، وأسقطَ عنهنَّ فرضَ الجهاد ، لأنَّ هذا من مهمّةِ الرّجال ، وكلّ مخلوقٍ ميسّر لما خُلِقَ له.

* «إنّ أبْطلَ الأشياء دعوى بعضِ النّاس وجهلهم بأنَّ الإسلامَ قد أخّر المرأةَ عن الرجلِ ، أو قدّمه عليها دائماً ، والصّحيحُ الذي ينبغي أنْ نقولَه : إنَّ الإسلامَ وضعَ مصالح الفردِ والمجتمع على أضْبَطِ الموازين ، فجاءت أحكامُهُ على غايةِ الإتقانِ والكمال ، حيثما أطلقَ أو قيّدَ ، أو قدّمَ أو أخّرَ ، ولا عجبَ في هذا ، إذْ إنَّ التشريعَ من لدنْ حكيمٍ خبير ، لذلك قرنَه اللهُ عزَّ وجلَّ بالفطرة ، وسمّاه ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠][(١)]».

٥ ـ أنقذَ الإسلامُ النِّساءَ من أنْ يعتبرن متاعاً يُباعُ ويُشْتَرَىٰ ، وأنقذهنَّ من أساليبِ التَّحقيرِ والضَّغطِ والاضطهادِ ، كما أنَّ الإسلامَ قد أنقذهنَّ منَ الحرمانِ من الحقوقِ ، ومن كونهنَّ جزءاً من الثّروة والميراثِ ، بالإضافة إلى تنوير بصائرهنَّ لمحاسنِ الإسلامِ وتعريفهنّ بمكانتهنَّ الحقيقيةِ في هذهِ الحياةِ ، حتَّى أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : «واللهِ كُنّا في الجاهليةِ لا نعدُّ النِّساءَ شيئاً حتى أنزلَ اللهُ فيهنَّ ما أنزل».

٦ ـ التَّسْويةُ بين الحقوقِ والواجباتِ هو العَدْلُ الذي فرضتْهُ الفَلسَفَةُ القُرآنيةِ للمرأة ، وهو وضْعُ المرأةِ في موضعِها الصَّحيحِ ، من الطَّبيعةِ ، ومن المجتمع ومن الحياةِ الفرديةِ[(٢)].

* * *

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٤٩٩ و٥٥٠) بتصرف.

(٢) انظر : الفلسفةُ القُرآنية (ص ٥١) طبعة دار الكتاب العربي الثَّانية بيروت ١٩٦٩ م.

# الفصلُ الثَّالث
## علومُ النّساء ومعارفُهنّ في الإسلام

* من أهمِّ العُلومِ والمعَارفِ التي وصلتْ إلينا من أهلِ الجاهليةِ: علمُ الأنساب ، والأيّام ، والنُّجوم ، والقيافة والعيافة ، وما شابه ذلك؛ شاعتْ هذه المعارفُ عند كثيرٍ من الرّجالِ ، ولكن هناك بعضُ المعارف شاركت فيها النّساءُ الرجالَ ومنها: الكهانةُ والعرافةُ[1]؛ وقد اشتُهِرتْ جماعةٌ من الكواهنِ والعرّافاتِ في الجاهلية ، ومنهنّ: سلمى الهمدانية ، وطريفةُ الكاهنة ، وعُفيراءُ الكاهنة وغيرهنّ وكان جمهورُ العرب يرى أنَّ النساءَ في الكهانةِ والعرافةِ أعمق ، وأنَّ أخبارهنَّ أصدق ، ورفاقهنَّ من الجنّ أدقُّ وأوثق.

* وتتميزُ الكاهنةُ بالثّقافةِ ، والشَّخصيةِ الذَّكيةِ ، والفكرةِ الثَّاقبة الوقّادةِ ، ولذا كان العربُ يُهْرَعُونَ إلى الكواهنِ من أجلِ معظمِ قضاياهم ، وتقبّلوا ما يقُلْنَ بتصديقٍ كاملٍ.

* وقد لعبت الكاهناتُ دوراً كبيراً في كثيرٍ من العلاقاتِ السِّياسية ، وفي حياة المجتمع الجاهليّ ، لأنّ كثيراً من أمورِ الحربِ والسَّلامِ والودِّ والخصامِ

---

(١) كان هذا العِلْمُ: علمُ الكهانةِ والعرافة ، شائعاً عند العربِ في عصْرِ الجاهليةِ ، وعليه مدارُ فَصْلِ خصوماتهم ومنازعاتهم.
والكَهانةُ: ادّعاءُ علمِ الغيب كالإخبار بما سيقعُ في الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصلُ فيها استراق الجني السَّمع من كلام الملائكةِ فيلقيه في أذنِ الكاهن. وكانت العربُ تسمّي كلَّ مَنْ أخبرَ بشيءٍ قبلَ وقوعهِ كاهناً.

كانت تصدرُ عنهنَّ ، وما رُويَ عن «زَبْراء الكاهنة» ، و«سلمى الهمدانية» لدليلٌ على صحة ما نقول[1]

* ويرتبطُ بالكهانةِ والعرافةِ اللتين اشتُهِرتْ بهما المرأةُ العربيةُ الجاهليةُ المعرفة الطّبيّة؛ فقد كان بعضُ العربِ يعتقدون أنَّ كثيراً من الأمراضِ التي يُصابونَ بها ناجمة عن بعضِ الأرواحِ الشّريرةِ والخبيثةِ التي تتغلْغَلُ في أجسامِ بعض النّاس فتضعفُهم وتمرضُهم ، وما الإصابةُ بالعينِ إلاّ واحدةً منها. والكاهنةُ ـ بزعمهم ـ لها قدرةٌ لطردِ تلكَ الخبائث من الأجسام.

* وفي قولِ أحدِ الشّعراء يخاطبُ عرَّافي اليمامة ونجدٍ دليلٌ على ذلك إذ يقول:

جَعَلْتُ لِعَرّافِ اليَمامةِ حكْمَهُ ... وعرّافِ نجدٍ إنْ هُما شَفَياني

فَمَا تَركَا مِنْ رُقْيةٍ يعلمانها ... ولا سلوةٍ إلاّ بها سقياني

فقالاَ شَفَاك اللهُ واللهِ ما لَنَا ... بما حملتْ منكَ الضّلوع يدانِ

* فالكاهنةُ أو العرّافةُ يمكنُ أنْ نُسمِّيَها «طبيبة نفسيَّة» لأنَّها تستطيعُ ـ بزعم المرضىٰ ـ على إبعادِ الرُّوحِ الشّريرةِ التي تؤذيهم وتؤرّقهم.

* وذكر ابن خلدون في «مقدمته» بأنَّ العرّافين كان في العربِ منهم كثر ، وذكروهم في أشعارهم ، ومن أشهرهم: عرّاف اليمامة ، قال قائلهم:

فقلتُ لعرّافِ اليمامةِ دَاوِني ... فإنَّكَ إنْ داويتني لَطبيبُ

* وكان في نساءِ العرب أيّام الجاهلية من ذواتِ الحصَافةِ والكمالِ عددٌ مشهورٌ لا يُسْتَهانُ به ، ومنهنّ فاطمةُ بنتُ الخُرشُب الأنماريّة ، وهندُ بنتُ الخسّ الإيادية ، وحَذَامِ بنتُ الرّيان ، وصُحَرُ بنتُ لقمان ، والفارعةُ بنتُ أبي الصَّل ، وهندُ بنتُ عتبة ، والخنْساءُ ، وابنةُ الأعشى ، وفاطمةُ بنتُ الأحجم الخزاعية وغيرهنّ كثيرات.

* وعندما جاء الإسلامُ حثَّ جماعةَ النّساء على طلبِ العلْم ، وعظّم العلْمَ والعلماء ، وكان أوّلُ ما نزلَ من القرآن العظيم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ

---

(١) انظر مثلا: بلوغ الأرب (٣/ ٢٨٨ ـ ٢٩١) ، وأيضا (٣/ ٢٩٥ و٢٩٦).

﴿ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] وقال تعالى في فضل العلْم والعلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

* وحثَّت الأحاديثُ النّبويةُ الشّريفة على طلب العلْم، وبيَّنَت الأجْرَ العظيمَ لمن يلتمسه ابتغاءَ مرضاة الله، قال ﷺ من حديث طويل «... ومَنْ سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً، سهَّلَ اللهُ له به طريقاً إلى الجنّة...»[1].

* وتدفّقَتْ أفواجُ المتعلّمات يبتغينَ العلْم من مظَانّه، وكانتْ أمّهاتُ المؤمنين في مقدمة العالمات اللواتي نقلنَ العَلْم عن النّبي ﷺ وعلّمْنَهُ لنساء الصَّحابة ورجالهم رضي الله عنهم أجمعين.

* فقد اهتمَّ الإسلامُ بتعليم المرأة أمورَ دينها، وكان النبيُ ﷺ يجتمعُ بالنّساء ويعلمهنّ مما علّمه اللهُ، وكانتَ نساءُ الأنصار من أكثر النّساء طلَباً للعلمْ فكُنَّ لا يتحرَّجْنَ من التّفقُّه في أمور الدِّين ومعرفة أحكامه، حتى أثنتْ عليهنّ أمّنا عائشة رضي الله عنها فقالت: «نعْمَ النّساءُ نساءَ الأنصار، لا يمنعهنّ الحياءُ أنْ يتفقّهنَ في الدِّين».

* وأمُّنا عائشةُ رضوان الله عليها كانت حجّةً في العلْم والرّواية والأدب، وعنها تلقّى كثيرٌ من الصَّحابة والتّابعين رجالاً ونساءً كثيراً من أمور الدِّين.

* وكانت الشَّفَّاءُ بنتُ عبد الله العَدَويّة من العالمات، فقد روت فقالت: «دخلَ علينا النّبيُ ﷺ وأنا عند حفصةَ فقال لي: «ألا تعلِّمينَ هذه رُقْيَةَ النَّملة كما علمتيها الكتابة؟» وكانت الشّفّاء رضي الله عنها من الكاتبات ومن المبَايعات ومن المهاجرات الأُوَلَ، وكانت من عقلاء النّساء وفضَلائهن، وكان رسولُ الله ﷺ يقيَلُ عندها، واتّخذت له فراشاً وإَزاراً ينامُ فيه[2].

* انتشر الاهتمامُ بطلبِ العلْم، وحفْظِ كتابِ الله بين النّساء في عصْر

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).
(٢) انظر: أسد الغابة (٧/ ١٦٢) بتصرف يسير.

الصَّحابيات ، فهذه أم هشام بنتُ حارثةَ بن النّعمان الأنصارية حفظتْ سورة «ق» مباشرةً من رسولِ الله ﷺ ، تقولُ أمّ هشام فيما أخرجه مسلم عنها: «لقد كان تنّورُنا وتنورُ رسولِ اللهِ ﷺ واحداً ، سنتَيْن أو سنةً وبعضَ سَنَةٍ ، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عَنْ لِسَانِ رسولِ الله ﷺ ، يقرؤُها كلّ يوم جُمعة على المنبر ، إذا خطبَ النّاس»[1].

* وعن طريقِ النّساءِ المُسلمات تعلّم المسلمون وفقهاؤهم كثيراً من العِلْم الشّرعي ، فمثلاً السَّيِّدةُ أمُّ عطيةَ الأنصارية شهدت غُسْلَ زينبَ بنتِ النبي ﷺ ، وروَتْ ذلك فأتقنتِ الرّوايةَ ، وحديثها أصْلٌ في غسْلِ الميت ، وقد أخرجه أصحابُ الكتب السّتّة.

* ومن المطربِ أنَّ النّساءَ المُسلماتِ قد نبغْنَ في مختلفِ العصور ، فكان منهنّ العالماتُ والمحدّثاتُ والفقيهاتُ والأديباتُ والخَطَّاطاتُ والكاتباتُ والشَّاعراتُ وغير ذلك من مختلفِ العلوم.

* فأمُّنا عائشةُ رضي الله عنها جمعَتْ ألوانَ العلوم ونبغَتْ في كثيرٍ من معارفِ عصرها ، حتى قال بشأنِها ابنُ أختِها عروةُ بنُ الزُّبير: «ما رأيتُ أحداً أعْلَم بشعْرٍ ولا فريضةٍ ، ولا أعْلَمَ بفقْهٍ من عائشة».

* وكانت ابنةُ سعيدِ بنِ المسيب رحمه الله من عالماتِ عَصْرها ، وتزوَّجها أحدُ تلامذة أبيها ، ولما أصبحَ أخذَ ملابسه ، وأرادَ أنْ يخرجَ إلى مجلسِ والدها فقالت له زوجتُه: «إلى أين تريدُ أنْ تذهبَ»؟

قال: «إلى مجلسِ أبيك أتعلّمُ العِلْم».

فقالت له: «اجلسْ أعلّمك».

* أما ابنةُ الإمامِ مالك فكانت تصحّح الغَلطَ لطلّاب العلم عند أبيها ، فقد كان الإمامُ مالك رحمه الله يُقْرَأُ عليه الموطأ ، فإذا لَحنَ القارىءُ في حرفٍ ، أو

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٧٣) ، ومعنى قول أم هشام: «كان تنّورنا وتنّور رسول الله ﷺ واحداً» إشارة إلى حفظها ، ومعرفتها بأحوال النبي ﷺ ، وقربها من منزله؛ وستأتي ترجمة أم هشام موسَّعَةً في الباب الثالث من هذا الكتاب بإذن الله.

زادَ ، أو نقصَ ، تدقُّ ابنته البابَ ، فيقول أبوها للقارىء: «ارجعْ فالغَلَطُ معك» ، فيرجعُ القارىء فيجدُ الغَلَط.

* وكانتِ السيدةُ فاطمةُ بنتُ الشّيخِ علاءِ الدِّين السّمرقنديِّ الفقيهِ الحنفيِّ صاحب كتاب «تحفة الفقهاء» عالمةً جليلةً وفقيهةً مرموقةً ، تزوجها تلميذُ أبيها علاء الدين الكاساني صاحب «البدائع» فكانت الفتوى تأتي وتخرجُ وعليها خطّها وخطّ أبيها.

* والقَصَصُ في هذا المجالِ كثيرةٌ تملأُ الصَّفحات ، وتدلُّ على ما جاءَ به الإسلام في شأن تعليم النّساء، وصيانتهنّ، حتى بلغْنَ قمَّةَ الفضلِ في هذا المجال.

* ونرجو أنْ تستفيدَ النّساءُ المعاصراتُ من السَّابقات اللواتي تركْنَ أجملَ الآثار في دنيا النِّساء وفي دنيا العلْم ، ولا يركنَّ إلى الحريّات المزعومةِ والحضَاراتِ المجلُوبةِ التي تحطّ من شانهنّ ، وتجعلهنّ صِفراً على الشّمال ، أو ألعوبة في أيدي العابثين.

* فليس كلُّ ما جاءت بهِ الحضارةُ الغربيّة والغريبةُ صالحاً للنّساء ، ومناسباً لحياتهنّ وأمورهنَّ ، وربما كان ذلك من أضرّ الأشياء عليهنّ ، حتى إنَّ الغربيّين شَعَروا بهذا الضَّرر الواضحِ الذي حاقَ بالنّساءِ المُعاصِرات وطوّقهنَّ بالوهمِ والخللِ ، يقولُ الدكتور «الكسيس كاريل» ناعياً على المجتمعاتِ المعاصرة ما ذهبتْ إليه من تنحيةِ النّساء عن دورهنّ الحقيقي: «لقد ارتكبَ المجتمعُ العصريُ غلطةً جسيمةً لاستبدالهِ بتدريب الأسرةِ المدرسة استبدالاً تاماً ، ولهذا تتركُ الأمهاتُ أطفالَهنَّ لِدُورِ الحضانةِ حتى يستطعنَ الانصرافَ إلى أعمالهنّ ، أو مطامعهنَّ الاجتماعية ، أومباذلهنَّ ، أو هوايتهنَّ الأدبيةَ ، أو الفنية ، أو لممارسة لعبة ما ، أو ارتياد دُور السّينما ، وهكذا يُضِعْن أوقاتهنَّ ، إنهنَّ مسؤولاتٌ عن اختفاءِ وحدةِ الأسرة واجتماعها التي يتّصلُ فيها الطّفلُ بالكبار ، فيتعلّم منهنّ أموراً كثيرة»[1].

* أليسَ في هذا بلاغاً لكلِّ مَنْ تَتطلّعُ إلى حضارةِ الغربياتِ ذات البريق

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (ص ٣٠٥) بتصرف يسير.

والضّجيج الظّاهر ، ولكنَّها في الواقع فارغة كالطَّبل ، ولا خيرَ فيها ، وإذا كانت المرأةُ الغربيةُ تودُّ أنْ تعيشَ كما تعيشُ المسلمةُ المشرقيةُ؛ فلماذا تودّ كثيرات أنْ يعشْنَ على الأوهامِ والمظاهر ولا يجنينَ في النّهاية سوى الخسران؟! .

* * *

## الفصلُ الرّابعُ
## السَّابقاتُ إلى الإسلام

* لما بلغَ رسولُ اللهِ ﷺ الأربعين من عمره الشّريف المبارك نبّأه اللهُ عزَّ وجلَّ وأوحى إليه ، وكان أوّلُ مَنْ آمن بهِ من النّساء ، بل أوّلُ من آمن به على الإطلاق زوجُه السّيدةُ خديجةُ بنتُ خويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* وكان من الطّبيعيّ والمنطقيّ ، ومن الحكمةِ والحَصَافَةِ أنْ يعرضَ النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ أوّلاً على ألصقِ النّاس به فكانت خديجةُ رضي الله عنها .

* كان موقفُ خديجةَ من النّبيّ ﷺ أشرفَ موقفٍ لامرأةٍ في الأوّلين والآخرين ؛ ويتجلّى هذا الشرفُ الوافي منذ البداياتِ الأولىٰ لنزولِ الوحي ، إذ طمْأَنتِ النّبيَ ﷺ ، وذكَّرتْه بما فيه من فضائلَ ، مؤكّدةً له أنَّ الأبرارَ أمثاله لا يُخْذَلون أبداً ، وهم أصحابُ المكارمِ وسَادَةُ السَّادات .

* من هذهِ النَّفحاتِ العطرة ، وبمثلِ هذه المواقفِ الكريمةِ ، استحقّتْ خديجةُ رضي الله عنها أنْ تكونَ الأولى في مضمارِ الفضَائل ، فكانت أوّل مَنْ صلّى بعدَ رسولِ الله ﷺ ؛ قال ابنُ سَعْدٍ : «اجتمعَ أصحابُنَا على أنَّ أوّلَ أهلِ القبلَةِ استجابَ لرسولِ اللهِ ﷺ ، خديجةُ بنتُ خويلد» ، وعلّق النّووي رحمه الله على هذا القول : «إنّه الصّوابُ عند جماعةِ المحقّقين» .

* وإذا كان الحديثُ عن السَّيِّدة خديجة من مشْهورِ القَول إلاّ أنّه من الأهميةِ بمكان أنْ نشيرَ إلى بعضِ النّقاطِ المهمّة في شخصيّتها المتميزةِ عن غيرِها من النّساءِ المسلماتِ في عَصْرِها .

* فقد كانت السيدةُ خديجةُ ذاتَ عقْلٍ رصينٍ تدركُ ما يجري حولَها من أمورٍ ، وتعي ما تسمعُ من أنباء عن قربِ مبعثِ نبي منتظر ، وهذا ما جعلَها تترجمُ ما ذكرَ لها النّبيُ ﷺ من أمْرِ الوحي والرّسالةِ ، وثبتَتْ ثباتَ العاقلات المُطمئنّات ، في ظرفٍ مهمٍّ وحَرِجٍ بحيث لو كانت امرأةٌ غيرها لاضطربتْ في تفكيرِها وموقفها ، ولكنَّ خديجةَ قرنَتِ القَولَ بالفعْلِ وقالتْ للحبيبِ المصطفى ﷺ كلاماً يحملُ كلّ آفاق المعرفةِ الكاملةِ ، وينضحُ بأنوارِ اليقين وبدأته بلفظ «أَبْشِرْ» ثم أردفتها بلفظ يُوحي بالاطمئنان فقالت: «يا بن العمّ» ، وهذه البدايةُ المونقةُ كافيةٌ لمعرفةِ النّهاية المثمرة.

* كانت البدايةُ بالبُشرىٰ ، وذِكر الرّحم بأرقّ لفظ يصدرُ عن امرأةٍ عاقلةٍ حصيفةٍ محبّة؛ وأما النّهاية فإنّها وصفته ﷺ بأصول مكارم الأخلاق ومحاسنها.

* وكانت السّيدةُ خديجةُ رضوان الله عليها تمكثُ معه أحياناً في غارِ حراء في العامِ الذي أكرمَهُ فيه الله عزّ وجلّ بالنّبوة ، فقد جاء في الصّحيح وغيره أنّها كانت تحملُ له ﷺ الطّعام في إناء ، وتصعدُ إلى غارِ حراء ، ومرّةً جاء جبريلُ عليه السّلام إلى النّبي ﷺ وأخبره بأنّ خديجةَ قادمةٌ تحملُ طعاماً ، وأمره بأنْ يُقرِئها السّلام من الله ، مع البشارةِ ببيتٍ في الجنّة من اللؤلؤ المجوّفِ الواسعِ وهذا البيتُ هادىءٌ لا صخبَ فيه ولا تعب ولا ما يؤذي صاحبه.

* ولما أنْ وافَتْه خديجةُ أبلغَها رسالةَ جبريل المنقولة عن ربّ العالمين ، فأجابَتْ إجابةَ أهلِ اليقين العارفين: «اللهُ السّلامُ ، ومن اللهِ السّلام ، وعلى جبريل السّلام».

* لقد كانت خديجةُ بقربهِ ﷺ حينما بلّغَها السّلام من ربّ العالمين ، بل كانتْ تجاورُ معه في شَهْرِ رمضانَ من كلّ سَنَةٍ كما جاء في بعضِ المصادر ، فقد ذكر المقريزيُّ هذا فقال: «تحنّثَ النّبي ﷺ ومعه زوجتُه خديجة»[1] . وقبله ذكر

(١) إمتاع الأسماع (١/ ١٢) ، وذكرَ الزّركشي في «الإجابة» أفضليةَ أمّ المؤمنينِ خديجة رضي الله عنها ، وسلامَ اللهِ عليها بواسطة جبريل فقال: «واحتجَّ مَنْ فضّل خديجة ـ يعني على أمّهات المؤمنين ـ بأنّها أوّلُ النّاسِ إسلاماً ، كما نقل الثّعلبيُ الإجماعَ عليه ، وبأنَّ لها تأثيراً في أوّلِ=

ابنُ إسحاقَ في السّيرةِ في معرضِ حديثهِ عن المبْعَثِ فقال: «فكان رسولُ اللهِ ﷺ يجاورُ ذلك الشَّهر من كلّ سَنَةٍ. . . . . حتى إذا كان الشّهرُ الذي أرادَ اللهُ تعالى به ما أرادَ من كرامتهِ، من السَّنَةِ التي بعَثهُ اللهُ تعالى فيها، وذلك الشّهرُ شَهْر رمضان، خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى حراءَ كما كان يخرجُ لجوارهِ ومعه أهله. . . .»[1].

* وكان لخديجةَ عدةُ مواقفَ تنبىءُ عن إيمانها العميق، وعن أثرِها الرَّفيقِ في شخصيّةِ النَّبيّ ﷺ وهو يجابهُ أعمدةَ الشّرك وطُغَاتِهم، فكان لا يسمعُ شيئاً ممّا يكرهه مِنْ ردٍ أو تكذيبٍ له، فيحزنه ذلك، إلا فَرّجَ اللهُ عنه بها إذا رجعَ إليها، تثبّتُه وتخفّفُ عنه، وتصدقُه، ثمّ تهوّنُ عليه أمْرَ النّاس[2]، وتأخذهُ

= الإسلامِ، وكانت تسلّي رسولَ اللهِ ﷺ، وتبذلُ دونه ما لها، فأدركتْ غرَّةَ الإسلام، واحتملتْ الأذى في اللهِ ورسولهِ، وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظمِ أوقاتِ الحاجةِ، فَلَها مِنْ ذلكَ ما ليس لغيرها، قال أبو بكر بن داود: ولأنَّ عائشةَ أقرأهَا رسولُ اللهِ ﷺ من جبريل؛ وخديجةَ أقرأها جبريلُ السَّلامَ من ربِّها على لسانِ محمدٍ ﷺ فهي أفضل». (الإجابة ص ٦٤).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٠٠) بشرح أبي ذر الخشني.

(٢) لعبد الله عفيفي كلمات جميلة عن حصافةِ المرأةِ المسلمة عموماً، ومنها قوله: «للمرأةِ منْ دقّةِ الحسِّ، وقوة العاطفة، وبُعْدِ الخيَال فوق ما للرَّجُلِ، فهي لا تبرحُ الدَّهرَ بين خاطرٍ مُتوثّبٍ، ووجدانٍ متأثّرٍ، لا تكادُ تسمعُ خبراً، أو تلمحُ منظراً، أو تطيفُ بها ذكرى، حتّى ينالَ ذلك منْ أعماقِ نفسها، وأسرارِ وجهها، وشؤونِ عينيها. . . . ذلك خَلْقُ المرأةِ، وتلك شيمتها، فطرة طيبة وسريرةٌ صافيةٌ، وقلبٌ دائمُ الخفقانِ.

إنّ مِثْلَ تلك الطَّبائع المستكنّة في نفسِ المرأةِ إنْ وُفّقَتْ إلى من يتعاهدها، ويصلحُ نهجَها، ويزيل العوائق من دونها، كانت سبيل الكمالِ المطلقِ، والخيرَ الصّريحَ في الأمم. .

والدِّينُ وحده هو الكفيل بذلك، فالمرأةُ بِمالَها من انفساح مدى التّصوّر، وقوة سلطان العاطفة، تتمثّلُ عظمةَ اللهِ بأكثرَ مما يتمثّلُ الرّجل، وتستشعرُ حبّه والخوف منه بأشدّ مما يستشعر.

إنَّ إيمانَ المرأةِ إيمانٌ لا مثَارَ فيهِ للرِّيَبِ، ولا مجالَ للشُّبهاتِ، فهي لا تعتصمُ بالتّأويل، ولا تفزعُ إلى الحيلةِ. . . . . فإذا أُشْرِبتِ الإيمان منذ أولِ عهدها، ولُدُونةِ عودها، وجَدتِ اللهَ ملءَ سمعها، وبصرها، وقلبها، وسريرتها، فلا تشعرُ إلاّ به، ولا تعملُ إلاّ له، ولا تقدِمُ على ما عساه يغضبه، ويستنزلُ سخطه.

إنَّ تصديقَ المرأةِ تصديقٌ وثيقٌ عميقٌ، فهي لا تحاولُ ـ كما يحاولُ الرجل ـ تطبيقَ أمورِ الدّينِ=

إلى مصدرٍ موثوقٍ لتؤكّدَ له صِدْقَ الرّسالةِ التي يحملُها.

* والآن يستوقفُنا سؤالٌ مفادهُ: ما دورُ المُسلماتِ السَّابقات في ميدانِ الدّعوة؟! وكيف أسْلَمْن واستجبْنَ للإيمانِ باللهِ أوّلَ الأمْر؟

* لا ريبَ في أنَّ المُسْلماتِ الأُوَل تحملْنَ كثيراً من المصَائبِ بعد اعتناقِهنّ الإسلام، فقد حدثَ لهنّ من التّعذيبِ والتّشريدِ والتّهجير، والقَتْل ما يجعل تاريخهنّ مرسوماً بالتضحيات، ويؤكّدُ بأنَّ لديهنَّ عقيدةً راسخةً رصينةً، وعقولاً صافيةً، وضمائرَ لا تخضعُ لأي ضغْطٍ مهما كان نوعُهُ.

* ومن الرَّوائعِ في تاريخهنّ النّاصع أنّ كثيراتٍ من هؤلاء النّساء سبقْنَ آباءَهنّ وأزواجهنّ وأقاربهنّ إلى دوحةِ الإسلام وظلاله، فقد أسلمنَ دون أنْ يلتزمنَ بأماراتِ التّقليد والتّبعية الفكريّةِ لعقائد قريش، أسلمنَ إسلام مَنْ يمتلكُ حريّةَ التّفكير السَّليم، فقادهُنَّ ذلك إلى شاطىء الأمان.

* وتعالَ ـ عزيزي القارىء ـ أعرضُ عليكَ صُوراً لهؤلاءِ النّساء اللواتي سبقْنَ الرّجال عن عقْلٍ ورويةٍ، سبقْن الرّجالَ إلى الحقّ المبين، وكُنَ مُجلياتٍ، ورسمَ التّاريخُ إسلامهنّ ليكُنَّ قدوةً للنّساء.

* فهذه زينبُ بنتُ النبي ﷺ قد سبقَتْ زوجَها أبا العاص بنَ الرّبيع إلى الإسلامِ بأكثرَ من خمسةَ عشر عاماً، قال ابنُ سعد: «أسلمتْ زينبُ وأبى أبو العاص أنْ يسلمَ»، ثمَّ مَنَّ اللهُ عليه بالإسلام فأسلم، وردَّ النّبيُ ﷺ زوجته زينبَ بالنّكاح الأوّل.

* وهذه السَّيدةُ الحسيبةُ النّسيبةُ أمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سُفيانَ، تزوّجَها عُبيد الله بنُ جحش، وهاجرا معاً إلى أرضِ الحبشَة في الهجرةِ الثَّانية، فتنصَّرَ

---

= جليلها ودقيقها على عقلها، وفي الدِّينِ أشياء لا تنالُها العُقُول إلاّ إذا رسخت حكمتُها، ورجحت كفّتُها، واتّسعتْ رقعتُها، وأينَ للنَّاسِ جميعاً أنْ يكونوا كذلك»؟

(المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢/ ٥ ـ ٧) بتصرف واختصار.

أقولُ: «وقد جمعت أُمُنا خديخة رضي الله عنها كل خصائل العقل وحصائل المعرفة بسيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ فكانتْ من الكواملِ رضي الله عنها وأرضاها وحشرنا في معيشتها».

هناك وارتدَّ عن الإسلام ، وماتَ بالحبشةِ مكّباً على مُعاقرةِ الخمرِ مرتداً؛ ومع مرورِ هذه الأحداث العصيبةِ الأَليمةِ بأمّ حبيبةَ ظلتْ ثابتةً على دِينها وهجرتها وعَبَدتِ اللهَ عزَّ وجلّ ولمْ تحفلْ بارتدادِ زوجِها عن دينهِ ، بل إنَّها لم تحفلْ قبله بِسُلْطَانِ أبيها أبي سفيان وغطرسته ، وخالفَتْه ، واتّبعتْ دينَ اللهِ وما نزلَ من الحقّ وكُتبتْ في ديوانِ السَّابقات السَّعيدات.

* وهل أتاكَ حديثُ أمِّ الفَضْل بنتِ الحارث الهلاليّة؟! لقد سبقتْ أمُّ الفضلِ هذه زوجَها العبّاسَ بنَ عبد المطلب بزمنٍ طويلٍ حتّى منَّ اللهُ عليه بالإسلام قُبيل فتح مكة فكان من زمرة السعداء رضي الله عنه وأرضاه.

* وأما قصّةُ فاطمةَ بنتِ الخطاب فليسَتْ خافيةً على كُلّ مطّلعٍ في السّيرة النَّبويةِ ، فقد سبقت هذه المسلمةُ العاقلةُ أخاها عمرَ إلى الدَّوحةِ الإيمانيةِ الباسقةِ بمدةٍ طويلةٍ ، قال ابنُ حجر رحمه الله: «كان إسلامُ عمرَ متأخّراً عن إسلامِ أختهِ فاطمةَ وزوجها ، لأنّ أولَ الباعث له على دخولهِ في الإسلام ما سمعَ في بيتها مِنَ القُرآن»[1] وقصّةُ إسلامِ عمرَ مشهورةٌ متعالمَةٌ بين النَّاسِ ؛ وقَلَّ مَنْ لا يعرفُها ، بل إنّ أكثر من تسعين بالمئةِ من النَّاس يعرفُ تفاصيلها ، ويعرف أنَّ السَّبَبَ في إسلامه هو أختُه فاطمةُ التي سبقَتْه إلى هذا المجدِ المؤثّل.

* وسبقتِ الصَّحابيةُ الفاضلةُ أمُّ كلثوم بنتُ عقبةَ جميعَ أهلِها إلى دوحةِ الإسلام ، وكانَتْ ممن خرجَ إلى النّبي ﷺ بعد الحُديبية ، قال ابنُ سعد: «لم نعلمْ قرشيةً خرجَتْ من بين أبويها مهاجرةً إلى اللهِ ورسوله إلاّ أمّ كلثوم بنت عقبة».

* هذه بعضُ صور السَّابقات في مكّةَ ، فهل كانتِ المُسلماتُ السَّابقاتُ في المدينةِ المنورة يلقينَ الأذى في سبيل سبقهنّ إلى الإسلام؟!

* في البدايةِ تبرزُ صورة الصّحابيةُ الجليلةُ أمّ سُليم بنتُ مِلْحان الأنصارية ، فأمُّ سُلَيم هذه من أوائل السّابقات إلى الإسلام ، وكان إسلامُها مثيراً لزوجها

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٢٤).

المُشْرك مالكِ بن النَّضْر الذي أحزنه ذلك، فحاولَ أنْ يثنيَها عن إسلامها ، لكنّه لم يفلحْ وباء بالفَشَل، فخرجَ إلى الشَّام فلقيَ حتْفَه بها وكان كأَمْسِ الدابر . فتقدّمَ لخطبتِها أبو طلحة زيدُ بنُ سهل الأنصاريّ النّجّاري ، وكان إذ ذاك مُشْرِكاً ، فحاورته وبيّنَتْ له مساوىءَ الشّركِ وصفاقةَ مَنْ يعبدُ الأوثان ، ثمَّ أخذتْ به إلى يَنْبوعِ الحقّ ومنهل الوداد ، وقالت له: «إنْ أسلمتَ فإنّي لا أريدُ منك صَدَاقاً غيره» فأسلمَ بعد أنْ عرفَ أنّه كان مِنَ الأصنامِ في غُرورٍ ، وكان من أكثرِ الأنصارِ مالاً مِنْ نَخْلِهِ في المدينةِ؛ قال ثابتُ البُناني رحمه الله عن إسلامه ومَهْره لأمّ سُليم: «فما سمعتُ بامرأةٍ قطّ كانت أكرم مهراً من أمّ سُليم: الإسلام».

* ومن الواضح فيما أوردناه من قَصَصِ المسلمات السّابقات ، أنَّ المسلمةَ الأولى من نساءِ الصَّحابة قد فهمت أنَّ الخطابَ الرّباني بالدّينِ ومسؤولياته ليس مقصوراً على الرَّجلِ وحده ، وإنّما هو خطابٌ موجَّهٌ إلى المرأةِ مع الرّجلِ ، فالمرأةُ مسؤولةٌ أمامَ اللهِ عزّ وجلّ مسؤوليةً خاصّةً مستقلةً عن مسؤوليّةِ الرّجل إزاء الإسلام؛ وقد دلّتِ النّصوصُ القرآنيةُ على ذلك الأمر بشكلٍ قاطعٍ ، وواضحٍ وجاءت سورةٌ كاملةٌ باسم سورة النّساء ، وأخرى تتعلّقُ بأحكامِ الطَّلاق وثالثة بالتّحريم. . .

* وأمّا الخطابُ النَّبويُ لهنّ على ذلك ، فلا يقلّ أهميّة عن الخِطَابِ القُرآني ، وهذا ما أكّدَ عليه ابنُ حَزْم في «الإحكام» إذ نجده يقولُ موضّحاً الخطابَ الرّباني للجنسَيْن: «لما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مبعوثاً إلى الرّجالِ والنّساءِ بَعْثاً مُستوياً ، وكان خطابُ اللهِ تعالى ، وخطابُ نبيّه خطاباً واحداً ، لم يجزْ أنْ يخصَّ بشيءٍ مِنْ ذلك الرّجال دون النّساء إلا بنصّ أو إجماع ، لأنَّ ذلك تخصيصٌ للظّاهرِ ، وهذا غيرُ جائز»[1].

* * *

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٣/ ٣٣٧).

## الفصل الخامس

## دَوْرُ السّابقات في مرحلة الدَّعوة بمكَّة

* قُلنا: «إنّ السّابقاتِ هنَّ اللاتي آمَنَّ مِنْ قبلُ ولم يتأخرْ إسلامهنَّ وكُنَّ منَ المُسارعات إلى دوحةِ الإيمان مبكّرات».

* وتظهرُ في القائمةِ الأولى للسّابقات خديجةُ وبناتُها رضي الله عنهنّ، إذ إنّ اللهَ عزّ وجلّ لما أكرم محمّداً ﷺ بالنّبوة، آمنت به خديجةُ وبناتُه، فصدقْنَهُ وشهدْنَ أنَّ ما جاء به هو الحقُّ، وكانتْ بناتُ النَّبي ﷺ الأربع موجوداتٍ عند البعثة، قال ابنُ إسحاق: «وأما بناتُه ﷺ فكلُهُنّ أدركْنَ الإسلامَ فأسلمْنَ وهاجرن»[1].

* إنَّ أهلَ بيتِ النَّبي ﷺ آمنوا قبل كلّ أحد؛ وآمنت معهنّ السّيدةُ بركةُ بنتُ ثعلبة أمّ أيمن زوجة زيد بن حارثة، وأسلمتْ كذلك السّيدةُ النّجيبةُ أمُّ الفَضْل زوجةُ العبّاس بن عبد المطلب، قال ابنُ سَعْدٍ: «وأوّلُ مَنْ أسلم من النّساء بعد خديجةَ، أمّ الفَضْل زوج العباس».

* وقد حفلتِ المصادرُ المتنوعَةُ بذكْرِ عددٍ من الصَّحابياتِ اللواتي سبقْنَ إلى الإسلام منذ أنْ طلعتْ شمسُهُ على مكَّةَ، ويمكن أنْ نذكرَ أسماءَ بعضهنَّ في هذا المقامِ ممن خَفَقَتْ قلوبُهنّ بالإسلام، وكان لهنّ من جلالِ الحكمةِ،

(١) السيرة النبوية (١/ ١٤٧). واقرأ سيرة بنات النَّبيِّ ﷺ في موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوءِ القرآنِ والحديث» ففي سيرتهنّ إمتاعٌ للأسماع وصقْلٌ للطّباع.

وبُعْدَ الرأي ، وزكاء الحسَبِ ما عزَّ على بعضِ الرّجال .

* فممن كُنّ سابقاتٍ إلى الإسلام :

١ ـ أميمةُ بنتُ خَلَف الخزاعيّة زوجة خالد بن سعيد بن العاص .

٢ ـ أسماءُ بنتُ أبي بكر الصّدّيق ذات النّطاقين .

٣ ـ أمُّ المؤمنين عائشة الصّدِّيقة بنة الصِّدِّيق .

٤ ـ أمُّ المؤمنين أمّ سلمة المخزوميَّة .

٥ ـ أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة بنةُ أبي سفيان الأمويَّة .

٦ ـ فاطمةُ بنتُ الخطَّاب .

٧ ـ أسماءُ بنتُ عميس .

٨ ـ فاطمةُ بنتُ المجلل .

٩ ـ فكيهةُ وأختها بركةُ ابنتا يسار .

١٠ ـ رملةُ بنتُ أبي عوف .

١١ ـ سهلةُ وأختها أمُّ كلثوم ابنتا سُهيل بن عمرو .

١٢ ـ ليلى بنتُ أبي حثمة القرشيّة العدويَّة .

١٣ ـ فاطمةُ بنتُ صفوان بن أميّةَ .

١٤ ـ أمُّ حرملةَ خولةُ بنتُ الأسود .

١٥ ـ ريطةُ بنتُ الحارث .

١٦ ـ حسنَةُ أمُّ شُرحبيل بن حسنة .

١٧ ـ فهيرةُ أمّ عامر بن فهيرة .

١٨ ـ أمُّ المؤمنين سودةُ بنتُ زمعة .

١٩ ـ آمنةُ بنتُ قيس .

٢٠ ـ أمُّ رومان زوجةُ أبي بكر وأمُّ عائشة .

* وأسلمَ من موالي النّساء:

١ ـ سُميةُ بنتُ خُبَّاط أمُّ عمّار بن ياسر.

٢ ـ أمُّ عبيس.

٣ ـ زنّيرة.

٤ ـ النّهديةُ وابنتُها.

٥ ـ جاريةُ بني المؤمل.

٦ ـ حمامةُ أمّ بلال.

* إنَّ من ينظر إلى قائمةِ هؤلاء السَّابقات يجدْ أنهنّ ينحدرْنَ منْ مُعْظَمِ قبائل قريش وعُليا بيوتها، ففيهنّ من بني هاشِمٍ، وفيهنّ من الأمويّات، والعدويّات، والعامريّات، وفيهنّ من غرائبِ نساءِ العرب من مثل: أسماءُ بنتُ عُميس الخثعميّة، وأمُّ رومَانَ، ولُبابةُ بنتُ الحارث، ولاحظنا أيضاً أنَّ فيهنَّ من نساء الموالي ومستضعفيهنَّ.

* إنَّ المتتبّعَ لأسماءِ المُسلماتِ قديماً والسّابقاتِ إلى الإسلام يجد أنهنّ مِنْ أعزّ بيوت قريش حَسَباً ونسَباً، وهذا يجعلُنا نقفُ وقفةَ تأمُّلٍ أمامَ ما شَاعَ منْ أنَّ الذين تابعوا النّبيَّ ﷺ هُمْ مِنَ الأحداثِ والكهول وضَعفةِ النّاس ومواليهم.

* إنّ الحقيقةَ التّاريخيةَ تنفي ما وردَ من أنَّ الضّعاف همُ الأتباعُ للدَّعوةِ المحمدّيةِ، فقد بلغَ عددُ الحرائرِ من المُسلماتِ السَّابقات إلى الإسلام في مرحلةِ الدَّعوةِ السّرية عشرين صحابيةً أو ما يزيدُ قليلاً، في حين أنّ عددَ موالي النّساء لم يتعدَّ سبع نساء.

* وقسْ على ذلك أعداد السَّابقين من الرّجال، فقد كان السَّابقون قرابةَ ثلاثة وستين رجلاً، بينهم ثلاثةَ عشَر ممن هم منَ الموالي والفُقَراءِ والأرقّاء والمستضعفين والأَخْلاَط من مختلفِ الأعاجم، إذن فهؤلاء لا يَتَعَدَّوْن خُمْسَ المجموعِ من الجنْسَيْن، ولذا فلا يصحُّ أنْ نقولَ: «إنَّ أكثرهم من المسلمين أو

معظمَهم أو عامتهم ، فالإسلامُ ليس دعوة طبقية ، بل هو حاجةٌ إنسانيةٌ لجميعِ النّاس: قويُّهم وضعيفُهم».

* المهمُّ أنّ هؤلاء النّساء أسلمنَ سِرّاً بادىء الأمر ، وكان الرّجالُ قد أسلموا سرّاً أيضاً ، وكان النّبيُّ ﷺ يجتمعُ بهم ، ويرشدهُم إلى الإسلام ، مستخفياً ، لأنَّ الدعوةَ كانت لا تزالُ فرديةً وسريةً. ونستدلُّ على هذا ما جاء عن سعيدِ بنِ زيد رضي الله عنه إذ يقول: «استخفينا بالإسلامِ سنةً ما نصلّي إلاّ في بيتٍ مغلَقٍ ، أو في شِعْبٍ خَالٍ ينظرُ بعضُنَا لبعضٍ»[1].

* ومن اللافتِ للنّظر أنَّ معظمَ الشَّباب الذين أسلموا في مكّةَ في المرحلةِ المبكّرةِ أسلمَتْ معهم زوجاتهم ، وعشْنَ المرحلة السّريّة في هدوءٍ دون أن يدريَ بإسلامهنّ أحدٌ أو يفطن أهلوهنّ لذلك ، فحافظْنَ على السِّرِّ وكَتَمْنَه دون أن يُسْمعَ شيءٌ عن إفشائِهنّ له ، لأنّ وعيهنَّ كان كافياً لكي يبعدهنّ عن كلّ شكٍّ من الآخرين وممَّن حولهنّ.

* وفَشَت أنباء الإسلامِ فيما بعد بين القُرشيين ، فلم يعرْهَا أحدٌ بالاً ، وإنّما ظنّوا أنَّ هذا الدّين من محمّدٍ ﷺ أمرٌ عارض سيزولُ ويتلاشىٰ ، ولكنَّ الأمرَ كان غير ذلك ، فقد كثُرَ عددُ المبايعين والمبايعات لرسولِ اللهِ ﷺ ، وبلغَ عددُ المسلمين والمُسلمات ما يقربُ من أربعين بعد ثلاث سنين تقريباً لبدءِ الوحي ، وهذا العددُ قليلٌ بالنّسبةِ لعددِ أهلِ مكّةَ آنذاك ، ولكنّه يبشّرُ بخير وأمَلٍ ونجاح.

* وإذا ما ألقينا نظرةً إلى النِّساءِ السَّابقاتِ في تلك الفترة ألفينا أنَّ بعضهنَّ أخذن يعملنَ على نشْرِ الدَّعوةِ ، خذ مثلاً أمّ شريك فقد أسلَمَتْ ، ثم أخذَتْ تدخلُ على بعضِ نساء قريش سِرّاً فتدعوهنّ إلى الإسلامِ وترغبُهنّ فيه وتبيّن محاسنه ، وبعد مدةٍ ظهرَ أمرها لأهلِ مكّة ، فأخذوها وقالوا لها: «يا هذهِ لولا قومُكِ لفعلْنَا بك وفعلْنَا ، ولكنّا سنردُّكِ إليهم».

* إننا نرى أنَّ المسلمةَ السَّابقةَ لم تقفْ لتؤديَ أمورَ العِباداتِ فحسَبْ ، وإنّما علمتْ أنَّها ذاتُ مسؤوليةٍ عامة ، فهي مسؤولةٌ عن الدَّعْوةِ إلى الإسلام ،

(١) أنساب الأشراف (١/ ١١٦).

فقامت تدعو في الحدودِ والإمكانات المفسوحة لها وقتذاك ، في المرحلة السِّرية[1] .

* ولكنْ هل كان للمرأةِ المُسلمةِ السَّابقةِ دورٌ في مرحلةِ الجهر بالدعوة؟!

* كلّنا يعرفُ أنَّ الله عزّ وجلّ قد أمرَ نبيّه محمداً ﷺ أنْ يجهرَ بالدّعوة بعد مبعثهِ بثلاث سنين عدداً ، وأنْ يفاتحَ النّاس جهرةً بأمْر الإسلام ، قال اللهُ تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٣] وقال: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

* أعلنَ النَّبيُّ ﷺ الدَّعوة إلى الله عزّ وجلّ ممتثلاً الأمْر الرّباني الجليل ، وعندئذٍ ظهرَ من قريشٍ والأقربين غيرُ المتوقّع ، إذ نابذته قريشُ ، ورموه بالبُهتان ، وجاهروا في عداوتِهِ وأظهروا له البغْضَاءَ ، وآذَوه وآذوا مَنِ اتَّبعه بكلِّ ما يقدرون من الأذى ، ولكنّه ﷺ ظلَّ قائماً يدعو إلى اللهِ أتمّ قيام ، يدعو الصَّغيرَ والكبيرَ ، والحرّ والعبدَ ، والرّجالَ والنساء.

* وظهرتِ الدعوةُ إلى النّساءِ واضحةَ المعَالمِ في دعوته ﷺ فقال: «. . . . يا صفيّةُ عمّة رسولِ الله ، لا أُغني عنكِ من اللهِ شيئاً ، ويا فاطمةُ بنت رسول الله ، سليني بما شئتِ ، لا أغني عنك من اللهِ شيئاً»[2] .

* ففي تخصيصهِ ﷺ فاطمةَ رضي الله عنها من بين بناتِه مع أنَّها أصغرهنّ ، وتخصيصه صفيّة رضي الله عنها من بين عماته حكمة لا تخفى؛ فلقد ذكرَ الصّغيرات ليشملَ الأمرُ الكبيرات بطريقِ الأولى ، ولقد خصَّ ﷺ أقربَ النّاس إليه نساء إذ إنَّ مسؤوليةَ غيرهنّ تتقررُ بطريقِ الأولى ، وهذه الدّعوةُ أيضاً لم يغبْ عنها الرّجال الأقربون.

* لقد كانتِ الدَّعوةُ النَّبويّةُ في النِّساءِ والرِّجالِ عند أوّل إنذارٍ جهري

---

(١) من هذا المبدأ نجدُ أنَّ دينَ المرأةِ المسلمةِ أكثرُ وضَحاً ، وأوضحُ سَناً ، وأرسخُ أصولاً ، وأبعدُ عن عثراتِ الحيرةِ ونزغاتِ الشَّيطان ، وهي أشدُّ النَّاس عصمةً في السِّرِّ والعلانية ، وأطهرهم صحيفة في المشهدِ والمغيب ، وأبعدهم عن اقتراف المآثم ، واجتراح المحارم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٥١) ، وفي رواية: «ويا فاطمة بنت محمد».

بالدّعوة ، وذلك تنفيذاً للأمرِ الإلهي بإنذارِ ذوي القربى ، وكان هذا الإنذارُ والنِّداءُ يؤكّدُ الموالاةَ بين المؤمنين رجالاً ونساء ترتبط بالأعمالِ ، لا بالأشخاص.

* وبعد أن اتّبعَ الجنْسان: النّساء والرّجال الدّينَ الإسلاميَ ، جاءتْ مرحلةُ الاضطهادِ ، وتلقّتِ السّابقاتُ صنوفاً من ألوانِ العذابِ من حبْسٍ وضَرْبٍ وجوعٍ وعطَشٍ. والحقيقةُ فقد كانت فتنة شديدةَ الزّلزال على من اتّبع النّبي ﷺ ، وقد لاقتِ المرأةُ مع الرّجل تنكيلاً تقشعرُّ من هَولهِ الأبدان ، ومنَ العجيب أنَّ الفَجَرَة من أساطينِ الشّركِ «كانوا يسوون بين الرّجال والنّساء في التّعذيب»[1] ، ولم يرحموا ضعْفَ النّساء اللواتي تفاعلْنَ مع الرّجالِ بالمسؤوليةِ نفسها ، وبالمواجهةِ عينها ، وكُنّ أشدّ أثراً على بعض المشركين من الرجال الأشدّاء.

* جاء في السّيرةِ النّبويةِ العَطِرة أنَّ بني مخزوم كانوا يخرجُون بعمّار بنِ ياسر ، وبأبيه ، وبأمّهِ سميّةَ ، وكانوا أهلَ بيت إسلام ، نوَّرَ اللهُ قلوبَهم بالإيمان ، كان المخزوميّون إذا حميتِ الظّهيرةُ يعذّبونهم برمضاء مكّة ، فيمرُّ النّبيُّ ﷺ بالأسرةِ الياسريَّةِ الصَّابرةِ ويثبّتهُم ويعدهُم بالجنّةِ فيقول: «صبراً آلَ ياسر ، موعدُكم الجنّة». وصبرتِ الأسرةُ الفريدةُ في إيمانِها صَبْرَ المؤمنين الكرام ، ولكنَّ المشركين اللئامَ قتلُوا الصَّابرةَ السَّابقةَ سميّةَ وهي ترفضُ وثنيَّتهم وتحتقرُ أصنامَهم وهُبَلهم ولاتهم وعزَّاهم ، وثبتتْ على الإسلامِ ثباتَ الصَّادقين الذين عرفُوا اللهَ معرفةً حقيقيةً ، وأحبُّوا رسولَه ﷺ أيضاً لأنَّه أرشدهم إلى الهدى ودينِ الحقِّ وأخرجهم من ظلمات الجاهليَّة إلى نور الإسلام ، وجاءتِ الطّعنةُ الرّعديدةُ الفاجرةُ الغادرةُ من فرعونِ الأُمّة أبي جَهْل لِتَنْقُلَ سمية إلى دار الأبرارِ ، وتجعله مع فئة الأشرارِ ، قال مجاهد: «أولُ شهيدٍ كان في الإسلام أمُّ عمار سميّةُ طعنَها أبو جهل بِحَربةٍ في قُبلِها»[2].

---

(١) الدرر لابن عبد البر (ص ٤٣ و٤٤).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٥٧).

* أليسَ فخراً للأمّةِ أنْ تبدأَ سجلَّ شهدائِها بامرأةٍ صابرةٍ سابقةٍ إلى الإسلام؟!

* إنَّ هذا من أقوى الأدلةِ على أنَّ المرأةَ مسؤولةٌ تجاه الدّين كالرّجل، وهي تتحمّلُ الأذى مثله، فقد كانتِ النّهديةُ وابنتُها لامرأةٍ من بني عبد الدَّار، وقد بعثَتْهُما سيّدتهما بطحينٍ لها، وهي تقولُ لهما: «واللهِ لا أعتقكما أبداً».

فقال لها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: «تحلّلي من قَسمِكِ يا أمَّ فلان».

فقالت: أتحلّلُ!! أنتَ أفسدتَهُما، فأعتقهُما؟».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: «فَبِكَمْ هُما».

قالت مولاتُهما العبدريّةُ: «بِكَذا وكذَا» ولم يماكِسْها.

قال أبو بكر رضي الله عنه: «قد أخذتُهما، وهما حُرَّتان، أرْجِعَا لها طحينَها».

قالت النّهديتان: «أو نفرغَ منه يا أبا بكر؟».

قال: «ذلك لكُما إنْ شئتُما»[1].

* ويعلِّقُ الشَّيخ محمد عرجون ـ رحمه الله ـ على صنيعِ النّهديةِ وابنتِها تعليقاً نفيساً فيقولُ: «وإلى هُنا كانتِ الطَّبيعةُ البشريةُ المنطَلقةُ من أغلالِ العبوديةِ المخلصةِ من بلاء العَذَاب المنقذة من ذلّ الاستعباد مهيئةً أنْ تستبدَّ بها الفرحة، ويستفزّها شعورُ الحريّة وإحساسُ المساواةِ في الحقوقِ والواجباتِ بهاتَيْن الجاريتَيْن اللتين كانتا من لحظةٍ تُفرضُ عليهما أحكامُ العبوديةُ في صَلَفٍ واستكبارٍ من سيّدتهما الظّالمة، وهي تتهدّدُ وتتوعّدُ وتزمجرُ، وتنذرُ متحفزة للوثبةِ للرّدِ على الظّلم والتّعالي على الظّالمين، ولا أقلّ أنّهما كانتا ترميان بطحين هذه السّيدة الظّالمة التي ساوَيَاها في الحريّةِ، وتَسَامَيا عليها بالإسلام بين يديها معرضَتين ازوِرَاراً، تنظران إليها شَذَراً. ولكنَّ أدب الإسلام ومكارمَ الأخلاقِ التي قامتْ دعائمُهُ عليها، ومعرفةُ اللهِ تعالى بجلالِ وحدانيته، أبتْ

(١) البداية والنهاية (٣/ ٥٦) بتصرف يسير.

عليهما إلاّ أنْ يكونا متفضلتَيْن بالإحسانِ على مَنْ طالما أساءَتْ إليهما ، فقالَتا لأبي بكر رضي الله عنه بعد أنْ حرَّرهما : أوَ نفرغُ منه يا أبا بكر ثمّ نردُّه إليها؟ فوسعَهُما خُلُق الصّديقِ وردّ ذلك لمشيئتهما فقال: ذلك لكما إنْ شئتما. للهِ هذا الدّينُ الحنيفُ في آدابِهِ وفواضلِهِ ، وشمائل فضائلِهِ ، ولله قومٌ ادّرعوه عقيدةً وعملاً ، فهو دينٌ يجعلُ من الفضائلِ قوىً في طبيعته التي يقومُ عليها التّعاملُ بين النّاس»[1] .

* وفي مسيرةِ الفضائلِ والمكارمِ مع السَّابقاتِ نجِدُ أبا بكر رضي الله عنه يعتقُ جاريةَ بني المؤمل ، وبنو المؤمل حيٌّ من كَعْب ؛ وكانت مسلمةً وعمرُ بنُ الخطَّاب يعذّبها ـ وهو يومئذٍ على الشّرك ـ حتّى إذا ملَّ قال: «إني أعتذرُ إليكِ ، إنّي لمْ أتركْكِ إلاّ ملالةً» فتقول الجاريةُ: «كذلكَ فَعَلَ اللهُ بكَ»[2] .

* ومن السَّابقاتِ اللواتي أعتقهنَّ شيخُ الكُرماء وسيّدُ الصَّحابةِ أبو بكر أمّ عُبيس ، وكانت فتاةً لبني تَيْم بن مرّة ، وكانت ممّن يُعَذَّبُ في اللهِ تعالى ، فاشتراها أبو بكر ، وأعتقَها.

* ومنهنّ زنّيرة الرُّومية كانت جاريةً لبني عبد الدَّار ، فلمّا أسلمَتْ عميَتْ ، فقالت قُريش: «ما أذهبَ بصَرَها إلاّ اللات والعزّى».

فقالت زنّيرةٌ: «كذبُوا واللهِ ، ما تضرُّ اللات والعزّى وما تنفعان» فردَّ اللهُ بصرهَا ، فاشْتَراها أبو بكر الصّديق رضي الله عنها وأعتقَها.

* ومنهنّ أيضاً حمامةُ أمُّ بلال فقد اشْتَراها الصِّديقُ رضي اللهُ عنه وأعتقَها.

* ولم تكنْ أذيّةُ المشركين للسَّابقات في مكَّةَ وحدها ، وإنّما امتدتْ يَدُ المعذِّبين إلى المُسلماتِ في القبائلِ البعيدةِ عن مكَّةَ ، فالمشركُون في كلِّ مكانٍ نقموا على المُسْلِمات ، وأذاقوهنّ الويلات.

* وقد حدثَ هذا فِعْلاً مع السّيدة أمّ شريك غزيّة بنت جابر ، فقد أسلمت هي وزوجُها أبو العَكر بن سلمى ، ولما هاجرَ زوجُها مع أبي هُريرة وجماعةٍ

---

(١) محمد رسول الله (٢/ ٢٢٩ و٢٣٠) بتصرف يسير جداً.
(٢) الدرر (ص ٢٩).

من قومها ، جاءها أهلُ زوجِها أبي العكر ، ثم سألوها فيما إذا كانتْ على دِيْنِهِ ، فأقرَّتْ بإسلامِها دون وَجَلٍ أو خوف ، وعندها أقسموا على تعذيبها عذاباً شديداً ، فارتحلُوا بها من ديارهم ، وحملُوها على شرّ ركابِهم وأغلظِهِ ، ثمَّ أطعموها خُبزاً وعَسَلاً ، ومنعوا عنْهَا الماء ، وتركُوها في الشّمسِ ثلاثةَ أيّام ، حتّى ذهبَ عقلُها وسمعُها وبصرها ؛ وفي اليومِ الثّالث طلبوا منها أنْ تتركَ دينها ، فلم تفعلْ غير الإشارةِ بإصبعِها إلى السَّماءِ بالتّوحيدِ ، ولا تعي ما يقُولون من شدّةِ الإغماءِ والإعياء[1] .

* وبعد مضي عقْدٍ من الزّمان كان الإسلامُ قد وجَدَ طريقَه إلى المدينةِ المنوّرةِ قُبيلَ الهجرة ، وكانتْ نساءٌ قد سبقْنَ إلى الإسلامِ وصبرنَ على الأذى ، ومنهنّ حوّاءُ بنتُ يزيدَ بنِ سِنان الأنصاريّة ، وكانت قد أسلَمتْ قديماً ورسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ ، وكان زوجُها قيسُ بنُ الخطيمُ الشّاعرُ المشهورُ يصدُّها عن الإسلامِ ، وعمَّا جاءَها من الحقّ ، ويعبثُ بها وهي ساجدةٌ ، فيقلبُها على رأسها ، ويهزأُ بها أشدَّ الهزْءِ .

* وكان النَّبيُ ﷺ في مكّةَ المكرمةِ قَبْلَ الهِجرةِ يُخْبَرُ عن أمرِ الأنصار وشؤونهم ، وعلمَ بإسلامِ السّيّدةِ السّابقةِ حوّاء ، وبما تلقَى من قَيْسٍ من البلاءِ والسُّخريةِ ، فلما كان موسمُ الحجّ أتاهُ النَّبي ﷺ فدعاهُ إلى الإسلامِ فقال له : «يا أبا يزيد إنَّ صاحبتَك حواء قد بلغَني أنّك تسيءُ صحبتَها مذ فارقَتْ دِيْنَكَ ، فاتّقِ اللهَ واحفظْني فيها ولا تعرضْ لها»[2] .

* وفي روايةٍ : «إنَّ امرأتَكَ قد أسلَمَتْ ، وإنَّكَ تؤذيها ، فأحبُّ أنّكَ لا تعرضُ لها»[3] ، وحفظَ قيسٌ الوصيّةَ النّبويةَ ، فبلغَ ذلك رسول اللهِ ﷺ وقال : «وفّى الأُدَيْعج»[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٤) بتصرف يسير.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٣).

(٣) الإصابة (٨/ ٩١).

(٤) أسد الغابة (٧/ ٧٥) طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٩٩٤م ، وستأتي سيرة حواء في الباب الثالث من هذا الكتاب ، إن شاء الله.

* وفي مكانٍ آخر كان للسَّابقةِ المُسلمةِ دورٌ بهيجٌ مشرّفٌ ، فقد استنفرتِ المرأةُ السَّابقةُ ذويها لنُصْرَةِ النّبي ﷺ كما فعلت ضباعةُ بنتُ عامر العامريّة .

* جاء عند ابن سعدٍ في «الطّبقات» ـ وعنه نقل أكابر المصنّفين كابن الأثيرِ وابن حجر وغيرهما ـ بسند رفعه إلى عبد الرّحمن العامريّ ، عن أشياخٍ من قومهِ قالوا : «أتانا رسولُ اللهِ ﷺ ونحنُ بعكاظ ، فَدَعَانا إلى نُصرتهِ ومَنَعَتهِ فأجبْناهُ ، إذْ جاء بيْحَرةُ بنُ فِراس القُشَيري ، فغمزَ شاكلةَ ـ خاصرة ـ ناقةِ رسولِ الله ﷺ ، فقمصت برسولِ الله ﷺ فألقَتْه ، وعندنا يومئذ ضباعةُ بنتُ عامر بن قُرط ـ كانت من النّسوة اللاتي أسلمْنَ مع رسولِ الله ﷺ بمكّةَ جاءتْ زائرةً إلى بني عمّها فقالت : يا آلَ عامر ـ ولا عامر لي ـ أيُصْنَع هذا برسولِ اللهِ ﷺ بين أظهركم ، لا يمنعُه أحدٌ منكم؟ فقامَ ثلاثةٌ من بني عمّها إلى بَيحَرةَ فأخذَ كلّ رجلٍ منهم رجلا فَجَلَدَ به الأرض ، ثمَّ جلَسَ على صَدْرهِ ، ثم عَلِقوا وَجْهَهُ لَطْماً ، فقال رسولُ الله ﷺ : «اللهمّ باركْ على هؤلاء» ، فأسلمُوا وقُتلُوا شُهداء»[1] .

* إنَّ الإحساسَ بالمسؤوليةِ الذي ساورَ السّيّدة ضباعةَ العامريّة ليدلُّ على مدى عمقِ إيمانها بالإسلام ، ومن هنا قامتْ رضي الله عنها بهذا الدّورِ وهي بعيدةٌ عن مكّةَ ، وكان الإسلامُ إذ ذاك قليلَ الأتباعِ ، ولكنّها استنفرتْ ذوي النّخْوة لكي تخلّصَ النّبيّ ﷺ ممّا كان فيه من ظلمِ بَيْحَرةَ واستهزائِهِ ، فكان لها ما أرادتْ ، وأدّتْ دورَها في حُدودِ استطاعتِها رضي الله عنها .

* ويمكننا الآنْ أنْ نقولَ ونحنُ في غايةِ الاطمئنانِ والفخر : «إذا كانت المرأةُ قبلَ الإسلامِ قد خضعت لدينٍ ، فإنَّما ذلكَ دينٌ مضطربٌ لا أثر لهُ في حياتها ، ولا خير فيه لها . وإذا ما نزعتْ إلى خُلُقٍ فاضلٍ ، وخليقةٍ محمودةٍ ، فقد عَلِقَتْ بها شوائبُ الجهل ، وفوضى الجماعةِ . وإنْ هيَ أفاضتْ على القوم روح الحميةِ ، ووحيَ القولِ ، وجمالَ الخيالِ ، فقد كان لهم من وجودها ، ونفاذِ قولها حروبٌ فرّقت جماعتَهم ، ومزّقت أوصالَهم . وإنْ هيَ جاذبتِ

---

(١) أسد الغابة (٧/ ١٧٧) ، نقلاً عن ابن سعد (٨/ ٠٩ و١١٠) .

الرجل حبْلَ العمل ، وساجلَتْهُ جدّ الحياةِ ، فقد احتملَتْ من العبءِ أثقلَه ، وربما تناولتْها المصائبُ من كلِّ جانبٍ ، ولعبت بها الأهواء كما يحلو لها وتشاء. ولذلكَ كُلّه كانت المرأةُ في عصرِ الرسالةِ المونقِ أحوجَ ما تكون إلى دينٍ صحيحٍ متينٍ ، يعمدُ لى تلكَ الفضائلِ المودعةِ فيجلو صدأها ، ويثيرُ كامنها ، وينهجُ بها الخيرَ كلَّه ، ويجنّبها عثرات الطريق.

وكان هذا الدِّينُ: الإسلام ، الإسلام الذي هيّا للمرأةِ تلك الوسائلَ ، ورفعها إلى أبعدِ ممّا يطمحُ خيالها ، ويصبو أملها ، وساقَ لها من آيِّ الذِّكرِ الحكيم ما بهرَ سناهُ بصَرَها ، وبلاغته قلبها وعقلها ، وأنصتتْ لِما أعدّه عزَّ وجلَّ للمحسناتِ والصَّابراتِ من جزيلِ الأجر وكريم المنزلةِ ، فأثارَ ذلك عاطفتها ، وأفاضَ وجدانها ، وأنار بصيرتها ، فكان حقاً لذلك أنْ يصيبَ حبّةَ قلبها ، وأنْ يكون خلجة شفتيها ، وظلّة رأسها ، وكلّ شيء بين يديها. لذا فإن أول قلب خفقَ بالإسلام وتألّقَ بنوره ، قلب أمنا خديجة الطاهرة التي تأثّرت به وأخذته عن حبّ وظمأ إليه. ثم أعقبها جمهور النساء فتأثرن بالإسلام تأثّراً هانَ وراءه كلّ شيء ، وكان لهنَّ دورٌ عظيم في ميادين السَّبق إلى المعالي والمكارم».



# الفصلُ السّادسُ
# السّابقاتُ في دارِ الأرقم

* قبل أنْ أتحدّثَ عن الأرقمِ بن أبي الأرقم المخزوميّ ، دعوني أحدثكُم قليلاً عن دارهِ المُباركةِ في مكّةَ المكرمةِ التي تُعَدُّ من أبرزِ آثارِ مكّةَ في عصْر الرِّسالةِ وصدرِ الإسلام.

* فالدّورُ التّاريخيةُ في مكّةَ المكرمةِ مذكورةٌ في المصادر التي تحدثتْ عن تواريخِ مكّة؛ ومنها دارُ الأرقم أو دارُ الخَيْزُرَان وهي من أشهرِ دورِ مكّةَ ، وهي تبعثُ في النّفسِ ذكرياتٍ منداةً بالأنفاسِ المحمديّةِ والعبقاتِ النّبويةِ ، ففي هذهِ الدَّارِ المباركةِ كان النَّبيُّ ﷺ يجلسُ مع أصحابهِ السَّابقين والإسلامُ لا يزالُ في أوّلِ عهدهِ ، وسادة قريشٍ من الفجّار والمجرمين لا يزالون يحاولون إحباطَ الدَّعوةِ المحمديّةِ ، ويسدّون السُّبُلَ في طريقِ الإسلام ، ويسدّدون كلَّ سَهْمٍ من سهامِهم الحاقدةِ ضدَّ المسلمين السّابقين.

* كان عمرُ بنُ الخطَّاب على الجاهليةِ يومئذ ، وغَرَّهُ شبابُهُ وأغرتْهُ فتوّتُهُ أنْ يحسمَ أمْرَ الدعوةِ ، ويريحَ قريشاً من هذا الذي سبَّ آلهتها ، وفرّق أمرها بأنْ يذهبَ إليه فيقْتُلَه. ولما استوتْ هذه الفكرةُ لديه ، أخذ الطريقَ إلى دارِ الأرقمِ لينفّذَها ، وشاءتْ إرادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يلتقيَ نُعيمَ بنَ عبد الله النّحّام ، فأخبره عمرُ بما عزمَ عليه ، وأظهرَهُ على ما يَنْويهِ ، فقال له نُعيم ـ وكان مُسْلماً يكتم ذلك ـ: «واللهِ لقد غرّتْكَ نفسُك من نفسِك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيكَ تمشي على الأرضِ وقد قتلْتَ محمّداً؟ أفلا ترجعُ إلى أهلِ بيتك وتقيمُ أمرَهُم»؟!

* وكانت فاطمةُ بنت الخطّاب أخت عمر وزوجُها سعيدُ بنُ زيد قد أسلَما وشهدا شهادةَ الحقّ؛ وكرَّ عمرُ راجعاً إليهما حينما عرفَ من نُعيم النّحام أمرهما ، ودخلَ عليهما البيتَ وعندهما مَنْ يقرأُ القُرآنَ الكريم ، فلمّا أحسَّ به أهلُ الدار ، تواریٰ القارئ عن الأنظار ، وأخفَتْ فاطمةُ ما كان يقرأُ من القرآن لِعِلْمِها بشدّةِ أخيها عمر. وسأل عمر: «ما هذه الهينمةُ التي سمعتُ! لقد علمتُ أنّكما تابعتُما محمّداً على دِينهِ».

* صمتَ الزّوجانِ المُسْلِمان ولم ينبسا ببنْتِ شفَةٍ ، فبطشَ عمر بصهرِهِ سعيد ، فقامتْ فاطمةُ تحمي زوجَها وتحولُ بينَه وبين عمر ، فضربَها فشَجَّها ، وإذ ذاك انبجستْ أولُ كلمةٍ مع ظهورِ دمِ فاطمة على وجِهها ثم صاحتْ مع زوجها: «يا عمرُ ، لقد أسْلَمنا وتبعْنَا محمّداً ﷺ ، فاقضِ ما أنتَ قاضٍ ، وافعلْ ما بَدَا لكَ».

* واضطربَ عمرُ حينما رأى ما أحدثَتْه يده بأُخْتهِ من الدم ، وهنا غلبَه بِرّهُ وعطفُه بها وحنوّه عليها ، فارعوى في الحَالِ ، ولم يتمادَ في غُرورِه ، وانقشعت الغلظة الضَّبابية عن صدره ، وسأل فاطمة أنْ تعطيَه الصَّحيفةَ التي كانوا يقرؤونها ، فلمّا قرأَها اهتزَّ هزّةَ الحقِّ للحقِّ ، وأخذَهُ إعجازُها وجلالُها وسموُ معانيها ، والدَّعوة التي تدعو إليها ، أخذه ذلك كلّه ومحَا أثر الجاهليّةِ منْ نفسه ، وخرجَ يريدُ دارَ الأرقم ليقفَ أمام النّبي ﷺ ويعلنَ إسلامه وخضوعه واستكانته للحق ودين الحقّ ورسول الحقّ.

* سار عمرُ متوشّحاً سيفَه ، وقلبُهُ متوشّحٌ بالتّوحيد حتّى إذا بلغَ دار الأرقمِ ، علمَ المسلمون به ، ففزعَ بعضُهم ولكنَّ حمزةَ بنَ عبد المطلب الأسد الفارس الفتى قال: «إذا كان جاء يريدُ بنا خيراً بذلْنَا له ذلك ، وإنْ كان يريدُ شرّاً قتلْناه بسيفهِ ، فأدخلُوه».

* وأمرَ النّبيّ ﷺ أنْ يُؤْذَنَ لعُمرَ ، وقامَ فتقدمَ نحو الحُجْرةِ التي تلي الباب ، فلمّا دخلَ عمرُ أخذَ النّبي ﷺ بمجمع ردائهِ وجذَبه بقوةٍ جذبةً أطارت من قلبه ما تبقى به وما ران عليه من أدران الجاهلية ، وقال له: «ما جاءَ بكَ يا بنَ الخطَّاب؟ فو اللهِ ما أرى أنْ تنتهيَ حتّى ينزلَ اللهُ بكَ قارعة».

قال عمرُ في سكونٍ وهدوءٍ: «يا رسولَ اللهِ ، جئتُكَ لأومنَ باللهِ ورسولهِ ، وما جاءَ منْ عندِ الله».

* فكَبَّرَ النَّبيُّ ﷺ تكبيرةً عرفَ أهلُ البيتِ من أصحابهِ في دارِ الأرقم أنَّ عمرَ أسْلَم ، فتفرَّقُوا من مكانِهم فرحين موقنين بأنّ هَذيْن البطلَيْن: حمزة وعمر سيحميان النّبي ﷺ ويمنعانهِ من خصومِه ومن أذاهم وعداواتهم.

* وَفَتَّ إسلامُ عمرَ في عضدِ كُفَّار قريش وفَجَرتهم ، فلمْ يَرْضَ عن اختفاءِ المسلمين حين صلاتِهم في دار الأرقم أو غيرها ، بل دأبَ على إفحامِ قريش حتّى صلّى عند الكعبةِ وصلّى المسلمون معه.

* ومن الجدير بالذّكْرِ أنَّ النّبيّ ﷺ قد آثر في مطْلَعِ سَيْرِ الرّسالةِ الاستسرار بالدّعوة لِيربِّيَ جماعةً من الرّجالِ والنساءِ تربيةً سليمةً ، واتّخذَ دار الأرقم عند أصلِ جَبَل الصّفا أوّلَ دارٍ لتبليغِ المسلمين أمْرَ اللهِ وتعليمهم أمور دينهم ، ويستقبل فيها مَنْ يقبلُ على الإسلامِ يريدُ الإيمانَ بالله ربّاً وبمحمّدٍ رسولاً.

* وبهذا الاستسرارِ الحكيمِ تمكَّنتِ الدَّعوةُ إلى الله من السَّير إلى القُلُوبِ والعقولِ ، فدلفَ إلى دار الأرقم عددٌ من فتيانِ قريش وفتياتهم مِنْ صَادِقي الإيمان أقوياء العقيدة ، ممن تخافُهم قريش إذا علمتْ بهم وبشجاعتهم.

* وقد أفلحتْ خطةُ الاستسرار بالدَّعوةِ في مطْلَعِ شمسِها ، وظهرتْ آثارُهَا فيما حقَّقتْهُ من نجاحٍ بعيدِ المدى ، يتمثّلُ في عددِ السَّابقين والسَّابقات من أبناءِ المرموقين من قريش.

* وكان للنّساء دورٌ بارزٌ في دارِ الأرقم ، فقد دخلَها النّبيُ ﷺ هو وأصحابُه ، وبقي فيها مختفياً مع جماعتهِ ، إلى أنْ أذنَ اللهُ لهم بالخروجِ ، وكان يلتقي بالرّجال والنّساء في هذهِ الدار[1].

* وظلَّ أمرُ الدَّارِ الأرقميّةِ الميمونةِ سرّاً من الأسرار لدى السَّابقاتِ خاصّة ، وكذلك السّابقين ، إذ إنّهم أحاطُوه بنفوسهم ، ولم يطلعُوا عليه أحداً ،

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٧٧).

ويمكنني أنْ أقولَ الآن: «لعلَّ هناك بعض الأماكنِ التي يجتمعُ فيها السَّابقون سراً، ولكنّها لم تشتهرْ شهرةَ دارِ الأرقم».

* ولكنَّ دارَ الأرقم كانتِ الأشهر عند السَّابقين، وكانتِ النّساءُ يعرفْنَها ويجتمعنَ فيها، ومنهنّ السّيدةُ الكريمةُ فاطمةُ بنتُ الخطَّاب العدويَّة، ويظهرُ لنا هذا من خطبةِ أبي بكر عند الكعبة قرب جماعةٍ من قريش.

* فتعالوا نشهد دَوْرَ السّابقاتِ وحصافتهنّ في الدَّارِ الأرقميّةِ الميمونةِ؛ وما صنَعْنَه في نُصْرةِ الدّين وإعزاز كلمةِ الله.

* روتِ المصادرُ أنَّ سيدنا أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه لما خطبَ في مسجدِ قريش عند الكعبةِ، وأسمعَهم كلام الله، قامَ إليه المشركُون فضربوهُ ضرباً شديداً حتى فَقَدَ وعْيَه، وحُمِلَ إلى بيتهِ على تلك الحالةِ الصَّعبةِ، فلمّا أفاقَ قال: «ما فَعَلَ رسُولُ اللهِ ﷺ»؟

فقالت أمُّهُ أمُّ الخيرِ بنتُ صخر: «واللهِ ما لي عِلْمٌ بصاحبِكَ»! فقال: «يا أمّي، اذهبِي إلى فاطمةَ بنتِ الخطّاب فاسْأَليها عنه».

* فخرجتْ أمُّ الخير تمشي على جناح من السُّرعةِ حتّى جاءتْ فاطمةَ بنتَ الخطاب وقالت لها: «يا أمّ جميل ـ كنية فاطمة ـ إنَّ أبا بكْر يسألُك عن محمّد بنِ عبدِ الله».

فقالت فاطمة في حذرٍ وهدوء: «ما أعرفُ أبا بكر ولا محمّدَ بنَ عبد الله، وإنْ كُنْتِ تحبّين أنْ أذهبَ معكِ ذهبْتُ».

قالت أمّ الخير: «نعم أحبُّ ذلك يا بنة الخطّاب».

* ومضت فاطمةُ بنتُ الخطَّاب مع أمِّ الخير تمشيان مسرعتَيْن حتى وجدتْ فاطمةُ أبا بكر صريعاً قد اشتدّ مرضه وأشرفَ على الموتِ، فدنَتْ منْهُ وقالت له: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسْقٍ وكُفْر، وإنّي لأرجو الله أنْ ينتقمَ لك منهم».

قال أبو بكر: «فما فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ»؟

قالت أمُّ جميل محاولةً أنْ تلفتَ نظرَ الصّديق إلى وجودِ أمّهِ وهي لا تَعْلَمُ موقفَها من الإسلام: «يا أبا بكر هذهِ أمُّك تسمعُ»!

قال: «لا شيءَ عَليكِ منها».

قالتْ: «هو سالمٌ صحيحٌ والحمدُ لله».

قال: «أينَ هو»؟

قالت: «هو في دار الأرقمِ بنِ أبي الأرقم».

قال: «فإنَّ للهِ عليَّ ألا أذوقَ طعاماً ولا أشربَ شراباً أو آتيَ رسولَ اللهِ ﷺ».

* فأمْهَلَتاهُ حتى إذا سكَنَ النّاسُ وخفَّتِ الحركةُ، خرجَتَا به يتوكّأُ عليهما حتّى أدخلتاه على رسولِ اللهِ ﷺ، فأكبَّ عليه رسولُ اللهِ فقبّلَه وأكبَّ عليه المسلمون»[١].

* وكما لاحظنا أنَّ السَّابقاتِ كان لهنّ دورٌ كبيرٌ في مرحلةِ بدايةِ الدّعوة، وكُنَّ حافظاتٍ لأَسْرارِ الدّعوة، فقد وجدنا أنّ السّيدةَ فاطمةَ بنتَ الخطاب قد علمت بمكانِ النّبيّ ﷺ في دارِ الأرقم، وكانت تُقدّرُ دورها تقديراً واعياً لأنّها أنكَرتْ في بدايةِ الأمْر معرفتَها بمحمّدٍ ﷺ وبأبي بكْر وبدارِ الأرقم، ولكنّها لما علمتْ بالسَّلامة والسَّلامِ حاولت أنْ تَجِدَ منفذاً تساعدُ به أبا بكر، فعرضَتْ على أمّهِ أنْ تصحبَها إليهِ، ولما رأتْ أبا بكرٍ وما بهِ مِنْ ضرٍّ، لم تكنْ تبوحُ بالسِّرِّ حتّى اطمأنَّتْ تماماً منْ جهةِ أمّهِ، بل اطمأنَّتْ أوّلاً على رسولِ الله ﷺ ومَنْ معه مِنَ السَّابقين.

* وها هُنا ينبغي ألاّ يغيبَ عنّا موقفُ أمِّ الخير بنت صخر وقد أسلمتْ في ثنايا هذه الحادثةِ، دعاها رسولُ اللهِ ﷺ فأسلمتْ، فكانت ممّن أسلَم قديماً.

* أما كيف أسلمت أمُّ الخير، فقد كان عقب ضَرْبِ أبي بكر مباشرةً إذ رقَّ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٩)، والرياض النضرة (١/ ٧٥ و٧٦)، مع الجمع والتصرف. ولله دَرُّ مَنْ قال في سيّدنا أبي بكر الصّدّيق مادحاً وواصفاً:

مَــنْ لــي بمثْــلِ سَيْــرِكَ المُــدَلّــلِ     تمشِــي الهــويــنــى وتَجــي فــي الأوّلِ

رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ رقّةً شديدةً ، وتأثّرَ لما حصَلَ له من أذىٰ المشركين ، وعندها وجدَ أبو بكر الفُرصةَ سانحةً ليكسبَ أُمَّهُ في صفوفِ السَّابقات فقال للنّبي ﷺ: «بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله ، هذه أمّي برّةٌ بولدها ، وأنتَ مباركٌ ، فادعُها إلى اللهِ ، وادعُ اللهَ عزَّ وجلَّ لها عسى اللهُ أنْ يستنقذَها بك من النَّار» فدعا لها رسولُ اللهِ ﷺ ، ودعاها إلى الله فأسلمت[1] .

* وهناك ثلةٌ من السَّابقات سجَّلَتِ المصادرُ سَبْقَهنّ ودخولهنّ دارَ الأرقم ومنهنّ: رملةُ بنتُ أبي عوف السَّهميّة ، وأسماءُ بنتُ عُميس ، وفاطمةُ بنتُ الخطاب رضي الله عنهنّ .

* لقد كانتِ المسلمةُ السّابقةُ ذاتَ أثرٍ واضحٍ في ظلّ الإسلام ، فلمْ تتأخرْ عن مشاركةٍ مهما عظُمَتْ تبعاتُها ، بل قدَّمَتْ خِدماتٍ جليلةً للدّعوةِ والرّسالةِ ، وما أعمال السّيدة خديجةَ بنتِ خويلد عنّا ببعيدة ، وهذه آثارُها ترافُق الخطواتِ الأولىٰ للحبيبِ المصطفى ﷺ في مسيرتهِ في الدّعوةِ إلى اللهِ تعالى ، ولا تزالُ آثارُها شاهدةً على مكانتِها إلى ما يشاءُ اللهُ تعالى .

* * *

(١) انظر : السّيرة الحلبية (١/ ٤٧٥ و٤٧٦) ، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : «أسلمتْ أمّ أبي بكر ، وأمّ عثمان ، وأمّ الزُّبير ، وأمّ عبد الرّحمن بن عوف ، وأمّ عمّار» (الإصابة ٨/ ٣٨٦) . أقول : «وقد أسلمت كذلك فاطمة بنت أسد أم سيدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه» .

# الفصلُ السَّابعُ
# السَّابقاتُ في الهجرة إلى الحبشة

* من المستحسنِ أنْ نتعرّفَ معنى الهجرةِ في اللغةِ قبل أنْ نمضيَ في هذا الفَصْل المُمتع.

* فمّما قالَهُ ابنُ منظور في «اللسان» عن الهجرة: «هجرتُ الشّيءَ هجراً: إذا تركتُه وأغفلتُه، والهُجْرةُ: الخروجُ منْ أرضٍ إلى أرضٍ. والمهاجرون: الذين ذهبُوا مع النَّبي ﷺ. وتهجَّرَ فُلان: تَشَبَّه بالمهاجرين. وأصْلُ المُهاجرةِ عند العرب: خروجُ البدويّ من باديتهِ إلى المُدنِ؛ وكلُّ مُخْلٍ بمسْكَنِهِ منتقلٌ إلى قومٍ آخرين بسكناه فقد هاجرَ قومه. وسمّي «المهاجرون» مهاجرين لأنّهم تركُوا ديارهم ومساكِنهم التي نشؤوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهلٌ ولا مال حين هاجروا إلى المدينة؛ فكلُّ مَنْ فارقَ بلده منْ بدوي أو حضَري أوسكَنَ بلداً آخر، فهو مهاجرٌ، والاسمُ منه الهجرة. والهجرتان: هجرةٌ إلى الحبشَةِ، وهجرةٌ إلى المدينةِ، والمُهاجَرَةُ من أرضٍ إلى أرض: ترك الأولى للثّانية....»[1].

---

(١) لسان العرب (٥/ ٢٥٠ و٢٥١) باختصار وتصرف. ومن الجدير بالذّكر أنّ كلمة «المهاجرين» جاءتْ خمس مرات في القرآن الكريم، وفي تاريخ الدّعوةِ الإسلاميةِ ومسيرتها في مكّة المكرمةِ حصلت ثلاث هجرات:

١ ـ الهجرة الأولى: كانت إلى الحبشةِ، وحصلت في السّنةِ الخامسةِ للبعثة النبوية.

٢ ـ الهجرة الثانية: كانت إلى الحبشةِ أيضاً، وكانت في السنة السادسة من البعثة النبوية.

٣ ـ الهجرة الثالثة: كانت هجرة النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه إلى المدينة المنورة، وكانت في السنة الأولى للهجرة إذ دخلها النبي يوم الاثنين بشهر ربيع الأول.

* كانتِ الهجرةُ انتقالاً من مكانٍ إلى مكانٍ للخروجِ بالدَّعوةِ الإسلاميةِ من مكانٍ جَمَدتْ فيه الدَّعوةُ إلى اللهِ وحُوصرتْ إلى مكانٍ أرادَهُ اللهُ لها ، ويومها كان السَّابقون الأوّلون نساءً ورجالاً لا يمتلكون الإذْنَ بمواجهةِ قريش وفجّارهم الذين آذَوْهم ، وأحاطوا دعوتهم بجوٍ عدائي شَملَ مكّةَ وما حولَها ، وأصبحَ المؤمنون في عزلةٍ ، حتى لم يكنْ يقيمُ في ربوع مكّة والحرم إلا مُسْتَخْفٍ أو مَنْ هو في جِوَار. ومن هنا كانتِ الهجرةُ إلى الحبَشَةِ أوّلاً ، وإلى المدينةِ المنوّرة ثانياً ضرورةً ودعوةً إلى الله ، وتمَّتِ الهجرةُ على عينِ اللهِ ، لكي يحفظَ الإسلامَ وأهلَه.

* وتبدأ الهجرةُ إلى اللهِ منذ أنْ أمرَ النبي ﷺ أصحابه بالهجرةِ إلى الحبشَةِ ، وتبعَتْها الهجرةُ إلى المدينةِ المنوّرةِ والتي بدأتْ بُعَيدَ بيعةِ العقبةِ الثّانية.

* كانت الهجرةُ إلى الحبشَةِ مندوبةً لمن أرادَ أنْ يخرجَ بدينهِ طلَباً لعبادةِ الله في مكانٍ لا يُؤْذَى فيه. إلاّ أنَّ الهجرةَ إلى المدينةِ المنوّرة كانت بِحُكْمِ الوجوبِ على جميعِ المسلمين والمُسْلمات ، واستمرَّ هذا الحكْمُ إلى أنْ تمَّ فتحُ مكَّة ، إذْ عزَّ الإسلامُ وقويَ ، وانتظمَ النَّاسُ في مجتمعهِ ، وصارت مكّةُ دارَ إسلام ، فلم يعدْ هناك سببٌ للهِجْرةِ منها ، وهذا يؤيّدهُ ما أخرجَهُ البخاريُ بسندهِ عن الأوزاعي ، عن عطاء بن أبي رباح قال: زرتُ عائشةَ مع عُبيد بن عُمير الليثيّ ، فسألْنَاهَا عن الهجرةِ فقالت: «لا هجرةَ اليوم ، كان المؤمنون يفرُّ أحدهُم بدينهِ إلى اللهِ تعالى ، وإلى رسولهِ ﷺ مخافةَ أنْ يُفْتَنَ عليه ، فأمّا اليوم فقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ ، واليوم يعبدُ ربَّه حيثُ شاء ، ولكنْ جهادٌ ونيّةٌ»[1].

* فالهجرةُ للسّابقين والسّابقات وغيرهم من الصّحابةِ توقَّفَتْ مع الفَتْحِ الأعظمِ لمكّة المكرمة ، وانقضتْ لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ، لما دلَّتْ عليه هجرتهم المباركة ـ قبل أن يعزّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه ـ من صدقِ الإيمان ، وكمالِ التّضحية ، ونصرةِ الحق ، وتركِ كلّ شيءٍ في سبيلِ الله ورسوله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩٠٠).

* وفي السُّطورِ التَّالياتِ نتحدَّثُ عن هجرةِ السَّابقاتِ إلى الحبشَةِ ثم نعرضُ للحديثِ عن هجرتهنَّ إلى المدينةِ المنوّرة ودورهنّ في الهجرتَيْن ، ومبايعتهنّ رسولَ اللهِ ﷺ على نُصْرةِ الدِّين.

* كان النَّبيُّ ﷺ قد اتّخذ دارَ الأرقمِ مكاناً للدّعوةِ الإسلاميةِ ، وأقبل عليه أهلُ الصّدقِ من رجالِ قريش ونسائِهم ، وتربّوا في مدرستهِ العظيمةِ. وعندها بدأتْ فدائحُ البلاء تتوالىٰ على هؤلاءِ الغُرّ الميامين السّابقين ، وشعرَ النبيُّ ﷺ بما ينالُ أصحابه من شديدِ الأذى وعظيمِ البلاء ، ولا يستطيعُ أنْ يمنعَ أصحابه مما هم فيه من العذاب ، وهم صابرون يريدون تبليغَ الرّسالةِ الرّبانية إلى النّاس جميعاً.

* وتلمعُ بارقاتُ الفرجِ القريب مؤذنةً بالخير ، ولْيَخْرجْ هؤلاء السَّابقون إلى حيثُ يأمنون على أنفسهم الفتنة في دينهم ، يعبدون ربَّهم في غيرِ خوفٍ ولا إزعاج ، وكانتِ الأرضُ التي وجّهَهم إلى الهجرةِ إليها رسولُ الله ﷺ أرضَ الحبشَةِ فقال: «لو خرجتُم إلى أرضِ الحبشة ، فإنّ بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ ، وهي أرضُ صدْقٍ ، حتى يجعلَ اللهُ لكم فرجاً ممّا أنتم فيه».

* وفي حديثِ الزّهري عند عبد الرزّاق قال: «لما كثُرَ المسلمون ، وظهرَ الإيمانُ ، أقبلَ كفّارُ قريش على مَنْ آمنَ مِنْ قبائلهم يعذّبونهم ويؤذونهم ليردّوهم عن دينهم ، قال: فبلغنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لمن آمنَ به: «تفرّقوا في أرضِ اللهِ ، فإنَّ الله سيجمعُكُم».

قالوا: «إلىٰ أينَ نذهبُ»؟

قال: «إلىٰ ها هنا» وأشار بيدهِ إلى أرضِ الحبشَة ، فهاجرَ ذوو عددٍ؛ منهم منْ هاجرَ بأهله؛ ومنهم مَنْ هاجرَ بنفسهِ».

* وخرجَ المسلمون والمسلماتِ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أرضِ

الحبشَة مخافةَ الفتنةِ ، وفراراً إلى اللهِ بدينهم وشرعتهم [1]وكان ذلك في شَهْرِ رجَبَ سنةَ خمسٍ من المبعث.

* خرج أحدَ عشرَ رجُلاً وأربعُ نسوةٍ متسللين من مكّةَ لواذاً حتى انتهوا إلى الشُّعيبة ـ مرفأ للسّفن ـ منهم الرّاكبُ ومنهم الماشي ، وطاردتْهُم قريشٌ وهم على هذه الحالِ حتّى جاؤوا البحرَ الأحمرَ ، إذ ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً ، فقد هيّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم سفينتَيْن من سُفُنِ التّجّار ، فحملوهم فيهما إلى أرضِ الحبشَة[2] .

* وكانت السَّابقاتُ إلى هذه الهجرة الأولى أربعَ نِسْوةٍ من سيّدات قريش وساداتهنّ ، وكلّ واحدة منهنّ كانت بصحبةِ زوجها؛ وهاكم اسم كلّ واحدة منهنّ :

### أولاً : رقيةُ بنتُ النّبي ﷺ :

* خرجَ عثمانُ بنُ عفّانَ ومعه زوجتُه رقيةُ بنةُ النَّبيّ ﷺ إلى أرضِ الحبشَة مع أوّلِ فوجٍ من الصَّحابة ، وابطأ على الحبيبِ المُصْطَفى ﷺ خبرهما ، فقدمت امرأةٌ من قريش وأخبرتِ النّبي ﷺ أنّها رأتْ عثمانَ ورقيّةَ ، فقال ﷺ : «على أيّ حالٍ رأيتِهما»؟

قالت : رأيتُه قد حَمَلَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبابة ، وهو يسوقُها .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «صَحِبَهُما اللهُ ، إنَّ عثمانَ أوّلُ مَنْ هاجر بأهلهِ بعد لوط عليه السّلام» .

وكانت رقيّةُ رضي الله عنها قد أسقطَتْ من عثمان سقْطاً في هذه الهجرةِ الأولى الشّاقّة .

---

(١) انظر : حياة محمد لمحمد حسين هيكل (ص ١٥٣) .
(٢) انظر أسماء المهاجرين والمهاجرات إلى الحبشة في كتاب السير والمغازي (ص ١٧٦ وما بعدها) .

### ثانياً: أمُّ سلمـةَ بنـتُ أبي أميّـة:

* أمُّ سلمةَ اسمُها هندُ بنتُ أبي أميّة بنِ المغيرة القرشيّة المخزوميّة، هاجرتْ مع زوجِها أبي سلمة بن عبد الأسد، وزعموا أنّها أوّلُ امرأةٍ خرجت مهاجرةً إلى الحبشة، وأوّلُ ظعينةٍ دخلتِ المدينة، وقيل: «إنّ السَّيدة ليلى بنت أبي حثمة العدويّة قد شركَتْها هذه الأوليّة».

* كانت أمُّ سلمةَ ممّنْ سَبَقَ إلى دوحةِ الإسلامِ قديماً مع زوجها أبي سلمة، وقد ولدت ابنها سلمةَ بالحبشَةِ، وروايتُها في الهجرةِ إلى الحبشَةِ من أوثقِ الرّوايات وأعمقها، وتدلُّ على حصافتِها وذكائها وحفظها لجماعةِ السَّابقين الأولين.

### ثالثاً: سُهيْلةُ بنتُ سُهيل بن عمرو العامريّـة:

* هاجرتِ السَّيّدةُ سُهيلةُ مع زوجها أبي حذيفةَ بنِ عتبةَ العبشميّ، وولدتْ له بالحبشَةِ محمدَ بنَ أبي حذيفة[1]، وكانت السّيّدةُ سُهيلةُ من السَّابقاتِ الأُوَلِ، أسلمتْ قديماً بمكَّةَ، وهي التي تبنَّتْ سالماً مولى أبي حذيفة، ولها قصّةٌ مشهورةٌ، إذ رخَّصَ لها رسولُ اللهِ ﷺ في إرضاعِ سالم وهو رجلٌ شهِدَ بدراً، فكانت تحلبُ له في قصعةٍ أو إناءٍ قَدْرَ رضعةٍ فيشربه سالم، فكان يدخلُ عليها سالم وهي حَاسِرٌ.

### رابعاً: ليلى بنتُ أبي حثمـةَ العَدَويّـة:

* كانت ليلى من المُهاجراتِ الأُوَل، هاجرت الهجرتَيْن إلى الحبشَةِ وإلى المدينة، وصلَّت القبلتَين، وكانت امرأة عامر بن ربيعة وهي أمُّ ابنهِ عبدِ اللهِ بنِ عامر، وبه تكنى.

* وتروي ليلى سببَ هجرتها إلى الحبشةِ فتقول: «واللهِ، إنّا لنَترحّلُ إلى أرضِ الحبشةِ، وقد ذهبَ عامرٌ في بعضِ حاجتنا، إذ جاءَ عمرُ بنُ الخطّاب

---

(١) أسد الغابة (٧/ ١٥٥).

فوقفَ عليَّ وهو على شِركهِ ، وكان من أشدّ النّاسِ علينا في إسلامنا ـ وكُنَّا نَلْقَى منه الأذى والبلاء ـ فقال: «إنَّه الانطلاقُ يا أمّ عبد الله»؟!

قلتُ: «نعم ، واللهِ لَنَخْرجنَّ إلى أرضٍ من أرضِ الله حيث لا نُؤْذَى في عبادةِ اللهِ عز وجلّ ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل اللهُ لنا مخرجاً».

قالت ليلى: «ورأيتُ له رقَّة لم أكُنْ أرهَا مِنْ قبلُ ، وقد انصرفَ ، وقد أحْزَنَه خروجنا».

* وجاء عامرٌ فقالتْ له زوجتُه ليلى: «يا أبا عبدَ اللهِ لو رأيتَ عمر آنفاً ، ورأيتَ رقّتَه وحزنَه علينا».

قال عامرٌ: «أَطمعْتِ في إسلامه»؟

قالت ليلى: «نعم يا أبا عبد الله».

فقال عامر: «فو اللهِ لا يسلمُ الذي رأيتِ حتى يُسْلِمَ حمار الخطّاب»[1].

* وكان حدسُ ليلى صحيحاً ، وفراستُها صائبةً ، فلم تمضِ مدة حتى أسلمَ عمرُ وأعزَّ اللهُ به الإسلام.

* هذه هي هجرةُ السَّابقاتِ إلى الحبشَةِ مع أزواجهنَّ ، وهي في الحقيقةِ لم تكن فِرارَ ضَعْفٍ ، ولا هربَ جبْنٍ وخوف مَحْضٍ ، ولكنّها كانت نقلةٌ ذات مقاصدَ جليلةٍ منها:

١ ـ البعدُ عن مواطنِ الفِتْنَةِ في الدِّين للذين لا يستطيعون ردَّ الاعتداءِ تمسُّكاً بِعُرى الصَّبر ، فهي هجرةٌ إلى عودةٍ ، ومَخْرجٌ من ضيقٍ إلى فرَجٍ.

٢ ـ البعدُ عن إثارةِ المعوقات في طريقِ سَيْرِ الرّسالة ، وتبليغ دعوتها ، لأنَّ معظمَ المهاجرين كانوا من الشَّباب ، تملؤهم الحميّة ، وربّما نفدَ صبرهم فيردّون العدوان ، وبالتّالي يشغلون النّبي ﷺ عن السَّيرِ بالدّعوة بهذه المعوقات.

٣ ـ تخفيفُ الأزماتِ النّفسيةِ التي كانت تضيفُ أعباءً جديدةً إلى الأعباءِ التي

---

(١) انظر: السيرة النبوية (١/ ٣٤٢ و٣٤٣) بتصرف.

يتحمّلُها رسولُ الله ﷺ في تلقّي الوحي برسالته.

٤ ـ إفساحُ المجالِ أمامَ رسولِ الله ﷺ للسَّير بالدَّعوةِ قُدماً في طريقِ التّبليغ[١].

* إن مَنْ يقرأ أسماءَ مَنْ هاجر إلى الحبشَةِ أوّلاً، وثانياً، ويعرفُ بيوتَهم، وأحوالَهم الاجتماعية، وأنسابهم، يعلم أنّهم لم يفرّوا من الأذى مجرّدَ الهرب، ولكنْ ذلك كان هجرة حكمةِ تدبير، وسياسيةِ تقدير.

* والمتأمّلُ في سجلِ المهاجرين إلى الحبشة في الهجرتَين يجدْ أنَّ أكثرهم مِنْ أشرافهم وأكابرهم وأعليائهم.

* قال ابنُ إسحاق: «ثم خرجَ جعفرُ بنُ أبي طالب، وتتابعَ المسلمون حتّى اجتمعوا بأرضِ الحبشة، فكانوا بها، منهم مَنْ خرجَ بأهلهِ معه، ومنهم مَنْ خرجَ بنفسهِ لا أهل معه، فكانت عدّتُهم ثلاثةً وثمانين رجلاً»[٢].

* أمّا المهاجراتُ إلى الحبشَةِ في الهجرةِ الثّانيةِ فكُنّ حوالي إحدى وعشرين امرأة، وكان عددُ المُهاجرات في المرّةِ الأولى أربعاً، فيصبحُ مجموعهنّ خمساً وعشرين مهاجرة، يُضاف إليهنّ بناتُ الصّحابة اللواتي وُلِدْنَ في الحبشَةِ وهنّ أربعٌ: أمةُ بنتُ خالد بن سعيد الأمويّة، وعائشةُ وزينبُ وفاطمةُ بناتُ ريطةَ بنتِ الحارث، وهؤلاء يُشَكِّلْنَ ربْعَ المهاجرين تقريباً، وهذه قائمةٌ بأسمائهنَّ مرتبةً حسب الحروفِ الأبجدية:

١ ـ آمنةُ بنتُ قيس بن عبد الله الأسديّة، كانت هي وأبوها بالحبشَةِ مع أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وبركة بنت يسار امرأته، وكانتا ظئْري عُبيد الله بن جحش. أسلمتْ آمنةُ قديماً بمكّةَ، وهاجرتْ مع أهلِ بيتها إلى المدينةِ المنورة. وآمنةُ هذه بنتُ عم أمّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحش الأسديّة[٣].

---

(١) محمد رسول الله (٢/ ١٠ و١١) بتصرف واختصار.
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٦٤).
(٣) الإصابة (١٢/ ١٠٤)، وأسد الغابة (٧/ ٤ و٥).

٢ ـ أسماءُ بنتُ سلمةَ ، وقيل: سلامةُ التّميميّة الدّارميّة ، كانتْ من المُهاجراتِ ، هاجرتْ مع زوجِها عيّاشِ بنِ أبي ربيعة إلى أرضِ الحبشةِ ، وولدتْ له بها عبد الله بن عيّاش ثمّ هاجرت إلى المدينة[١] .

٣ ـ أسماءُ بنتُ عميس بن معد الخثعميّة ، أسلمتْ بمكّة قديماً ، وهاجرت إلى الحبشَةِ مع زوجها جعفرَ بنِ أبي طالب ، فولدَتْ له بالحبشَة عبدَ الله ، وعوناً ، ومحمّداً ، ثم هاجرت إلى المدينةِ ، كانت السّيدةُ أسماء هذه حصيفةً منجبةً ، تدرك مغزى الهجرةِ ، فلم تحتملْ أنْ يُشَار إليها ولمثيلاتها بأنهنّ لَسْنَ من المهاجراتِ الأُول إلى الحبشَةِ ، أو أنَّ المهاجرين إلى المدينةِ أولى بالنّبي ﷺ منهن ، وقد كُنّ بالحبشة فلم يلحقْنَ بالنّبيّ ﷺ إلاّ في أيّام غزوة خيبر .

* جاء في الصَّحيح وغيره أنَّ أسماءَ بنتَ عميس لما قدمت من أرضِ الحبشة دخلَتْ على حفصةَ بنتِ عمر زوج النّبيّ ﷺ زائرةً ، فدخل عمرُ على ابنته حفصةَ وأسماء عندها؛ فقال عمر : «مَنْ هذه»؟

قالت : «أسماءُ بنتُ عُميس» .

قال عمر : «آلحبشيةُ هذهِ؟ آلبحريةُ هذهِ؟» .

فقالت أسماءُ : «نعم» .

فقال عمر : سبقناكُم بالهجرةِ ، فنحنُ أحقُّ برسولِ اللهِ ﷺ منكم» .

فغضبتْ أسماءُ وقالت : «كلاّ واللهِ ، كنتم مع رسولِ الله ﷺ يُطعِمُ جائعَكم ويعظُ جاهلكم ، وكُنّا في أرضِ البعداءِ البُغضَاء بالحبشَة ، وذلك في اللهِ وفي رسولهِ ﷺ ، وايمُ اللهِ لا أطعمُ طعاماً ، ولا أشربُ شراباً حتى أذكرَ ما قلتَ لرسول اللهِ ﷺ ، ونحنُ كنّا نؤذى ونُخَاف ، وسأذكرُ ذلك للنّبي ﷺ واسأله ، واللهِ لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ عليه» .

فلمّا جاءَ النَّبيُ ﷺ ، قالَتْ : «يا نبيَّ اللهِ إنَّ عمرَ قال كذا وكذا» فقال رسولُ الله ﷺ : «فما قُلْتِ له»؟

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٩ و١٠).

قالت: «قلتُ له كذا وكذا».

قال: «ليس بأحقّ بي منكم ولهُ ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهلُ السَّفينةِ هجرتان».

قالت: «فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحاب السَّفينةِ يأتونني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديثِ، ما منَ الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسِهم مما قال لهم رسول الله ﷺ؛ ولقد رأيتُ أبا موسى، وإنّه ليستَعيدُ هذا الحديث منّي»[1].

٤ ـ أمُّ حبيب بنتُ سعيد بن يربوع، ذكر البلاذري أنّها هاجرتْ إلى الحبشَة[2].

٥ ـ أمُّ حبيبةَ بنةُ أبي سفيان القرشيّة الأمويّة، زوج النّبيّ ﷺ، إحدى أمّهات المؤمنين رضي الله عنها، كنيتْ بابنتها حبيبةَ بنتِ عُبيد الله بن جحش واسمُها رملة بنت أبي سفيان.

* وكانت من السَّابقات الأُولَياتِ إلى الإسلام، وهاجرتْ مع زوجِها عُبيد الله إلى الحبشَة، واستقرتْ هناك، فتنصّرَ عُبيدُ الله، وماتَ بالحبشَةِ نصرانياً، وبقيت أمُّ حبيبة مسلمةً بأرضِ الحبشَة، إلى أنْ أرسل النّبيُ ﷺ يخطبُها إلى النّجاشي، في قصّةٍ مشهورةٍ متعالمة في السّيرة وغيرها.

٦ ـ أمُّ حرملةَ بنتُ عبد الأسود، واسمُها خالدة، قال ابنُ حبيب: «كانت امرأةً صالحةً مِنَ المهاجراتِ» أسلمَتْ قديماً، وهاجرت إلى الحبشَةِ مع زوجِها جَهْم بنِ قيس.

٧ ـ أمُّ كُلثوم بنتُ سُهيل بن عمرو القرشيّة العامريّة، أسلمَتْ أوّلَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٠٢)، ومعنى قول أسماء «وكنّا في دار البعداء البغضاء» قال النّووي رحمه الله: «قال العلماء: البعداءُ في النَّسب، البُغَضاء في الدين، لأنّهم كانوا كفّاراً إلاّ النّجاشي، وكان يستخفي بإسلامهِ عن قومه، ويوري لهم». ومعنى «أرسالا»: فوجاً بعد فوج.

(٢) الإصابة (١٣/ ١٩٠).

الإسلام ، وهاجرتْ إلى أرضِ الحبشة مع زوجِها أبي سبرة بن أبي رُهْم ، وأمّ كلثوم هذه أختُ أبي جَنْدل ، بايعتِ النّبي ﷺ وهاجرتْ إلى الحبشةِ الهجرة الثّانية ، وولدت لأبي سبرة محمّداً ، وعبد الله.

٨ ـ أميمةُ بنتُ خلف بن أسعد الخزاعيّة ، وهي زوجُ خالد بن سعيد بن العاص ، أسلمتْ قديماً ، وهاجرتْ مع خالدٍ إلى أرضِ الحبشَة ، وكانتْ من السّابقات إلى الإسلام. وقيل: اسمها أمينة ، وقيل: هُمينة ، وولدتْ بالحبشة سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد.

٩ ـ بركةُ بنتُ يسار ، امرأةُ قيسِ بنِ عبد الله الأسديّ ، وهي مولاةُ أبي سُفيانَ ، هاجرتْ مع زوجِها إلى أرض الحبشة[١].

١٠ ـ حبيبةُ بنتُ عُبيد الله بن جحشٍ ، ربيبةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، أمُّها أمّ حبيبةَ بنت أبي سفيان بن حربٍ زوج النّبي ﷺ. هاجرتْ حبيبةُ مع أمّها إلى الحبشَة ، ورجعتْ بها إلى المدينة[٢].

١١ ـ حسنةُ أمُّ شُرَحبيل ابن حسنةَ ، أسلمتْ وهاجرتْ إلى الحبشَةِ مع زوجها سُفيان بن معمر بن حبيب ، ومعه ابناه: خالد وجنادة ، وامرأته حسنة ، وهي أمّهما ، وأخوهما لأمّهما شُرَحْبيل ابن حسنة.

١٢ ـ خزيمةُ بنتُ جَهم بن قيس العبدريّة ، هاجرتْ مع أبيها وأمّها خولةَ بنتِ الأسود أمّ حرملة إلى أرضِ الحبشة[٣].

١٣ ـ رملةُ بنتُ أبي عوف بن صُبَيرة زوجُ المطّلبِ بن أزهرَ بنِ عوف الزّهريّ ، أسلمت بمكةَ قديماً قبل دارِ الأرقم وبايعتْ وهاجرتْ إلى الحبشَةِ ، وولدت للمطّلب هناك عبد الله بن المطلب ، ورملةُ هذه هي ابنةُ أخي أبي وداعة بن صُبيرة السّهمي[٤].

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٣٥).

(٢) الاستيعاب (١٢/ ٢٥٣) بهامش الإصابة.

(٣) أسد الغابة (٧/ ٨٧).

(٤) أسد الغابة (٧/ ١١٩).

١٤ ـ ريطةُ بنتُ الحارث بن جَبَلَة ، هاجرتْ مع زوجها الحارثِ بنِ خالد بن صخر إلى أرضِ الحبشَة ، وولدت له هناك موسى ، وأخواته: عائشة ، وفاطمة ، وزينب ، ثم خرجُوا من أرضِ الحبشة إلى المدينة ، فلما وردوا ماءً من مياهِ الطَّريق شربوا منه ، فلم يغادروه حتى توفيتْ ريطةُ ، وبنوها المذكورون إلاّ فاطمةُ بنتُ الحارث.

١٥ ـ سودةُ بنتُ زمعةَ القرشيّة العامريّة أمّ المؤمنين ، هاجرتْ مع زوجها السَّكران بن عمرو إلى أرضِ الحبشَةِ ، وأخبارها كثيرةٌ في المصادر ، قال ابنُ سعيد: «أسلمتْ سودةُ وزوجُها ، فهاجرا إلى الحبشة».

١٦ ـ عمرةُ بنتُ السَّعدي بن وقْدان العامريّة ، امرأةُ مالك بن ربيعة بن قيس ، هاجرتْ إلى أرضِ الحبشَة[١].

١٧ ـ الفارعةُ بنتُ أبي سفيانَ بنِ حربٍ القُرشيّة الأمويّة ، كانت عند أبي أحمد بن جحش الأسديّ. وكان أوّل مَنْ خرج إلى الحبشَةِ مهاجراً عبد الله بن جحش ، احتملَ بأهلهِ وأخيه ، وهو أبو أحمد وكانت عنده الفارعةُ بنتُ أبي سفيان بن حرب[٢].

١٨ ـ فاطمةُ بنتُ صفوان بنِ أميّة ، أسلمتْ بمكَّة قديماً ، وهاجرت مع زوجها عمرو بن سعيد بن العاص إلى أرضِ الحبشة وماتت بها.

١٩ ـ فاطمةُ بنتُ علقمة العامرية أمّ يقظة ، أسلمتْ بمكَّة قديماً ، وبايعتْ وهاجرتِ الهجرةَ الثانية إلى الحبشة مع زوجها سَليطِ بنِ عمرو ، فولدت له هناك سَليط بن سَليط.

٢٠ ـ فاطمةُ بنتُ المجلل القرشيّة العامريّة ، كانت من السَّابقاتِ إلى الإسلامِ ، وممَّنْ هاجر إلى الحبشَة مع زوجها حاطب بن الحارث بن معمر ، وابناه محمد والحارث ، وتوفي زوجُها بالحبشَةِ ، وقدمتْ هي وابناها إلى المدينةِ في إحدى السَّفينتَيْن.

---

(١) أسد الغابة (٧/ ١٩٩).

(٢) الإصابة (١٣/ ٦٨).

٢١ ـ فكيهةُ بنتُ يسار امرأة خطّاب بن الحارث ، أسلمتْ بمكَّة قديماً ، وبايعتْ وهاجرتْ الهجرتَيْن(١) .

* لاحظنا أنّ كل هؤلاء المهاجرات من السَّابقات إلى الإسلام في مكّةَ في مطْلَعِ شَمْسِ الرّسالة ، وقد هاجرنَ طائعاتٍ راغباتٍ في رضوانِ الله ناسياتٍ ما تحملْنَه من عذاب ومشقّة .

* مكثتْ هؤلاء السَّابقات في الحبشة حيناً من الدَّهْر إلى أنْ عادتْ مجموعةٌ منهنَّ حينما بلغهنّ إسلامُ أهلِ مكّةَ الكاذب؛ وقَدْ ذكَرَ ابنُ إسحاق طائفةً من العائدين والعائدات منهم: رقيةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ مع زوجها ، وسهلةُ بنتُ سهيل مع زوجها ، وأمُّ سلمة بنت أبي أمية مع زوجها ، وليلى بنتُ أبي حثمة مع زوجها ، وأمُّ كلثوم بنتُ سُهيل ، وسودةُ بنتُ زمعةَ ، وأسماءُ بنتُ عميس ، وريطةُ بنتُ الحارث ، وفارعةُ بنتُ أبي سفيان ، حتى إذا دنوا من مكّة بلغَهم أنَّ ما كانوا تحدثوا به من إسلامِ أهلِ مكّةَ كان باطلاً ، فلمْ يدخلْ منهم أحدٌ إلاّ بجوارٍ أو مستخفياً ، وكان ممن دخل منهم بجوارٍ: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ وامرأته ، دخلَ بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطلب .

* وتذكر كتُبُ السّيرةِ وغيرها أنَّ المهاجراتِ إلى الحبشَةِ قد عانين كثيراً من المصاعبِ ، ذلك أنَّ المسلمين عندما هاجروا إلى الحبشة ، أرسلت قريش خلفهم مَنْ حاول أن يلحقَ بهم قبل ركوبِ السَّفينةِ ، وعندما استقروا بالحبشَةِ أرسلوا في طلبهم ، واستخدموا في ذلك الرّشوةَ والحيلةَ والوقيعةَ بين المسلمين والنّجاشي .

* وتوفيتْ بعضُ المهاجراتِ في أرضِ الحبشَةِ ، فقد ماتت فاطمةُ بنتُ صفوان بن أميّة ، وأمُّ حرملة بنت عبد الأسود ، وريطةُ بنتُ الحارث ، وابنتاها : عائشة وزينب .

* وهناك نساءٌ عانَيْنَ نوعاً آخر من المصائب إذ مات عنهنّ أزواجهنّ بالحبشَة وهن: فاطمةُ بنتُ المجللِ مات عنها زوجُها حاطبُ بنُ الحارث ،

---

(١) الإصابة (١٣/ ٩٢).

ورملةُ بنتُ أبي عوف مات زوجُها المطلبُ بنُ أزهرَ ، وفكيهةُ بنتُ يسار مات عنها زوجها حطّابُ بنُ الحارث ، وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان مات زوجها عُبيدُ اللهِ بنُ جحش نصرانياً.

* خرجَ هؤلاء جميعاً من ديارهم وأموالِهم في سبيلِ الله ، فأكرمهم اللهُ وعوَّضَهم خيراً ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

* * *

# الفصلُ الثَّامنُ
# السَّابقاتُ في الهجرة إلى المدينةِ المنوّرة

* كان رسولُ اللهِ ﷺ يعرضُ نفْسَه في مواسمِ الحج على القبائلِ التي تَفِدُ إلى مكّة كلّ عام ، وكان نفرٌ من مشركي مكّة يرتجفون فَرَقاً مِنْ أنْ يُلقيَ النَّاسُ أسماعَهم إلىٰ رسولِ الله ﷺ ، فكانوا يتبعونَه أينما سار يحذّرون النّاسَ منه ، وإذا ما تأهَّبَ ليقرأَ آياتٍ من القُرآنِ الكريم أخذوا في التّصفيقِ والصَّفيرِ والصّياحِ حتى تعلوَ أصواتُهم على ترتيله .

* وكانت أيّامُ المواسمِ تتوالى حتّى كان يومٌ من الأيّامِ خرجَ ﷺ إلى مِنَى بعيداً عن مضايقاتِ قريش ، وبينما هو عند جمرةِ العقبة إذ لقي نَفراً من الخزرج من بني النّجّار وهم : أسعدُ بنُ زرارة ، وعونُ بنُ الحارث ، ورافعُ بنُ مالك ، وقطبةُ بنُ عامر ، وعقبةُ بنُ عامر ، وجابرُ بنُ عبد الله بن رئاب ، وكان هؤلاء السّتة يتكلّمون ، فاقتربَ منهم ﷺ ، وأخذَ يحدثُهم فقال لهم : «مَنْ أنتم»؟ قالوا : «نفرٌ منَ الخزرج من يثرب[1] . . . » .

---

(١) «يثرب» : هذا اسمٌ كان للمدينةِ المنورةِ قبل أنْ يهاجرَ إليها النبي الكريم ﷺ ، وهي المدينة الثانية في الإسلام من حيث البركة واليُمن والتقديس ، وزعموا أنها سميت على اسم «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن أبرم» ، وتاريخها قديم جداً ، وفد إليها الأوس والخزرج وهما من أكبر القبائل العربية ، فاستوطنوها ، وفيها نخل كثير ومياه غزيرة ، ومن الجدير بالذكر أنَّ النبي ﷺ قد دخلها مهاجراً يوم الاثنين (١٢ أو ١٣ ربيع الأول) ، ونزل على بني النّجار ، وفي هذا يقول السبكي في تائيته :

نـزلـتَ علـى قـومٍ بـأيمـن طـائـرٍ    لأنَّـك ميمـونُ السَّنـا والنَّقيبـةِ
فيـالبَنـي النَّجّـار مـنْ شـرفٍ بـه    يجـرّون أذيـالَ المعـالـي الشَّـريفـةِ =

قال: «من موالي اليهودِ»؟ ـ أي حلفائِهم ـ.

قالوا: «نعم».

قال: «أفلا تجلسونَ أكلّمُكم»؟

قالوا: «بلى».

* فجلسوا معه ﷺ ، فَشَرَحَ لهم حقيقةَ الإسلامِ ودعوتَه ، ودعاهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتلا عليهم آياتٍ من القُرآنِ الكريمِ ، فكانوا مسرورين بِسِحْرِ بيانهِ وإعجازِه ، وبيان سحره وإيجازه ، وأرادَ اللهُ لهم الهدايةَ والخير ، فقال بعضُهم لبعضٍ ـ وقد تذكّروا أصواتَ اليهودِ المتوعدةِ لهم كلّما وقعَ بينهم وبينهم شيءٌ من الشَّرِّ ـ: «تَعْلَمُون واللهِ يا قوم ، إنّه للنّبيّ الذي توعدُكم به يهود ، فلا تسبقنّكم إليهِ ، فأسرعُوا إلى إجابةِ دعوتهِ وأسلموا».

* وكان هؤلاء النّفر من شبابِ يثرب وعقلائهم ونبلائهم ، وقد أهلكَتْهم الحربُ الأهليةُ التي مضَتْ من قريب ، والتي لا يزالُ شرُّهَا مستطيراً ولهيبُها مُسْتعراً ، ورجوا أنْ تكونَ دعوتُهُ ﷺ سبباً لوضْعِ الحرب ، فأسلموا وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوةِ والشَّرِّ ما بينهم ، فعَسى أنْ يجمعَهم اللهُ بكَ؛ فسنقدمُ عليهم ، فندعوهم إلى أمرِكَ ، ونعرضُ عليهم الذي أجبناكَ من هذا الدّين ، فإنْ يجمعَهم اللهُ عليكَ فلا رجلٌ أعزَّ منك».

* ولما رجعَ هؤلاء إلى المدينةِ ، حملُوا إليها رسالةَ الإسلامِ ، حتى لم تبقَ دارٌ من دُوْرِ الأنصارِ[1] إلا فيها ذكْرُ رسولِ الله ﷺ.

= وعند بني النّجار بنى النبي ﷺ مسجده ، واتّخذ شطراً منه بيوتاً له ولأزواجهِ أمّهات المؤمنين ، ثم جعل المدينة مركزاً للدعوةِ الإسلاميةِ ، وليثرب هذه (٢٩ اسماً) منها: المدينة المنورة ، طيبة ، الجابرة ، الخيرة ، الناجية. . . . وغيرها. وهناك كتُب ومصنفات كثيرة تحدثت عن المدينة المنورة من أبرزها: تاريخ المدينة المنورة ، والمغانم المطابة ، ومثير الغرام الساكن ، والتحفة اللطيفة وغيرها.

(١) «الأنصار»: الأنصارُ اسمٌ كريمٌ لطيفٌ سمّى به النّبيّ ﷺ أهْل المدينةِ المنورة من الأوس والخزرج ، والأوسُ والخزرج قبيلتان عربّيتان كبيرتان من أصل يماني ، نصروا النبي ﷺ عندما هاجر إليهم من مكة بعد (١٣ سنة) من بدءِ الدّعوة الإسلامية ، وآوى الأنصارُ =

* ثم جاءتْ بيعةُ العقبةِ الأولى ، واتّصل اثنا عشَر رجلا بالنّبي ﷺ وبايعوه بيعةَ النّساء ـ أي وفْقَ بيعته التي نزلَتْ عند فتْح مكَّةَ المكرمة والتي سنعرضُ لها ـ بإذن الله ـ في أردان الكتاب وثناياه.

* أخرجَ البخاريُ بسنده عن عبادةَ بنِ الصَّامتِ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا باللهِ شيئاً ، ولا تسرقُوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلُوا أولادَكم ، ولا تأتون ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروفٍ ، فَمَنْ وفى منكم فأجرهُ على اللهِ ، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلك شيئاً فعُوقبَ به في الدنيا فهو له كفّارة ، ومَنْ أصاب مِنْ ذلك شيئاً فستَرهُ اللهُ فأمْرُهُ إلى اللهِ ، إنْ شاءَ عاقبه ، وإنْ شاءَ عفَا عنه» قال: «فبايعتُه على ذلك»[1].

* وبعد أنْ تمَّتِ البيعةُ ، بعثَ النَّبيُ ﷺ مع هؤلاء المبايعين الميامين مصعبَ بنَ عمير العبدريّ رضي الله عنه حتّى يعلّمَهم شرائعَ الإسلام ، ويفقهَهم في الدِّين ، ويقومَ بنشرِ الإسلامِ بين الذين لا يزالُون مقيمين على الشّرك. وتمت مهمةُ مصعب بنجاح ميمون ، وقدمَ في موسمِ الحجّ ببضعٍ وسبعين نفراً معهم امرأتان ، فبايعهم ﷺ ، وسميّت تلك البيعة «بيعة العقبةِ الكُبرى».

* ولهذه البيعةِ قيمةٌ كبرىٰ إذ فتحَ اللهُ بها وطناً آمناً حصيناً للمهاجرين ، وما هو عن مكَّةَ ببعيدٍ ، ولما بايعَ النَّبيُ ﷺ الأنصارَ هاتيكَ البيعة الميمونة قال

---

= المهاجرين المسلمين الذين قدموا من مكة تاركين دورَهم وأموالَهم ابتغاءَ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ ، وقد أطلق اللهُ عزَّ وجلّ في القرآن الكريم هذه الصّفة «الأنصار» على المؤمنين من أهل المدينة المنورة الذين رحّبوا أجمل ترحيب بقدوم النبي ﷺ وأصحابه ، وآخى النبي ﷺ بينهم وبين المهاجرين إخاءً كريماً متوجاً بالإيمان والتّوحيد ، حتى غلبت هذه الصِّفةُ «الأنصار» عليهم ، ومن ثمَّ جرت مجرى الأسماء وصارتِ النّسبةُ إلى الأنصار: «الأنصاري».
ومعنى الأنصار لغةً: النّاصرون ، وجاء لفظ «الأنصار» مرتين في القرآن الكريم ، أما لفظ «أنصار» فقد ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٩٢).

للسَّابقين والسَّابقات ولأصحابهِ المُسلمين: «إنَّ الله قد جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنون بها» فخرجُوا أرسالاً[1].

* وتوجَّهَ المسلمون تلقاءَ المدينةِ مهاجرين، وكان أبو سلمةَ بن عبد الأسد المخزوميّ أوَّلَ مَنْ قدمها من المهاجرين، ثمَّ عامرُ بنُ ربيعةَ معه امرأتُه ليلىٰ بنتُ أبي حثمةَ، ثم عبدُ اللهِ بن جَحْش معه أهلُه وأخوه عبد بن جحش.

* ثم قدم المهاجرون جماعاتٍ، وتركُوا ديارهم كلَّها، ولم يلتفتوا إلى حُطامِ الدّنيا وزُخرفها، حتى غُلّقت أبوابهم بمكّةَ ليس فيها ساكن ولا أنيسٌ ولا سامر.

* وخرجتْ جماعاتٌ من النِّساء سجّلتهنّ ذاكرةُ التَّاريخِ على صفَحاتٍ من الغَار والمجدِ المؤثّل، فقد خرجَ من نساءِ بني جحش المهاجرات: «زينبُ بنتُ جحش، وأمُّ حبيب بنتُ جحش، وجدامةُ بنتُ جندل، وأمُّ قيس بنت مِحْصَن، وآمنةُ بنتُ رقيش، أسلمْنَ قديماً وهاجرنَ إلى المدينةِ مع أهل بيوتهنّ؛ وأمُّ حبيب بنتُ ثمامة، وسخبرةُ بنتُ تميم، وحمنةُ بنتُ جحش»[2].

* ومَنْ يقرأْ أسماءَ النّساءِ المبايعاتِ من قريش وحلفائهم ومواليهنّ يجدْ أغلبهنَّ من المهاجراتِ، وقد ذكر ابن سعد في «الطَّبقات» قرابةَ ستين مهاجرة من غرائبِ نساءِ العربِ المسلماتِ المُهاجراتِ المبايعاتِ، سوى النِّساءِ المُهاجراتِ من بنَاتِ النَّبي ﷺ، وعمّاتهِ، وبناتِ عمومته، وأزواجه.

* وهناك صحابياتٌ كثيراتٌ هاجرنَ إلى المدينةِ المنورةِ منهنّ: أروى بنتُ كريز أمُّ عثمانَ بنِ عفان، وبُسْرةُ بنتُ صفوان، وحفصةُ بنتُ عمر بن الخطاب، والشَّفَّاءُ بنتُ عبد الله العدويّة، وعاتكةُ بنتُ زيد العدويّة، وأمُّ أبي موسى الأشعري، وغيرهنّ كثيرات، وقد ذكرتُ معظمهنَّ في كِتَابيَ «نساءٌ من عَصْر النبوة»[3] و«نساءٌ مبشَّراتٌ بالجنة»[4].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٩٦) طبعة مصر ١٩٦٠م.
(٢) السيرة النبوية (٢/ ٨٠).
(٣) و (٤) الكتابان مطبوعان عدة طبعات بدار ابن كثير في دمشق ومتداولان بين أيدي الناس.

* وتروي كتبُ السّيرةِ وغيرها أنَّ كثيراً من المهاجراتِ السَّابقات قد لاقَيْنَ المخاطر في هجرتهنّ ، فقد كانت هجرةُ هؤلاء المسلمات عملاً اتّسمَ بالجرأةِ واقتحامِ المصَاعب ، والتّضحية بكلّ شيءٍ ، ونحنُ نعلمُ بأنهنّ قد أُكْرِهْنَ على الهجرةِ وتَرْكِ أوطانهنّ ، وهذا شيءٌ صَعْبٌ على النَّفْس ، لكنّهنَّ استعذبْنَ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله.

* هاجرتِ السّابقاتُ مع ذويهنّ ، وكانتِ التضحيةُ كبيرةً ، تركْن الأرضَ والأهلَ والولدَ والمال ، ولاقَيْنَ أهوال السَّفرِ والغربةِ ، ولكنَّ ذلك كلَّه كان محنةً ، وستنقلبُ إلى منحةٍ ربانيةٍ ليس لها حدود.

* ومن السَّابقاتِ اللواتي قاسَيْن آلامَ الهجرةِ سيّدتُنا زينبُ بنتُ النّبي ﷺ ، فقد ركبتْ بعيرَها وخرجتْ نحو المدينةِ مهاجرةً ، وتحدَّثَ بذلك رجالٌ من قريش ، فخرجُوا في طلبها حتى أدركوها ، فكان أوّلُ مَنْ سبقَ إليها هبّارُ بنُ الأسود فروَّعها بالرّمح ونخسَ بعيرها وكانت حاملاً ، فسقطتْ على الأرضِ ، ثم ضربَها بالرّمح على ظَهْرِهَا حتى أسقَطتْ جنينها ، وما زالت مريضةً بالنّزيفِ الذي كانَ يعاودُها من ذلكَ اليومِ حتى ماتَتْ رضي الله عنها.

* وممن قاسيْنَ أهوال الهجرةِ وآلامها أمُّ سلمة أمّ المؤمنين ، إذ أخذُوا منها ابنَها وخلعُوا يده ، وفرقُوا بينها وبين زوجِها الذي كان في أوّلِ المهاجرين إلى المدينةِ المنورةِ.

* فقد كان في طليعةِ المُهاجرين السَّابقين أبو سلمةَ عبدُ الله بنُ عبد الأسد المخزوميّ أحدَ ذوي الهجرتَيْن: هجرةِ الحبشة ، وهجرةِ المدينةِ المنوّرةِ ، كان أبو سلمةَ أبيّاً شُجاعاً هاجر مُستعلناً تحت بَصَرِ قومهِ وسمعِهم ، وقد أحبَّ أنْ يصطحبَ معه زوجتَه الوفيّة أمَّ سلمة ، ولكنَّ المفاجآتِ كانت كثيرة ، وسنسمعُ من سيّدتنا أمِّ سلمة إذ تكشفُ عن روائعِ الإيمانِ في هجرتِها وهجرةِ زوجِها فتقول: «لما أجمعَ أبو سلمةَ الخروجَ إلى المدينةِ رحَّلَ لي بعيرَهُ ثمّ حمَلني عليه ، وحمل معي ابني سلمةَ بنَ أبي سلمة في حِجْري ، ثمَّ خرج بِي يقودُ بعيره ، فلمّا رأَتْهُ رجالُ بني المغيرة قاموا إليهِ فقالوا: يا أبا سلمةَ ، هذه نفسُكَ غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتكَ هذهِ؟ علامَ نتركُكَ تسيرُ بها في البلادِ؟!

فنزعُوا خُطامَ البعيرِ من يدهِ ، فأخذوني منه. وغضبَ عند ذلك بنو عبدِ الأسدِ رَهْطُ أبي سلمةَ ، فقالوا: لا واللهِ ، لا نتركُ ابننَا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا بُنَيَّ سلمةَ بينهم حتى خلعُوا يدَهُ ، وانطلقَ بهِ بنو عبد الأسد ، وحبسَني بنو المُغيرة عندهم ، وانطلقَ زوجي أبو سلمةَ إلى المدينةِ ، ففرّقَ بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنتُ أخرجُ كلَّ غداةٍ فأجلسُ بالأبطحِ ، فلا أزالُ أبْكي حتى أُمْسي: سَنَةً أو قريباً منها ، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي ، فرأىٰ ما بي فرحمني ، فقالَ لِبَني المُغيرة: ألا تُخْرِجُون هذه المسكينة! فرّقْتُم بينها وبين زوجِها وبين ولدِها!

فقالوا لي: الحَقِي بزوجك إنْ شئتِ؛ وردَّ بنو عبد الأسدِ إليّ عند ذلك ابني. فارتحلتُ بعيري ، ثمّ أخذتُ ابني فوضعتُه في حجري ، ثم خرجتُ أريدُ زوجي بالمدينةِ ، وما معي أحدٌ من خَلْقِ الله. فقلتُ: أتبلّغُ بمن لقيتُ حتّى أقدمَ على زوجي ، حتّى إذا كنتُ بالتَّنعيم لقيتُ عثمانَ بنَ طلحةَ بن أبي طلحةَ العبدريّ ، فقال لي: إلى أين يا بنتَ أبي أميّة؟

قلت: أريدُ زوجي بالمدينةِ.

قال: أوَ ما مَعَكِ أحدٌ؟

قلتُ: لا واللهِ ، إلاّ الله ، وبُنيَّ هذا.

قال: واللهِ مالَكِ منْ مَتْرَكٍ.

فأخذَ بخطامِ البعيرِ ، فانطلقَ معي يهوي بي ، فو اللهِ ما صحبتُ رجلاً من العرب قطّ ، أرى أنّه كان أكْرمَ منه ، كان إذا بلغَ المنزلَ أناخَ بي ، ثمّ استأخرَ عنّي ، حتى إذا نزلتُ استأخرَ ببعيري فحطَّ عنه ، ثمَّ قَيَّدَهُ في الشَّجرة ، ثم تنحّى عنّي إلى شجرةٍ فاضطجعَ تحتَها ، فإذا دنا الرّواحُ قامَ إلى بعيري فقدّمه فرحّله ، ثمّ استأخرَ عنّي وقال: اركبي. فإذا ركبتُ واستويتُ على بعيري أتى فأخَذَ بخطامهِ ، فقادَه ، حتّى ينزلَ بي ، فلم يزلْ يصنعُ ذلك بي حتّى أقدمني المدينةَ في قباء وقال: زوجُكِ في هذه القريةِ فادخُليها على بركةِ الله ، ثمَّ انصرفَ راجعاً إلى مكّةَ ، وواللهِ ما أعلمُ أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصابَ

آل أبي سلمة ، وما رأيتُ صاحباً قط كان أكرمَ من عثمانَ بنِ طلحةَ»[1].

* وقد صدقت سيّدتنا أمُّ سلمة رضي الله عنها ، فما قاسَتْهُ في التَّفريقِ بينها وبين زوجِها ، وما رأتْه في نَزْعِ ابنها من حجرِها حتى خُلِعَتْ يدُهُ ، وما لزمتْهُ من خروجِها إلى الأبطحِ نهارَها تبكي سَنَةً أو قريباً منها أمورٌ عظيمةٌ صَبَرتْ عليها صبْراً جميلاً ، احتملَتْ حتّى قيّضَ لها اللهُ فرجاً قريباً ، فتركها قومُها وهاجرتْ ، ولقيتْ عثمانَ بنَ طلحة العبدريّ فكان كريمَ النّفس ذا نخوةٍ وفتوّةٍ وأخلاقٍ فصحبَها حتّى أوصلَها المدينةَ المنورة.

* ومن العجيب أنَّ السَّابقات والمهاجراتِ والصّحابياتِ لم يغبْنَ عن هجرةِ النّبي ﷺ ، وكان لهنّ حضورهنّ الظّاهرِ الواضحِ في جميعِ مراحلِها منذ بدايتها إلى أنْ حطَّ رَحْلَهُ في المدينةِ المنورة.

* فهذه السَّيِّدةُ رقيقةُ بنتُ أبي صيفي بن هاشم تحذِّرُ النَّبيَّ ﷺ قُبيل الهجرةَ بنيّةِ المشركين وغدرِهم وما يُبيِّتُونَه له ﷺ ، روت رقيقةُ أنَّها قالت للنّبي ﷺ: «إنَّ قريشاً قد اجتمعتْ تريد بياتكَ ـ مفاجأتَكَ ـ الليلة» فتحوّل رسولُ اللهِ ﷺ عن فراشِهِ ، وباتَ عليه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

* ولكَ أنْ تتخيَّلَ أيّ مكانةٍ بلغَتْها رقيقةُ هذه ، فقد عرفَتْ خبيئةَ المُشركين ودخيلَتَهُم ، وخطَرهم وغدرهم ، فأسرعتْ وألقَتْ ما سمعتْ وما عرفتْ أمامَ رسولِ اللهِ ﷺ ليحذرَ كيدهم وشرّهم ، وكانت رقيقةُ قد بلغتْ من الكبرِ عتياً حتّى وهَنَ العظمُ منها ، واشتعلَ الرّأسُ شيباً ، ولكنّها كانت واعيةً لحجمِ الخطرِ المحدقِ برسولِ الله ﷺ.

* وإذا كُنّا نتحدثُ عن هجرةِ النّبي ﷺ فلا ننسى أسماءَ وعائشةَ بنْتَي الصِّدّيق رضي الله عنهم أجمعين ، تقول أمُّنا عائشةُ: «كان لا يخطىءُ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يأتيَ بيتَ أبي بكر أحدَ طرفي النَّهار ، إمَّا بكرةً ، وإمَّا عشيةً ، حتى إذا

---

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ١٢٣ و١٢٤) ، بتصرف يسير جداً.

(٢) الإصابة (١٢/ ٢٥٦) ، ومع هذا علينا ألا ننسى أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ يخبره بمؤامرة قريش: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه».

كان اليومُ الذي أُذِن فيه لرسولِ الله ﷺ في الهجرةِ ، أتَانَا بالهاجرةِ ، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها . فلمّا رآهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه قال : ما جاءَ رسولُ الله ﷺ هذه السَّاعة إلاّ لأمْرٍ حدَثَ . فلمّا دخلَ تأخَّرَ له أبو بكرٍ عن سريرِهِ ، فجلسَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وليسَ عند أبي بكر إلاّ وأنا وأُختي أسماء ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «أخرجْ عنّي مَنْ عندكَ» .

فقال : يا رسولَ اللهِ ، إنّما هما ابنتاي ، وما ذاكَ فِداك أبي وأمّي ؟ !

فقال ﷺ : «إنَّ اللهَ قد أذِنَ لي في الخروجِ والهجرةِ» .

قال : «الصُّحبة»[١] .

قالت عائشةُ : «فجهّزْناهما أحثَّ الجهازِ ، وصنعْنَا سفرةً في جراب ، فقطعتْ أسماءُ بنتُ أبي بكر قطعةً من نطاقِها ، فربطَتْ به على فَمِ الجرابِ فبذلك سمّيت ذاتَ النِّطاق»[٢] .

* وعندما استقرَّ النّبيُ ﷺ وصاحبه بالغار كانت أسماءُ بنتُ أبي بكر تأتيهما بالطَّعام إذا أمستْ وقصتها في الهجرةِ مشهورةٌ يعرفُها معظمُ النَّاس .

* ولم يتوقفْ دورُ أسماءَ عند هذا الحدِّ فحسبْ ، بل تحدَّثْ لعينَ الكُفْرِ والوثنيةِ أبا جهل بنَ هشام تقولُ أسماءُ : «لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتَانَا نَفَرٌ من قريشٍ ، فيهم أبو جهلِ بنُ هِشَام ، فوقفوا على بابِ أبي بكر ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوكِ يا بنتَ أبي بكر ؟ !

قلتُ : لا أَدْرِي أينَ أبي .

فرفعَ أبو جَهْلٍ يَدهُ ، وكان فاحِشاً خبيثاً ، فلطمَ خدّي لطمةً طَرحَ منها قُرطي ، ثمّ انصرفوا»[٣] .

* وفي تَسْكِينِ جدّها أبي قحافة ، وطمأنَتِهِ تقولُ أسماء : «دخلَ علينا جدّي

---

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ١٤٢) بتصرف يسير جداً.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٩٠٥).

(٣) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ١٤٥).

أبو قحافةَ ، وقد ذهبَ بصرهُ ، فقال: واللهِ إني لأراهُ قد فجعَكم بمالهِ مع نفسْهِ.

قلت: كلا ، إنّه قَدْ تَركَ لنا خيراً كثيراً.

فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوةٍ في البيتِ الذي كان أبي يضعُ مالهُ فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذتُ بيده ، فقلتُ: ضعْ يدكَ على هذا المالِ؛ فوضعَ يدَهُ عليه، فقال: لا بأْسَ، إذا كان تركَ لكم هذا فقد أحْسَنَ، وفي هذا بلاغٌ لكم.

قالت أسماءُ: ولا واللهِ ما ترك لنا شيئاً ، ولكنّي أردتُ أنْ أسكِّنَ الشَّيخَ بذلك»[1].

* وبعد مدَّةٍ هاجرت أسماءُ لِتَلْحَقَ بزوجها الزّبير بن العوَّام ، وكانتْ في الأيّامِ الأخيرةِ منْ حملِها ، فلمّا أنْ وصلتِ المدينةَ ولدَتْ ابنها عبدَ الله بنَ الزّبير؛ فأي امرأةٍ هذه التي رسمَتْ أجملَ آياتِ الصّبرِ والفداءِ والبطولةِ في السَّبق إلى الإسلام وفي الهجرةِ والتضحية؟!.

* وبهذا كانت الهجرةُ والسَّبْقُ إلى الإسلام شرفاً وكرامةً حظيت به الصَّحابيات ، فكُنّ ذوات كرامةٍ خاصة ، ولهنَّ شرفٌ تليدٌ حظينَ به من اللهِ تعالى ، ومن رسولهِ ﷺ.

* وأودُّ في نهايةِ هذا الفصلِ أنْ أشيرَ إلى أنَّ الحقَّ لا بدَّ أنْ يظهرَ على الباطلِ مهما علا أمرُ الباطلِ ، وذلك بمدى إخلاصِ هؤلاءِ المبايعين ، الذين بذلوا الأموالَ والمهجَ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقبلُوا الشَّدائدَ بصبرٍ وتسليمٍ.

* فالمسلمون المبايعون ـ رجالاً ونساءً ـ كانوا في مكَّةَ قبل الهجرةِ على حقّ فيما يدينون به ويدعون إليه ، والجاهليةُ المتغطرسةُ على باطلٍ فيما تقومُ به من اضطهادٍ وتعذيب ، وقوّة أولئك الأخيار وعددهم لا تُوازَنْ بجانبِ قوةِ هؤلاءِ الأشرار وكثرتهم ، ولكنَّ القلّةَ المؤمنةَ صبرتْ وصابرتْ ، وأخلصتْ فكان لها الغلبة.

* ومن الواضحِ لكلّ ذي بصيرة أنَّ الهجرةَ لم تكنْ في جوهرها فراراً

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٥٢).

وهروباً ، ولم تكنْ غايةً في ذاتها ، ولكنَّها كانت أمراً لا مفرَّ منه ، ولا سبيل إليه ، حتّى تستطيعَ الرّسالةُ الخاتمةُ أنْ تحيا في بيئةٍ لا تعرف الذّلّ أو العبودية ، لأنَّها رسالةُ الكرامةِ والحقّ والإباء.

* كانت الهجرةُ أسلوباً عمليّاً في نشرِ الإسلام والدعوة إليه ، بعد أنْ فقدَ النَّبيُّ ﷺ الأملَ في مكَّةَ ، فقد صيّرها المشركونَ بيئةً فاسدةً لا تصلحُ لنشر الإسلام.

* ولأنَّ الإسلامَ رسالةٌ علميةٌ جاءت لتحرير البشرية من الشّركِ والظُّلمِ ، ولتعيدَ إليها كرامتها ، كانت الهجرةُ لتحقيق الحرية للنّاسِ أجمعين ، فلا يعلو في الأرض سلطانٌ فوق سلطانِ الله عزَّ وجلَّ ، ولا يكون لأحد سبيل على النَّاسِ فيما يؤمنون به.

* إنَّ الهجرةَ كانت مفتاحَ خيرٍ للمبايعين ، كما كانت بتضحياتها ثمناً للحرية الإسلامية والإنسانية التي كانت البشرية في أمسِ الحاجةِ إليها في ذلك العصر.

* * *

# الباب الثاني

## همسات مع البيعة والمبايعات

الفصل الأول : مدلول البيعة وأنواعها في اللغة والشرع

الفصل الثاني : التزام المبايعات بالعهد ووفاؤهن

الفصل الثالث : من كرامات المبايعات ومزاياهن

الفصل الرابع : الصحابيات في البيعات المختلفة

# الفصل الأوّلُ
# مدلولُ البيعةِ وأنواعها في اللغةِ والشَّرع

* تحدثتْ معاجمُ اللغةِ بجميع أشكالها عن مدلولِ البيعةِ ومعانيها ، ومن الذين أفاضُوا في الحديثِ عن مادة «بَيْع» ابنُ منظور في موسوعتهِ الكبرى «لسان العرب» إذا استوفَاها في بضْعِ صَفَحات ، نستخلصُ منها قوله : «البيعُ: ضدُّ الشّراء؛ والبيعُ: الشِّراء أيضاً ، وهو مِنَ الأضْدادِ ، والابتياعُ: الاشتراء. قال أبو عُبيد: البيعُ من حروفِ الأضداد في كلام العرب ، يقال: باع فلان: إذ اشترىٰ وباعَ من غيرِهِ. وابتاعَ الشَّيء: اشتراهُ وباعَه. وفي الحديثِ: نَهَىٰ عن بيعَتيْن في بيعةٍ؛ وهو أنْ يقول: بعتُكَ هذا الثَّوب نَقْداً بعشرة ، ونسيئةً بخمسَةَ عَشَر ، فلا يجوزُ ، لأنّه لا يدري أيهما الثّمن الذي يختارهُ ليقعَ عليه العقْدُ. ومن صُوره أنْ تقولَ: بعتُكَ هذا بعشرين على أنْ تبيعني ثوبَكَ بعشرة ، فلا يصحُّ للشَّرطِ الذي فيه ، ولأنَّه يسقطُ بسقوطهِ بعضَ الثّمنِ فيصيرُ الباقي مجهولاً ، وقد نُهيَ عن بيعٍ وشَرطٍ ، وبيعٍ وسَلَفٍ ، وهما هذا الوجْهان. والبيعةُ: الصَّفقةُ على إيجابِ البيع ، وعلى المبايعةِ والطّاعةِ. والبيعةُ: المبايعةُ والطّاعةُ ـ وهذا المعنى الذي نُريدهُ في هذا الكتاب ـ. وقد تبايعوا على الأمْرِ كقولكَ أصفقُوا عليه. وبايَعَه عليه مبايعةً: عاهَدهُ. وبايعتُه منَ البيعِ والبيعةِ جميعاً ، والتّبايعُ مثلُه: وفي الحديثِ النّبوي أنَّه ﷺ قال: «ألَا تبايعوني على الإسلامِ»؟ هو عبارةٌ عن المُعَاقدةِ والمعاهدةِ؛ كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ما عنده من صاحبهِ وأعطاه نَفْسَه وطاعتَه ودخيلةَ أمْرِه»[1].

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور (٨/ ٢٣ ـ ٢٦) بتصرف واختصار .

* وقال الفيّومي في «المِصْباحِ المنير»: «البيعةُ: الصَّفقة على إيجابِ البيع، وجمعها بيعات، وتُطْلَقُ على المبايعةِ والطّاعة»[1].

* فالبيعةُ إذن: هي العَهْدُ على الطَّاعة، كأنَّ المبايعَ يعاهدُ أميرَهُ على أنْ يُسَلِّم له النّظر في أمْرِ نَفْسِهِ وأمورِ المسلمين، ولا ينازعه في شيءٍ من ذلك، ويطيعُه فيما يكلِّفُه به من الأمرِ في المنشطِ والمكْرَهِ، وكانوا إذا بايعوا الأميرَ وعقدوا عَهْدَه، جعلُوا أيديهم في يدهِ تأكيداً للْعَهدِ، فأشبَهَ ذلك فعل البائعِ والمُشْتَري، فسمّي بيعةً، وصارتِ البيعةُ مصافحةً بالأيدي، هذا هو مدلولُها في عرفِ اللغةِ ومعهودِ الشَّرع.

* ويمكن أنْ نَقُولُ: «البيعةُ هي ميثاقُ الولاءِ، والالتزامُ بجماعةِ المسلمين والطّاعةِ لإمامهم» وهي ميثاقٌ إنساني يتضمّنُ ثلاثة أطراف:

١ ـ الخليفةُ نفسُهُ أو الأميرُ المُبَايَعُ.

٢ ـ الأمّةُ، وهم القائمون على البيعةِ.

٣ ـ المُبايَعُ عليه وهو الشّريعة.

* ولا تنتهي مسؤوليةُ الأمّةِ بعقدِ البيعةِ، بل تستمرُّ في تطبيقِ الشَّريعةِ من خلالِ الشُّورىٰ، ونصْحِ الحاكم.

* أمّا البيعةُ بمدلولها الشَّرعي فمعناها كما جاء في المصَادرِ الموثوقة: «البيعةُ: هو أخذُ المرشدِ من المسترشدِ العَهْدَ على إقامةِ الشَّرائع، وقد وقعتِ البيعةُ على أمورٍ مختلفة في عدّة رِوايات كالبيعةِ على الهجرةِ، والبيعةِ على الإسلام والجهاد، وكذا البيعةُ على السَّمْعِ والطاعةِ؛ وأن لا ينازع الأمْرَ أهلَهُ، ومنها البيعةُ على الصَّبر؛ قالَ العُلماءُ: تجمعُ هذه المعاني كلّها، وتبيّنُ مقصودَ كلِّ الرِّواياتِ رواية مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ «بايعناه أنْ لا نَفرَّ» الحديث، قال القُرطبيّ: كانتْ مبايعةُ النَّبيّ ﷺ لأصحابهِ ـ رضي الله عنهم ـ

---

(١) المصباح المنير (ص ٦٩) طبعة مصورة.

بحسب ما يحتاجُ إليه من تجديدِ عهدٍ أو توكيدِ أمْرٍ، فلذلك اختلفت ألفاظُهم»[1].

* والآن ما مدلولُ البيعةِ في القُرآنِ الكريمِ؟! وما معناها في ضوءِ آياتِهِ؟ وهل البيعةُ اختصّتْ بجماعةِ الرّجالِ وحدهم أمْ كان للنِّساءِ نصيبٌ فيها؟!

* هذا ما ستكْشِفُه الصّفحاتُ التّالياتُ التي نستجلي فيها حقيقةَ البيعةِ ومدلولَها في القُرآنِ الكريمِ لجماعةِ الرِّجالِ، وللنّساءِ خاصّة.

* ففي القُرآنِ الكريم فَيضٌ مِنَ الآياتِ المباركةِ التي تتحدثُ عن البيعةِ والمبايعين؛ وقد وردتْ كلمةُ البيعةِ واشتقاقاتُها في القُرآن الكريم بعدّةِ أشْكَالٍ وهي: «بايعتُم، يُبايعْنَك، يبايعونَ، يُبَايعُونَكَ، فَبَايعْهُنَّ، تبايعتُم، بَيْع، ببيعكم».

* وقد خصَّ القرآنُ الكريمُ النّساءَ في البيعةِ في موضعَيْنِ اثنينِ وفي آيةٍ واحدةٍ:

الأوّلُ: بلفظ ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا...﴾ [الممتحنة: ١٢].

الثّاني: بلفظ ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٢].

* وسيكونُ الحديثُ مفصّلاً عن بيعةِ النّساء في القرآنِ الكريمِ من خلالِ هذا الكتابِ، الذي أرجو اللهَ تعالىٰ أنْ يوفّقني في إخراجهِ وإتمامهِ.

* أمّا كيفَ بايعَ الصّحابةُ الكرامُ النّبيَّ ﷺ فهذا ما سنعرفُهُ من حديثِ جَريرٍ[2] ـ رضي الله عنه ـ، فقد أخرجَ الطّبرانيُ عن جريرٍ ـ رضي الله عنه ـ

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٢٩)، وشرح النووي على مسلم (٢/ ١٢٩).

(٢) جريرُ بنُ عبد الله بن جابرِ البجلي الصّحابي ـ رضي الله عنه ـ نزل جريرٌ الكوفَة، ثم تحوّلَ إلى قرقيسيا وتوفي بها سنة (٥١هـ) رُوي له عن رسول الله ﷺ مئة حديث، اتّفقا منها على ثمانية، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بستة. قدم جريرٌ على النبي ﷺ سنة عشْرةٍ من الهجرة فبايعه وأسلمَ. وكان عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: «جريرُ يوسفُ هذه الأمّة» لحسنِه وجمالهِ. وكان طويلاً يخضبُ لحيته، واعتزلَ الفتنة. وقال جرير كما في =

قال: «بايعنا النّبيّ ﷺ على مثْلِ ما بايعَ عليه النِّساء[1] ، مَنْ ماتَ مِنّا ولم يأتِ شيئاً منهنَّ ضَمِنَ له الجنّة ، ومَنْ ماتَ منّا وقد أتى شيئاً منهنّ ، وقد أُقيم عليه الحدُّ فهو كَفَّارةٌ ومن ماتَ منّا وقد أتى شيئاً منهنّ، فسُتِر عليه فَعَلَى اللهِ حسابُهُ»[2] .

* هذه هيَ بيعةُ الصَّحابةِ على الإسلامِ ، وهناك بيعةٌ على الإسلامِ والجهادِ ، فقد أخرج الشّيخان: البخاريُ ومسلمٌ عن مجاشع بنِ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ أنا وأخي فقلتُ: بايعْنَا على الهجرةِ فقال: «مضتِ الهجرةُ لأهلِها»[3] .

فقلت: علامَ تُبايعنا؟

قال: «على الإسلامِ والجهادِ»[4] .

* كما أنَّ هناكَ بيعاتٌ على أعمالِ الإسلامِ ، وأركانهِ ، وعدمِ السُّؤالِ بين النّاس ، من مثلِ بيعةِ ثَوبانَ ـ رضي الله عنه ـ على أنْ لا يسأل أَحَداً شيئاً.

* أخرجَ الطَّبراني في «المُعجمِ الكبيرِ» عن أبي أُمامةَ ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

= الصّحيح: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ، والنّصحِ لكل مسلم» ومناقبه كثيرةٌ رضي الله عنه. (تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٥٣ و١٥٤) ترجمة رقم (١٠٤) ، وانظر (معجم الصحابة لابن قانع ١/ ١٤٧) ترجمة رقم (١٥٥).

(١) وهي ما شرط عليهنّ من أنْ لا يشركْن بالله شيئاً ، ولا يسرقْنَ ، ولا يزنينَ ، ولا يقتلنَ أولادهنّ ، ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ، ولا يعصينَه في معروف.

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٣٦).

(٣) أي إنَّ الهجرةَ قد حصلَتْ لمن وُفّقَ لها قبل الفتح. قال النّووي ـ رحمه الله ـ: «قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: الهجرةُ من دارِ الحرب إلى دار الإسلامِ باقيةٌ إلى يوم القيامة ، وتأولوا هذا الحديث تأويلين:
أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكّة ، لأنها صارتْ دار إسلام ، فلا تتصور منها الهجرة.
والثاني: وهو الأصحُ أنّ معناه: أنَّ الهجرةَ الفاضلةَ المهمةَ المطلوبةَ التي يمتاز أهلها بها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكّةَ ، ومضتْ لأهلها الذين هاجروا قبل فتحِ مكة ، لأنّ الإسلام قويَ وعزَّ بعد فتح مكة عزّاً ظاهراً بخلاف ما قبله».

(٤) انظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري (٧/ ١٦) للعيني. والعيني هو بدرُ الدين محمودُ بنُ أحمد العيني ، من كبار المحدثين ، شرح صحيح البخاري ، أصله من حلب ، توفي سنة (٨٥٥هـ) (الأعلام للزركلي).

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يبايع»؟! فقال ثوبانُ ـ رضي الله عنه ـ مولى رسولِ اللهِ ﷺ: بايِعْنا يا رسولَ اللهِ!

قال: «على أنْ لا تسألَ أحداً شيئاً».

فقال ثوبان: فما لَهُ يا رسولَ الله؟

قال: «الجنَّة».

فبايعَه ثَوبان.

قال أبو أُمامة: فلقد رأيتُهُ بمكَّةَ في أجمعِ ما يكونُ من النّاس، يسقطُ سوطه وهو راكبٌ، فربّما وقعَ على عاتقِ رجلٍ فَيأخذه الرّجل فيناوله، فما يأخذُهُ حتّى يكونَ هو ينزلُ فيأخذه[1].

* ومن أشهرِ البيعاتِ في الإسلام؛ البيعةُ على النُّصرةِ بيعة سبعين رجلاً من الأنصارِ عند شِعْبِ العقَبةِ على النُّصرة.

* أخرج الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ في «المسند» عن جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: «مكَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ عشْر سنين يتبعُ النّاسَ في منازلهم: عكاظ[2]، ومَجَنَّة[3] وفي المواسم[4]، يقول: «مَنْ يُؤْويني، مَنْ ينْصُرني، حتّى أبلِّغ

---

(١) انظر: مسند أحمد (٥/ ٢٧٥).

(٢) «عكاظ»: هي وراء قَرنِ المنازل بمرحلةٍ على طريق صنعاء في عَمل الطَّائف على بريدٍ منها؛ وفي «المعالم الأثيرة»: وكان هذا السّوق في الجهةِ الشرقيةِ الشّمالية في بلدة «الحيرية» اليوم، وهو شمال شرقِ الطّائف على مسافةِ ٣٥ كيلاً في أسفلِ وادي يثرب، وأسفل وادي الفرج عندما يلتقيان هناك، وشرب والحريرة مازالت معروفة في ذلك الحيز.

(٣) «مجنَّة»: سوقٌ بأسفل مكةَ على بريدٍ منها. (تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٩١).
وفي «المعالم الأثيرة»: كان مجنة بمرّ الظّهران قرب جَبَل، يقال له: الأصفر بأسفلِ مكّةَ، على قدر بريد منها. قال البكري: «أولُ ما حدثتْ قبل الفيل بخمس عشرة سنة، ولم تزل سوقاً إلى سنة تسع وعشرين ومئة، فخرجَ الخوارجُ الحروريةُ، فنهبوها فتركتْ إلى الآن».
قال الواقدي: «كانت العربُ تقيمُ بسوق عكاظ شهر شوال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنّة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقلُ إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج». (معجم البلدان للحموي).

(٤) «المواسم»: هو الوقت الذي يجتمع فيه الحاج كل سنة.

رسالةَ ربّي وله الجنَّة»؟! فلا يجدُ أحداً يؤويه ولا ينصرُهُ ، حتى إنّ الرَّجُلَ لَيَخْرجُ من اليمنِ أو من مُضَر ، فيأتيهِ قومه وذوو رحمِهِ فيقولون: احْذَرْ غلامَ قريشٍ لا يفتنُكَ ، ويمضي بين رحالِهم[١] ، وهم يشيرون إليه بالأصابع حتّى بعثَنَا اللهُ إليه من يثربَ فآويناه وصدّقْناه ، فيخرجُ الرَّجلُ منّا فيؤمنُ به ، ويقرئونه القُرآن ، فينقلبُ إلى أهلهِ فيسلمون بإسلامهِ ، حتّى لم تبقَ دارٌ من دورِ[٢] الأنصارِ إلاّ وفيها رهطٌ[٣] من المسلمين يظهرون الإسلام. ثم ائتمروا[٤] جميعاً فقلنا: حتّى متى نترك رسولَ الله ﷺ يطوف ويُطردُ في جبال مكّة ويُخَاف؟ فرحلَ إليه منا سبعون رجُلاً حتى قدمُوا عليه في الموسمِ فواعدناه[٥] شِعْبَ العقبة[٦] ، فاجتمعنا عندها من رجُل ورجلَيْن حتى توافينا فقُلنا: يا رسولَ اللهِ! علامَ نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السَّمْعِ والطَّاعة في النَّشَاط والكَسَل ، والنَّفقة في العُسْر واليُسْر ، وعلى الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في اللهِ لومةَ لائم ، وعلى أنْ تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسَكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ولكم الجنّة». فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرِهم ، فقال: رويداً يا أهلَ يثرب! فإنا لم نَضْرِبْ إليهِ أكبادَ الإبل إلا ونحنُ نعلمُ أنَّه رسولُ اللهِ ، وأنَّ إخراجَه اليوم مناوَأَةٌ[٧] للعربِ كافّة ، وقَتْلُ خياركم ، وتعضّكم[٨] السُّيوف ، فإمّا أنتم قوم تصبرون على ذلكَ فخذوهُ وأجرُكُم على اللهِ ، وإمّا أنتم قومٌ تخافون من أنفسِكم

---

(١) «رحالهم»: يعني منازلهم.

(٢) «دور»: جمع دار ، وهي المنازلُ المسكونةُ والمحَالّ ، وأراد القبائل ، وكل قبيلة اجتمعت في محلّةٍ سميت المحلّة داراً ، وسمي ساكنوها بها مجازاً.

(٣) «رهط»: الرهط: وهم من الثلاثة إلى العشرة منَ الرّجالِ.

(٤) «الائتمار»: المشاورة كالمؤامرة.

(٥) «واعدناه»: عاهدنا على أنْ نوافيه في وقتٍ معيّن.

(٦) «شعْب العقبة»: هي عقَبةُ مِنَى التي تُرمى به الجمرة في الحجّ وكانت البيعةُ في شعبٍ قريب من العقبة.

(٧) «المناوأةُ»: المعاداة.

(٨) «تعضّكم»: أي تناولكم.

خيفةً فَذَروهُ ، فبيِّنُوا ذلك فهو أعذرُ لكم عند اللهِ. قالوا: أَبْطِ(1) عنّا يا أسعد ، فو اللهِ لا ندعُ هذه البيعةَ ولا نُسْلَبُها أبداً. قال: فقمْنَا إليهِ ، فبايعناه ، وأخذَ علينا وشَرَطَ ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»(2).

* وأخرج حديثَ البيعةِ ابنُ إسحاق عن كعبِ بنِ مالكٍ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: « . . . . اجتمعنا في الشِّعْبِ عند العقبةِ ، ونحنُ ثلاثةٌ وسبعون رجلاً ، ومَعَنا امرأتانِ من نسائِنا: نسيبةُ بنتُ كعب ، أمُّ عمارة ، إحدىٰ نساءِ بني مازن بن النّجّار؛ وأسماءُ بنتُ عمرو بن عدي بن نابي ، إحدى نساء بني سَلِمَةَ ، وهي أمُّ منيع. فاجتمعْنَا في الشِّعْبِ ننتظرُ رسولَ اللهِ ﷺ ، حتّى جاءَنا ومعه عمُّهُ العبّاس بنُ عبد المطّلب ، وهو يومئذٍ على دينِ قومهِ ، إلاّ أنّه أحبَّ أنْ يحضرَ أمْرَ ابن أخيهِ ويتوثّق له. فلمّا جلَسَ كان أوّلُ مُتكلِّم العبَّاسُ بنُ عبد المطلب ، فقال: يا معشرَ الخزرج ، إنَّ محمداً منّا حيثُ علمتُم ، وقد منعْنَاهُ من قومنا ممّن هو علىٰ مثْلِ رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من قومِه؛ ومنَعَةٍ(3) في بلدهِ ، وإنّه قد أبى إلاّ الانحياز(4) إليكم ، واللحوق بكم ، فإنْ كنتُم ترونَ أنّكم وافُونَ له بما دعوتموهُ إليهِ ، ومانعوهُ ممّنْ خالَفَه ، فأنتُم وما تحمّلتُم من ذلكَ؛ وإنْ كنتُم ترونَ أنّكم مُسْلِمُوه(5) وخاذلُوه(6) بعد الخروجِ به إليكم ، فمنَ الآن فدعوهُ ، فإنّه في عزٍّ ومنعةٍ من قومهِ ، وبلدهِ. فقلنا له: قد سمعْنَا ما قلتَ ، فتكلّمْ يا رسولَ اللهِ ، فخذْ لنفسِكَ ولربّكَ ما أحببتَ. فتكلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ، فَتَلاَ القُرآنَ ، ورغَّبَ في الإسلامِ ، ثمّ قال: «أبايعُكم على أنْ تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءَكم وأبناءَكم». فأخذ البراءُ بنُ معرور بيده ثم قال: نعم ،

---

(1) «أبطِ»: أي تأخّر ، فعل أمْرٍ من أبطى يُبطي وهو لغة في أبطأ.

(2) انظر: المسند (٣/ ٣٢٢). وانظر: البداية والنهاية (٣/ ١٥٩)، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٥٨): «إسنادهُ حسنٌ وصححه الحاكم وابن حبّان». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٦): «ورجال أحمد رجال الصَّحيح».

(3) «منعة»: أي قوة تمنعُ مَنْ يريده بسوء.

(4) «الانحيازُ»: من انحازَ إليه: أي مالَ.

(5) «مُسْلِموه»: أي ملقوهُ في الهلكة ، وغير حامية من عدوه.

(6) «خاذلوه»: الخذلُ: تركُ الإعانة والنّصر.

والذي بعثَكَ بالحقّ نبياً، لنمنعنَّكَ ممّا نمنعُ منه أزُرَنَا[1]، فبايعْنا يا رسولَ اللهِ ، فنحنُ واللهِ أبناءُ الحروبِ ، وأهلُ الحَلْقَةِ[2] ، ورثْنَاهَا كابِراً عن كابرٍ . فاعترضَ القَولَ والبراءُ يكلّمُ رسولَ اللهِ ﷺ، أبو الهَيْثم بن التَّيهان، فقال: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ بينَنَا وبينَ الرِّجالِ حِبالاً ، وإنّا قاطعُوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتَ إنْ نحنُ فَعَلْنَا ذلك ثمّ أظْهَركَ اللهُ أنْ ترجعَ إلى قومكَ وتدعَنَا؟ فتبسّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ، ثم قالَ: «بلْ الدم الدم ، والهدْم الهدْم[3] ، أنا منكُم وأنتم منّي ، أحاربُ مَنْ حاربتُم ، وأسالمُ مَنْ سالمتم»[4].

بعد أنْ عرفنا مدلولَ البيعةِ ينبغي أنْ نعرفَ أنواعها كما جاءت في القرآن الكريمِ والسنَّة المطهّرة ، فقد أجمعَ العُلماءُ بأنَّ البيعة لا تكونُ إلا للإمام الأعظمِ وهو الخليفة ، والحاكم المسلمُ ، وأما أنواعها فهي:

**أولاً: البيعةُ على الإسلام**: وهذه البيعةُ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ ﷺ ، لم يأخذهَا أحدٌ بعده ، ونكثها كفرٌ ، وقد جاء تفصيلُها في الآية (١٢) من سورة الممتحنة ، وكذلك في الصَّحيحين البخاري برقم (٢١٥٧) ، ومسلم برقم (٨٦٨).

**ثانياً: البيعةُ على النُّصرةِ والمنعةِ**: وهي مثلُ بيعةِ العقبة الثّانية التي أخذها النّبيُّ ﷺ على الأنصار ، وقد جاء تفصيلُها في المسند (٣/ ٣٢٢).

**ثالثاً: البيعةُ على الجهاد**: وقد وَرَدَتْ هذه البيعةُ في القرآنِ الكريم بسورةِ التوبة الآية (١١١) ، وهي باقيةٌ في عنق كلِّ مسلمٍ إلى يوم القيامة.

ومثلها بيعةُ الرضوان يوم الحديبية ، إذ بايعَ المسلمون النّبي ﷺ يومئذٍ على الجهادِ والصَّبْرِ والصِّدق عند اللقاء. وفي صحيح البخاري برقم (٤١٠٠) ذكرٌ

---

(١) «أزرنا»: يعني نساءنا والمرأةُ يُكنى عنها بالإزار.
(٢) «الحلقةُ»: السّلاح.
(٣) «الهدم الهدم»: يعني الحرمةُ ، أي ذِمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم.
(٤) السّيرة النبوية (١/ ٩٥ و٩٦) لابن هشام مع شرح أبي ذرّ الخشني ، تحقيق همام سعيد ، ومحمد أبو صعيليك ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ الزرقاء ـ ط١ ـ ١٩٨٨م وانظر: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٧٥ و٢٧٦).

لهذه البيعةِ يوم الخندق ، إذ كان أصحابُهُ الكرامُ رضي الله عنهم ينشدونَ وهم يحفرون :

نحـــنُ الـــذيـــن بـــايعـــوا مُحَمَّـــداً     علـــى الجهـــادِ مـــا بقينـــا أبـــداً

**رابعاً: البيعةُ على الهجرة**: كانت هذه البيعةُ في باديء الأمرِ فرضُ عينٍ على المسلمين ، ثم انتهتْ بعد فتحِ مكّة ، إذْ لا هجرةَ بعد الفتح من مكةَ إلى المدينة ، لأنَّ مكّةَ قد أصبحت دارَ إسلامٍ ، وقد جاء تفصيلُ ذلك وبيانه في صحيح البخاري برقم (٤٣٠٥). أمّا الهجرةُ من بلدِ الكفرِ إلى بلدِ الإسلامِ فحكمُها باقٍ إلى يومِ القيامةِ ودليلُها الآية (٩٧) من سورة النساء.

**خامساً: البيعةُ على السَّمْعِ والطَّاعة**: هذه البيعةُ تُؤخذُ عادةً عند تعيين الخلفاء ، فهي لا تعطى إلاّ للحاكم المسلمِ ، ونكْثُ هذه البيعة يُعتبرُ كبيرة من الكبائر ، ودليلُ هذه البيعة ما جاء في صحيح مسلم برقم (١٨٦٧).



# الفصلُ الثّاني

# التزامُ المبايعاتِ بالعَهْد ووَفاؤُهُنَّ

* في دوحةِ العلياء ، وتحتَ ظلالِ الإيمانِ أسرعتْ نِسَاءُ الصَّحابةِ إلى الخيرِ العميمِ ، وذهبنَ إلى النَّبيِّ الكريم ﷺ يبايعْنَه على السَّمعِ والطَّاعةِ ، وكلِّ شروطِ الإسلام ، وبايعهنّ النَّبيُّ ﷺ علىٰ الإيمانِ.

* وقد بايعَ النَّبيَ ﷺ الصَّحابةُ الرِّجالُ على مثْلِ ما بايعَ عليه النِّساءُ.

* قال القُرطبي ـ رحمه الله ـ: «لما فتحَ رسولُ اللهِ ﷺ مكَّةَ ، جاءَ نساءُ أهلِ مكَّةَ يبايعنه ، فأُمِرَ أنْ يأخذَ عليهنَّ ألا يشركْنَ»(١).

* أمّا كيف كانتِ البيعةُ النّسويةُ ، فهذا ما وردَ في «صحيح مسلم» عن أمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ الصِّدّيق زَوْج النّبي ﷺ قالَتْ: «كانَ المؤمناتُ إذا هاجَرْنَ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يُمْتَحَنَّ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ . . . ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى آخرِ الآية. قالت عائشةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بهذا من المؤمناتِ فقد أقرَّ بالمِحْنةِ ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أقررنَ بذلكَ من قولهنَّ ، قال لهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ: «انطلقْنَ فقد بايعتكنّ» ، ولا واللهِ ما مسَّتْ يدُ رسولِ الله يدَ امرأةٍ قط ، غير أنّه بايعهنّ بالكلام. قالت عائشةُ: واللهِ ما أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ على النِّساءِ قطّ إلاّ بما أمرهُ

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٧) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

اللهُ عزَّ وجلَّ ، وما مسَّتْ كفُّ رسولِ الله ﷺ كفَّ امرأةٍ قطّ ؛ وكان يقولُ لهنَّ إذا أخذَ عليهنّ : «قد بايعتُكُنَّ كلاماً»[1] .

* وقال الشَّيخُ عبد الرّحمن بن ناصر السَّعدي في تفسيرهِ للآية (١٢) من سورة الممتحنة : «هذه الشُّروطُ المذكورةُ في هذه الآيةِ تُسَمّى مبايعة النِّساء اللاتي كُنّ يبايعن على إقامةِ الواجباتِ المشتركة التي تجبُ على الذّكور والنِّساء ، في جميعِ الأوقات . وأمّا الرِّجالُ ، فيتفاوتُ ما يلزمهم بحسبِ أحوالِهم ومراتبهم ، وما يتعين عليهم ، فكان النَّبيُّ ﷺ يمتثلُ ما أمرَهُ اللهُ . فكان إذا جاءَتْهُ النّساءُ يبايعْنَه ، والتزمن بهذهِ الشُّروط ؛ بايعهنّ ، وجَبر قلوبهنّ ، واستغفرَ لَهُنَّ اللهَ ، فيما يحصل منهنّ من التَّقْصير ، وأدخلهنّ في جُمْلَةِ المؤمنين»[2] .

* وممّا يجلبُ السّرور إلى النّفوسِ أنَّ عددَ المُبَايعات قد زادَ عن أربع مئةِ امرأةٍ ، بل اقتربَ عددهنّ من خمس مئة . قال ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ : «وجُمْلَةُ مَنْ أُحْصِيَ منَ المبايعاتِ إذ ذاك أربع مئةٍ وسبع وخمسون امرأة ، ولم يصافحْ في البيعةِ امرأة ، وإنّما بايعهنّ بالكَلاَمِ بهذهِ الآية» . أي آية الممتحنة .

* وقد التزمتْ نساءُ الصَّحابةِ بالعهدِ في بيعتهنّ ، ومنهنّ نساءُ الأنصار ، ولهنّ قَصَصٌ جميلةٌ رضي الله عنهنّ من أجمل القَصصِ التي تندّي الأرواحَ ، وقد وصَفَهنّ القُرآنُ الكريمُ بـ «المؤمنات» وشهدَ لهنَّ بهذهِ الخصوصيةِ الكريمةِ التي جعلتهنّ من خِيَارِ نساءِ الدُّنيا ، حيث آثَرْنَ رضوان اللهِ تعالى ورسولهِ على كلّ شيءٍ في هذه الدنيا .

* وفي الفقْرات التّاليات نستعرضُ بعضَ قصصِ النّساءِ وهُنَّ يبايعنَ النّبيّ ﷺ ، حتى تقتدي بهنّ النِّساءُ الصّادقاتُ في كُلّ زمانٍ ومكانٍ .

* ونفتتحُ قصّةَ بيعةِ النّساء بقصّةِ الصّحابيةِ الجليلةِ أُمِّ عطيّة الأنصاريةِ

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٤٧) نقلاً عن صحيح مسلم .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (ص ٧٩٥) لابن سعدي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م .

ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لما قدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ ، جمعَ نساءَ الأنصارِ في بيتٍ ، ثمّ أرسلَ إليهنّ عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، فقامَ على البابِ ، فسلّمَ عليهن فرددْنَ السّلام .

فقال: «أنا رسُولُ رسُولِ الله ﷺ إليكُنَّ» .

فقلْنَ: «مرحباً برسولِ الله ﷺ ، وبرسولِ رسولِ اللهِ ﷺ» .

فقال: «أتبايعْنَ على أنْ لا تشركْنَ باللهِ شيئاً .

ولا تَسْرِقْنَ .

ولا تَزْنينَ .

ولا تقتُلْنَ أولادكُنّ .

ولا تأتينَ بِبُهتانٍ تفترينَهُ بين أيديكنَّ وأرجلكنّ[1] ، ولا تعصينَ في معروفٍ؟»[2] .

قُلْنَ: «نعم؟» .

فمدَّ عمرُ يدَه من خَارجِ البابِ ومددنَ أيديهنَّ من داخِلٍ[3] ، ثمّ قال: «اللهم اشهدْ»؛ وأُمِرْنَا أن نخرجَ في العيدين الحُيَّضَ والعُتَّق[4] ، ونُهينا عن اتّباعِ الجنائز ، ولا جُمعَةَ علينا . فسألتُه عن البُهتان وعن قوله: لا يعصينَكَ في معروف؛ قال: «هي النّياحَةُ»[5] .

* وهذه قصةٌ أخرى جميلةٌ ترسمُ صورةً من صُوَرِ بيعةِ النّساءِ للنّبيّ ﷺ .

---

(١) في تفسير «روح المعاني» في تفسير قوله تعالى: ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ معناه: لا يأتينَ ببهتانٍ من قبل أنفسهنّ ، واليدُ والرّجلُ كِنايةٌ عن الذات ، لأنَّ معظمَ الأفعال بهما .

(٢) هذا الحديثُ مقتبسٌ من الآية التي في سورة الممتحنة رقم (١٢) وهي تبين شرائط البيعة بأسرها .

(٣) ليس معناه أنه صافحهن ، بل الإشارةُ إلى تأكيدِ البيعة .

(٤) «العتّق»: جمع عاتق ، وهي البنتُ إذا بلغت .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٠٩) .

* عن سلمى بنتِ قَيْس رضي الله عنها ـ وكانت إحدى خالاتِ[1] رسولِ اللهِ ﷺ ، وقد صلّت معه القبلتَيْن ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النّجّار ـ قالت : «جئتُ رسولَ الله ﷺ ، فبايعتُه في نسوةٍ من الأنصار ، فلمَّا شرطَ علينا أنْ لا نشْرِكَ باللهِ شيئاً ، ولا نسرقَ ، ولا نزني ، ولا نقتلَ أولادَنا ، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيهِ في معروفٍ» ؛ قال : «ولا تغشْشنَ أزواجكُنّ» .

قالَتْ : «فبايعناه» ، ثمّ انصرفْنَا ، فقلتُ لامرأةٍ منهنّ : «ارجعي فَسَلِي رسولَ الله ﷺ ما غِشّ أزواجنا؟» .

قالتْ : «فَسَأَلْتُهُ» .

قال : تأخذُ مالَه فتحابي به غيره»[2] .

* وأخرج الطَّبراني في «الكبيرِ والأوسطِ» عن عُقيلةَ بنتِ عتيك بنِ الحارث ـ رضي الله عنهما ـ قالت : «جئتُ أنا وأمّي قريرة بنت الحارثِ العُتْواريّة في نساءٍ من المُهاجراتِ ، فبايعنَ رسولَ اللهِ ﷺ وهو ضارِبٌ عليه قبّةً بالأبطح ، فأخذَ علينا أنْ لا نُشْرِكَ باللهِ شيئاً ـ الآية كلّها ـ فلمّا أقررنا وبَسطْنَا أيدينا لنُبايعَهُ قال : «إنّي لا أمسُّ أيدي النّساء» ، فاستغفرَ لنا ، وكانت تلكَ بيعتنا»[3] .

* وهذه قصَّةُ بيعةِ الصَّحابيةِ الجليلةِ أُميمةَ بنتِ رُقَيْقَةَ[4] تندّي القلوبَ

---

(١) كان النبيُ ﷺ يقول عن بني النّجار الخزرجيين : إنّهم أخوالُه ؛ لأنَّ سلمى أمّ جدّه عبد المطلب كانت منهم ، وسلمى بالفتح جماعة : منها سلمى بنت قيس هذه أمّ المنذر أخت سليط بن قيس . (البداية والنهاية ٢/ ٢٥٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٨٠) ومعنى «تُحابي به غيره» : أي تعطيه إياه وتسامحه إرادةَ الميلان إليها . حَبَى فلاناً : أعطاه بلا جزاء ، ولا منّ أو عامّ ، وحاباه محاباة وحباء : نصره واختصه ومال إليه .

(٣) انظر : مجمع الزوائد (٦/ ٣٩) .

(٤) أميمة ؛ أمّها رقيقةُ بنتُ خُويلد بن أسد ، أختُ خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها . فأميمةُ ابنة أخت خديجة ، وابنة خالة فاطمة الزهراء ، كانت من المبايعاتِ . روى عنها الحديث محمد بن المنكدر وابنتها حكيمة بنت أميمة . (الاستيعاب ٤/ ٢٣٤) .

والأبدانَ ، فقد أخرجَ الإمامُ مالك في «الموطّأ» عن محمّدِ بنِ المنكدر ، عن أميمةَ بنتِ رقيقة ، أنّها قالَتْ : «أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في نسْوةٍ بَايَعْنَهُ علىٰ الإسلامِ .

فقلنَ : يا رسولَ اللهِ! نبايعك على أنْ لا نشركَ باللهِ شيئاً ، ولا نَسْرِقَ ، ولا نزني ، ولا نقتلَ أولادَنا ، ولا نأتيَ ببهتانٍ نفتريهِ بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيكَ في معروف» .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «فيما استطعتن وأطقتن» .

فقلن : «اللهُ ورسولُه أرحمُ بنا منْ أنفسِنا ، هَلُمّ نبايعكَ يا رسولَ اللهِ!» .

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «إنّي لا أصافحُ النّساءَ ، إنّما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأةٍ واحدةٍ ، أو مثل قولي لامرأةٍ واحدة»[١] .

* وبيعةُ أميمةَ بنتِ رُقيقةَ أخرجَها الطّبرانيُ بسندِهِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال : «جاءتْ أميمةُ بنتُ رُقيقةَ ـ رضي الله عنها ـ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تُبايعُهُ على الإسلامِ ، فقال : أبايعُكِ على أنْ لا تشركي باللهِ شيئاً ، ولا تسْرِقي ، ولا تزني ، ولا تقتُلي ولدَكِ ، ولا تأتي ببهتانٍ تفترينه بين يديكِ ورجليكِ ، ولا تنوحي[٢] ، ولا تبرجي تبرّجَ الجاهلية[٣] الأولى»[٤] .

* ولبيعةِ فاطمةَ بنتِ عُتبةَ ـ رضي الله عنها ـ قصّة جميلةٌ روتها أمُّنا أم المؤمنين الصّدّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ قالت : «جاءتْ فاطمةُ بنتُ عتبةَ بن ربيعة ـ رضي الله عنها ـ تبايعُ رسولَ اللهِ ﷺ ، فأخذَ عليها : ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية .

---

(١) المسند لموطأ مالك (٢/ ٦٧٤) حديث رقم (١٠٦٢) .

(٢) «تنوحي» : النياحةُ : البكاءُ على الميت بصياحٍ وعويلٍ وجزَعٍ .

(٣) «ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى» : اقتبسَ النبي ﷺ كلامهَ من قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . والتّبرجُ بالزّينة : إظهارُ الزينةِ لغير المحارم ، كان نساءُ الجاهلية يفعلنَ حيث كانت تخرجُ المرأة إلى الأسواقِ مظهرةً لمحاسنها ، كاشفةً ما لا يليق كشفه من بدنها .

(٤) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات ، وأخرج النّسائي في باب بيعة النساء (٢/ ١٨٣) .

قالت: «فوضعَتْ يدها على رأسِها حياءً» ، فأَعْجبَ رسولُ اللهِ ﷺ ما رأى منها؛ فقالَتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: «أقِرِّي[1] أيتها المرأةُ! فو اللهِ ما بايعن إلّا على هذا».

قالت: «نعم إذاً» ، فبايعَها بالآيةِ[2].

* وبيعةُ الصّحابيةِ عزَّةَ بنتِ خابل ـ رضي الله عنها ـ تستحقُّ التّسجيل هنا لما فيها من توجيهاتٍ نبويةٍ هادفةٍ.

* أخرجَ الطَّبرانيُ عن عزّةَ بنتِ خابل الخزاعية ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أتتِ النّبي ﷺ فبايعها أنْ «لا تزنينَ ، ولا تسرقيْنَ ، ولا تئدينَ[3] فتبديْنَ أو تخفيْنَ».

قلتُ: «أمّا الوأدُ المُبدىٰ فقد عرفتُه ، وأمّا الوأدُ الخفي فلمْ أسألْ رسولَ اللهِ ﷺ ولم يخبرني»؛ وفي روايةٍ أنَّها قالَتْ: «فأمّا الإيذاءُ فقد كُنْتُ عرفْتُه وعلمتُه ، وهو قَتْلُ الولدِ ، وأمّا المُخْفَىٰ فلمْ أسألْ عنه رسولَ اللهِ ﷺ ، ولم يخبرْني بِهِ ، وقد وقعَ في نفسي أنّه إفسادُ الولدِ ، فواللهِ لا أفسدُ لي ولداً أبداً».

* فلم تفسِدْ لها ولداً حتّى ماتَتْ ، يعني الغيل[4].

* وقصصُ المبايعات ووفاؤهنّ بعهدِ البيعةِ تملأُ كتب السّيرة والطّبقات ، وقد اكتفَيْنا بذكْر نبذةٍ من سيرهنّ في هذا الفَصْل ، على أنّنا سنتعرفُ في فُصُولٍ آتيةٍ بشكلٍ مفصَّل على تراجمِ عددٍ من المبايعات في مواطنَ متعدّدةٍ من خلالِ القُرآنِ الكريمِ والسِّيرةِ النَّبويّةِ بإذنِ اللهِ.

* * *

---

(١) «أقرّي»: اعترفي بذلك.

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٣٧).

(٣) «تئدين»: فيهِ نهيٌ عن وأدِ البنات: أي قتلهنّ ، كانوا يدفنونها في الجاهلية وهي حيةٌ. وفي رواية: «ولا تُؤْذين».

(٤) أسد الغابة (٧/ ١٩٣).

# الفصلُ الثّالث
## من كراماتِ المبايعاتِ ومزاياهنّ

* السّبْقُ إلى المكَارمِ نعمةٌ كُبْرىٰ من نِعَمِ اللهِ تعالىٰ التي لا يجزيها شيءٌ؛ فكيفَ إذا كانَ السّبْقُ إلى الإسلامِ ودوحَةِ الإيمانِ؟ وبيعةِ رسولِ الرّحمن؟

* لا شكَّ في أنَّ هذا السَّبْقَ هو ذِرْوَةُ كلِّ فضيلةٍ ، وكلِّ مكرمةٍ ومحمدةٍ.

* غير أنَّ تاريخَ النّساء ذو ميزةٍ تجعله الأوّلَ في سائرِ التّواريخ في مضمارِ التَّسابقِ والسَّبْق المحمودِ إلى نورِ الله تعالى وهَدْيهِ.

* فهل منَ المُصَادفاتِ أن تكونَ أوّلُ الخلْقِ إسلاماً وبيعةً امرأةً من أعزّ نساءِ عَصْرِها وأعظمِهنّ ، بل نساء الدّنيا بأجمعها؟ .

* وهل من المُصَادفاتِ أنْ تنالَ وسام الشَّهادة في سبيلِ الله تعالى امرأةٌ أيضاً ، لتسجِّلَ الأوّليةَ الباهرةَ في هذا الميدانِ العظيم؟

* وهل منَ المُصَادفاتِ أنْ تكونَ أوّلُ الصِّدّيقات من النّساء؟

* وهل منَ المُصَادفات أنْ تكونَ المرأةُ أوّلَ مَنْ صلّىٰ مع النّبيّ ﷺ؟!

* ليس هذا من بابِ المُصَادفات ، فتاريخُ نساءِ الإسلامِ حافلٌ بالأوّليات في كُلّ مضْمَارٍ من المحامدِ والفضَائل(١).

---

(١) إذا كانتِ المرأةُ المسلمةُ عمادَ البيتِ بحكمِ الإسلام ، فهي أيضاً الدّعامةُ الرئيسيةُ في الحياة العامة ، إذ إنّها لم تدعْ موطناً كريماً ، ولا مشهداً عظيماً ، ولا عملاً نبيلاً ، ولا مشرفاً عظيماً إلا كانت فِقَار ظهره ، وعماد أمره ، وراية عزّه. فقد جلسَتْ إلى النّبي ﷺ تتعلّمُ وتسألُ وتستفتي ، ورافقت الجيش المحمدي آسيةً ومداوية ، وجالَتْ بين يديه ﷺ تقاتل وتدافع ، وهاجرت بدينها إلى المدينةِ والحبشة مع السابقين الأولين من المهاجرين ، وبايعت هنا =

* وقد كانتِ النِّساءُ في العَهْدِ النّبوي يحببْنَ أنْ يكسبْنَ العزَّ المحمودَ والفضل الممدودَ كما يكسبه الرِّجالُ حتّى يشاطرنَهم المكارمَ، ويفزْنَ بالمكرماتِ.

* أخرجَ الإمامُ أحمد بسندٍ رفعَهُ إلى عبدِ الرّحمنِ بنِ شيبةَ قال: سمعتُ أمَّ سلمةَ زوج النّبيّ ﷺ تقول: «قلتُ للنّبيّ ﷺ: ما لَنَا لا نذكرُ في القُرآنِ كما يُذكرُ الرِّجالُ؟

قالت: فلم يَرُعْني منْهُ يومئذٍ إلاّ ونداؤهُ على المنبر، فإذا هو يقولُ: «يا أيّها النّاس، إنَّ اللهَ يقولُ في كتابهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]»(١).

* وذكر الإمامُ الواحديُّ في «أسبابِ نزولِ القرآن» قال: «قال مقاتلُ بنُ حيّان: بلغني أنّ أسماءَ بنتَ عُميس ـ رضي الله عنها ـ لما رجعتْ من الحبشَةِ، معها زوجُها جعفرُ بنُ أبي طالب، دخلَتْ على نساءِ النّبيّ ﷺ فقالت: هل نزلَ فينا شَيءٌ من القرآنِ؟ قُلْن: لا.

فأتتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ النّساءَ لفي خَيْبةٍ وخَسَار! قال: «وممَ ذلك»؟

قالت: لأنَّهنَّ لا يُذكَرنَ بالخيرِ كما يُذكَرُ الرِّجال؛ فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها»(٢).

* وقال قَتادةُ: «لما ذكَرَ اللهُ تعالىٰ أزواجَ النّبيّ ﷺ، دخلَ نساءٌ منَ المُسلماتِ عليهـنّ فقلن: ذُكرتُـنَّ ولم نُذْكَـرُ، ولو كان فينـا خيرٌ لذُكرنا. فأنزلَ

---

= وهناك، فأجزل الله عز وجل في ذلك كله مثوبتها، وأحسنَ النبي ﷺ مآبها، وأكبرَ المسلمون مواقفها، فلا ريبَ بعد هذا كله أن يكون لها بعض الكرامات الجلية، والمزايا الكريمة التي تجعلها في مصاف القدوة لغيرها.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٠٦) برقم (٢٧١٣٨).

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٧٠)، تحقيق كمال بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥][1].

* وروى الترمذي عن أمّ عمارةَ الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ أنّها أتَتِ النَّبيَّ ﷺ، فقالت: ما أرىٰ كلّ شيء إلاّ للرِّجال، وما أرى النّساء يُذْكَرن بشيء!

فنزلَتْ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥][2].

* وفي ميدان السَّبْقِ إلى الفَضَائِلِ نقرأُ أيضاً ما جاء في السُّننِ والآثارِ عن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «يا رسولَ اللهِ، لا أسمعُ اللهَ ذَكَرَ النّساءَ في الهجرةِ بشيء.

فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥][3].

* ومن هذهِ النّصوص نستشفُ مدى قَلَقِ نساءِ الصّحابة والنّساء المؤمنات في عَصْرِ النّبي ﷺ، وخوفهنّ من سَبْقِ الرّجالِ في ميادينِ الفَخار والطّاعاتِ والعباداتِ، وكانتِ الهمومُ تساورهنّ في بدايةِ الأمر، والتي نشأت عن سُكُوتِ القُرآنِ الكريم عن ذكرهنّ بالسَّبْقِ والمحامدِ كما يُذكَر الرّجال، وظننَّ أنهنَّ لَسْنَ بشيءٍ، وخفْنَ من نقطتَيْن مهمتَيْن:

**أولاهما:** أنَّ شأنَهنَّ ليسَ مثل شأْنِ الصَّحابة الرجالِ الذين ذكرهم القُرآنُ الكريم مرَّاتٍ ومرَّات، وأنَّهنَّ لسْنَ بشيءٍ مهما أدَّيْنَ ما عليهنّ وعملنَ ما عملنَ من مبرّاتٍ وخيراتٍ وعباداتٍ.

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٣٧٠ و٣٧١)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٢٠٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٢٣).

**الثَّانية**: انقطاعُ الخيرِ منهنّ، حيثُ حسبْنَ أنَّ ذلك لِقلّةِ شأنهنّ، ومن ثمَّ فهنَّ خاسراتٌ لا يحصلْنَ على الخيرِ العميمِ كالرّجالِ أصحاب النّبيّ ﷺ الذين نزلَ ببعضهم القُرآنُ الكريمُ يعضده ويذكرُ فضْله.

* لقد نزلَ القرآنُ العظيمُ مطمئناً لنساءِ الصَّحابة، ومرطّباً لقلوبهنّ الصّافية، وقاطعاً لجذورِ القَلَقِ والشّكّ، بل إنَّ القرآنَ الكريمَ رسمَ أبهى صور النّساء في كثيرٍ من المواقفِ العظيمةِ، فعبَّرَ بأسلوبهِ الآسرِ عن وضع المرأةِ في الإسلام، وعن وضعِ النِّساء في المجتمعِ الإسلامي، وعدم تميّز الرّجال عنهنّ بشيء في اتّجاه اكتسابِ الدَّرجات العُليا في مضْمار الدّين، ومن ثَمَّ نيل الأجرِ والمغفرةِ والثّوابِ الكبيرِ في الآخرةِ.

* قال المفسّرون في توضيحِ معنى آيةِ آل عمران في قولهِ تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

* قال ابنُ كثير: «أي: جميعُكم في ثوابي سواء»[١].

* وقال القُرطبيُ: «أي دينكُم واحدٌ. وقيل: بعضُكم من بعضٍ في الثَّواب والأحكامِ والنُّصْرة وشبه ذلك»[٢].

* وقال الضّحّاكُ: «رجالُكم شكْلُ نسائِكم في الطَّاعة، ونساؤكم شكلُ رجالكم في الطَّاعة؛ نظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١][٣].

* وقال الطَّبري: «فإنّه يعني: بعضُكم ـ أيّها المؤمنون الذين يذكرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم ـ من بعض، في النُّصرةِ والملّةِ والدِّين، وحُكْم جميعكم فيما أنا بكُمْ فاعل، على حُكمِ أحدكم في أنّي لا أضيعُ عَمَل ذكَرٍ منكم ولا أنثى».

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٤٠).
(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٣).
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٤/ ٢٠٣).

* ويقول «الجَمَلُ» في تفسيرهِ «الفتوحاتِ الإلهيةِ بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفية»: «قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ هذه الجملةُ استئنافيةٌ جيءَ بها لتبيين شرِكَةِ النّساء مع الرّجالِ في الثّواب الذي وعَدَ اللهُ به عبادَه العاملين، وهي في محلّ التّعليل للتعميم في قوله ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾، فكأنَّه قيل: إنّما سوّى بين الفريقَيْن في الثَّواب لاشتراكهم في الأصلِ والدِّين، والمعنى: كما أنّكم من أَصْلٍ واحدٍ، وأنَّ بعضكم مأخوذ من بعض، فكذلك أنتم في ثوابِ العمل، لا يُثَابُ رجلٌ عاملٌ دونَ امرأة»[1].

* وقال الزّمخشريُّ: «أي بجميع ذكوركم وإناثكم أصلٌ واحد، فكلُّ واحدِ منكم من الآخر، أي من أصلهِ، أو كأنّه منه لفرطِ اتّصالكم واتّحادكم».

* وقال السَّعدي: «الجميعُ سَيَلْقون ثوابَ أعمالِهم كاملاً موفّراً. أي كلكم على حدٍّ سواء في الثَّواب والعِقَاب»[2].

* وهكذا نجدُ حرصَ النّساءِ واهتمامهنَّ في العَهْدِ الأوّلِ على التَّسابق إلى ذُرا المكارم، وحبهنّ للدّين، ورغبتهنّ في التّنافُسِ في العَطَاءِ، واكتسابِ الدرجات العُلى مع الرِّجال.

* وفي الصَّفحاتِ الآتيةِ نقفُ مع نخبةٍ من النّساء الفضْليَات اللاتي كان لهنّ دورٌ بارزٌ في المُسَابقةِ والمسارعةِ إلى البيعةِ، وإلى الإيمانِ باللهِ تعالى، وبكتابهِ وبرسولهِ ﷺ، وسنتحدثُ عن نماذجَ في السَّبقِ إلى الإيمان، وفي السَّبقِ إلى الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ، وإلى نَيْلِ مرضاتهِ، وفي السَّبقِ إلى مبايعةِ النّبيّ ﷺ في مكّةَ والعقبةِ والمدينةِ والرضوان وبعد الرضوانِ وفتح مكة، عسى أنْ تكون سيرُ هؤلاءِ النّسوة زاداً للنّساءِ والبناتِ في عَصْرِنا الحاضر، وعسى أنْ ينفعَ اللهُ تعالى بسيرهنّ نساءَ هذه الأُمّة الكريمة.

* * *

---

(١) الفتوحات الإلهية (١/ ٥٧٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٨).

# الفصلُ الرابعُ
# الصَّحابياتُ في البيعات المختلفة

* أحببتُ في هذا الفَصْل أنْ أنوّهَ إلى أنَّ نساءَ الصَّحابةِ رضي الله عنهنَّ قد بايعْنَ النَّبيَّ ﷺ في عددٍ مِنَ المُناسَبَاتِ ، وقد ينصرفُ ذِهْنُ بعضِ النَّاسِ إلى أنَّ النَّبي ﷺ قد بايعَ النّساء عقب فتحِ مكَّةَ ، والحقيقةُ فهذهِ بيعةٌ مشهورةٌ مشهودةٌ لها صِيْتٌ واسعٌ في المَصَادرِ المتنوعةِ على اختلافِ مشاربها.

* والحقيقةُ فقد تعدّدتِ المناسباتُ التي بايعَ فيها النّبيُّ ﷺ النّساء الصَّحابيات ، وتعدَّدتِ الصِّيغُ التي كان يبايعهنّ بها.

* ومَنْ يتتبّعْ بيعاتِ النّساءِ في العهدِ النّبوي يجدْ أنَّ المُبَايَعةَ النِّسويّة للنّبيّ ﷺ قد بدأت مبكّرةً في السّنواتِ الأولى للبعثةِ ، إذ أقبلتِ المُسلماتُ يبايعنَ النّبيّ ﷺ على الإسلامِ وعلى ما يدعو إليه منْ أمْرِ ربّه بيعةَ صدقٍ ووفاءٍ.

* رُوي عن أبي سَلَمَةَ بنِ عبد الرّحمن بنِ عوف الزّهريّ المتوفىٰ بالمدينةِ المنورة سنة (٩٤ هـ) أنّه قالَ: «كانَ عمرُ وعائشةُ إذا أتيا مكّةَ نزَلا على ابنةِ ثابت ، وكانت من النِّسوةِ السَّبْعِ اللاتي بايعْنَ رسولَ الله ﷺ بمكّة»[(١)].

* إذن هناك سَبْعُ نسَاءٍ بايعْنَ النّبي ﷺ بمكّةَ منذ أنْ تنفَّسَ صبحُ الإسلام وتبسَّمَ فجره. وإذا ما رجعْنَا إلى المصَادرِ القديمةِ وجدنا أسماءَ كثيراتٍ مِنَ المبايعاتِ في مكّةَ قبلَ الهِجْرة ، ونلاحظُ أيضاً أنَّ هؤلاءِ المبايعاتِ أسلمْنَ بمكّةَ ، وأُخْرَيات أسلمنَ قبلَ دخولِ النَّبيّ ﷺ دارَ الأرقمِ بنِ أبي الأرقم

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠٣).

المخزوميّ ، كما أنَّ بعضهنَّ من المُهاجِراتِ إلى الحبشةِ ، فمن المبايعات: خديجةُ وبناتُها رضي الله عنهنَّ ، وأمُّ الفضلِ زوجةُ العبّاس ، وأمّ أيمنَ الحبشيّة ، ورملةُ بنتُ أبي عوفٍ السَّهميّة ، وليلى بنتُ أبي حثمةَ القُرشيّة العدويّة ، وسهلةُ بنتُ سُهيل العامريّة ، وبسرةُ بنتُ صفوان وأسماءُ بنتُ أبي بكر ، وعائشةُ بنتُ قدامةَ بن مظعون الجُمحيّة ، وأسماءُ بنتُ عُميس وغيرهنّ كثيرات منَ المُبايعاتِ اللواتي كُنّ في عدادِ السَّابقين الأولين من المسلمين ، وقد بايعهنّ النبيُ ﷺ في هذا الوقْتِ المبكّر على الإيمانِ باللهِ تعالى ، وعلى العقيدةِ الصَّافيةِ ونَبْذِ كلّ ألوانِ الشِّركِ وأشكالهِ.

* وفي نهايةِ مطَافِ الدَّعوةِ المحمديّة بمكَّةَ كانت بيعةٌ أخرى للنِّساء في العقَبةِ الثَّانيةِ ، تلك البيعة المشهورةُ في عالَم السِّيرةِ النّبويةِ التي رواها سيّدنا كعبُ بنُ مالك الأنصاريّ رضي الله عنه ، وهو ممن شهد بيعةَ العقَبةِ وبايعَ النّبيّ ﷺ بها ، يقول كعبٌ يصفُ جانباً من ليلةِ العقبةِ ومشاركة النّساء فيها: «فَنِمْنا تلكَ الليلةَ مع قومنا في رحالِنا ، حتّى إذا مضَىٰ ثلثُ الليلِ خرجْنا من رحالِنا لميعادِ رسولِ الله ﷺ ، نَتَسَللُ تسلُّلَ القَطَا مستخفين ، حتّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقَبةِ ، ونحنُ ثلاثةٌ وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسيبةُ بنتُ كعب ، أمّ عمارة ، إحدى نساء بني مازن بن النّجّار؛ وأسماءُ بنتُ عمرو بن عدي بن نابي ، إحدى نساءِ بني سلمةَ ، وهي أمُّ منيع»[1].

---

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ٩٥) ومن الملاحظ أنَّ المرأة المسلمة في هذه الأمّةِ الميمونةِ الخيّرةِ قد شاركتْ في صناعةِ مستقبلِ الإسلام وبناء صرحه ، فقد كانت جزءاً من واقع دولةِ الحقّ ، لها مكانتها؛ ولها صوتها؛ ولها إسهامها ، فقد خرجت يومها لتُبايعَ النّبيَّ ﷺ قائدَ الغرِّ الميامين وقائدَ الأمّةِ على حمايةِ دين الله عزَّ وجلَّ ، والدّعوة إليه على صراطٍ مستقيم.

وينبغي أنَّ نعلَمَ علْمَ اليقين أنَّ المرأةَ المسلمةَ المبايعةَ لم تختلطْ بالرجال اختلاطَ الجاهلية الأولى ، ولم تتبرجْ ولم تصافح بيدها أحداً أبداً ، ولم ترقّقْ صوتَها ليطمعَ الذي في قلبهِ مرضٌ ، بل إنها ظهرتْ في كامل الأدب والعفاف والتَصوّن الذي ربّاها عليه الإسلام ، وسجلت أعلى الأرقام لصورةِ المرأةِ وإسهامها في بناء الأسرة والمجتمع ودولة الإيمان.

لقد أدركت المبايعةُ التي أنبتها الإسلام ، أن أسوأ العمل الذي تقوم به أن تستخدمَ أدواتِ=

* وكان مَشْهَدُ النِّساءِ الأنصاريّات في هذه البيعةِ المباركة يدلُّ دلالةً واضحةً على مدىٰ التزامهنَّ بما يجري في هذهِ البيعةِ ، كما يدلُّ على وعيهنَّ التّام بما بايعهنّ عليه رسولُ اللهِ ﷺ ، فقد رُويَ عن السَّيدتَيْن المُبايعتين أمِّ عمارةَ وأمِّ منيعٍ رضي الله عنهما أنَّهما قالَتَا : «اجتمعْنَا بالشِّعْبِ ننتظرُ رسولَ اللهِ ﷺ حتّى جاءنا ومعه عمُّه العبّاسُ بنُ عبد المطّلب وهو يومئذٍ على دينِ قومهِ إلاّ أنّه أحبَّ أنْ يحضر أمْرَ ابنَ أخيه ويستوثق له. . . . »[1].

* وبايعَهُ الأنصارُ يومَها على النُّصرةِ ، وشاركَتْ هاتان الصَّحابيتان في هذهِ البيعةِ ، على الرغم ممّا فيها من تبعاتٍ شديدةٍ ، وقد وفيّتا ، وأحْسَنَتا ، فكانتا ممّن رضي اللهُ عنهما ، وحازَتا شرفَ هذه البيعةِ التي كان كعبُ بنُ مالك يعدُّها منْ أفْضَل مشاهدِ الصَّحابةِ ، وكان لا يراها دونَ مشْهدِ بَدْرٍ. فأكْرِمْ بها من بيعةٍ! وأكرِمْ بالمُبايعين!

* وعندما تَمّتِ الهجرةُ النَّبويةُ ، واستقرَّ النّبيُّ ﷺ في المدينةِ المنوّرةِ ، كانت هناك بيعةٌ أخرى للصَّحابياتِ ، فقد علمْنَ أنهنَّ يبايعن النّبي ﷺ على نُصْرتِهِ وحمايتهِ.

* وقد مرَّ معنا حديثُ بيعةِ أمِّ عطيةَ الأنصاريّة في فَصْلٍ سابقٍ نوجزُها هنا بما روته أمُّ عطيّةَ نفْسُها فقالت : «لما قدمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ جمعَ نساءَ الأنصارِ في بيتٍ ، ثمّ أرسلَ إليهنّ عمر بن الخطّاب ، فبايعهنّ. . . »[2].

* وكانت النّساءُ الأنصاريّاتُ يحرصْنَ على هذه البيعةِ الميمونة ، وكُنّ فخوراتٍ بذلك ، فقد كانتِ السَّيّدةُ أمُّ عامرٍ الأشهليّة تقولُ: «جئتُ أنا وليلى بنتُ الخطيم ، وحواءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكَن ، فدخلْنَا عليه ونحنُ متلفّعاتٍ

---

= الأنوثة ومقدماتها لصيدِ الرجالِ ورميهم في شباكها عن عَمْدٍ ، وتشتيتِ قلوبهم بالحركاتِ والملاطفات التي لا تليق ، والتي تزلق الرّجال إلى مزالق الخطر والرّدى.
كانت المبايِعَةُ المسلمةُ قدوةً لنساءِ الأمةِ في قولها وسلوكها ، ولم تتركْ مقاماً من مقامات العظائم إلاّ أدلت فيه دلوها وكانت من الخيّرات الفاضلات.

(1) تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٢).
(2) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٤٤) بتصرف.

بمروطِنَا بينَ المغْرِب والعشَاء ، فسلمْتُ ، ونسبني ، فانتسبتُ ، ونسَبَ صاحبتيَّ فانتسبَتَا ، فرحَّبَ بنا وقال : «ما حاجتكنَّ»؟

فقُلْنَا : يا رسُولَ الله ، جئْنَا نبايعكَ على الإسلامِ ، فإنّا قد صدّقْنا بكَ وشهدنا أنَّ ما جئتَ به حقٌّ .

فقال ﷺ : «الحمدُ للهِ الذي هداكُنّ للإسلام» ، ثمّ قال : «قد بايعتكُنّ» .

قالت أمُّ عامر : «فدنوتُ منه» فقال ﷺ : «إنّي لا أصافحُ النِّساء ، قولي لألفِ امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدةٍ» .

وكانت أم عامرٍ تقول : «إنّا أوّلُ مَنْ بايعَ رسولَ اللهِ ﷺ»[1] .

* وفي طبقاتِ ابن سعد أنَّ أوّلَ مَنْ بايعَ النَّبيَّ ﷺ من النِّساء : أمُّ سعد بنُ معاذ واسمُها كبْشَةُ بنتُ رافع بن عُبيد ؛ وأمّ عامر بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن ، وحواءُ بنتُ يزيدَ بنِ السَّكن ، وليلى بنتُ الخطيم ، والشّموسُ بنتُ أبي عامر الرَّاهب ، وابنتُها جميلةُ بنتُ ثابت بن أبي الأقْلَح ، وظبيةُ بنتُ النّعمان بن ثابت بن أبي الأقلح وغيرهنّ .

* وكان للنّبي ﷺ بعضُ الدّروس التّربويةِ التّوجيهية مع هؤلاءِ النّسوةِ ، فكان يتعاهدهنّ بهذهِ البيعة إذا أرادَ منهنَّ المسارعة إلى أعمالِ البرّ والخيرِ والصَّدقة .

* أخرج البخاريُ بسندهِ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : «شهدتُ الفِطْرَ مع النّبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، يصلّونها قبل الخطبةِ ، ثم يُخْطَبُ بعد ، خرجَ النّبيّ ﷺ ، كأنّي أنظرُ إليه حين يُجْلِسُ بيده ، ثمّ أقبلَ يشقّهم ، حتى جاءَ النّساء معه بلالٌ ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ . . ﴾ [الممتحنة : ١٢] ، ثم قال حين فرغَ منها : «آنتنَّ على ذلك»؟

قالت امرأةٌ واحدةٌ منهنّ ، لم يجبْه غيرها[2] : «نعم» .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٤٧) .

(٢) لعل هذه المرأة هي : أسماء بنت يزيد خطيبة النساء .

قال: «فتصدقْنَ».

فبسطَ بلالُ ثوبَه، ثم قال: «هلم، لكُنّ فداءٌ أبي وأمّي». فيُلْقين الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال»[1].

* وفي بيعةِ الرّضوان كان للنّساء نصيبٌ مشهودٌ، إذ بايعتِ النّساء النّبيّ ﷺ تحتَ الشَّجرةِ، وكان منهنّ: أمُّ هشام بنتُ حارثةَ بنِ النّعمان الأنصاريّة، وأمُّ المنذرِ بنتُ قيس، والرُّبيّعُ بنتُ معوّذُ بنِ عفراء الأنصاريّة، وأسماءُ بنتُ يزيد الأنصاريّة، وقريبةُ بنتُ معوذ بن عقبة بن حزام الأنصاريّة، وأمُّ عمارة بنت كعب، وأمُّ منيع بنتُ عمرو الأنصاريّة وغيرهنَّ.

* أمّا بيعةُ المُسلمات بعد معاهدةِ الحديبية فكانت ذات أثر مذكُورٍ في القُرآنِ والسّيرةِ، فقد كانتِ المؤمناتُ إذا هاجرن إلى النّبيّ ﷺ، يُمْتَحنَّ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ . . .﴾ فَمَنْ أقرَّ بهذا الشَّرط من المؤمنات فقد بايعَ البيعةَ الشَّرعيّة.

* ومن المذكورات في هذه البيعةِ: أميمةُ بنتُ بشْر، وأمّ كلثوم بنت عقبة[2]، وسُبيعةُ بنتُ الحارث، وغيرهن.

* وفي بيعةِ نساء مكَّة يوم الفَتْح أثرٌ معلومٌ في المصَادر، فقد بايعَ النّبي ﷺ النّاس يوم الفتح، بايعهم على الإيمانِ باللهِ، وشهادةِ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٧٩)، ومعنى الفتخ: الخواتيم العِظَام كانت في الجاهلية.

(٢) أمُ كلثوم بنت عقبةَ واحدةٌ من ذوات الشّرفِ والمكانةِ في مكَّةَ، ولكنَّها انفردتْ بالإسلامِ دون ذويها، واحتملتْ وحدها آلامَ الهجرة، واعتساف الطريق، وحُلكة الأهوال، ووحشة الليالِ الطوالِ فقد أسلمت هذه المؤمنة أم كلثوم دون رجال بيتها، ولما سنحت لها الفرصة فارقت خدرها ومستقرها تحت جنح الظلام فارقت أَمْنها فريدةً شريدةً، تطوي بها قدماها الأرض بين أم القرآن مكة والمدينة المنورة، هاجرت إلى مفزع دينها، ودار هجرتها، إلى النبي الكريم ﷺ.
ثم ثنَّتْ بالهجرة أمها السَّيدة أروى بنت كريز، وكتبت في زمرة المهاجرات المبايعات.
وقد أثبتتِ السيدةُ أم كلثوم بنت عقبة أنّها قويُة النَّفسِ، تستهينُ بالموتِ في سبيل دينها وعقيدتها، وهاهي ذي في هجرتها تتركُ شبابَ أهل بيتها وشِيْبَتهم وهم في ضلالٍ يعمهون، وفي حيرتهم يترددون.

محمداً رسولُ الله. وجاءَهُ النَّاسُ الكبارُ والصّغارُ والرّجال والنِّساء، فبايعهم على الإسلامِ والشّهادةِ، وقال ابنُ جرير الطبريّ: «ثم اجتمعَ النَّاسُ بمكَّةَ لبيعةِ رسولِ الله ﷺ على الإسلام، فأخذ على النّاس السَّمْعَ والطَّاعةَ للهِ ولرسولهِ فيما استطاعوا، فلما فرغَ من بيعةِ الرّجال بايع النّساء».

* وكان منَ المُسْلماتِ المبايعات في فتحِ مكّة المكرمة: ريطةُ بنتُ منبّه بن الحجّاج السَّهمية أمُّ عبدِ الله بنِ عمرو بن العاص، والبغومُ بنتُ المُعَدَّل امرأةُ صفوان بن أميّة، وأميمةُ بنتُ سفيان، وأمّ مرثد الأسلميّة، وأروى بنت أبي العاص الأمويّة، وآمنةُ بنتُ عفَّان، وعقيلةُ بنتُ عتيك العتواريّة، وفاطمةُ بنتُ الوليد بنِ المغيرة، وأمُّ حكيم بنتُ الحارث بنِ هشام، وأمُّ الحكم بنتُ أبي سفيان الأَمويّة وغيرهنّ من المشْهُورات مثل: هندُ بنتُ عتبة أمُّ معاويةَ رضي الله عنهما.

* وفي البابِ الآتي وفصولهِ نتعرف شخصياتِ هؤلاء المبايعاتِ وكيفية مبايعةِ النبي ﷺ لهنَّ، في ضوءِ القُرآنِ الكريمِ؛ والسّيرةِ النّبويةِ العطرةِ؛ والمصَادرِ الموثوقةِ.

* * *

# الباب الثالث

## بيعة النساء وأطوارها في العهد النبوي

الفصل الأول : من المبايعات في مكة المكرمة
الفصل الثاني : المبايعتان في العقبة الكبرى
الفصل الثالث : من المبايعات بعد الهجرة النبوية
الفصل الرابع : من المبايعات في بيعة الرضوان
الفصل الخامس : من المبايعات بعد الحديبية
الفصل السادس : من المبايعات بعد فتح مكة المكرمة
الفصل السابع : قبسات مضيئات من حياة المبايعات

# الفصل الأول
# مِن المبايعاتِ في مكّةَ المكرمةِ

* كانت صحيفة السَّابقاتِ إلى الإسلامِ في مكّةَ تحتفِظُ بأسماء كثيراتٍ منهنّ ، وكانتِ المبايعاتُ على الإسلام كثيراتٍ أيضاً ، فقد بايعنَ النَّبيَّ ﷺ وامتثلنَ لأمْرِ اللهِ ولرسوله.

* وقد بدأتْ مبايعةُ النِّساءِ للنّبيّ ﷺ في فَجْرِ الإسلام ومطْلَعِ شَمْسِه ، وهي وإنْ لم تكنْ واضحةَ المعَالمِ كغيرِها من البيعات ، إلاّ أنَّها بيعةٌ على الإسْلاَمِ ، وقد بايعَ نِسَاءٌ النَّبيَّ ﷺ على الإسلامِ قبل دخولهِ دارَ الأرقم وخلالَها وبعدها ، وفي كتُب التّراجم ، كالطّبقاتِ الكُبرى ، وأُسُدِ الغابةِ ، والإصابةِ أدلّةٌ من أسماءِ هؤلاءِ المبايعاتِ السّابقات اللواتي كُنَّ في رعيلِ السَّابقين الأُوَل ، وفي المقدمةِ: خديجةُ وبناتُها ، وأسماءُ وعائشةُ بنتا الصّدّيق ، وليلى بنتُ أبي حثمة العدويّة ، وأمُّ أيمن الحبشيّة ، وأمُّ عمّار بن ياسر ، وغيرهنّ كثيرات جدّاً؛ وفي الصَّفحات الآتية نقرأ سِير بعضهنّ.

**أولاً ـ خديجةُ بنتُ خُويلد رضي الله عنها:**

* كانت خديجةُ بنتُ خويلد الأسديّة رضي الله عنها على أكْملِ المعرفةِ ببشائرِ النّبوةِ المحمديةِ ، وكانت متطلّعةً إلى اصطفاءِ محمدٍ ﷺ نبيّاً ورسولاً ، حتّى اختارهُ اللهُ تعالى للنّبوة والرّسالة.

* كانت خديجةُ أوّلَ سابقٍ إلى ظلالِ الإسلامِ في دوحتهِ الميمونةِ ، والتّصديقِ بالرسالةِ المحمديّةِ ، وقد سجَّل ابنُ إسحاقَ هذه الأوّليّةَ في السّيرةِ فقال: «وآمنتْ بهِ خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها ، وصدّقَتْ بما جاءَهُ منَ اللهِ

تعالى ، ووازرتْه على أمرِه ، وكانت أوّل مَنْ آمنَ باللهِ تعالى وبرسولهِ ، وصدّقَ بما جاء منه. . . . »[1].

* وعن السَّبقِ الميمونِ لأمّنا خديجةَ رضي الله عنها نتزوّدُ هذا الزّاد العلميّ من «زادِ المعادِ» لابن قيّم الجوزيّة إذ يقول ما ملخّصه: «وبادرَ إلى الاستجابةِ له ﷺ من النّساءِ خديجةُ بنتُ خُويلد رضي الله عنها ، وقامتْ بأعباءِ الصّديقيّةِ ، فعلمَتْ بكمالِ عقلِها وفطرتها ، أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ ، والأخلاقَ الفاضلةَ ، والشّيمَ الشّريفةَ تناسبُ أشكالَها من كرامةِ اللهِ ، وتأييدهِ وإحْسَانهِ ، ولا تناسبُ الخزيَ والخذلانَ ، وإنّما يناسبُه أضدادها ، فمن ركّبهُ اللهُ علىٰ أحْسَنِ الصّفات ، والأعمالِ ، إنّما يليقُ به كرامته ، وإتمام نعمته عليه ، وبهذا العقْلِ والصّديقية ، استحقَّتْ أنْ يرسلَ إليها ربُّها السّلام منه مع رسولَيْه: جبريل ومحمّد ﷺ»[2].

* فخديجةُ إذن هي الأُولىٰ في مضْمارِ التّسابق الإيماني ، فهي أوّلُ مَنْ آمنَ وبايعَ وأولُ النّساء سمعَ ما نزلَ من القرآنِ الكريمِ ، فإسلامُها رضي الله عنها كانَ إسلام الفطرةِ الصّافيةِ ، ولها فضَائلُ انفردتْ فيها وحدَهَا ، فقد آمنتْ به ﷺ حينَ كَفَر النّاسُ ، وصدقتْه حين كذّبوه ، وجادتْ بمالِها ، ورزقَهُ اللهُ منها الولدَ.

* قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «خديجةُ أمُّ المؤمنين ، وسيّدةُ نِسَاءِ العالَمين في زمانِها ، أوّلُ مَنْ آمنَ به وصدّقه قَبْل كُلِّ أحد ، ومناقبُها جمّةٌ ، وهي ممّنْ كَمُلَ من النّساء ، كانت عاقلةً جليلةً ديّنةً مصُونةً كريمةً ، من أَهْلِ الجنّة ، وكان النَّبيُّ ﷺ يثني عليها ويفضّلُها على سائرِ أمّهاتِ المؤمنين ، ويبالغُ في تعظيمها. . . »[3].

* وعندما أشرقت أنوار الإيمانِ في قلبِها الصَّافي أخذتْ تبذلُ جهدَها ،

---

(١) السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (١/ ٣٠٥).
(٢) زاد المعاد (٣/ ١٩) بشيء من التصرف.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩ و١١٠) بشيء من الاختصار والتصرف.

وتنفقُ مالَها في سبيلِ الله تعالى ، ليتابعَ النّبيُ ﷺ الدعوةَ إلى اللهِ بقوةٍ ويقين .

* وأمامَ هذا السَّخاءِ والإيمانِ ، نالَت المكافأةَ والجزاءَ من اللهِ عزّ وجلّ بالسَّلامِ والبشارةِ بالجنّةِ ، حتّى قال ابنُ قيم الجوزيّة عمّا خُصَّتْ به خديجةُ بالسَّلام من ربّها : «وهي فضيلةٌ لا تُعرفُ لامرأةٍ سواها»[1] وسُئِل محمدُ بنُ داود : «أيّهما أفضلُ : خديجةُ أو عائشةُ»؟ فقال : «خديجةُ أقرأَها النَّبيّ ﷺ السَّلامَ من ربّها ، وعائشةُ أقرأَها السَّلام من جبريل ، فالأُولىٰ أفضلُ» ؛ وما أجْمَل أنْ نترنم بهذه التّغريدة :

هَـذِي خـديجـةُ أَسْلَمـتْ أُوْلـىٰ النِّسـاءِ المُسْلمـات
هـي زوجـةُ الهَـادي وأوّلُ زوجـةٍ فـي المُحْصَنَـات
قـد أشـرقَ الإيمـانُ فـي أعمـاقِهـا فـي السَّـابقـات
قـد آمنـتْ بـاللهِ ربّـاً ربَّ كُـلِّ الكَـائِنـات
قـد أخلصـتْ فـي دينهـا نِعْـمَ النّسـاءُ المُخلِصَـات
مِـنْ مـالِهـا مـنْ جَهْـدِهـا أعطَـتْ ولـم تُعْـطِ الفُتَـات
أَعطـتْ جـزيـلاً فـي سخـاءٍ أصبحـتْ فـي المُحسنـات
قـد سلَّـمَ المـولـىٰ عليهـا فهـيَ بيـنَ الآمنـات
جبـريـلُ جـاءَ إلـى النّبـيّ وخصَّهـا بـالبُشْـريَـات
قـد أُعطِيـتْ فـي الخُلـدِ بيتـاً فـي جـوارِ الخـالـدات[2]

* هذه بعضُ مناقبِ خديجةَ حينما انبلجَ نورُ الإسلام ، فكيف كانت حياتُها قبل ذلك؟

* كانت خديجةُ رضي الله عنها تُدعىٰ في الجاهليّةِ «الطّاهرة»[3] وتزوَّجَتْ من أبي هالةَ بنِ زرارة التّميميّ ، ثم خلفَ عليها بعده عتيقُ بنُ عابد المخزوميّ ، ثم خلفَ عليها سيّدنا رسولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٠٥).

(٢) تغريدة السيرة النبوية (١/ ١٢٨) لمحمد عايش ـ دار التراث ـ مصر ـ دون تاريخ.

(٣) قال السّهيلي رحمه الله : «خديجةُ بنتُ خويلد تُسمّى : الطّاهرة في الجاهلية والإسلام ، وكانت تسمّى : سيدة نساء قريش. . .». (الرّوض الأنف ١/ ٢١٥) ط ١٩٧١م.

* وكانتْ خديجةُ رضي الله عنها في سنِّ الشَّبابِ عندما ترمّلتْ بعد وفاةِ زوجَيْها ، وكانت ذات مالٍ وجمالٍ ونَسبٍ وشرفٍ ، تشتغلُ بالتّجارة ، وتبعثُ القوافلَ إلى الشّام مع بعضِ مواليها ، أو نَفَرٍ من الرِّجالِ تستأجرهُم لذلك .

* وسمعتْ بأَمينِ قريشٍ وفتاهَا النّجيبِ النّسيب محمّدٍ ﷺ ، فطلبتْ منه أنْ يتاجرَ بمالها إلى الشَّام ، وجعلتْ غلامَها ميسرةَ صاحباً له وأوصتْه به .

* وكانت الرحلةُ الشَّاميةُ بالتِّجارةِ الخديجيّةِ موفقةً ميمونةً ، فعندما عادتِ القافلةُ إلى مكَّةَ أخذ ميسرةُ يحدّثُ سيّدتَهُ عمّا شاهدَ من الكراماتِ الجليّةِ لمحمّدٍ ﷺ وشمائله اللطيفة ، فحدَّثها عن الغمامةِ التي كانت تظلّلهُ في ذهابه وإيابه ، وعن الرّاهبِ نسطورا الذي قال لهُ عن محمّدٍ ﷺ عندما نزلَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ في الشَّام : «ما نزلَ تحتَ هذه الشَّجرة إلاّ نبيٌّ ، وهو آخرُ الأنبياء» .

* كانت خديجةُ تسمع بشغف هذا الكلام وتعيه كاملاً حرفاً حرفاً وكلمةً كلمةً وجملةً جملةً ، فازدادت يقيناً بأنّ محمّداً ﷺ ميمونُ السّنا والنّقيبةِ ، ورسولُ الخيرِ لهذه الأمّةِ ، وعلمت بأنَّ مبعثَ رسولٍ قد قَرُبَ أوانه ، فدعَتْهُ إلى الزّواج ، وكان ذلك إليها ، وللهِ درّ شرف الدّين أبو عبد الله البُوصِيْري إذ رسمَ هذه الواقعة في همزيتهِ الجميلةِ فقال :

ورأتــهُ خــديجــةُ والتُّقــىٰ والــزُّهْـ ـــدُ فيـــه سجيّـــةٌ والحَيـــاءُ
وأتَــاهَــا أنَّ الغَمــامَــة والسَّــرْ حَ أظلَتْـــه منهمـــا أفيـــاءُ
وأحــاديــثُ أنَّ وعــدَ رســولِ اللـ ـــهِ بــالبعــثِ حَــانَ منــه الــوفــاءُ
فــدعتــهُ إلــى الــزَّواجِ ومــا أحـ ـسنَ مـا يبلـغُ المنـى الأذكيـاء[1]

* وأرسلتْ خديجةُ صديقتَها الوفيةَ نفيسةَ بنتَ منية إلى محمّدٍ ﷺ لتعلْمَ ما عنده من هذا الأمر الميمون ، وكانت نفيسةُ ذاتَ عقْلٍ راجحٍ فيها الكياسةُ والحصَافةُ ، فحصلتْ على الموافقةِ المحمديّةِ للزّواجِ من السَّيِّدةِ خديجة بعد حوار وحديث معه ﷺ .

(١) ديوان البوصيري (ص ٥٢ و٥٣) تحقيق محمد سيد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٣م .

* عادت نفيسةُ تحملُ البشْرى المُحمّديّة النفيسة المباركة لخديجةَ قائلةً: «أبشري يا خديجةُ ، فقد وافقَ محمّد ﷺ على ما تريدين».

* تمّ الزّواجُ ، وكانت خديجةُ ذاتَ عَقْلٍ حصيف زانَه بُعْدُ النَّظرِ ، فهيّأَتْ لحياتهما بيتاً سعيداً ، وأعطتْ لمحمّدٍ ﷺ كلّ الوفاء والتفاني والإخلاص ، فهو الأمينُ ذو الصِّفاتِ النّبيلةِ ، والخصائلِ العظيمةِ ، والحصائل الكريمة ، وكان عمرهُ عند الزّواج منْ خديجةَ خمساً وعشرين عاماً ، وعمرُهَا يقتربُ من الأربعين و:

| | |
|---|---|
| مـنْ أجـلِ ذا ائتمنَتْـه بنْـتُ خُـويلـدٍ | فـي مَـالِهـا مِـنْ وَافِـرِ الثَّـروَاتِ |
| فَمضَـى لأَرْضِ الشَّـام متّجِـراً وعَـا | دَ مـوفّقـاً فـي بَيْعِـهِ السِّلْعَـاتِ |
| وهنَـاكَ قَـدْ زادتْ بـه ولَعـاً ورا | مَـتْ وصْلَـه لِتَعـدُّدِ الميْـزَاتِ |
| فـدعَـتْ نفيسـةَ بنـتَ منيـةَ ثـمّ بثَّـ | ـتْهـا الـذي تُخْفِـي مِـنَ النِّيَّـاتِ |
| فَمَضَـتْ إليـهِ وكَـاشفَتْـه بمـا لَـدَ | يْهـا فـارْتَضَـاهُ وسُـرَّ بـالفِكْـراتِ |
| مـع أنَّهـا فـي الأربعيـن وعمـرُهُ | خمسٌ مع العشرين منْ سَنَواتِ[1] |

(١) كتاب سيرة ولد آدم (تائبة الخطيب) (ص ٤٣) الشؤون الإسلامية ـ قطر ـ دون تاريخ. قال ابنُ إسحاق في السِّيرة: «وكانت خديجةُ امرأةً حازمةً شريفةً لبيبةً ، مع ما أرادَ اللهُ بها من كرامتِهِ ، فلمّا أخبرها ميسَرةُ بما أخبرها به ، بعثتْ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له فيما يزعمون: يا بن عمّ ، إنّي قد رغبتُ فيكَ لقرابتك ، وَسِطَتِكَ في قومك وأمانتك ، وحسْنِ خلقِكَ وصدقِ حديثِكَ؛ ثم عرضَتْ عليه نفسها ، وكانت خديجةُ يومئذٍ أوسط نساء قريشٍ نَسَباً ، وأعظمهنَّ شرفاً ، وأكثرهنّ مالاً ، كلّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه».
قال السُّهيلي رحمه الله: «معنى السِّطَةِ والوسط؛ وهي أوسط قريشٍ نسباً: السِّطَةُ: منَ الوسط؛ والوسط: من أوصافِ المدحِ والتّفضيل ، ولكنْ في مقامين: في ذِكْرِ النَّسَبِ ، وفي ذِكْرِ الشَّهادة ، أمّا النَّسبُ: فلأنَّ أوسطَ القبيلةِ أعرقها ، وأولاها بالصَّميم وأبعدها عن الأطرافِ والوسيط ، وأجدر ألاَّ تُضافَ إليه الدّعوةُ؛ لأنَّ الآباءَ والأمّهاتِ قد أحاطوا به من كلِّ جانب ، فكان الوسطُ منْ أجلِ هذا مدحاً في النَّسبِ بهذا السَّبب.
وأمّا الشَّهادة فنحو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾؛ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فكان هذا مدحاً في الشّهادةِ ، لأنّها غايةُ العدالةِ في الشّاهدِ أنْ يكون وسَطاً كالميزانِ، لا يميلُ مع أحدٍ، بل يصمّمُ على الحقِّ تصميماً، لا يجذبه هوى، ولا يميل به

* ومرَّ على هذا الزَّواجِ الميمونِ خمسةَ عشرَ عاماً ، كانت أعواماً سِمَاناً حصَدَ الزّوجان جنَى السَّعادةِ خلالَها ، وكان البيتُ المحمّديُ مُتَوَّجاً بالتّوفيق والسَّعادة والنجاح.

* وبعد هذهِ الأعوامِ الميمونةِ ، بلغَ محمدٌ ﷺ الأربعين من عمرهِ الشريف ، وكان قد حُبِّبَ إليهِ الخلوة في غارِ حراء إذْ يأنسُ بربّه ، ويبْتَعِدُ عنْ ضلالاتِ الجاهليّةِ وآثامِها وأزْلاَمِها وأصْنَامِها ولاتِها وعزّاها وهُبَلها.

* جاء شَهْرُ رمضانَ شهر الخير واليمن والبركة ، وأزفتِ السّاعةُ ليتّصلَ خبرُ السّماءِ بالأرضِ ، قال ابنُ قيم الجوزيّة: «فلمّا كَمُلَ له ﷺ أربعون ، أشرقَتْ عليه أنْوارُ النّبوّةِ ، وأكرمَهُ اللهُ تعالىٰ برسالتِهِ ، وبعثَهُ إلى خلْقِهِ واختصَّهُ بكرامتِهِ ، وجعلَه أمينه بينَه وبينَ عبادِهِ».

* في هذا الوقتِ تألّقَتْ خديجةُ رضي الله عنها تألقاً نادراً إذ شدّتْ أزْرَ النَّبيّ ﷺ عندما أخبرَها بالوحي فقالت له: «واللهِ لا يخزيكَ اللهُ أبداً ، إنّكَ لَتصِلُ الرّحم ، وتصدقُ الحديثَ ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضّيف ، وتعينُ على نوائب الحقّ»[1].

---

= رغبة ، ولا رهبة من هاهنا ، ولا من هاهنا، فكان وصفُهُ بالوسطِ غاية في التّزكيةِ والتّعديل. (الرّوضُ الأُنُف ١/ ٢١٣) بتصرف يسير جداً.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣). وما أجمل هذه الفقرات الكاشفات عن خديجة التي نقلناها من «نفح الطِّيب» حيث نقلَ المقَّري عن ابن الآبار قوله: «فعلمَتْ أنّه الصَّادق المصدوق ، وحكمتْ بأنّه السَّابق لا المسبوق ، وما زالتْ حتَّى أزالَتْ ما بهِ منَ الغُمَّة ، وقالت: إنّي لأرجو أنْ تكون نبي هذه الأمّة:

إنّـي تفـرَّسْـتُ فيـكَ الخيـرَ أعـرفـه ... واللهُ يعلـمُ أنْ مـا خـانَنـي البصـرُ
أنـتَ النَّبـيُّ ومَـنْ يُحْـرَم شفـاعتُـهُ ... يـومَ الحسـابِ فقـد أزرى بـه القَـدرُ

لا ترهبْ فسوفَ تبهر ، وسيبدو أمرُ اللهِ تعالى ويظهر؛ . . . . وما لبثتْ أنْ غلّقَتْ أبوابَها ، وجمعتْ عليها أثوابَها ، وانطلقتْ إلى ورقَة بن نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المُجْمَل ، وكان يرجعُ إلى عقلٍ حَصِيْف ، ويبحثُ عمّن يُـبْعَـثُ بالدِّين الحنيف ، فاستبشرَ به نامُوسا ، وأخبرَ أنّه الذي كان يأتي مُوسى ، فازدادتْ إيماناً ، وأقامتْ على ذلك زماناً. . . .

وقد سبقتْ لها من اللهِ تعالى الحُسْنى ، فصَنَعتْ حَسَناً وقالتْ حُسْنا. . . فحيَّاهَا المَلَكُ بالسَّلام ، منَ المَلِكِ السَّلام. . .». (نفح الطيب ٤/ ٥٠٣ و٥٠٤) باختصار.

* وطابتْ نفسُ النَّبي ﷺ بحديثِ خديجةَ وكلماتِها العظيمة النابعة من صدق فراستها وكمال عقلها؛ فمن بيتها سَطَعَ نورُ الإسلامِ وغمرَ الدُّنيا كلَّها، فكان بيتُها أفْضَلَ الأماكنِ بمكَّةَ المكرمةِ بعْدَ المسجدِ الحرامِ، وفيه يُستجابُ الدُّعاءُ لِطُولِ سِكْنَى رسولِ الله ﷺ فيه، ولنزولِ جبريل عليه السلام فيه على الحبيب المصطفى محمد ﷺ.

* كانت أمّنا خديجةُ ترفقُ بالنّبيّ ﷺ وتواسيهِ وتعينُهُ فيما يحتاجُ إليهِ قبلَ أنْ يُبْعثَ رسولاً، وبعد أنْ أُرسل كانت أوّلُ المبايعاتِ وأوّل السَّابقات وأوّلُ المصدّقاتِ المؤمناتِ، وأوّلُ مَنْ ناصرَه وشدَّ أزْرهُ، وظلّتْ كذلكَ حتَّى توفيت قبلَ الهجرةِ بثلاثةِ أعوام؛ توفيتْ بمكَّةَ وعمرُها يقتربُ من خمسةٍ وستين عاماً، ودفنَها النّبيّ ﷺ في الحجون[1] وأطلقَ على عامِ وفاتِها اسمَ «عام الحزن»، وذلك لشدّةِ ما كان فيهِ منَ الشّدائد والأهوالِ في سبيلِ الدَّعوة إلى الله عز وجل.

* ظلت خديجةُ رضي الله عنها في حياتِها الزّوجية قرابةَ خمسٍ وعشرين سنةً تقدِّمُ خلالها كلَّ فضيلةٍ، وخلّةٍ نبيلةٍ، حتّى حازتْ درجةَ الكَمالِ، وحتى قالَ النّبيُ ﷺ في حقِّها: «كَمُلَ منَ الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يكمُلْ من النّساءِ إلاّ ثلاث: مريمُ بنتُ عمران، وآسيةُ امرأة فرعون، وخديجةُ بنتُ خُويلد...»[2].

* ولخديجةَ لَمَسَاتٌ طيّبةٌ وأوّلياتٌ عظيمةٌ أجملَها الإمامُ الزّهري بقوله: «كانتْ خديجةُ رضي الله عنها أوّلَ مَنْ آمنَ باللهِ، وقَبِلَ الرّسولُ رسالةَ ربِّه، وانصرفَ إلى بيته، وجعلَ لا يمرُّ على شجرةٍ ولا صخرةٍ إلاّ سلَّمتْ عليه. فلمّا دخل على خديجةَ قال: «أرأيتُكِ الذي كنْتُ أحدّثكِ أنّي رأيتُه في المنَامِ؟ فإنّه جبريلُ استَعْلَنَ لي، أرسَلَه إليَّ ربّي». وأخبرَهَا بالوحي فقالت: أَبْشِرْ فَوَاللهِ لا يفعلُ اللهُ بكَ إلاّ خيراً، فاقْبَلِ الذي جاءَكَ مِنَ اللهِ فإنّه حقّ»[3].

---

(١) «الحجون»: جبل بأعلى مكة المكرمة، كان أهلها يدفنون فيه موتاهم.
(٢) للحديث أصل في الصّحيحين بألفاظ متقاربة.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (السّيرة النبوية ص ١٢٨).

* وذكر ابنُ كثير أوّلياتٍ ميمونةً لخديجةَ منها أنّها أوّلُ المصدّقينَ بالرّسالةِ المحمديّةِ وأوّل زوجةٍ رضي الله عنها[1].

«ومن أوّلياتِ الطّاهرةِ خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ والتي ينبغي أنْ تُسَجَّلَ وتحفظ أنَّها:

* أوّلُ مَنْ صلّى مع رسولِ اللهِ ﷺ.

* وأوّلُ مَنْ رُزِقَ منها الأولاد.

* وأوّلُ مَنْ بشّرها بالجنّةِ من أزواجهِ.

* وأوّلُ مَنْ أقرأَها ربُّها السَّلام.

* وأوّلُ صِدّيقة منَ المؤمناتِ الصّحابيات.

* وأوّلُ زوجاتِ النّبي ﷺ وَفَاةً.

* وأوّل قَبْرٍ نَزلَ فيهِ النّبيُّ الكريمُ ﷺ قبرهَا بمكّة»[2].

---

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (٩٧ و٢٤٣) بتصرف.

(٢) نساء مبشرات بالجنة للدكتور أحمد خليل جمعة (ص ٣٦). ويمكنني الآن أنْ أزوّدَ النساء بهذا الزّادِ الميمونِ عن خصائصَ أمّنا خديجةَ رضي الله عنها، وخصائصها نادرة وهي خصائصُ الزّوجةِ الكاملةِ الحصيفةِ التي تفرَّدَتْ بها بين نساءِ عصرِها فمن الخصائص المونقة التي تألقت فيها خديجة وتفرّدت هي:

**أولاً**: إنَّ أمّنا خديجةَ رضوان الله عليها لم تشارك قريشاً قومَها لهوهم وسفاحَهم وتبرُّجَهم، بل إنَّها رضي الله عنها لزمت بيتها وتاجرتْ بمالها دونَ أنْ تحتكَّ بنفسها مع الرِّجال، وما عُرِفَ عنها تبرّجٌ ولا اختلاطٌ، ولم يعرفِ التّاريخُ أصلاً فسادَ زوجات الأنبياء أو تبرجهنّ للنّاسِ.

**ثانياً**: إنَّ السَّيِّدةَ خديجةَ رضوانُ اللهِ عليها واسَتِ النّبيَّ ﷺ ووقفتْ معه في الأيّامِ العَسِرةِ، ولم تَمُنَّ النّبيّ ﷺ لخطة بمالها، بل إنّها أنفقت منه بإذنه، ولم تكنِ القوامةُ له، فكانت مثلاً أعلى لنساءِ الدنيا مِنْ بعدها، فهل تتخلّقُ النِّساءُ بأخلاقِ سيّدتنا خديجة سيّدة نساء العالمين رضي الله عنها.

**ثالثاً**: بلغت أمنا خديجة السُّها عندما رضيتْ بالفارقِ في المالِ بينها وبين النّبي ﷺ، ولم تنظرْ إلى عاداتِ النّاس وتقاليدهم التي كانت تهدّدهم، فقد كانت مشهورة بمالها ومكانتها.

**رابعاً**: عندما أرسلتْ خديجة لخطبةِ النّبيّ ﷺ كانتْ قد خالفتِ المفهومَ القاصرَ عند النّاس، =

* إنّ الكلامَ عن أمِّ المؤمنين خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ كلامٌ جميلٌ مطْرِبٌ ، وهو روحُ وريحانُ هذا الكتاب ، ولا يملّ سامعه منه ، غير أنّني حاولْت أنْ أقتطفَ بعضَ أزاهيرِ الودّ والوفاءِ من سيرتِها المعْطار رضي الله عنها وأرضاها ، وحشَرنا في معيتها ، إنّه سميع مجيب.

## ثانياً: لبابة بنتُ الحارث الهلالية رضي الله عنها

* هذهِ امرأةٌ نجيبةٌ من نجيباتِ النّساءِ السَّابقات إلى الإسلام ، إنّها لبابةُ بنتُ الحارثِ بنِ حزنِ الهلاليّة المشهورة بكنيتها أمّ الفَضْل ، وهي زوجةُ العبّاسِ بنِ عبد المطّلب عمّ النّبي ﷺ.

* كانت أمُّ الفَضْلِ قديمةَ الإسلام في مكّةَ المكرمةِ ، فكان ابنُها عبد الله بن عبّاس يقول: «كنتُ أنا وأُمّي من المُسْتَضعفينَ من النِّساءِ والولدان»[1].

* وأخرجَ البخاريُ بسندهِ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه تَلاَ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النّساء: ٩٨] ، قال: «كنتُ أنا وأمّي ممّن عذَرَ الله»[2].

وهذا الحديثُ الصَّحيح يشيرُ إلى أنّ أمَّ الفَضْل قد أسلَمتْ قديماً قبْل زوجِها العبّاس ، وعجزتْ عن الهِجْرةِ إلى المدينةِ المنوّرةِ مع المُهاجِراتِ لضَعْفِها ولصِغَرِ ابنها عبد الله بنِ عبّاس رضي الله عنهم أجمعين.

---

= كما أنَّ النَّبي ﷺ قد ازدرى أعرافَ الجاهليةِ عندما قَبِلَ السَّيدة خديجة التي تكبرهُ خمسة عشر عاماً ، وخالفَ التَّقاليد الموروثة التي محاها الله بالإسلام.

خامساً: كانت خديجةُ السَّندَ العظيمَ للنَّبي ﷺ ، فقد كانت تؤنسُهُ في حياته القاسية المليئة بالهموم وتحدّي الخصوم ، لذلك كانت الزوجة الفاضلة التي طغت ذكراها على حياتهِ الشريفة ﷺ فكان يذكُرها في كثير من المواقف بعد موتها ويثني عليها ويترحّم عليها.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٥٨٨).

* وعن إسلامِها المُبكّر فقد قال ابنُ سعد: «أمُّ الفَضْلِ أوّلُ امرأةٍ آمنَتْ بعد خديجةَ»[1].

* وافتتحَ الذَّهبيُ ترجمتَها بقولـهِ عنها: «أمُّ الفَضْلِ بنتُ الحارثِ بنِ حزنِ بنِ بُجير الهلاليّة، الحرّةُ الجليلةُ، زوجةُ العبّاس عمّ النبي ﷺ، وأمُّ أولادهِ الرِّجالِ السِّتَةِ النُّجباء. اسمُها لُبابة؛ وهي أختُ أمِّ المؤمنين ميمونـةَ، وخالَةُ خالدِ بنِ الوليد، وأختُ أسماءَ بنتِ عُميس لأمِّها؛ قديمةُ الإسلامِ»[2].

* وقـال الـذَّهبـيُّ: «لـمْ يُسْلِـمْ ـ مـن النِّسـاءِ ـ أحـدٌ قَبْلهـا. يعنـي: بعـد خديجةَ»[2].

* كانتِ السَّيّدةُ لبابةُ الكُبْرى أمُّ الفَضْلِ ممّن حَظِيَ بالصُّحبةِ النَّبويةِ منذ أنْ أنعمَ اللهُ بالنّبوةِ على رسولِه. ولقيتْ ما لقيَ غيرُهَا من العنَاء والمشقَّةِ من فجّارِ قريش وأشرارِهم، ولما قاطَعَتْ قريشٌ أهلَ الإسلامِ منْ بني هاشم وذويهم، كانت أمُّ الفَضْل يومَها حاملاً بابنها عبد الله، ودخلتِ الشِّعْبَ مع المُحاصَرين، فجاء زوجُها العبّاسُ إلى النَّبيّ ﷺ وقال: «يا محمّدُ، أرىٰ أنَّ أمَّ الفَضْل قد اشتملتْ على حَمْل».

فقال النَّبيُ ﷺ: «لَعَلَّ اللهَ أنْ يقرَّ أعينكُم».

* وولدتْ أمُّ الفَضْلِ ابنَها في الشِّعب، فحملُوا المولودَ عبدَ الله بنَ عبّاس إلى النَّبيّ ﷺ، فحنّـكَهُ بريقِهِ الطَّاهرِ الشَّريفِ؛ وهذه منقبةٌ لهذا المولودِ النّجيبِ ممّا جَعلَ الإمامَ مُجَاهِداً رحمه الله يقولُ: «فَلَا نَعْلَمُ أحداً حنّـكَه رسولُ اللهِ ﷺ بريقِهِ غيرَ ابنِ عبّاس».

* ونشأَ عبدُ الله ترعاهُ أمُّه رعايةً خاصةً، فقد كانَتْ ترىٰ منه مخايلَ البركَة والسِّيادةِ، فكانت تشعرُ بالسُّرور يغمرُ قلبَها، وكانت إحدى فصيحاتِ النّساءِ، فكانت ترقّصُ ابنَها عبدَ الله وتقولُ:

ثكلْـتُ نَفْسِـي وثكلْـتُ بِكْـري إنْ لـم تَسُـدْ فِهـراً وغيـر فِهـر

(١) الإصابة (١٣/ ٢٦٥)، والاستيعاب (١٣/ ١١٤) بذيل الإصابة.
(٢) و (٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٤ و٣١٥).

بـالحسَـب العَـدِّ وبَـذْلِ الـوَفْـرِ     حتّـى يُـواريٰ فـي ضـريـح القبـر[1]

* وصدقَتْ فراسةُ أمِّ الفَضْل بابنها عبدِ الله ، فَسَادَ وجَادَ ، فكان حَبْر الأمّةِ ، وفقيه العَصْرِ ، وإمام التَّفسير ، مَسحَ النّبيُ ﷺ رأْسَه ، ودعا له بالحكْمَةِ فقال: «اللهمّ علّمْهُ الحكمةَ وتأويلَ الكتاب»[2] ، فكان يُسَمَّى «البحر» لعلْمِهِ وجُودِهِ ، وكان مهيباً كاملَ العقْل ، زكيَ النَّفس ، من رجالِ الكَمَال[3] .

* وكانت أمُّ الفضل من النّساء المُنْجبات ، واشتُهرتْ بذلكَ ، حتّى امتدحَها عبدُ الله بنُ يزيدَ الهلاليّ فقال:

مَـا وَلَـدتْ نَجِيْبَـةٌ مِـنْ فَحْـلِ     بِجَبَـلٍ نعلمُـه أو سَهْـلِ
كَسِتَّـةٍ مِـن بَطْـنِ أُمِّ الفَضْـلِ     أكْـرِمْ بِهـا مِـنْ كَهْلَـة وكَهْـلِ
عـمّ النّبـي المُصْطَفـى ذي الفَضْـل     وخـاتـم الـرُّسـلِ وخيـر الـرّسـلِ[4]

* قال النَّوويُ رحمهُ اللهُ عن نجابةِ أمّ الفَضْل وسبْقِها إلى الإسلام: «كانتْ

---

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٣٢٠) ومعنى «بِكْري»: بكرها: الفضل بن العباس وبه تكنى ، و«الحسب العد»: القديم. ومن الملاحظ أنَّه في الوقتِ الذي ينمو فيه الطّفلُ جسيماً ، تكونُ الأمُّ الحصيفةُ الواعيةُ عاملةً على تربيته خلقيّاً ، ومنذُ الطُّفولةِ المبكّرةِ ، فقد رُويَ من الأناشيدِ والتَّهليلات ـ التي كانت هؤلاء الصَّحابيات المبايعاتُ يرقّصْنَ أولادهنَّ عليها ـ الجميلَ والممتعَ ، بما ضمّنّه من قيمٍ خلقيةٍ رفيعةٍ ، فالمرأةُ الواعيةُ الأصيلةُ في ذاك العَصْر كانت تغرسُ منذ نعومةِ الأظفار المعاني الرَّفيعةَ في نفوسِ أطفالها ـ ذكوراً وإناثاً على حدٍّ سواء ـ وترنّمهم بذوقِ الكَلِم الرَّقيقِ ، وفصاحةِ اللسان ، وتسعى لإبعادهم عن سماعِ دنيء الكلامِ وبذيئهِ ، ولاسيما إذا كانتْ مِنَ السَّادات ومن علية القوم ، وتتعهّدهم بالرّعايةِ والملاحظة ، مُوضّحةً لهم سُبُلَ الخيرِ ، والصَّلاحِ ، والفلاحِ.
ولم يكنْ يشارك الأم في التّربية غير الأب ، وغالباً ما يكونُ الأبُ مشغولاً بأمورِ المعاشِ ، ولذا فإنَّ الأمَّ كانت عنصراً فعّالاً وحيويّاً في تربيةِ أولادِهَا على كريمِ الخلالِ وحميدِ الخصَال ، وتلقّنهم العادات والأعراف المتداولة ، وآداب السّلوك ، والفصاحة والبيان.

(٢) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٥) ، وأخرجه أحمد في المسند بلفظ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (المسند ١/ ٢٦٦ و٣١٤ ، و٣٢٨ و٣٣٥).

(٣) اقرأ سيرته كاملة في كتابنا «علماء الصحابة» ففيه خير كثير بإذن الله.

(٤) انظر: الاستيعاب (١٣/ ١٤٥). وكان للعباس من الإناث: أم حبيب أو حبيبة ، وآمنة ، وصفية ، وأم الفضل.

منَ المنْجباتِ، ولدتْ للعبّاسِ ستَّةَ رجالٍ لم تلدِ امرأةٌ مثلَهم: الفضْلُ، وعبدُ الله، ومعبدُ، وعبيدُ الله، وقثمُ، وعبدُ الرّحمن، وأسلمتْ لبابةُ قديماً، وهي أوّلُ امرأةٍ أسلمتْ بعد خديجة، وكان النَّبيّ ﷺ يزورها وهي لبابةُ الكبرى»[1].

* ومن العجيبِ أنّ هؤلاءِ الإخوة النُّجباء ماتَ كلُّ واحدٍ منهم في ناحيةٍ من الأرض حتّى قيل: «ما رأينا مثل بني أمّ واحدةٍ أشراف، وُلدوا في دارٍ واحدة أبْعَدَ قبوراً من بني أمّ الفضل:

فأمّا الفضلُ فماتَ بأجنادين شهيداً.

وعبدُ الله فماتَ بالطَّائف.

وعُبيد الله ماتَ باليمن.

وعبدُ الرحمن ومعبدُ ماتا بإفريقيا.

وقُثَمُ ماتَ بسمرقَنْد».

* ولعلّ الحكمةَ في ذلك انتشار بركتهم في الآفاق و بانتفاع النَّاس بهم في تلك البلاد التي سكنوها وذهبوا إليها و من حيث دعوتهم إلى الله عز وجل، وتوجيه النَّاس إلى الخير، والإحسان إليهم، فبهذا كله تحصلُ البركة بالصَّالحين.

* ومن العجيبِ أيضاً أنّ صاحبَ السّيرةِ الحلبيّةِ نَقَلَ عن ابن الجوزي بشَأْنِ أمِّ الفَضْلِ قوله: «ليس في الصَّحابيّاتِ مَنْ كنيتها أمّ الفضل إلا زوج العبّاس»[2] والحقيقةُ فهناك صحابياتٌ ثلاث لهُنَّ هذه الكنية وهنّ: أمُّ الفَضْل بنتُ الحارث هذه، وأمُّ الفضل بنتُ حمزة، وأمُّ الفَضْل بنت العبّاس[3].

* وكانت السَّيّدةُ النّجيبةُ أمُّ الفضل من عليةِ النّساءِ وكرائمهنّ، وكانَتْ شهمةً غيورةً على الإسلامِ والمسلمين، لا تصبرُ على أذى أحدٍ منهم مهما كان؛ وقد وردَ أنّها وقفَتْ في وجْهِ أبي لهبٍ وضربتْهُ بِعَصا شجَّتْ بها رأسه لأنّه اعتدىٰ على بعضِ الموالي.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (ص ٦١٨) طبعة دار الفكر ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٤٤٤).

(٣) أسد الغابة (٧/ ٣٦٦ و٣٦٧).

* وسنستمعُ إلى شجاعةِ أمّ الفضْل وشهامتِها من صاحبِ العلاقةِ نفسها ، فقد روى أبو رافع[1] مولىٰ رسولِ اللهِ ﷺ قصّة ذلك فقال ما ملخّصُه: «كنتُ غلاماً للعبّاسِ بنِ عبد المطّلب ، وكان الإسلامُ قد دخَلنا أهلَ البيتِ ، فأسلمتْ أمُّ الفَضْل ، وأسلمتُ ، وكان أبو لهبٍ قد تخلّفَ عن بَدْرٍ ، فلما جاءَهُ الخبرُ عن مصابِ قريشٍ في بَدْرٍ ، أذلّهُ اللهُ عزّ وجلّ وأخزاه ، ووجدنا ـ نحنُ المسلمين ـ في أنفسِنا قوةً وعزّاً وعزيمةً ، وكنتُ يومئذٍ رجُلاً ضعيفاً أصنعُ الأقداحَ الخشبيّةَ في حُجرةِ زمزم؛ فو اللهِ إنّي لجالسٌ فيها أصنعُ أقداحي وأنحتُها ، وعندي أمُّ الفَضْل جالسةٌ ، وقد سُرِرْنا بنصرِ رسولِ الله ﷺ ، إذ أقبلَ أبو لهبٍ يجرُّ رجلَيْهِ ووجهه يطفحُ بالشَّرِّ من الأخبارِ التي وصلتْ إليه عن الهزيمةِ ، فجلسَ إلى طرفِ الحجرةِ ، وبينما هو جالسٌ إذ قال النّاس: هذا أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبد المطّلب قد جاءَ من بَدْرٍ.

فقال له أبو لهب: هلمَّ إليّ ، فعندكَ لَعَمْري الخبرُ؛ فجلسَ إليهِ فقال أبو لهبٍ: يا بنَ أخي ، أخبرني كيفَ كان أمْرُ النَّاسِ؟

قال: واللهِ ما هو إلاّ أنْ لقينا القومَ ، حتّى منحناهُم أكْتَافَنا يقتلوننا كيفَ شاؤوا ، ويأسرونَنَا كيف شاؤوا ، وأيمُ اللهِ مع ذلك ما لُمْتُ النّاس ، لقينا رجالاً بِيْضاً على خَيْلٍ بُلْق بين السَّماءِ والأرضِ ، واللهِ ما تبقي شيئاً ، ولا يقومُ أمامها شيء.

قال أبو رافع: فرفَعْتُ طرفَ الخيمةِ بيدي وقلتُ فرحاً: تلكَ الملائكةُ واللهِ ، فاغْتَاظَ أبو لهبٍ ورفعَ يده فضربَ وجْهِي ضربةً شديدةً ، فوثبتُ إليهِ فاحتملني وضربَ بي الأرضِ ، ثمَّ بركَ عليّ يضربني ، وكنتُ رجُلاً ضعيفاً.

ولما رأتْ أمُّ الفَضْلِ ما يصْنَعُ بي ، قامَتْ إلى عمودٍ من عُمُدِ الحجرة ، فأخذتْه ، ثمّ ضربَتْ أبا لهبٍ ضربةً شقّت في رأسهِ شجّةً منكرة ، وقالت له في قوةٍ: ويحكَ ، أسْتَضْعَفْتَه أنْ غابَ عنه سيّده؟!

---

(١) كان عبداً للعباس بن عبد المطلب ، فوهبه للنبي ﷺ ، فلما أن بشّر النبي بإسلام العباس أعتقه.

فنكسَ الخبيثُ وقامَ مولّياً ذليلاً مدحُوراً ، فو اللهِ ما عاشَ بعدَهَا إلا سَبْعَ ليالٍ حتّى رماهُ اللهُ بقرحةٍ قاتلةٍ فَقَتَلَتْه»[1] .

* وظلّتْ أمُّ الفَضْلِ في مكّةَ حيناً من الدّهْر ، ثمَّ صحبتْ زوجَها العبَّاسَ مهاجرةً إلى المدينةِ المنوّرةِ ، وهناك أخذتْ مكانتَها بين السَّابقاتِ المبايعاتِ ، فكان الحبيبُ المُصْطفَى ﷺ يحترمُها ويعرفُ مكانتَها وسابقتَها ، فكان يأتي بيتَها كثيراً ويزورُها ويكرمُها ، فقد كانتْ رضي الله عنها عابدةً طائعةً لله صوّامةً قوّامةً ، ذكرَ ابنُ الجوزي أنّها كانتْ تصومُ يومَي الاثنين والخميس .

* وذات يومٍ نامتْ أمُّ الفَضْلِ فحلمتْ أنّها رأتْ عضواً من أعْضَاءِ النّبي ﷺ في بيتها ، ولمّا زارهَا الحبيبُ الأعظمُ ﷺ أخبرتْه بما رأتْ في منامِها ، فطمأَنَها ﷺ وفسَّرَ حلْمَها قائلاً : «خيراً رأيتِ ، تلدُ فاطمةَ غلاماً وترضعيهِ بلبنِ ابنك قُثَم» فولدتْ فاطمةُ الحُسين ، فأرضعَتْهما أمُّ الفَضْل . وكان قثمُ أخا الحُسينِ من الرّضاعةِ ، وكان يُشَبّهُ بالنّبي ﷺ[2] .

* وكان لأمّ الفَضْل مكانةٌ ورفعةٌ بين الصَّحابيات ، وكانت من المشهوراتِ بالعفَّةِ والصِّيانةِ ، وذات مرّة أخذَ لعينُ اليهود وطاغوتُهم كعبُ بنُ الأشرفِ يؤذي المؤمنات العفيفاتِ بغَزَلهِ ، وصار يتناولُ أعراضَ المسلماتِ ، ويسبكُ قصَائدَ في التّغزُّلِ ببعضهنّ ، حتّى أقدمَ على أنْ يشبّبَ بأمِّ الفَضْل ويقولُ :

أرَاحِلُ أنتَ لمْ ترحَلْ بمنقَبَةٍ وتَارِكٌ أنْتَ أمَّ الفَضْلِ بالحَرمِ
إحدىٰ بني عَامرٍ جُنَّ الفُؤادُ بها ولو تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً من السّقمِ
لَمْ أرَ شَمساً بِلَيْلٍ قَبْلَها طلعَتْ حتّى تبدّتْ لَنَا في لَيْلَةِ الظُّلَمِ

* فغضبَ النَّبيُّ ﷺ لانتهاكِ هذا الفاجر حُرماتِ المسلمين ، وبذاءةِ لسانهِ وكذبهِ وحديثه المائقِ في المُسلماتِ الطّاهراتِ ، فانتدبَ لها محمّدَ بنَ مسْلَمة

---

(١) انظر : السّيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ٣٥١ و٣٥٢) ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٧٣ و٧٤) مع الجمع والتصرف . وعلى الرغم من أنَّ هذا الخبرَ ضعيفٌ ، فإنّه يدلُ على حماسةِ أم الفضل وشهامتها فللّهِ درّهـا من امرأةٍ حسمتِ الموقفَ بتصرف قد يعجز عنه الرجال! .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧٨ و٢٧٩) ، وللحديث أصل في مسند أحمد (٦/ ٣٣٩ و٣٤٠) .

وثلّةً من فرسانِ المسلمين ، فكَفَوهْ أمره وقطعوا دابره وقتلوه[1] .

* وظلت أمُّ الفضلِ ذاتَ مكانةٍ متميّزةٍ ، وتوفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنها ، وشهدتْ وفاته فقالت: «خرجَ إلينا رسُولُ الله ﷺ وهو عاصبٌ رأْسَهُ في مرضهِ، فصلّى المغربَ ، فقرأَ بالمرسلاتِ ، فما صلاّها بعد حتّى لقيَ الله»[2] .

* وكانتْ أم الفَضْلِ من الصَّحابياتِ اللواتي فَقِهْنَ الدِّين وعَلِمْنَه على أساسٍ صحيحٍ ، فقد جاء أنَّ ناساً تماروا في صومِ النّبي ﷺ يوم عرفة؛ فبعضُهم قال: «هو صائمٌ»، وقال آخرون: «ليس بصائمٍ»، فبعثتْ إليه بقدحٍ فيه لبنٌ فَشَرِبَه[3] .

* ومن أجَلّ فضائلِ أمِّ الفَضْلِ أنّه رُوي لها عن النّبي ﷺ ثلاثون حديثاً ، رواها أصحابُ الكتبِ السِّتةِ ، وروى عنها وَلَداها: عبدُ الله وتمّامُ وعددٌ من الصّحابة والتَّابعين. وتوفيت في خلافةِ عثمانَ رضي الله عنهما تاركةً أجملَ صفحَات البرِ والعملِ والسَّبق إلى المكارمِ في تاريخِ النّساءِ فرضي الله عنها وأرضاها.

**ثالثاً: سميّةُ بنتُ خُبَّاط رضي الله عنها:**

* في أَرْدَانِ السّيرةِ النبويةِ وأكمامِها فصولٌ قيِّمةٌ ومواقفُ آسرةٌ للنّفوس عن ثَباتِ أولئك الصّابرين من الرِّجالِ والنِّساءِ في وجْه طغيانِ قريش وكفر مجرميها.

* فقد اشتدَّت المحنُ على أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، وعظُم عليهم البلاءُ ، وتذامرت قريشٌ على مَنْ في القبائل والبيوتات منهم يعذّبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، ويحبسونهم ويضربونَهم ويجيعونهم جوعاً شديداً ، ويعطشونهم في الأيّام الحارَّةِ ، ويوقعون بهم كُلَّ بلاء يرون أنّه يمكن أنْ يصدَّهم عن دِينهم ، ويردَّهم عن عقيدتهم التّوحيديَّة إلى كفْر الوثنيَّة وظلمات الشّرك.

* فكانوا يُلقونهم في رمضاءِ مكةَ إذا اشتدّ الحرُّ ، فكان بعضُ المستضعفين

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٣) ، والبداية والنهاية (٤/ ٨) مع الجمع والتصرف.
(٢) هذا الحديث جاء في الكتب الستة.
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٠).

لا يطيقون العذابَ فيجيبونهم إلى الفتنة ، والأقوياء كانوا أصبر على ما يصيبُهم من التَّعذيب ، متحملين فادحَ البلاء وعظيمَ الإيذاء في سبيل الله .

* ونعيشُ الآن مع واحدةٍ ممن عُرفن بالصَّبر والتّحلّي بروح الفداء في سبيلِ الله ، إنّها سميَّةُ بنتُ خبّاط أمُّ عمار بن ياسر رضي الله عنهم أجمعين .

* كتبتْ أسرةُ ياسر بن عمار : ولَداهُ عمار وعبد الله وأمّهما سميَّة في سجّلِ البطولةِ الفدائيَّةِ أسمى آيات الصَّبرِ واحتمالِ أشدّ الأذى والعذاب .

* مات راعيها ياسرُ رضي الله عنه تحتَ العذابِ الشّديدِ ، وماتت سميةُ رضي الله عنها بطعنةٍ غادرةٍ جبَانةٍ من أبي جهل عمرو بنِ هشام ، ورُمي عبدُ الله أيضاً فَسقطَ ، ولم يبقَ منهم إلا عمّار رضي الله عنه فكانت له آثار الصِّدقِ في جميعِ مواقفِ الإسلام والجهادِ التي شهدها في معيتهِ ﷺ .

* سجّلتْ هذه الأسرةُ الكريمةُ سبقاً ميموناً في عالَم المكارم ، وكانت السّيّدةُ سميَّةُ رضي الله عنها هي صاحبةُ السَّبْق ، حيث أسلمتْ وبايعَتْ مع الثّلةِ المؤمنةِ الأولى في مكةَ المكرمةِ .

* وعندما أشرقَ قلبُها بالإيمانِ كانت قد اقتربتْ من سنّ الشّيخوخة ، غير أنّها حظيت بشرفِ الصُّحبة ، فكانت من الأكابرِ بين جماعةِ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم قال الإمامُ الذّهبي عنها : «هي سميّة مولاةُ بني مخزوم ، من كبار الصّحابيات»[1] .

* وفي سجلِ الأوائل يسطعُ اسمُ سميةَ أمّ عمار رضي الله عنها ، فإذا ذُكرَ الصَّابرون ذُكِرتْ مع أوائلهم ، وإذا ذُكر العابدون ذُكرت مع المُجلّين ، وإذا ذُكر الشّهداء الأبرار كان لها السّبق في هذا الميدانِ المُزهر بالوفاء والعهدِ مع اللهِ تعالى ، فهي الأُولى بين شُهداء الصَّحابة والصّحابيات رضي الله عنهم جميعاً .

* كانت سمَّيةُ أوّلَ امرأةٍ من الموالي أعلنتْ إسلامها ، أمامَ الملأ القرشي العنيدِ الظّالمِ ، فلم تخْشَ أبا جهل ، بل لم تخشَ مولاها أبا حذيفة بنَ المغيرة

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٦).

المخزوميّ ومَنْ معه من عصبة المشركين. وفوق هذا وذاك ذكروا أنَّ سميّةَ كانت سابعة سبعةٍ في الإسلام[1] ، فهي إذاً من العشرةِ الأوائلِ في ميدانِ الفضائل.

* ويشهدُ بهذا السَّبْق واحدٌ من أكابرِ أهل السَّبق وهو عبدُ الله بن مسعود الهُذَليّ رضي الله عنه حيث قال: «أولُ مَنْ أظهرَ إسلامه سبعة: رسولُ اللهِ ﷺ؛ وأبو بكر الصّديق رضوان الله عليه؛ وعمّارُ بنُ ياسر؛ وأمّه سميَّةُ بنتُ خبّاط، وصُهيبُ الرّومي، وبلالُ بنُ رباح الحبشيّ، والمقدادُ بنُ عمرو.

* فأمّا رسولُ اللهِ ﷺ فمنعَه اللهُ تعالى بعمّه وأمّا أبو بكر الصّديق رضي الله عنه فمنعَه الله تعالى بقومهِ، وأمّا سائرهم، فألْبَسَهم المشركون أدراعَ الحديد، وصفّدوهم في الشَّمس، وما فيهم أحدٌ إلا وقَدْ واتاهم[2] على ما أرادوا إلاّ بلالُ بنُ رباح الحبشي، فإنَّه هانَتْ عليه نفسه في اللهِ، وهان على قومهِ، فأعطوه الولْدان يطوفون به في شِعَاب مكّة وهو يقول أَحَدٌ أَحَدٌ»[3].

* لقد صبرت سميَّةُ صبراً جميلاً أعجزَ فجّارَ قريش ومشركيهم، وجعلهم يدهشون من هذه الصّابرة[4] المؤمنة التي اشتعلَ رأسُها شَيباً، ووهنَ العظم منها، لكنَّ همتَها ما زالت ثابتةً فتيةً، وكان المشركون إذا رأوا ذلك منها راحوا يكيلون لها العذابَ كيلاً، ومع هذا لم تشْتَفِ صدورهم المملوءةُ بالحقدِ على الإسلام وأهلهِ، وخصوصاً هؤلاء النّسوة اللواتي ثبتْنَ على الدّين ثبات الرّواسي الشّم، على الرّغم من العذاب الذي يُصَبُّ فوق رؤوسهنَّ صبّاً.

* وصف ابنُ الأثير مدى العذاب الذي تحملتْه سميَّةُ ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) انظر: أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠١٣).

(٢) «واتاهم»: وافقهم.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٨١ و٢٨٢) بتصرف يسير.

(٤) ولله در من قال:

سميَّةُ لا تبالي حين تَلقَى ... عذابَ النكر يوماً أو تلينا
وتأبى أنْ تردّدَ ما أرادوا ... فكانتْ في عدادِ الصّابرينا

فقال: «وكانت سميَّةُ من السَّابقين إلى الإسلام. . . وكانت ممن يُعذّب في الله أشدَّ العذاب»[1].

* وعرفتْ سميَّةُ رضي الله عنها أنَّ ما تبقّى من حياتها لا يساوي شيئاً ما دام صبرُهَا للهِ وفي سبيلِ الله، ولم تكنْ سميةُ تتحمّل العذابَ وحدها، بل إنّ أسرتَها كلّها لقيت ما لقيتْ من الأذى، حيثُ مزقتِ السّياطُ أجسامها، غير أنَّ الإيمانَ باللهِ تعالى على أساس صحيح يفعلُ ما تعجزُ العقولُ عن إدراكهِ، فقد وقفَ كبارُ مشركي قريش مبهوتين من صبرِ سميّة التي أزرتْ بهم وبفعالهم وقسوتهم الفظّة، ومن ثمّ تسجّلُ سمية في ديوان الصّابرين اسماً يلمعُ في دنيا التّاريخ وجبين الدهر.

* ولنقرأ الآن هذه السّطور التي رسمت بعض صور البلاء التي لقيتها سميةُ وأهلُها من بني مخزوم.

* قال ابن إسحاق: «كانت بنو مخزوم يخرُجُون بعمارَ بنِ ياسر، وبأبيهِ، وبأمّه إذا حميتِ الظّهيرةُ، يعذّبونهم برمضاء مكةَ، فيمرُّ بهم رسولُ الله ﷺ فيقول: «صبراً آلَ ياسر موعدُكم الجنّة»[2].

* وجاء في الأخبارِ أيضاً أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بعمار بنِ ياسر وأهلهِ وهم يعذّبون فقال: «أبشروا آل عمّار، وآل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنة»[3] فأمّا أمّه سميّة فيقتلوها إذ تأبى إلاّ الإسلام رضي الله عنها.

* أمّا كيف لقيتْ سميةُ ربَّها في قائمة الشُّهداء فقد ذكرتِ المصادرُ أنها أُعطيتْ لأبي جَهْل المخزومي، أعطاها له عمّه أبو حذيفة بن المغيرة، وكانت

---

(١) أسد الغابة (٧/ ١٥٢) بتصرف يسير.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٦ و٥٧)، وأنساب الأشراف (١/ ١٦٠)، وقال ابن عبد البر: «كانت سمية ممن عُذبت في الله وصبرت على الأذى في ذات الله، وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات رحمها الله». (الاستيعاب ٤/ ٤٢٤).

(٣) انظر: الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي؛ وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١/ ١٤٩).

سميَّةُ عجوزاً ، وصار الخبيثُ الفاسقُ اللعينُ يعذّبها أشدَّ العذاب ، ويؤذيها ، ويؤذي النَّبيَّ ﷺ بالكلام والشّتائم .

* وكان اللعينُ الخبيث يزدادُ بفجورهِ وعذابهِ لهذهِ المبايعةِ الثّابتة يوماً بعد يوم ، حتى ضجرَ منها ، وهي لا تنبسُ ببنتِ شفَةٍ ، وأحبَّ الفاجرُ أنْ يثيرها ذاتَ يوم ، فجاء إليها وقال لها : «ويحكِ يا سميَّةُ ، ما آمنتِ بمحمَّد إلا لأنّك عشقتيهِ لجماله»[1] .

* وسكتت سميةُ ، فما كان من لعينِ الفجور إلا أنْ طفق يسبّها ويسبّ محمداً ﷺ ، وعندها تصدّتْ له بكبرياءٍ وتعالٍ وتحدٍّ ، وأغلظتْ له القول فَخَنَسَ ، ولعبَ به الغضبُ فلم يملكِ اللعينُ نفسَه أمام استعلائها بعقيدتها عليه، وعلى مَنْ معه من الكفرةِ الفجرة فاستلَّ حربةً ماضيةً وأغمدها بها في قُبُلها، فماتتْ وأسلمَتْ روحَها للهِ راضية مرضية ، أَسْلَمَتْ روحها في سبيلِ اللهِ لتكون أوّل شهيدٍ في الإسلام ، وكانت وفاتُها في السَّنة السّادسة أو السّابعة من البعثة .

* قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله عن سمية[2] : «هي أولُ شهيدةٍ في الإسلام رضي الله عنها»[3] .

* وتمرُّ الأيامُ ، وتبقى صورة المبايعة الشَّهيدة الأولى سميَّة أمّ عمَّار في وجدانِ المسلمين ، وفي أذهانهم ، وفي يوم بدرٍ عزَّ الإسلام ، وهَوَتْ للباطلِ أصنامُ ، وقُتِلَ أكابرُ المجرمين المشركين وفيهم لعينُ الكفر وفرعونُ الأمّة أبو جهل عمرو بن هشام، قُتل بأيدي المسلمين ، وذُبحَ بيد أحد مستضعفيهم ،

---

(١) انظر : السيرة الحلبية (١/ ٤٨٣) ، والسيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (١/ ٢٤٠) ، وأنساب الأشراف (١/ ١٥٨) مع الجمع والتصرف اليسير .

(٢) قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط : إنّ سميةَ معناها : الجبل . أقول : «وهذا من اللطائف ، حيث إنّ السيدةَ سمية رضي الله عنها ثبتت كالجبلِ أمامَ أبي جهل لعنه الله» .

(٣) صفة الصّفوة لابن الجوزي (٢/ ٦٠) .

وهنا زفَّ النّبيّ ﷺ هذه البشارةَ العظيمةَ لابن سميَّة عمَّار الصّابر المجاهد، حيث قال له: «قَتَلَ اللهُ قاتلَ أمّك»[1].

* نعم لقد قَتَلَهُ اللهُ شرّ قتْلَة، ومات أخسَّ ميتة، وكان من أصحابِ السّعير، أمّا النّبيّ ﷺ فقد دعا لآل سميّةِ بهذا الدّعاء: «اللهم لا تعذّب أحداً من آل ياسر بالنّار»[2].

## رابعاً: بركة بنت ثعلبة رضي الله عنها:

* قال عبدُ الحميد الخطيب في تائيته:

ولقَدْ تلقّتْ رأْسَه يومَ الولا دة أمُّ أيمنَ أسْعَدُ الدّايات
وهي التي حضنَتْه أوّل أمرِه وحنَتْ عليه بوافرِ الشّفَقات[3]

* وقال البُوصيري في همزيته:

وإذا سخَّر الإلهُ أُناساً لِسَعيدِ فإنّهم سُعَداء[4]

* هذه الحاضنةُ السابقةُ السّعيدةُ بركةُ بنتُ ثعلبةَ الحبشيّة المشهورة بكنيتها أمّ أيمن، وهي مولاةُ رسول الله ﷺ وحاضنته، ورثَها من أبيهِ، ثم أعتقَها عندما تزوج خديجة رضي الله عنها، كانت من المهاجراتِ الأُوَل ومن السَّابقات إلى الإسلامِ والمبايعاتِ على الإيمان في مطلعِ شمْسِ الرِّسالةِ المحمَّديةِ بمكَّةَ المكرَّمة.

* عرفتْ أمُّ أيمن النَّبيَّ ﷺ من بدايةِ حياتهِ الشّريفة إلى نهايتها، وكانت معه في كثيرٍ من المواقفِ العامرةِ بالحبّ والودّ والعطْف والحنَان.

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٢٧)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦٤).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٢٥)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٤) وتذكر المصادر الموثوقة أنَّ سبب هذا الدُّعاء النّبويَّ لآل ياسر فتقول: جاء عمار رسول الله ﷺ يشكو ما تلاقي أمّه، وما يلاقي هو ووالده من شدّة العذاب من مشركي قريش، ومن قسوتهم وظلمهم، فقال له: يا رسول الله بلغ منّا ـ أو بلغ منها ـ يريد أمّه سميّة ـ العذاب كلّ مبلغ، فقال رسول الله ﷺ: «صبراً أبا اليقظان ـ كنية عمّار ـ اللهم لا تعذّب أحداً من آل ياسر بالنار».

(٣) سيرة سيد ولد آدم؛ تائية الخطيب (ص ٤٤).

(٤) ديوان البوصيري (ص ٥١).

* من هذهِ المواقفِ ذلك الموقف الذي تهتزُّ له القلوب ، وتطيرُ له الأفئدةُ إعجاباً ، موقف أمّ أيمن حينما توفيت آمنة أمّ النّبيّ ﷺ.

* فقد كان محمدٌ ﷺ صغيراً عندما ذهبَ مع أمّه آمنةَ بنتِ وهب ليزورَ قَبْر أبيه في المدينةِ ، فقد كان يجلسُ مع أمّه والبعيرُ يسيرُ بهما ، ومعهما حاضنته أمّ أيمن الحبشية تلك الجارية السّمراء الحنون.

* كانت آمنةُ تقصُّ على ابنها الصَّغير نبأَ أخوالِ أبيه من بني النّجار بالبلدِ الذي يقصدون إليه ، وتقصُّ عليه كيف ارتحلَ أبوه إلى الشّام في تجارتهِ ، وكيف عادَ منها ، وكيفَ مرضَ وماتَ ودُفِنَ عند أخوالهِ ، وكان الصغيرُ مسروراً بأنداءِ حديثِ أمّه وعذوبته.

* وتقصُّ آمنةُ على صغيرها منْ أخبارِ أبيهِ عبد الله ما ترجو أن يكونَ أسوةً للابن محمّد ومثَلاً ، فما أكبر أملها أنْ ترى صغيرها الميمون يكبرُ ليكون كأبيهِ عبدِ الله محبوباً من قومهِ ، مقدَّراً منهم ، عزيزاً عليهم! فقد كان عبد الله جواداً شجاعاً ، وشهماً كريماً ، وجميلاً مهيباً.

* كانت آمنةُ تتساءل في نفسِها وهي تنظرُ نظرةَ حبٍ وإعجابٍ إلى صغيرها: «ومالَه لا يكونُ كأبيهِ وفي نظرتهِ من قوةِ البريقِ ما كان في نظرةِ عبدِ الله ، وفي نبرةِ صوته من الرِّقة والعذوبةِ ما كان في نبرةِ صوتِ أبيه؟!».

* ويبلغُ هذا الرَّكبُ الميمونُ أرضَ المدينة ، وتزورُ آمنة قبر عبدَ الله ، وتُزيره صغيرَها ، وتتحدَّثُ وإياه عنه ، وتأوي معه إلى دورِ بني النّجار ، وهي ترى فيه أحبّ صورةٍ في الدنيا إلى قلبها الحاني ، فقد كانت ترى فيه الحياةَ وبهجتها ، والعزاء عن ألَمِ الحياةِ وقسوتها ، فهو كلّ شيءٍ عندها ، ولم يكن يجولُ في خاطرها أنّها عما قريب ستلحقُ بعبد الله.

* لكن آمنة لا تلبثُ حين تعودُ نحو مكّة مع ابنها وحاضنتها أنْ يصيبها

المرضُ ، ثم تموتُ في الأبواءِ[1] قرب المدينة ، فيتعاونُ دليلها مع أمّ أيمن الحاضنة على دفنِها في الأبواء.

* ويأتي الصّغيرُ محمدُ ﷺ يلتمسُ أمّه لتحدِّثه عن عبدِ الله أبيهِ فلا يجدُهَا ، ويلتمسُ مَنْ يحدِّثه عنها فيجد أمّ أيمن ، فتسرّي عنه لوعة اليُتْمِ من أبيهِ وأمهِ ، حتَّى إذا بلغَ مكّة المكرَّمة وجدَ في جدّه عبد المطلب وفي حنوه وعطفه أباً وأمّاً.

* نعم ماتت آمنة:

ذَهَبَتْ بهِ لتزورَ أخوالاً له ... في طيْبَةٍ وبآخرِ الرّحلاتِ
ماتَتْ بأبواءٍ فعادتْ أمُّ أيـ ... ـمنَ للحَضَانةِ وهي في غبْطَاتِ
ولقد تولّى عبد مطّلبٍ كَفَا ... لَتَه وأدّى كافّةِ النَّفَقَاتِ

* عاد محمدٌ الصّغيرُ من رحلتهِ المؤلمةِ المحزنة التي فَقدَ خلالها أحبّ شيءٍ له في طفولتهِ ، فَقَد أمّه مَهْدَ الحبّ والحنان:

عادَ الغلامُ بحسرةٍ ... قد زادَ فيهِ الاشتياقْ
أودَتْ بِيَنْبوعِ الحنَان ... بأمّه خير الرّفاقْ
قد أودعَتْه الأمُّ كلّ ... حنانها عندَ الفِراقْ
صارتْ تعانِقُه وتبكي ... لا تكفُّ عن العنَاقْ
عادَ الغلامُ فحزنُه قد ... زلْزَلَ السَّبعَ الطِّباقْ
عادت به السّمراء بركَة ... حبّها فوقَ النّفاقْ
عادا إلى البيتِ الذي ... شهدَ اللقاءَ والافتراقْ

* وفي صفحاتِ الودِّ والعطفِ ترسم أمّ أيمن أجمل لوحاتِ المودّة الإنسانيةِ

---

(1) «الأبواء»: على وزن: فَعْلاء؛ قرية من أعمالِ الفُرع ، من المدينة ، وهي على قرابةِ خمسة أيام من المدينة. وبالأبواء قبرُ آمنة بنت وهب أمّ الرّسول ﷺ وفي الأبواءِ قَبْرٌ يطلق عليه اسم: آمنة. وكان السَّببُ في دفنها هناك أنّ عبدَ الله والدَ رسولِ الله ﷺ كان خرجَ إلى المدينةِ يمتارُ تمراً ، فماتَ بالمدينةِ ، فكانت زوجتهُ آمنة بنت وهب تخرجُ إلى الأبواء في كل عام تزورُ قبره ، فلمّا أتى لرسولِ الله ﷺ ستُ سنين خرجتْ زائرةً لقبره ، ومعها ابنها وأمّ أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ، فلمّا صارت بالأبواء منصرفةً إلى مكةَ ماتتْ بها ، فقبرُ آمنة بالأبواء.
(المغانم المطابة في معالم طابة ص ٥ و٦) بتصرف يسير.

في حضانةِ الحبيبِ المصطفى سيّدنا وحبيبنا وشفيعنا محمّد ﷺ ، فكانت أمُّه بعد أمّهِ آمنة ، وكان جدّه عبد المطلب يُوصيها به ، ويأمرها بألا تَغْفُلَ عنه أبداً.

* تذكرُ أمُّ أيمن جانباً من هذا فتقول: «كنتُ أحضنُ النّبيّ ﷺ ـ أي أقوم بتربيته ـ فغفلتُ عنه يوماً ، فلم أدْرِ إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول: يا بركَةُ.

قلت: لبيك.

قال: أتدرين أينَ وجدتُ ابني؟ ـ يعني محمداً ـ.

قلتُ: لا أدري.

قال: وجدتُه مع غلمانٍ قريباً من السّدرة ، لا تغفلي عن ابني فإنّ أهلَ الكتاب يزعمون أنّه نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمنُ عليه منهم.

وكان عبدُ المطلب لا يأكلُ طعَاماً إلا يقولُ: عليّ بابني فأحضرِوه ، وكان عبد المطلب إذا أُتي بطعام أجلسَ رسولَ الله ﷺ إلى جنْبهِ ، وربّما أقعده على فخذه ، فيؤثره بأطيبِ طعامه»[1].

* ولما بلغَ محمدٌ ﷺ ثمان سنين مات عبدُ المطلب ، وعن أمّ أيمن أنّها كانت تحدّث أنَّ رسول الله ﷺ «كان يبكي خلْفَ سريرِ عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين»[2] وقيل لرسولِ الله ﷺ: «يا رسولَ اللهِ أتذكرُ موتَ عبد المطلب؟ قال: «نعم ، وأنا يومئذٍ ابنُ ثمان سنين»[3].

* وفتحَ النّبي ﷺ ـ وهو في عمر الزَّهر ـ عيناه ليرى الحاضنةَ الرّؤومَ أمَّ أيمن ترعاه ، فيقول لها: «يا أمّه» بل أصبحتْ في غايةِ التّكريم عندما قال عنها كما جاء في طبقات ابن سعد: «هذه بقيةُ أهلِ بيتي».

---

(١) انظر: السّيرة الحلبية (١/ ١٨٠) بشيء من التصرف اليسير.
(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ١٨٣).
(٣) السيرة الحلبية (١/ ١٨٤).

* ويوم تزوّجَ النبي ﷺ خديجة ، غدت أمُّ أيمن حرّة ، إذ نالَها العتق المحمّديّ الميمون ، و:

الـدّيـنُ جـاءَ مقـاوِمـاً حُكْـم القـو ي علـى الضَّعيـف بمنتهـى الشِّـداتِ

ومحـرّراً للنّـاس طـرّاً مـن قيـو دِ الأسـرِ لـلإنْسـانِ والشَّهـواتِ

بـل مبطـلاً رقّـاً تقـادمَ عهـدُهُ وجـرى عليـه النّـاس مـن حقْبـاتِ

* تزوّجت أمّ أيمن عبيد بن زيد الخزرجيّ ، فولدت له أيمن بن عبيد فكان له صحبةٌ وهجرةٌ وجهادٌ. ثم تزوجها زيدُ بنُ حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد حِبّ الحبيب الأعظم ﷺ وابن حِبّه.

* كانت أمُّ أيمنَ خلال ذلك تحظىٰ بالزّيارةِ النّبويّةِ في بيتها ، وتتنعَّمُ وتنعُمُ بقولهِ ﷺ عنها: «أمُّ أيمن أمّي بعد أمّي»[1].

* ولما أكرم اللهُ عزَّ وجلَّ نبيه بالنّبوّةِ ، وقام يدعو إلى الإسلامِ ، أسرعت أمّ أيمن وبايعتْه على الإيمانِ بالله تعالى ، وصدقته وآمنتْ به ، قال ابنُ الأثير عنها: «هاجرت الهجرتين إلى الحبشةِ وإلى المدينة ، وتعرفُ بأمّ الظّباء»[2].

* ومن البدهي أنْ تكونَ أمّ أيمن من السَّابقات إلى الإسلام وإلى البيعة على منْ سواها من نساء الصّحابة لأنّها حضنَتِ النّبي ﷺ ، وعلمتْ من أخلاقهِ وشمائله ما لم يعلمه غيرها؛ ونقلَ برهانُ الدّين الحلبي في سيرته عن ابن كثير أنّه قال: «الظاهرُ أنَّ أهل بيته ﷺ آمنوا قبلَ كل أحد: خديجةُ ، وزيدُ ، وزوجة زيد أمّ أيمن ، وعليّ رضي الله تعالى عنهم»[3].

* كما أنّ أمّ أيمن قد عاينت من بركةِ النّبي ﷺ أشياء كثيرة منها أنّها قالت: «ما رأيته ﷺ يشكو جُوعاً ولا عطَشاً لا في صغرِه ولا في كبرِه ، وكان يغدو إذا

---

(١) الاستيعاب (١٢/ ٢٢٢) ، وأسد الغابة (٧/ ٢٩١).
(٢) أسد الغابة (٧/ ٣٥).
(٣) السيرة الحلبية (١/ ٤٣٥).

أصبحَ فيشربُ من زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداءَ فقال: «أنا شبعان»[1].

* ولا ريب في أنَّ السّيّدةَ أمّ أيمن رضي الله عنها كانت تقومُ بأمرِ النّبيّ ﷺ وهو صغيرٌ أفضل قيام، وترعاه وهو كبيرٌ أفضلَ رعاية، وحدث مرَّةً أن شرب النّبيّ ﷺ يوماً وكانت أمّ أيمن عنده، فقالت: «يا رسولَ الله اسقني».

فقالت لها أمّنا عائشة رضوان الله عليها: «يا أمّ أيمن أَلِرسولِ اللهِ ﷺ تقولين هذا»؟

فقالت في بساطةٍ وبراءة: «ما خدمتُه أكثر».

فقال الهادي البشيرُ ﷺ: «صدقَتْ» فسقَاها[2].

* وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ يجدُ الراحةَ والأُنْسَ عند أمّ أيمن، وكثيراً ما كان يبتسمُ لتصرفاتها وكلامها، شهد أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه شيئاً من هذا فقال: «ذهبتُ مع النبي ﷺ إلى أمّ أيمن نزورها، فقربَتْ إليه لبناً، فإما كان صائماً، وإمّا قال: «لا أريدُ» فأقبلتْ تضاحكه وتشيرُ إليه أنْ يأكل»[3].

* ولأمّ أيمنَ رضي الله عنها مواقف في ساحات الجهاد تشيرُ إلى علو همتها وصدق بيعتها للهِ ورسوله، فقد كانت من المشاركاتِ في غزوة أحدٍ، خرجت مع فرسانِ المدرسةِ المحمديةِ تسقي الجرحىٰ، وقد أصابها سَهْمٌ من أحدِ المشركين يومئذ أوقعَها أرضاً، وعندما انهزمَ بعضُ المسلمين يوم أحد، لقيته أمُّ أيمن تحثو في وجههِ التّراب وتقول: «هاكَ المغزل فاغزلْ به، وهاتِ سيفَك».

* وشاركت أمّ أيمن في غزوةِ خيبر، وأعطاها النّبي ﷺ من الفيء عطاءً يسيراً، ولم يضرب لها بِسَهمٍ، وكذلك للمشاركاتِ معه في هذه الغزاة.

* وكانت في غزوة حنين في سقايةِ الجرحى، وشارك ولداها في هذه

---

(١) الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين العمري (ص ١٤١) حققه حسام الحكيم ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ ط١ ـ بيروت ـ ٢٠٠٠م.
(٢) السيرة الحلبية (١/ ٨٥) بشيء من التصرف.
(٣) انظر: صفة الصفوة (٢/ ٥٥)، والإصابة (١٢/ ١٧٩) مع الجمع والتصرف اليسير.

الغزوةِ: أيمن وأسامة ، واستشهد أيمن فكان من زمرةِ الشّهداء الذين هم أحياء عند ربّهم يرزقون .

* ولأمّ أيمن أخبارٌ كثيرة ومناقبُ جمّة ، فعندما توفي النّبي ﷺ رثتْه بقصيدةٍ همزيَّة سجَّلتها المصادر[1] ، كما كان لها موقفٌ جليلٌ يستحقُّ التّسجيل ، فبعد وفاةِ النبي ﷺ قال سيّدنا أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: «مرّ بنا إلى أمّ أيمن نزورها كما كان رسولُ الله ﷺ يزورها».

* فلما رأتهما بكَتْ ، فقالا لها: «ما يبكيك»؟

فقالت: «ما أبكي أنّي لا أعلم أنَّ رسولَ الله ﷺ قد صارَ إلى خيرٍ مما كان فيه، ولكنْ أبكي لخبر السّماء انقطع عنّا» فهيّجَتْهُما على البكاءِ، فجعلا يبكيان معها[2] .

* ولما قُتل عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه بكت أمّ أيمن وقالت: «اليوم وهىٰ الإسلامُ»[3] .

* روت أمّ أيمن خمسة أحاديث ، وماتَتْ في خلافة عثمان رضي الله عنهما بعد أن تركتْ آثاراً كريمةً في تاريخ السّابقات المبايعات في عصر النّبوة .

* وبعد ، فهذه نماذجُ لبعضِ النّساء اللواتي بايعن على الإيمان قبل الهجرة ، وهنّ كثيراتٌ ، وقد أوردتُ سير بعضهنّ لتعمَّ الفائدة ، وتحسنَ الرِّحْلَةُ مع رعيل المبايعاتِ السَّابقات ، فإلى فصولٍ أخرى نمتع فيها الأسماعَ مع مبايعات أخريات .

* * *

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٢ و٣٣٣) ، ومنح المدح (ص٣٣٧) وغيرهما.

(٢) الإصابة (١٣/ ١٧٩) بتصرف يسير.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٦ و٢٢٧) والحقيقةُ فقد كان سيدّنا عمر رضي الله عنه الوزير الثّاني للنّبي ﷺ ، وكان الشّخصيةَ الثّانيةَ في الدَّولةِ الإسلاميّةِ ، فالأوَّل: أبو بكر ، والثّاني أبو حفص عمر ، والثّالث: أبو عمرو عثمان ، والرّابع: أبو الحسن علي.
وهؤلاء الخلفاءَ الكرامُ الشّرفاء قال فيهم أحدُ الشّعراء:

خِيَارُ النَّاسِ بعد المُصْطفىٰ المِفْضَالِ ذو اللسنِ
أبو بكْرٍ أبو حفْصٍ أبو عمْرو أبو الحَسَنِ

# الفصل الثّاني

# المُبايعتان في العقبةِ الكُبرى

* انتشرَ الإسلامُ وعمَّ نورهُ المدينةَ المنورةَ في زمنٍ قصيرٍ على يدِ الدَّاعيةِ الحصيفِ مصعب بن عمير العبدريّ رضي الله عنه ، وغدتِ المدينةُ دارَ الإسلامِ المهيئة لتلقّي أعظم حدثٍ في تاريخِ الرّسالات ، وتاريخ النّبوّات.

* وها هي ذي المدينة تصبحُ وتمسي وتضحي وتُظْهِرُ على ذكرٍ حميدٍ لرسولِ اللهِ ﷺ ، فليس في بيوتها بيتٌ إلا فيهِ مسلمون ومسلمات يحبّون الإسلامَ ونبيَّ الإسلام.

* ولما حانَ موسمُ الحجِ انطلقَ المسلمون ومعهم مصعبُ بنُ عمير قاصدينَ مكّة ، وكان هؤلاء المسلمون ثلاثةً وسبعين رجلاً معهم امرأتان من نسائِهم وهما: نسيبةُ بنتُ كعب المازنية المشهورة بكنية أمّ عمارة ، وأسماءُ بنتُ عمرو الأنصاريّة المشهورة بكنية أمّ منيع.

* وصلَ الوفدُ الميمون مكّةَ ، وواعدوا النّبي ﷺ العقبة.

* قال كعبُ بنُ مالك الأنصاري رضي الله عنه: «ونحنُ ثلاثةٌ وسبعون رجُلاً ، وامرأتان من نسائنا؛ نسيبةُ بنتُ كعب ، أمّ عمارة ، وأسماءُ بنتُ عمرو ، أمّ منيع ، فاجتمعنا في الشِّعبِ ننتظرُ رسولَ اللهِ ﷺ حتى جاءنا....»[1].

---

(١) انظر: السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ٩٥) بتصرف.

* ثم إنَّ النّبيّ ﷺ تكلَّمَ مع الأنصارِ وأخذَ عليهم العهد فبايعوه ومعهم أمّ عمارة وأمّ منيع ، وكانت البيعةُ الكبرى المعروفة ، وما أجمل أنْ نقرأَ هذه التّغريدة؛ ثمَّ نتعرَّفُ سيرةَ أمّ عمارة وأمّ منيع بإذن الله :

كعـــبُ بـــنُ مـــالـــك قـــال ... يـــروي البيعـــةَ الأخـــرى الكبيـــره
فـــي جُنْـــحِ لَيْـــلٍ مُظْلـــمٍ ... فـــي ليلـــةٍ كـــانـــتْ خطيـــره
فيهـــا التَقَيْنـــا بـــالنَّبـــي ... وكـــانـــتِ اللُّقيـــا سَـــريـــره
سبعيـــن كُنّـــا مَـــعْ ثَـــلاثٍ ... خيـــرِ أبنـــاءِ الجـــزيـــره
غيـــر اثنتَيْـــن مـــن النّســـاء ... فكـــانتـــا ضمـــنَ المسيـــره
إحـــداهمـــا كـــانـــتْ نسيبـــةُ ... ثـــمّ أسمـــاءُ الأخيـــره

**أولاً: أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها:**

* تأتي السيّدةُ أمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعب الأنصاريّة في مقدمةِ شهيراتِ نساءِ الأنصار رضي الله عنهنّ ، وقد لمعَ نجمُها يومَ بيعةِ العقبةِ الكبرى مع الأنصار .

* وكانت هذه البيعةُ العُظمى فتحاً مبيناً ونصراً بليغاً ، وذلك بما أخذَ فيها النَّبيُّ ﷺ من مواثيقَ وعهودٍ على طلائعِ الأنصارِ الأخيارِ الذين علمُوا قيمةَ البيعةِ وعرفوها معرفةَ الخبير البصير .

* وقد تحدَّثت أمُّ عمارة عن هذه البيعةِ الميمونةِ فقالت : «شهدتُ عقْدَ النّبيّ ﷺ ، والبيعةَ له ليلةَ العقبةِ ، وبايعتُ تلك الليلة مع القوم»[1] .

* ولكن كيف بايعتْ أمّ عمارة ليلتئذ؟! حسناً ها هي ذي أمّ عمارة تقول : «كانتِ الرِّجالُ تصفِّقُ على يدي رسولِ الله ﷺ ، والعبّاس عمه آخذٌ بيدهِ ، فلمَّا بقيتُ أنا وأمُّ منيع ، نادىٰ زوجي غزيةُ بنُ عمرو : يا رسولَ اللهِ ، هاتان امرأتان حضَرَتا معنا يبايعْنَك . فقال ﷺ: «قد بايعتُهما على ما بايعتُكم عليه ، إنّي لا أصافحُ النّساء»[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢).
(٢) الإصابة (١٣/ ٢٥٨) بتصرف يسير جداً.

* إنَّ الحديثَ عن السّيّدةِ نسيبة ممتعٌ آسرٌ ، إذ إنَّ سيرتَها تصقلُ نفوسَ النّساءِ في كلّ جيل ، وفي كلّ مكانٍ وزمانٍ ، وخصوصاً في هذا الزّمانِ الذي كادت تخلو منه القدوة.

* فالسيدةُ أمُّ عمارة كانت من الأوائلِ في كلِّ مكرمةٍ ، فهي من السَّابقات إلى الإسلامِ وعزّ الطاعة ، ومنَ الأمّهاتِ الفُضليات والمربّياتِ العظيماتِ ، فهي أمٌّ لفارسَين من أبطالِ المدرسةِ المحمديةِ ، فابنُها حبيب كان مثلاً كريماً في الصّبر أمامَ إفْكِ مُسَيْلِمة الكذّاب واستُشْهد وهو ثابتٌ محتسبٌ؛ وأمّ عمارة من العابدات الذّاكراتِ النّاسكات ومن راوياتِ الحديثِ النّبوي الشّريف. غير أنَّ ميدانَ الجهادِ هو المجالُ الذي تألّقَتْ فيه هذه السيدةُ العظيمةُ ، فهي أوّلُ مَنْ حَمَل سيفاً ودافعَ بنفسهِ عن رسولِ الله ﷺ ، ولذلك قالوا: «هي أوّلُ مقاتلةٍ في الإسلام».

* قال الذّهبي رحمه الله: «أمُّ عمارةَ الفاضلةُ المجاهدةُ ، شهدتْ ليلةَ العقبةِ ، وشهدتْ أحُداً ، والحديبيةَ ، ويومَ حنين ، ويومَ اليمامة ، وجاهدت وفعلتِ الأفاعيل. وشهدتْ أحُداً مع زوجِها غزيةَ بنِ عمرو ، ومع ولديها[1]: حبيب[2] ، وعبد الله[3] ،خرجتْ تسقي ومعها قِربة ،

---

(١) «ولديها»: أي ولديها من زوجِها الأول زيد بن عاصم بن عمرو ، وهما: عبد الله وحبيب. أما ولَداها من زوجها غزية بن عمرو فهما: تميمٌ وخولة. (طبقات ابن سعد ٨/ ٤١٢).

(٢) حبيبُ بنُ زيد بن عاصم ابنُ أمّ عمارة ، كان في إيمانهِ مثلاً كريماً ، أرسلَه النبيُ ﷺ إلى مسيلمةَ الكذاب لعنه الله ، فأخذهُ مسيلمة ليقتله ، وعرّضَه لامتحانِ إيمانهِ وصدقِ يقينه ، فكان إذا سأله: أتشهدُ أنّ محمداً رسولَ الله؟ قال حبيبُ: نعم. وإذا قال له: أتشهدُ أنّي رسولُ الله؟ قال حبيبُ بنُ زيد: أنا أصمُ لا أسمعُ. وكررَ ذلك مسيلمةُ مع حبيب ، وهو ثابت اليقين راسخُ الإيمان ، فلما يئسَ منه مسيلمةُ قتله قِتْلةً شنيعةً ، حيث قطعَهُ عضواً عضواً وحبيبٌ ثابت قريرَ العين رضيَ القلب هانيءَ النفس وهو راضٍ بهذا الاستشهاد في سبيلِ الله الذي انفردَ به. ورثاه مالك بن عمرو الثقفي بقصيدة جميلة منها قوله:

وقال له الكذابُ تشهدُ أنني رسولٌ فنادى إنّني لستُ أسمعُ

(الإصابة ٣/ ٣٢٩).

(٣) عبد الله بنُ زيد ابن أمّ عمارة ، هو الذي حكى وضوءَ رسولِ الله ﷺ ، شهدَ غزوة أحد ، وهو الذي قَتَلَ مسيلمة الكذّاب بسيفه. وقُتِلَ عبد الله بن زيد يوم الحرة.

وقاتلتْ ، وأبلتْ بلاءَ حسناً ، وجرحت اثني عَشَر جُرحاً»[1].

* ولما تبدّل وجْهُ المعركةِ في أحد ، تبدّل موقفُ أمّ عمارة ، فانتضتْ سيفاً ، وتناولتْ تُرساً ، وأخذتْ تطاعنُ الخيلَ والفوارسَ طعناتٍ حيّرتِ المشركين ، وأذهلت فرسانهم عن حربهم.

* وفي تلك السّاعةِ الحرجةِ تَصفُ أمّ عمارة بلاءها وثباتَها وثباتَ زوجِها وابنيها بين يدي النبي ﷺ فتقول: رأيتني ، وانكشفَ الناسُ عن رسولِ اللهِ ﷺ ، فما بقيَ إلا في نُفَيرٍ ما يتمُّون عشرة؛ وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذبُّ عنه ، والنّاسُ يمرّون به منهزمين ، ورآني ولا ترس معي ، فأرىٰ رجُلاً مولياً ومعه تُرس ، فقال: «ألقِ ترسكَ إلى مَنْ يُقاتل». فألقاهُ ، فأخذتُه ، فجعلتُ أترسُ به عن رسولِ الله ﷺ ، وإنّما فعلَ بنا الأفاعيل أصحابُ الخيل ، ولو كانوا رجّالة مثْلَنا أصبناهم ، إنْ شاء الله. ويُقبلُ رجلٌ على فرسٍ ، فيضربني ، وترّستُ له ، فلم يصنعْ شيئاً ، وولّى ، فأضربُ عرقوبَ فرسهِ ، فوقعَ على ظَهْره ، فجعلَ النّبي ﷺ يصيحُ: «يا بْن أمّ عمارة ، أمّك! أمّكَ»؛ فعاونني عليه ، حتّى أوردتُه شَعوب»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨) بتصرف يسير جداً. يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن خروج المرأة إلى الجهاد مع الرّجال ما مفاده: «فأمّا خروجها لمداواة الجرحى وسقي العطاش ، فقد ثبت ذلك في الصحيح في عدة غزوات ، وأما خروجها للقتال فلم يثبت في السُّنَّة. . . . أمّا ما ذكره الفقهاء في حكم خروج المرأة للقتال ، فهو أنَّ العدو إنْ داهمَ بلدةً من بلاد المسلمين وجبَ على جميع أهلها الخروج بما فيهم النّساء ، إنْ تأمّلْنَا منهنَّ دفاعاً وبلاءً ، وإلا فلا يُشرع ذلك ، وقد استأذنت أمّنا عائشة رضي الله عنها النّبي ﷺ في الجهاد ، فقال: «جهادكنّ الحجّ» ، فالمقصود بالجهاد الذي استأذنت به عائشة رضي الله عنها ، إنّما هو المشاركةُ في القتالِ ، لا الحضور للمداواةِ والخدمةِ وما أشبه ذلك فهو مشروع إذا توفّرت شروطه باتّفاق. وعلى كلٍّ فإنَّ خروجَ المرأة مع الرّجالِ إلى الجهادِ مشروطٌ بأنْ تكون في حالةٍ تامة من السّتْر والصّيانة ، وأنْ يكون خروجها لحاجة حقيقية إلى ذلك ، فأمّا إذا لم تكنْ حاجة حقيقية أو كان ذلك يعرّضها للوقوع في المحرّمات ، فخروجها محرّم لا يجوز إقراره. . . » (فقه السيرة من ٣٩٣ و٤٩٣) بتصرف واختصار.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤) ، ومعنى «شعوب»: من أسماء المنية ، وتريد السيدة أم عمارة أنها قتلته وأذاقته الموت. ومن الجدير بالذكر أنَّ لكلِّ فارس من فرسانِ المدرسةِ=

* وقد جُرحتْ أمّ عمارة في كتفها ، كما جُرحَ ابنُها عبد الله أيضاً غير أنَّ الأمر هيِّنٌ ما دامَ رسولُ الله ﷺ سالماً ، فكلّ مصيبةٍ بعده جَلَل ، ولهذا قدَّرَ النّبيُ ﷺ هذه المجاهدة ودعَا لهَا ولأهلِها دعاءً ميموناً.

* فعن عبدِ اللهِ بنِ زيد ابن أمّ عمارة قال: «شهدتُ أحُداً مع رسولِ الله ﷺ ، فلما تفرَّقَ النّاسُ عنه دنوتُ أنا وأمّي نذبُّ عنه ، فقال: «ابنُ أمّ عمارة»؟!

قلتُ: نَعَم.

قال: «ارمِ».

فرميتُ بين يديهِ رجلاً من المشركين بحَجَرٍ؛ وهو على فرسٍ ، فأصيبُ عينَ الفرسِ ، فاضطربَ الفرسُ حتّى وقعَ هو وصاحبه ، وجعلتُ أعلوه بالحجارةِ ، حتى نَضَدْتُ عليه منها وِقْراً[1] ، والنّبيّ ﷺ ينظرُ يبتسمُ ، ونظرَ جُرْحَ أمّي على عاتِقها فقال: «أمّكَ أمّكَ ، اعصبْ جرحَها ، رحمكم اللهُ أهل البيت ، ومقامُ ربيبك[2] خيرٌ من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت»[3].

* وفي المعركةِ جَرَحَ أحدُ المشركين ابنَها عبدَ الله بيده اليسرى ، فرآهُ النّبي ﷺ فقال له: «اعصبْ جُرحَك» ، فرأتْه أمّه ، فأسرعتْ وربطتْ جرحه ، ثم قالت له: «يا بني ، انهضْ فضارب القوم».

* وهنا قال لها النّبيّ ﷺ: «ومَنْ يطيقُ ما تطيقينَ يا أمَّ عمارة»؟ وأقبل المشركُ الذي ضربَ ابنها ، فانقضتْ عليه وضربته ضربةً بركَ منها ، ثم أجهزتْ عليه مع ابنها حتى مات ، فقال لها النّبيُ ﷺ: «استقدتِ يا أمَّ عَمارة».

* وكانت علائمُ السُّرور ترتسمُ على وجْـهِ النّبيّ ﷺ وتصفُ أمّ عمارة

---

= المحمّديّةِ موقفٌ كريمٌ عُرِفَ به ، وأُثر عنه ، وكان مهبطَ الشّرف في حياتهِ ، ومعقدَ الفخرِ من سيرته ، وليس هناك موقف أجمل للنَّفْسِ والقلبِ والعين ، وآثر في التَّاريخ النّسوي البطولي من موقفِ السَّيدة الفاضلة نسيبة بنت كعب التي بايعت على الجهاد في هذه المواقف.

(١) «وقراً»: حملاً كبيراً.
(٢) «ربيبك»: يعني زوج أمه غزية بن عمرو.
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤ و٤١٥).

سرورَهُ ﷺ وابتسامتَه اللطيفةَ فتقول: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يبتسمُ حتّى رأيتُ نواجذَهُ».

* وفي هذه اللحظاتِ يُقبِلُ النَّبيُّ ﷺ على أمّ عمارةَ ثم يقولُ لها: «الحمدُ للهِ الذي أظفركِ، وأقرّ عينَكِ من عدوكِ، وأراكِ ثأركِ بعينكِ»[1].

* ولم يكنْ هذا الثناءُ النبويُّ الوحيدُ لأمّ عمارة فحسب، وإنّما هناك شهادةٌ زاكيةٌ من عمرَ بنِ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ الذي ورَدَ أنّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما التفتُ يومَ أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا وأراهَا تُقاتل دوني»[2].

* وهناك شهادةُ نجاةٍ حظيت بها أمُّ عمارة من رسولِ اللهِ ﷺ الذي ما ينطقُ عن الهوى، فقد دعَا لها ولأهلِها بالبركةِ والرحمةِ فقال: «باركَ اللهُ عليكم من أهلِ بيت، رحمكم الله أهلَ البيت».

* واغتنمتْ أمُّ عمارةَ هذه النّفحة المحمديّة، وتوجّهتْ إلى رسولِ الله ﷺ رجاء أن يدعو لها برفقتهِ في الجنة فقالت: «يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله أنْ نرافِقَك في الجنّة».

* فقال ﷺ: «اللهمّ اجعلمْ رفقائي في الجنّة» قالت أمُّ عمارة: «ما أُبالي ما أصابَني منَ الدُّنيا»[3].

* وظلت غزوةُ أحدٍ بجميعِ أحداثِها مجالَ فخرٍ واعتزازٍ للمجاهدةِ أمّ عمارة؛ فقد كانتْ حصيلتُها من هذِهِ الغزوةِ جراحاتٌ كثيرةٌ، تزيدُ عن عشرٍ منها جرحٌ أجوفٌ كبيرٌ على عاتِقها، ضربها به ابنُ قميئة.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤)، وأعلام النساء (٥/ ١٧٣) مع الجمع والتصرف. وروى عمارةُ بنُ غزية ـ ابنها ـ أنَّ أمّه قد قتلتْ يومَ أحدٍ فارساً من فرسانِ المشركين. (الإصابة ٤/ ٤٥٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٤١٥).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥)، والسيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (٢/ ٤٨) مع الجمع والتصرف.

* وتذكر المصادرُ أنَّ أمَّ عمارة قد غُشِيَ عليها من شدّةِ تلك الضَّربةِ ومن عظمِ الجراح ، ولما أفاقَتْ من ذلك ، لم تذكرْ أحداً ولم تسألْ عن أحدٍ سوى رسولِ اللهِ ﷺ فقالت: «أينَ رسولُ اللهِ ، وما صنعَ المشركون معه»؟ فقالوا لها: «إنّه بخيرٍ يا أمّ عمارة والحمدُ لله». وأثنى عليها رسولُ الله ﷺ يوم أحدٍ فقال: «لمقَامُ نسيبةُ بنتُ كعب اليوم خيرٌ من مقامِ فلان وفلان»[1].

* ظلت أمّ عمارة تداوي جراحَها سنةً كاملة[2] بعد أحد ، وكان النّبي ﷺ يتفقّدُ أخبارَها وأحوالَها؛ فقد كان يرسلُ أخاها عبدَ الله بنَ كعب أحد البكّائين[3]

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨ و٢٧٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٩) ونادى منادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، فشدَّت عليها ثيابها ، ما استطاعت من نزف الدم رضي الله عنها. (طبقات ابن سعد ٨/ ٤١٣).

(٣) «من البكّاؤون؟»: البكّاؤون هم سبعةٌ من الصحابةِ الكرام وأسماؤهم: سالمُ بنُ عمير ، وعلبةُ بنُ زيد ، وعبد الرحمن بنُ كعب أبو ليلى ، وعمرو بنُ الحُمام ، وعبد الله بنُ المغفل المزني ، وهرميُّ بنُ عبد الله ، وعرباض بنُ سارية رضي الله عنهم ، جاؤوا إلى النّبي ﷺ في غزوةِ تبوك ، وطلبوا منه ما يحملُهم عليه من الإبل أو غيرها ليجاهدوا في سبيلِ الله ، فلم يجدوا عنده ما يحملهم عليه ، فتولّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمعِ ، لأنّهم لم يجدوا ما ينفقون ، فَسُمّوا البكائين ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] أَلَمْ يكنْ عليهم إثمٌ لو لمْ يخرجوا معك لعدم وجودِ القدرة على الخروجِ لديهم. (تفسير الخازن ٣/ ١٣٦) ، والدرر (ص ٢٨٧).

وقال ابنُ الجوزي في «زاد المسير» ما مفاده: «البكاؤون: اختُلِفَ في عددِهم وفي أسمائِهم ، فروي عن ابنِ عباس أنّهم ستة هم: عبد الله بن مغفل ، وصخر بنُ سليمان ، وعبد الله بنُ كعب الأنصاري ، وعُليَّة بنُ زيد الأنصاري ، وسالم بنُ عمير ، وثعلبة بنُ عنمة. وقد ذكر محمد بنُ سعد مكان صخر بن سليمان: سلمة بن صخر ، ومكان ثعلبة بن عنمة: عمرو بن عنمة. قال: وقيل: منهم: معقل بن يسار.

وروى أبو إسحاق عن أشياخ له أنّ البكائين سبعةٌ من الأنصار: سالم بنُ عمير ، وعلية بنُ زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بنُ كعب ، وعمرو بنُ الحمام بن الجموح ، وعبد الله بنُ مغفّل ، وبعض الناس يقول: بل عبد الله بن عمرو المزني ، وعرباض بن سارية ، وهرميّ بن عبد الله أخو بني واقف ، وقال مجاهد: نزلت في بني مقرّن ، وهم سبعةٌ ، وقد ذكرهم محمد بن سعد فقال: النعمانُ بنُ عمرو بن مقرن ، وقال أبو خيثمة: هو النعمان بنُ مقرن ، =

ليسألَ عنها ، حتّى التأمتْ جراحهاوشُفِيَتْ[1] .

* وظلّت أمُّ عمارة تتابعُ رحلةَ الجهاد فشهدتْ غزوةَ بني قُريظة ، وأعطى النّبيّ ﷺ النّساء اللواتي شهدنَ هذه الغزوةَ من الغنيمة ، ولم يُسْهِمْ لهنَّ .

* وشهدت أمّ عمارة بيعةَ الرِّضوانِ المباركة ، وتروي جانباً من هذه البيعةِ فتقول : «مرَّ بنا رسولُ الله ﷺ يوماً في منزلنا ، فإذا هو قد بلَغَه أن عثمانَ بنَ عفان ـ رضي الله عنه ـ قد قُتِلَ ، فجلسَ في رحالنا ثم قال : «إنَّ الله أمرني بالبيعة» ؛ فأقبلَ الناسُ يبايعونه في رحالنا . . . فكأني أنظرُ إلى المسلمين قد تلبَّسوا السّلاح وهو معنا قليل ؛ إنّما خرجنا عُمّاراً ، فأنا أنظر إلى غزيةَ بنِ عمرو ـ يعني زوجها ـ وقد توشّح بالسّيفِ ، فقمتُ إلى عمودٍ كنّا نستظلُّ به ، فأخذتُه في يدي ومعي سكين قد شددتُه في وسطي ، فقلت : إنْ دنَا منّي أحدٌ رجوتُ قتْله ، فكان رسولُ الله ﷺ يومئذ يبايعُ النّاس ، وعمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ آخذٌ بيده ، فبايعهم على ألا يفروا»[2] .

* ولما حلقَ النّبيُّ ﷺ رأْسَه ، تسابقَ الصّحابةُ الكرام يومها للتّبرّك في الاحتفاظِ بشَعرهِ الشّريف ، كانت أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ ممن حظيت بشيءٍ من الشّعرِ النّبويّ ، تقول أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ : «وجعلَ النَّاسُ يأخذون الشَّعْر من فوقَ الشَّجرة فيتحاصّون فيه ـ يقتسمونه ـ وجعلتُ أزاحمُ حتى أخذتُ طاقاتٍ من شعر»[3] .

* وبعد ذلك شهدتْ أمّ عمارة غزوةَ خيبر ، وأخذت من الغنائمِ خرزاً

---

= وسويد بن مقرن ، ومعقل بنُ مقرن ، وسنان بنُ مقرن ، وعقيل بنُ مقرن ، وعبد الرحمن بنُ مقرن . وقال الحسن البصري : نزلت في أبي موسى وأصحابه .
وفي الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أنْ يحملَهم عليه ثلاثة أقوال : أحدها : أنّه الدواب ، قاله ابنُ عباس . والثّاني : الزّاد ، قاله أنس بن مالك . والثّالث : النّعال ، قاله الحسن» (زاد المسير في علم التفسير ص ٦٠٠ و٦٠١) طبعة المكتب الإسلامي ودار ابن حزم .

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٣) .
(٢) انظر : المغازي للواقدي (٢/ ٥٢٢) .
(٣) المغازي (٢/ ٦١٥) .

أحمر[١] ، ثم شهدتْ عمرة القضيّة ، وتروي أم عمارة خبرَ حضورها العمرة فتقول: «شهدتُ عمرةَ القضيةِ مع رسولِ الله ﷺ ، وكنتُ قد شهدتُ الحُديبيّة ، فكأنّي أنظرُ إلى النّبيّ ﷺ حين انتهى إلى البيتِ وهو على راحلتهِ ، وعبد الله بن رواحة آخذٌ بزمامِ راحلته ، وقد صفَّ له المسلمون حين دنا من الرّكْنِ حتّى انتهى إليه»[٢].

* وفي يومِ حُنين أبدعت أمّ عمارة في الميدانِ ، وكان لها صولةٌ وجولةٌ ، حيث طعنتْ أحدَ المشركين عدّة طعناتٍ بخنجر كان معها ، وضربت عنقَ مشركٍ آخر ، وقد شاركها في هذه الغزوة المباركة ابناها حبيبُ وعبد الله ، ولنتركِ زمام الحديث لأم عمارة رضي الله عنها فتقول: «لما كان يومئذ والنّاس منهزمون في كلّ وجْهٍ ، وأنا وأربعُ نسوةٍ ، في يدي سيفٌ لي صارمٌ ، وأمّ سُليم[٣] معها خنجرٌ قد حزمته على وسطِها ، وأمّ سليط[٤] ، وأمّ الحارث[٥] ، وأصيحُ بالأنصار: أي عادةٍ هذه! ما لكم وللفرار؟ وأنظرُ إلى رجلٍ من هوازنَ على جملٍ أورق ، معه لواءٌ ، يضعُ جملَه في المسلمين ، فأعترضُ له ، فأضربُ عرقوب الجمَلِ ، وكان جملاً مشْرِفاً ـ عالياً ، فوقعَ الجملَ ، ووقع

---

(١) المغازي (٢/ ٦٨٨).
(٢) المغازي (٢/ ٦٨٨).
(٣) أمُّ سليم بنت ملحان بن خالد الأنصاريّة النّجاريّة ، أمُّ خادم النّبيّ ﷺ ، من أفاضلِ نساءِ الصّحابة ، شهدتْ غزوة أحدٍ وحُنين مع النّبيّ ﷺ ، وتلقّب بالرُّميصاء أو الغيصماء ، لها قصّةُ إسلامٍ مشهورة عندما أرادَ أبو طلحة الأنصاري أنْ يتزوّجها ، فعرضتْ عليه الإسلام ، فاستجابَ ، وكان مهرُها الإسلامُ. ولها أخبارٌ كثيرة في كتبِ السّيرةِ النّبويّة والتّراجم والطّبقات ، وروت عن النّبيّ ﷺ أربعةَ عشَر حديثاً ، اتّفق البخاري ومسلم على حديث ، وانفرد البخاري بحديث ، ومسلم بحديثَيْن ، وأخبارُها كثيرة رضي الله عنها. (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٠٤ ـ ٣١١) ، و(المجتبى لابن الجوزي ص ١٠٤ و١٠٥).
(٤) أم سَليط: امرأةٌ من المبايعات ، حضرتْ مع رسولِ الله ﷺ يوم أحدَ. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «كانت تزفرُ لنا القِرب يوم أحد» ومعنى تزفر: تحمل. وهذا الحديث أخرجه البخاري برقم (٢٨٨١ و٤٠٧١). (الاستيعاب ترجمة رقم ٣٥٣١).
(٥) أمّ الحارث الأنصارية: شهدتْ حُنيناً مع رسولِ اللهِ ﷺ ، ولم تنهزم يومئذ فيمن انهزم. روى عنها عمارة بن غزية ، وهي جدته. (الاستيعاب ترجمة رقم ٣٥٠٩). =

الرجلُ وأشدُّ على الرجلِ ، فلم أزلْ أضربه حتى أثبتُّه[1] وأخذت سيفاً له ، وتركتُ الجملَ يخرخر ، يتصفَّق[2] ظهراً لبطن ، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ مصلتٌ السّيفَ بيده ، قد طرحَ غمده ينادي: «يا أصحابَ سورة البقرة» ، وكرَّ المسلمون فجعلوا يقولون: يا بني عبد الرحمن ، يا بني عُبيد الله ، يا خيلَ اللهِ! وكان رسول الله ﷺ قد سمّى خيلَه خيلَ الله ، وجعل شعارَ المهاجرين بني عبد الرحمن ، وجعل شعارَ الأوس بني عُبيد الله. فكَرَّتِ الأنصارُ ، ووقفتْ هوازنُ مقدار حَلْبِ ناقة ، ثم كانتِ الهزيمةُ ، فو اللهِ ما رأيتُ هزيمةً كانت مثلَها ذهبوا في كلّ وجْهِ ، ورجعَ ابناي إليّ بأسارىٰ مكتّفين ، فأقومُ إليهم منَ الغيظ ، فأضربُ عنقَ واحدٍ منهم ، وجعلَ النّاس يأتونَ بالأسارى ، فرأيتُ في بني مازن ابن النّجار ثلاثين أسيراً ، وكان المسلمون قد بلغَ أقصى هزيمتهم مكّة ، ثم كرّوا بعد وتراجعوا ، فأسْهَمَ لهم النّبي ﷺ جميعاً»[3].

* وفي العهدِ الرّاشدي حضرت أمُّ عمارة رضي الله عنها معركةَ اليمامة وقاتلتْ يومئذٍ قتالاً شديداً وقُطِعَتْ يدها ، لكنّها سُرّتْ بمقتلِ عدو الله وعدو رسوله مسيلمة الكذاب الذي طغَىٰ وادّعى النّبوَّة.

* ولا بأس في أنْ نستمعَ إلى أمّ عمارة تذكُرُ جانباً من جوانب قتالها في معركةِ اليمامة عندما خرجتْ مع خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لقتال المرتدين فتقول: «لما انتهينا إلى الحديقةِ[4] بعد قتالٍ شديدٍ وجهدٍ عظيم ، واقتحمنا الحديقةَ فضربناهم ساعةً ، وجعلتُ أقصدُ عدوَّ اللهِ مسيلمة لأنْ أراه ، وخرسَ القومُ فلا صوتٌ إلا وقْع السّيوف حتى بصرتُ بعدوِ اللهِ ، فشددتُ عليه ، وعرضَ لي رجلٌ منهم فقطعَ يدي ، فو اللهِ ما عرجت عليها حتى انتهيتُ إلى الخبيثِ وهو صريعٌ ، وأجدُ ابني عبد الله قد قتلَه ، ويمسحُ سيفَه بثيابه.

فقلت: أقتلْتَه؟

---

(١) «أثبتُّه»: أي تركته جريحاً لا يقدر على القيام.

(٢) «يتصفَّق»: ينقلب.

(٣) المغازي: (٣/ ٩٠٢ و٩٠٣) بشيء من التصرف.

(٤) مكانٌ كان يتحصن به مسيلمة واسمه: حديقة الموت.

قال: نعم يا أمّاه.

فسجدتُ للهِ شكراً، وقُطع دابرُ الكافرين، فلمّا انقضتِ الحربُ، رجعتُ إلى مكاني، فجاءني خالد بن الوليد بطبيبٍ من العرب، فداواني بالزَّيت المغلي، وكان واللهِ أشدُّ عليَّ من القَطْع. وكان خالدُ كثيرَ التّعاهد لي، حسنَ الصّحبة لنا، يعرفُ حقّنا، ويحفظ فينا وصيّة نبيّنا ﷺ»[1].

* وعن محمد بن يحيى بن حبّان قال: «جُرِحَتْ أمُّ عمارة يومئذ أحد عشَر جرحاً بين ضربةٍ بسيفٍ أو رميةٍ بسهمٍ أو طعنةٍ برمح، وقُطِعَتْ يدها»[2].

* عادت المجاهدةُ المبايعةُ إلى المدينةِ المنورةِ وقد سبقها عضوٌ منها إلى الجنّة بإذن اللهِ، عادتْ وهي تنعم بالإيمان الذي وقَرَ في صدرها؛ واستقرَّ في أعماقها؛ وبايعت عليها ربها.

* وفي المدينةِ المنورةِ كان أبو بكر الصّديق رضي الله عنه يزورها ويسألُ عنها ويتفقّد أخبارَها وأحوالَها، أمّا عمر بن الخطاب فقد خصَّها بكساءٍ جيّد، وذلك لمكانتها الكبرى وسابقتها العظمى بين نساءِ الأنصارِ في ميادين المكارم.

* وما أجمل ما وصفَها به أبو نعيم الأصفهاني في «الحلية» في مفتتحِ ترجمتهِ لها حيث قال: «أمُّ عمارة المبايعةُ بالعقبة، المحاربةُ عن الرجالِ والشّيبة، كانت ذات جدٍّ واجتهادٍ، وصومٍ ونُسْكٍ واعتماد»[3].

* نعم فهذهِ المبايعة على الإسلام، لها مواقفُ آسرةٌ في المغازي النَّبويةِ، وقد أفضْتُ في الحديث عن قتالها المشركين بعض الإفاضة، لكي يعلمَ الجَمْعُ أنَّ المرأةَ المبايعةَ لم تدقْ للجرجلِ المبايعِ فضيلة يستأثرها وحده. وما كان شيءٌ من ذلك لجفوةٍ في خُلِقها، ولا نبوةٍ في طبعها.

---

(١) الرّوضة الفيحاء في تواريخ النّساء لياسين العمريّ (ص ٢٣٠) تحقيق د. رجاء محمود السّامرائي ـ الدّار العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٣٠).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٦٤)، ومن الجدير بالذكر أنَّ أمَّ عمارة توفيت سنة (١٣هـ) رضي الله عنها وجعلنَا من رفقائها في الجنّة.

* وما كانت شجاعةُ أمّ عمارة أثراً من الغلظة ، وحبّاً في خوض المعارك ، ولكنّها قوّةٌ فاضتْ بها وفرةُ الصَّبرِ ، وصقلتْها قوّةُ اليقين ، وإذا كانتِ المرأةُ المسلمةُ أثبتَ من الرجلِ إيماناً ، وأصبر منه على ريب الزَّمان ـ أحياناً ـ ، فما لَها لا تكون في ساعة المحنةِ أكثر بسالة وأشدّ بأساً؟ وأصبر على اللأواء؟ وأشجع الناس عند البلاء؟

* لقد جمعت السيدة أمّ عمارة كلَّ هاتيك المكارم في جميع المواقف ، وكانت ملأى اليدين ، فياضةُ النّفس ، تعمل على مرضاة الله ، ورسوله في كلِّ أمورها .

* هذه شذراتٌ جميلةٌ ووقفات طيبةٌ عن أم عمارةَ الصّحابية المبايعة الكريمة ، والحديث عنها لا تملّ منه النّفوس .

* ولكننا سنعيشُ في السّطور التّالية مع صاحبتها أمّ منيع الأنصارية لنعرفَ شيئاً من أخبارها نضيفُه إلى رصيدنا من سير الصَّحابيات نتحفُ به مَجالسَنَا ونمتعُ به مُجَالِسنا .

**ثانياً: أم منيع الأنصارية رضي الله عنها:**

* كانت ثانيةَ اثنتَيْن في بيعةِ العقبةِ الكُبرى ، يوم أنْ بايعَ الأنصار رسولَ الله ﷺ على حربِ الأحمرِ والأسودِ وعلى النُّصرة .

* لم تكن هذه المرأةُ من مشاهيرِ النّساء لولا تلك البيعةُ المباركةُ ، التي جعلتِ التّاريخ يحفلُ بها ، ويسجّلُ أسماءَ المبايعين بأحرفِ من نورٍ .

* هذه المرأة هي أسماءُ بنتُ عمرو بن عدي أمّ منيع الأنصارية ، التي ضربتْ مثلاً رفيعاً بين نساءِ المسلمين في تحمل آلامِ الحَمْلِ يوم أن عزمتْ على البيعةِ في العقبة .

* ذكر البلاذري أنّ أمَّ منيع رضي الله عنها قد خرجتْ في موسمِ الحج بصحبةِ زوجها نحو مكّة ، وكانت أيّامها حاملا بابنها شَبابِ بنِ خديج ، ولكنَّ حبّها للبيعةِ النّبوية كان أكبرُ من آلامِ حملها التي تعانيها ، ولما كانت ليلة العقبةِ

ولدتْ ابنها شباب[1] بن خديج ، فانتظم في عداد الصّحابة .

* وفي العقبةِ تمتْ بيعةُ السيدةِ أمّ منيع رضي الله عنها للنّبيّ ﷺ ، وبايَعهما على ما بايعَ عليه الرّجال وكان يقولُ للنّساء إذا أخذ عليهنّ العهد: «قد بايعتكُنّ»[2] كلاماً فقط .

* ورجعتْ أمُّ منيع إلى المدينةِ المنورةِ مع زوجها الصّحابي خديج بن سلامة[3]. وقد سجّلتْها أحداثُ السّيرةِ النبويةِ بين أوائلِ النّساء في البيعة المباركة .

* وفّت أمّ منيع بيعتَها وتابعتْ رحلةَ الوفاءِ والعطاءِ مع النّبي ﷺ ، فقد ذكرَ الواقدي في «المغازي» بأنَّ النَّبيَّ ﷺ لما خرجَ إلى الحديبيةِ[4] كانت معه[5] في عددٍ من نساءِ الصَّحابة رضي الله عنهم جميعاً .

* وفي غزوةِ خيبر[6] خرجَ مع النّبي ﷺ عشرون امرأةً من نساءِ الصّحابةِ ،

---

(١) «شباب» ، أو شُباث بن خديج بن سلامة الأنصاري ، ولد ليلة العقبة ، وكان أبوه أحد السّبعين ، وأمّه أمّ منيع بنت عمرو بن عديّ الأنصاريّة . (الاستيعاب ترجمة رقم ١١٩٤) .

(٢) صحيح مسلم (٦/ ٢٩) .

(٣) «خديج بن سلامة بن أوس البلوي» ، حليف لبني حرام من الأنصار ، شهد العقبة الثانية ، ولم يشهد بدراً ولا أحداً ، وشهد ما بعد ذلك ، قال الطبري وقال: يكنى أبا رشيد . (الاستيعاب ترجمة رقم ٦٩٢) .

(٤) «الحُدَيبية»: بضمِ الحاء ، وفتح الدال ، وتخفيف الياء ، كذا قاله الشّافعي ـ رحمه الله ـ وأهل اللغة وبعض أهل الحديث . وهي قريةٌ ليست بالكبيرة سمّيت ببئر هناك عند مسجد الشّجرة ، وهي على نحو مرحلةٍ من مكّة ، وكان الصَّحابة الذين بايعوا تحت الشّجرة ـ وهي شجرة سمرة ـ بيعة الرضوان ألفاً وأربع مئة ، وقال لهم النّبيُّ ﷺ يومها «أنتم خير أهل الأرض» (تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ٧٧) باختصار .

(٥) انظرك المغازي للواقدي (٢/ ٥٧٤) .

(٦) «خيبر»: بلدةٌ معروفةٌ على نحو أربع مراحل من المدينةِ المنوّرة إلى جهة الشّام ذات نخيل ومزارع ، فتحها رسولُ الله ﷺ في أوائلِ سنة سبع من الهجرةِ ، أقامَ رسولُ اللهِ ﷺ على حصارهم بضع عشرة ليلة . (تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ٩٧) .
ومن الجدير بالذكر أنّ بلدة خيبر كانت وقتذاك كالمستعمرة اليهودية ، وهي تتضمنُ قلاعاً كثيرة وحصينة ، وقاعدة حربية لليهود الذين كانوا يتربّصون بالمسلمين الدّوائر ، فأراحَ اللهُ=

وكانت أمّ منيع رضي الله عنها في صفوفِ المجاهدينِ والمجاهداتِ ، فقد ذكرَ الرّواةُ أنَّ عدداً من نساء الصَّحابة كُنَّ في هذهِ الغزوة منهنّ : السيدةُ صفيةُ بنتُ عبد المطلب عمّة النبي ﷺ ، وأمُّ سُليم بنت ملحان ، وأمُّ عطيّة الأنصارية ، وأخريات ، وقد أعطاهنّ النّبي ﷺ من غنائمِ خيبر؛ وقد أخذت أمّ منيع الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ من تلك الغَنائِم[1] .

* وتظلُّ السّيدةُ أمّ منيع من نساء الصَّحابة اللواتي تابعْنَ حياةَ العطاءِ والجهادِ في ظلالِ المرحلةِ النّبويةِ المباركةِ في المدينةِ المنورةِ ، وتابعن رحلةَ الوفاء للبيعة[2] .

* ويسكتُ التّاريخُ النّسويُ الذي نقلَ إلينا أخبارَ أمّ منيع ـ رضي الله عنها ـ فلا يخبرنا بأعمالِها بعد غزوةِ خيبر بمعيةِ النّبي ﷺ. غير أنَّها قد ظلّتْ وفيةً صادقةً في بيعتها إلى أنْ لقيتْ ربَّها وهي تشهدُ شهادة الإيمان.

* رضي الله عن أمّ منيع ، وعن نساء الصَّحابة جميعاً وعن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وألهمنا أنْ نقفوَ أثارهم ونعملَ مثلما عملوا إنّه سميع مجيب.

* * *

= المسلمين منهم ومنْ شرورهم وآثامِهم وغدرهم.

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٤٠٨) ، والسيرة الحلبية (٢/ ٧٧٠) مع الجمع والتصرف.

(٢) نستطيعُ أنْ نستخلص من سيرة السَّيِّدةِ أمّ منيع رضي الله عنها أنّها امرأةٌ متميزةٌ حصيفةٌ عاقلةٌ حكيمةٌ ، عاشت لمجتمعها الأُسري الأصغر ، ولمجتمع قومها الأكبر في آنٍ واحدٍ ، ووقفت إلى جانب زوجها تجاذبهُ شرفَ البيعة ، وجدَّ العمل ، وشؤونَ الحياة ، فكُتبت مع الخالدات.

# الفصل الثّالثُ
# من المبايعاتِ بعْدَ الهجْرةِ النَّبويَّةِ

* عندما قدمَ النبي ﷺ المدينةَ المنوّرَةَ ، وبدأ في بناءِ المجتمعِ الإسلامي بناءً أساسُهُ العقيدةُ الصّافيةُ ، أخذتْ معاني المسؤوليَّة العامَّة ـ لدى المسلمين والمسلمات ـ تتبلورُ وتتضحُ الرّؤيا الصّحيحة للإسلام ، وبدا للمسلمين الأنصار خاصّة أنَّ المهمةَ قد صارتْ مختلفة ، إذْ أخذَ المسلمُ والمسلمةُ يبايعان على التزامِهما بالإسلامِ ، ويبايعان على حمايتهِ ، وحمايةِ رسولِ الله ﷺ ، وحمايةِ المؤمنين .

* وقد حرصتْ نساءُ الأنصارِ بعد الهجرة أنْ يبايعهنّ النبيُ ﷺ على الإيمانِ الخالصِ بالشّروطِ المعروفةِ؛ وجاءت كثيرٌ من نساءِ الأنصارِ وبايعن رسول الله ﷺ ، وكان منهنّ: أمُّ عطية ، وأمُّ عامر الأشهلية ، وأمُّ سعد بن معاذ ، وحوّاءُ بنتُ يزيد وغيرهنّ كثيرات[1] ، وسنتعرّف حياة بعضهنّ من خلال الصّفحات التّاليات .

### أولاً: كبشة بنت رافع رضي الله عنها:

* جاء في الإصابةِ نقلاً عن ابنِ سعد أنَّ: «أوّل مَنْ بايعَ النّبي ﷺ ـ يعني بالمدينةِ ـ أمّ سعد بن معاذ، وهي كبشةُ بنتُ رافع بن عُبيد، وليلى بنتُ الخطيم ،

---

(١) من هؤلاء النّسوة: أمّ المنذر بنت قيس الأنصاريّة أيضاً ، ولكنّا أحببنا أنْ نترجم لها مع المبايعات بيعة الرضوان في الفصل القادم بإذن الله تعالى .

وليلى ومريم وسُهيمة بناتُ أبي سفيان الليثي ، يقال له : أبو البنات»[١] .

* هذه المبايعةُ هي كبشةُ أم سعد بنُ معاذ الأنصاريّ الأوسيّ ، كانت كبشةُ مفتاحَ خيرٍ لنساءِ الأنصارِ اللواتي حرصْنَ على مبايعةِ النّبي ﷺ ، قال ابنُ سعد : «أولُ مَنْ بايعَ النّبيَّ ﷺ أمُّ سعد بن معاذ كبشة بنت رافع بن عبيد. . . . »[٢] .

* ومنذ أنْ بايعتْ أمُّ سعد النَّبيَّ ﷺ سجّلَتْ سبقاً محموداً في ميادين الفضائلِ وساحاتِ المكارم ، وضربتْ أجملَ الأمثلةِ في مقامِ الصَّبْرِ والتّسليمِ والاستسلام لله عزّ وجلّ .

* ففي غزوةِ أحدٍ كان لها موقفٌ مشكورٌ ، فقد شهد ولداها : سعدٌ وعمرو هذه الغزوة ، وحظي عمرو بالشّهادة مع السَّبعين من أصحابهِ ، وعندما عادَ النّبي ﷺ نحو المدينة ، خرجت مجموعةٌ من النّساء متلهّفات على سلامةِ النبي ﷺ ، وكانت أمُّ سعد بن معاذ من السَّابقات ، إذ خرجتْ مسرعةً نحو النّبيّ ﷺ ، وهو واقفٌ على فرسهِ ، وابنها سعدٌ ممسكٌ بعنانِ الفرس ، ورآها سعدٌ ، فقال للحبيبِ المصطفى ﷺ: «يا رسولَ اللهِ هذه أمّي» فقال النبي ﷺ : «مرحباً بها» ووقفَ لها .

* واقتربت أمُّ سعد في رضاءٍ حتى نظرتْ إلى النّبي ﷺ سالماً فقالت في نبرةٍ صادقةٍ : «يا رسولَ اللهِ ، أمَا إذْ رأيتُكَ سالماً فقد هانتِ المصيبةُ عليَّ» .

* وسُرَّ النّبي ﷺ من صدقها ، فعزَّاها بابنها عمرو ، ودعا ﷺ لأهلِ مَنْ قُتلوا بأحدٍ بعد أنْ قال لأمّ سعْدٍ مواسياً ومبشِّراً : «يا أمَّ سَعْدٍ ، أبشري وبشّري أهلهم أنَّ قتلاهم ترافقُوا في الجنّة جميعاً ، وقد شُفِّعُوا في أهلهم جميعاً .

قالت أمُّ سعد في رضاءٍ وتسليمٍ : «رضينا يا رسولَ اللهِ ، ومَنْ يبكي عليهم بَعْدَ هذا؟» .

ثم إنّها طلبت من النّبي ﷺ أنْ يدعوَ لمن أصيبوا : «يا رسول الله ، ادعُ لمن خلفوا» .

---

(١) الإصابة (١٣/ ١١٨) .

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢) .

فقال ﷺ: «اللهم أذهبْ حزْنَ قلوبهم ، واجبرْ مصيبتَهم ، وأحسنِ الخلفَ على مَنْ خلفوا»[1] .

* وسمعَ النّبيُ ﷺ نساء الأنصار يبكينَ على أزواجهنّ وذويهنّ منْ أبنائهنّ وإخوانهنّ ، فقال: «حمزةُ لا بواكيَ له» ، فأمر سعدُ بنُ معاذ أمّه ونساءه ونساء قومه أنْ يذهبنَ إلى بيتِ النّبيّ ﷺ يبكينَ عمّه حمزة بن عبد المطّلب بين المغربِ والعشاء.

* ولما صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ المغربَ ، رجعَ من المسجدِ ، فسمعَ البكاء ، فقال: «ما هذا»؟ فقيل له: «يا رسولَ اللهِ ، إنّ نساءَ الأنصارِ يبكيَن حمزةَ» فقال: «رضي الله عنكنّ وعن أولادكنّ» وأمر أنْ تردّ النساءُ الباكياتُ إلى منازلهنَّ وقال: «مروهنّ فلينقلبْنَ ولا يبكينَ على هالكٍ بعد اليوم»[2] . وفي رواية أنّه ﷺ قال لهنّ: «ارجعنْ رحمكنَّ اللهُ ، لقد واسيتُنَّ معي ، رحم اللهُ الأنصارَ ، فإنَّ المواساةَ فيهم كما علمتُ قديمة»[3] .

* ورجعتْ أم سعدٍ ونساءُ الأنصار إلى بيوتهنّ بعد مضي شطْرٍ من الليل ، وهنّ مطيعاتٌ الأمرَ النَّبويَ ، مسروراتٌ بدعائهِ ﷺ لهنّ وللأنصار ، قالت أمّ سعد تذكرُ كيفَ رجعتْ إلى بيتها: «فرجعْنَا إلى بيوتنا بعد ليلٍ ، معنا رجالُنا ، فما بكَتْ منّا امرأةٌ قطّ إلا بدأت بحمزةَ إلى يومنا هذا»[4] .

* وفي غزوةِ الخندقِ استحثَّت أمّ سعد ابنَها سعداً ليلحقَ بالنّبي ﷺ وقالت له: «يا بنيّ ، الحقْ برسولِ الله ﷺ فقد تأخّرتَ». ولحقَ سعدٌ بكتائب الصّحابة ، وأُصيبَ يومها بِسَهْم قَطَعَ منه عِرْقَ الأكْحلِ بذراعه ، رماهُ به حِبّانُ بنُ العَرقَة ، فلما أصابه السّهم قال: «خذْها منّي وأنا ابنُ العرقة».

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٥٤٥ و٥٤٦) بشيء من التصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٥٩١) ، ومعنى: «فلينقلبن»: أي: يرجعْن.

(٣) السّيرة الحلبية (٢/ ٥٤٦).

(٤) المغازي (١/ ٣١٤ ـ ٣١٦) باختصار وتصرّف؛ ولعلّ أمّ سعد قد أقلعت عن البكاء بعد أنْ سمعتْ نهيَ النبي ﷺ عن ذلك.

فقال له سعد مجيباً: «عرقَ اللهُ وجهك في النَّار»[1].

* وَوُضِعَ سعدٌ في خيمةٍ قريبةٍ من المسجد النّبوي ، وكان ﷺ يعودُهُ ، إلى أنْ خانَ بنو قريظة العهدَ مع المسلمين ، فحوصروا ، ثم نزلُوا على حكْمِ سعد بن معاذ ، فحكمَ بحكمِ اللهِ من فوقِ سبعِ سماواتٍ وذلك بأنْ يُقْتَلَ الرّجال ، وتُسْبَى نساؤهم وذراريهم ، ولما نُفِّذَ الحكمُ فيهم انفتقَ جرحُ سعد ، وماتَ شهيداً.

* وبكته أمهُ بدموعٍ سَواجمَ ، ولما احتمل على النّعش أخذت تقول:

ويـــلُ أمِّ سَعْـــدٍ سَعْـــدا     صَـــرامـــةً وحـــدّا

وسُـــؤْدداً ومَجْـــدا     وفَـــارِســـاً معـــدّا

سَـــدَّ بـــهِ مَســـدَّا     يقـــدُّهـــا مـــا قَـــدَّا

* وعندما سمعَها النّبيّ ﷺ تقولُ ما تقولُ ، ورأى حزنَها ، وصدَّقَ لوعتها على ابنها سعدِ ، شهد لها بالصّدق وقال: «كلُ باكيةٍ تكذبُ إلا أمّ سعد»[2].

* ولما دُفِنَ سعدٌ في البقيع ، صاحتْ أمّه ، فقال لها النّبيّ ﷺ: «ألا يرقأ دمعُكِ ويذهب حزنُكِ؟ فإنَّ ابنك أوّلُ مَنْ ضَحِكَ اللهُ إليه ، واهتزّ له العرش»[3].

* ورقأَ دمعُ كبْشَة ، عندما علمت أنَّ النّبي ﷺ قال عن ابنها سعد: «اهتزَّ عرشُ الرحمنِ عز وجل لموتِ سعدِ بنِ معاذ»[4].

---

(١) وقيل: بلغ رسول الله ﷺ ما قاله ابنُ العرقةَ فقال: «عرّق اللهُ وجْهَه في النار» (السّيرة الحلبية ٢/ ٦٤٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٧) ، وفي رواية: «كل باكية مكثرة إلا أمّ سعد ما قالت من خيرٍ فلن تكذب».

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٣٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (١٥٨) وفي الحديث دليلٌ على مكانةِ سعد ، لأنَّ العرب تنسبُ الشيء العظيم لأعظم الأشياء ، فتقول: «أظلمت الأرض لموت فلان ، واهتزّت له الجبال» وكان لسعد مكانةٌ عظمى ، فهو في الأنصارِ شبيه أبي بكر في المهاجرين رضي الله عنهما وأرضاهما.

* وفهمت أمّ سعد أنَّ معنى هذا: إنَّ العرش قد انتعشَ مع حامليهِ فرحاً بقدومِ روحِ سعد رضي الله عنه.

* وفي سعدٍ يقولُ أحدهم:

وما اهتزَّ عرشُ اللهِ منْ موتِ هالكٍ سمعْنَا بهِ إلا لسعدٍ أبي عمرو[1]

* كانت أمُّ سعد تشيّعُ ابنَها في البقيعِ، وعندما وُضِعَ سعدٌ في اللحد، جاءت تنظرُ إليه، فحاول بعضُ الصحابة أنْ يردَّها، فرآها النّبيُ ﷺ وقال: «دعوها». فأقبلتْ رضي الله عنها حتى نظرتْ إليهِ في اللحد، ثم استرجعَتْ وقالت: «أحتسبُك عند اللهِ عزّ وجل». وعزّاها النّبي ﷺ على قبرِ ابنها سعد، ثم جلسَ ناحيةً حتى سُوي القبرُ، ورُشَّ بالماء، فأَقْبَلَ ﷺ فدعا لسعدٍ، ثم انصرف[2].

* وظلتِ السيدةُ أمّ سعد وفيةً في بيعتها ودينها، وفيّةً لأهلِ البيت النّبوي ونسائه الطّاهرات، فقد مدحت أمّ سعد أمّنا عائشةَ وأباها الصّديق لما افترى عليها المرجفون حديثَ الإفك، فقالت أمُّ سعد تذكرُ طهْرَ عائشة وتقواها بهذه الميميةِ الصَّادقة:

تتّقي اللهَ في المغيبِ عليها نِعْمةُ اللهِ سرُّها ما يريمُ

خير هَدي النِّساء حالاً ونفساً وأباً للعُلا نَماهَا كريمُ

للموالي إذْ رَمَوْهَا بإفْكٍ أخذتْهُم مقامعٌ وجحيمُ

ليتَ مَنْ كانَ قد قَفَاها بسوء في حطامٍ حتّى يسولَ اللئيمُ[3]

* ويسكتُ التّاريخ، فلا يحدثنا عن وفاة السيدةِ المبايعة كبشة بنت رافع رضي الله عنها، لكنّه ظلّ يذكّرنا بوفائِها وصدقِ بيعتَها على الإيمانِ وأنّها من الأوائلِ في ميدانِ الفضائل.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٤).

(٢) انظر: المغازي (ص ٥٢٩) باختصار وتصرف.

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٥).

## ثانياً: حواء بنت يزيد رضي الله عنها:

* عندما قدمَ النّبيُ ﷺ المدينةَ ، جاءته نسوةٌ من المدينةِ يبايعنه وقال لهنّ: «الحمدُ للهِ الذي هداكُنّ للإسلام».

* كانت السّيّدةُ حوّاءُ بنتُ يزيد بن سنان الأنصاريّة من بين الوفدِ النّسويّ اللواتي قدمْنَ ليقدّمْنَ بيعةَ الإيمان.

* أسلمت هذه السيدةُ قديماً قبل أنْ تَرى النّبيّ ﷺ ، فقد كان ﷺ لا يزالُ بمكة ، وسمعتْ بهِ وهي بالمدينة وأسلمتْ مع خالها سعدِ بنِ معاذ رضي الله عنه ، وأسلمتْ كذلك أمّها عقربُ بنتُ معاذ ، وأخوها رافعُ بنُ يزيد الذي شهد بدراً.

* وعن بيعةِ السّيدة حواءَ بنتِ يزيد مع الأوليات تحدثنا المبايعة أمُّ عامر الأشهلية فتقول: «جئتُ أنا ، وليلى بنتُ الخطيم ، وحواء بنتُ يزيد فدخلْنَا على النّبي ﷺ ، ونحنُ ملْتفّاتٌ بمروطنا[1] ، بين المغربِ والعشاءِ ، فسلمتُ ، ونسبني فانتسبتُ ، ونسبَ صاحبتيَّ فانتسبتا ، فرحّبَ بنا ، ثم قال: «ما حاجتكُنّ»؟

فقلنا: يا رسولَ الله ، جئْنَا نبايعك على الإسلام ، فإنا قد صدقْنا بك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به حقّ. فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ الذي هداكُنّ للإسلام».

ثم قال: «قد بايعتكُنَّ».

قالت أمُّ عامر: فدنوتُ منه ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنّي لا أصافحُ النّساء ، قَولي لألفِ امرأةٍ كقَوْلي لامرأةٍ واحدة».

وكانت أمّ عامر تقول: إنّا أولُ مَنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ»[2].

---

(١) «المروط»: جمع مرط ما يشبه الملاءة.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٢).

* وضربتِ السّيّدةُ حوّاءُ مثلاً رائعاً في المحافظةِ على إيمانها ، وتحملتِ الأذى في سبيلِ ذلك ، فقد كانت متزوّجةً من قيس بن الخطيم الشّاعر الجاهليّ المشهور ، وكان يؤذيها قبلَ مقدمِ النّبي ﷺ إلى المدينةِ ، ويعبثُ بها ، وبلغ ذلك كلّه النبي ﷺ وهو بمكة .

* وفي سوقِ ذي المجاز بمكةَ المكرمةِ ، لقيَ رسولُ الله ﷺ قيسَ بنَ الخطيم ، ودعاه إلى الإسلام وحرصَ عليه ، فقال قيس : «ما أحسنَ ما تدعو إليه ، وإنَّ الذي تدعو إليه لحَسَنٌ ، ولكنَّ الحرب شغلتْني عن هذا الحديث» .

* وجعلَ النّبي ﷺ يلحُّ عليهِ ويكنّيه ويقولُ له مرغّباً : «يا أبا يزيد ، أدعوكَ إلى اللهِ» .

ويردُّ عليه قيس كلامه الأوّل[1] .

* ولما لم يستجبْ قيسٌ إلى دعوةِ الهدىٰ والنورِ والهدايةِ ، قال له الحبيبُ الأعظمُ ﷺ مخبراً إياه عمّا يصنعه مع زوجتهِ من الأذيةِ والعبث : «يا أبا يزيد إنَّ صاحبتكَ حواء قد بلغَني أنّك تسيءُ صبحتها مُذْ فارقَتْ دينَكَ؛ فاتّقِ اللهَ ، واحفظني فيها ، ولا تعرَّض لها»[2] . وفي روايةٍ أنّه ﷺ قال له : «إنَّ امرأتَك قد أسلمت ، وإنّكَ تؤذيها فأحبّ ألا تعرَّضَ لها» .

فقال قيس : «نعم وكرامة يا أبا القاسم ، لستُ بعائدٍ في شيءٍ تكرهُه» .

ولما رجعَ إلى المدينةِ قال لحواء زوجته : «يا حواءُ ، إنَّ صاحبَك ـ يعني رسول الله ـ قد لقيني فطلبَ إليَّ ألا أعرضَ لك ، فشأنُكِ وأمرُكِ»[3] . ثم قال لها مؤكّداً وفاءه : «واللهِ لا ينالكُ منّي أذى أبداً» .

* وانشرحَ صدرُ حواءَ عندئذ ، وأظهرتْ ما كانت تخفي من الإسلامِ ، فلا يتعرضُ لها ولا يؤذيها ، وكان بعضُ الناس يقول له : «يا أبا يزيدَ امرأتُك تتبع دينَ محمدٍ ﷺ» .

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٣ و٣٢٤) بتصرف يسير جداً.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٤) .

(٣) انظر : طبقات فحول الشعراء (١/ ٩٢ و٩٣) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٤) مع الجمع والتصرف اليسير .

فيجيبُ قيس: «قد جعلتُ لمحمدٍ ألا أسوءها واحفظُه فيها».

* وعندما بلغَ النبيُ ﷺ وفاء قيسٍ في وعده إياه، وعدم إيذاءِ زوجته حواء، قال: «وفّىٰ الأُديعج»[1].

* وصارت حوَّاء حرَّةَ العبادةِ والطَّاعةِ، وقد انتظمَ معها في عقْد المسلماتِ أختا قَيْس وهما: لَيلى ولُبنى، وغدون جميعاً يعبدنَ الله، وانطلقْنَ أوّل الهجرة فبايعن مع المبايعاتِ رضي الله عنهنّ.

* ومن الجدير أنّه كان لحواء ولدان وهما: يزيدُ وثابتٌ ابنا قيس، أسلما وأصبحا من أصحابِ النّبيّ ﷺ، فقرت بذلك عينُها، ونَعِمَ ضميرُها بإيمانهما، وكان جميعُهم سعداء بِدِيْنِ الله عز وجل، فقد شهد يزيد غزوة أحدٍ مع النَّبي ﷺ، وجُرِحَ اثنتي عشرة جراحة، وسمّاهُ النَّبيّ ﷺ يومئذٍ «جاسراً»، فكان يقولُ: «يا جاسرُ أقبلْ، يا جاسرُ أدْبِرْ» وهو يضربُ بسيفٍ بين يديه ﷺ، ثم شهدَ كلَّ المشاهدِ التي حدثَتْ بعد غزاةِ أحدٍ، واستشهد يوم جِسْر أبي عُبيد.

* وأمَّا ثابتٌ فقد قال عنه ابنُ عبد البرّ في «الاستيعاب»: «مذكورٌ في الصَّحابةِ، ماتَ فيما أحسبُ في خلافةِ معاويةَ رضي الله عنه، وشهد ثابتُ بنُ قيس بنِ الخطيم مع علي رضي الله عنه صفّين والجملَ النّهروان».

* وظلت حواء بنتُ يزيد وفيةً لبيعتها ودينها إلى أن لقيتْ ربَّها رضي الله عنها وأرضاها.

### ثالثاً: أم عطية الأنصارية رضي الله عنها:

* هذه المبايعةُ واحدةٌ من الصَّحابياتِ الفقيهاتِ العالماتِ العاملاتِ المُعمَّراتِ؛ اسمُها: نَسيبةُ بنت الحارثِ الأنصاريةِ، من كبارِ نساءِ الصَّحابةِ

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٧٥)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ١٩٢ و١٩٣) «والدعج»: شدة سواد العين مع شدة بياض بياضها.

المشهوراتِ ، قال عنها الذّهبي : «من فقهاءِ الصَّحابة لها عدةُ أحاديث؛ وحديثَها مخرّجٌ في الكتب السّتة»[1] .

وقال ابنُ عبد البر عنها : «كانت أمّ عطيةَ من كبار نساء الصّحابةِ رضوان الله عليهم أجمعين ، وكانت تغزو كثيراً مع رسولِ الله ﷺ ، تمرضُ المرضى ، وتداوي الجرحى . . . »[2] .

* وأمُّ عطيةَ الأنصارية رضي الله عنها ممن وردَ اسمُها في بيعةِ النّساء بعد الهجرة ، إذ سبقهنّ الرجالُ إلى ذلك ، فقدمْنَ على النبي ﷺ واستأذَنَّ عليه ، ثم أعربْنَ عن سببِ مجيئهنّ وقلنَ : «يا رسولَ الله ، إنَّ رجالنا قد بايعوك ، ونحنُ نحبُّ أن نبايعَك ، فبايعنه» .

* وفي تلك البيعة أخذ عليهنّ الحبيبُ المصطفى ﷺ عهداً : «بألّا ينحْنَ ، ولا يخمشنَ وجهاً ، ولا يشققْنَ جيباً ، ولا يدعين ويلاً ، ولا ينشرنَ شَعْراً ، ولا يقلُن هجراً» .

* وبُعيدَ الهجرةِ النّبويّة ، جاء الأمرُ النّبويّ بأنْ تجتمعَ نساء الأنصار في بيتٍ أحداهنّ ، ثم أرسلَ إليهنّ فاروقَ الإسلام عمرَ ليبايعهنّ ، وكانت أمُّ عطيةَ من بين المبايعاتِ من نساءِ الأنصار .

* أما قصةُ بيعةِ نساء الأنصار رضي الله عنهنّ ـ عند قدوم النبي ﷺ ـ فنستمعُ إليها من السَّيدةِ أمّ عطية الأنصارية التي كانت شاهدة إيّاها فقالت : «لما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ جمعَ نساءَ الأنصار في بيتٍ ، ثم أرسلَ إليهنّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ، فقام على البابِ ، فسلم عليهنّ ، فرددْنَ السّلام ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكنّ .

فقلْنَ : مرحباً برسولِ اللهِ ﷺ وبرسولِ رسولِ الله .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٨) .
(٢) الاستيعاب (١٣/ ٢٥٦) .

فقال: أتبايعْنَ على أنْ لا تشركْنَ باللهِ شيئاً ، ولا تسرقْنَ ، ولا تَزْنين ، ولا تقتلْنَ أولادكُنَّ ، ولا تأتينَ ببهتانٍ تفترينه بين أيديكنَّ وأرجلكنّ[1] ، ولا تعصينَ في معروف؟

قُلْنَ: نعم.

فمدَّ عمرُ يدهَ من خارجِ الباب ، ومددنَ أيديهنَّ من داخل[2] ، ثم قال: اللهم اشهدْ ، وأُمِرنا أنْ نُخْرِجَ في العيدين الحُيَّض والعُتَّق ، ونُهينا عن اتّباعِ الجنائزِ ، ولا جُمُعَةَ علينا.

فسألتُه عن البُهتان ، وعن قوله: ولا يعصينَكَ في معروف. قال: هي النّياحة»[3].

* وفّتْ أمُّ عطية في بيعتها وصدقَتْ ما عاهدت اللهَ عليه ، ومن تمام بيعتِها حبّها للجهاد وخدمة فرسان المدرسة النّبوية ، فكانت تخرجُ لسقايةِ المجاهدين ومداواةِ جراحهم ، وإعداد طعامهم.

* وقد تكررتْ غزواتُ أمّ عطية بالمعيةِ النّبويةِ إلى أنْ صحبتْه ﷺ في سبْعِ غزوات ومنها غزوة خيبر؛ قالت أمّ عطية: «غزوتُ مع النبي ﷺ سبْعَ غزوات أخلفُهم في رحالِهم ، فأصنعُ لهم الطَّعام ، وأداوي الجرحى ، وأقومُ على المرضى»[4].

* ولم تكن أمّ عطيّة في المعيَّةِ النَّبويَّةِ في ساحاتِ الجهاد ، وإنَّما كانت قريبةً من البيتِ النّبوي ، فقد شهدتْ غُسْل زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ ، وحكَتْ ذلك فأتقنتْ ، وحديثها أصلٌ في غَسْل الميت ، وكان جماعةٌ من الصَّحابةِ

---

(١) معنى ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: أي: لا يأتينَ ببهتانٍ من قبلِ أنفسهنّ ، واليد والرجل كناية عن الذات؛ لأنّ معظم الأفعال بهما.

(٢) ليس المعنى هنا بأنّ عمر صافحهنَّ ، وإنّما في هذا إشارة إلى تأكيد البيعة.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٥).

وعلماء التّابعين يأخذون عنها غَسْل الميت[1].

* ومناقبُ أمّ عطية كثيرةٌ لا تُحصى ، ومنها أنَّها تابعتِ الرّواية ، فروي لها أربعون حديثاً ، وروى عنها عددٌ من أكابر التّابعين ، والتّابعيات ومنهنّ: حفصةُ بنتُ سيرين ، وأمُّ شراحيل وغيرهما.

* وانتقلت أمُّ عطيةَ إلى البصرةِ ونزلتْ في قَصْرِ بني خَلَف ، وكان عليُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يعرفُ حقّها ومكانتها في عالَم فقيهات الصّحابة ، وكان يقيلُ عندها[2].

* وكان كثيرٌ من علماء التّابعين يزُرْنَها ، ويأخذون عنها كثيراً من الأحكامِ في المواطنِ التي شهدتها في عَصْرِ النّبي ﷺ وحياته ، وممن كان يسألها التّابعي الجليل محمدُ بنُ سيرين.

* وظلت أمُّ عطية تعطي العلْمَ والمعرفةَ حتى عام سبعين من الهجرة[3] ، حيث صَعِدَت روحُها إلى بارئها وهي وفيةٌ بما عاهدت عليه الله ورسوله. فرضي الله عنها وأرضاها.

## رابعاً: الشّموسُ بنتُ النّعمان الأنصارية:

* بعد أنْ هاجرَ النّبيّ ﷺ إلى عرينِ الأنصارِ في المدينةِ المنوّرة ، استقبله الأنصار استقبالاً حافلاً رجالُهم ونساؤهم وصبيانُهم وبناتُهم ، وكان فيهم ﷺ كأحدهم بذلوا له كلَّ شيء وعادوا مَنْ عَادَاه؛ قال ابنُ إسحاق: «فلما اطمأنتْ برسولِ الله ﷺ دارهُ ، وأظهرَ اللهُ بها دِيْنَه ، وسرّهُ بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهلِ ولايته؛ قال أبو قيس صِرْمة بن أبي أنس الأنصاريّ النّجّاريّ يذكرُ ما أكرمهم الله تعالى به مِنَ الإسلام ، وما خصَّهم اللهُ به من نزولِ رسولهِ ﷺ:

ثَوىٰ في قريشٍ بضْعَ عشْرة حجّةً     يـذكّـر لـو يَلْقـىٰ صَـديقـاً مُـواتيـا

(١) انظر: الاستيعاب (١٣/ ٢٥٦ و٢٥٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٨) وبهذا تكون أمّ عطية من نساء الأنصار المعمرّات.

ويعـرضُ فـي أهـلِ المـواسـمِ نفْسَـه فلـم يَـرَ مَـنْ يـؤوي ولـم يَـرَ داعيـا
فَلَمّـا أتَـانَـا أظهـرَ اللهُ دِيْنَـه فـأصْبـحَ مَسْـروراً بِطِيبـةَ راضيـا
وألفَى صديقاً واطمأنّتْ به النّوىٰ وكـان لـه عـونـاً مـن اللهِ بـاديـا
فأصبحَ لا يخشى منَ النَّاسِ واحداً قريباً ولا يخشَى منَ النَّاس نائيا
بـذلْنَـا لـه الأمـوالَ مـن حِـلّ مـالِنـا وأنفسَنـا عنـد الـوغـىٰ والتّـآسيـا
ونعلـمُ أنَّ اللهَ لا شـيءَ غيـرُهُ ونعلـمُ أنَّ اللهَ أفْضَـلُ هـاديـا
نُعادي الذي عَادىٰ من النَّاسِ كلِّهم جميعاً وإن كانَ الحبيبُ المُصَافيا[1]

* وعند بدايةِ الهجرة جاءت الشّموس بنتُ النّعمان بن عامر الأنصارية ، وبايعتِ النبيَ ﷺ على الإيمان والنّصرة ، وشهدتْ بناءَ أولِ مسجدٍ في دنيا الإسلامِ بالمدينةِ المنورة ، قال ابنُ الأثير عنها : «حضرتْ مع النّبي ﷺ حين أسَّسَ مسجدَ قباء ، وكانتْ منَ المُبايعاتِ»[2] .

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ هناك أربع صحابيّات اسم كلّ واحدةٍ منهنّ الشُّموس ، وكلهنّ أنصاريات وكلهنّ بايعْنَ النّبيَّ ﷺ وهنّ :

١ ـ الشُّموسُ بنتُ أبي عامر بن صيفي الأنصاريّة ، وهي أمُّ عاصم وجميلة ولدي ثابت بن أبي الأفلح ، بايعتْ رسولَ الله ﷺ .

٢ ـ الشُّموسُ بنتُ عمرو بن حرام الأنصاريّة ، وهي أمُّ بنات مسعود بن أوس الظّفريات ، بايعتْ رسولَ الله ﷺ .

٣ ـ الشُّموسُ بنتُ مالك بن قيس الأنصاريَّة المازنيَّة ، بايعت رسولَ اللهِ ﷺ .

٤ ـ الشُّموسُ بنتُ النّعمان بن عامر الأنصاريّة ، بايعت النَّبيَّ ﷺ ، وهي التي نتحدثُ عنها[3] .

---

(١) السّيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشني (٢/ ١٧٩ ـ ١٨٢) بتصرف واختصار؛ وهذه القصيدةُ متوسطةُ الطول ، لطيفةُ المعنى ، جيدةُ المبنى ، وقائلها ممن تحنّفَ في الجاهلية ، ثم منَّ الله عليه بالإسلام ، فأسلمَ وله شعرٌ جميل هادف .

(٢) أسد الغابة (٧/ ١٦٥) .

(٣) انظر : أسد الغابة (٧/ ١٦٤ و١٦٥) ، والإصابة (١٣/ ٧ ـ ٩) .

* ومن المفيد أنْ نتعرفَ معنىٰ كلمة «الشُّموس» فالشّموس : جمع شَمْس. والشّمُوس من النّساء: هي التي لا تُطالِعَ الرّجال ، ولا تُطمِعُهم ، والجمعُ: شُمُس.

قال النّابغة :

شُمُسٌ موانعُ كُلِّ ليلةِ حرةٍ     يُخلِفْنَ ظنَّ الفاحِشِ المغْيَارِ

* وقال أبو صخْر الهُذَلي :

قِصَارُ الخُطىٰ شمٌّ شُموسٌ عن الخَنا     خِدَالُ الشَّوى فُتْخُ الأكفّ خَراعبُ[1]

* وقد شهدت الشُّموس بنتُ النُّعمان بناءَ مسجدِ قباء ، هذا المسجد المبارك الذي أعلىٰ الإسلامُ مكانتَه ، فهو أولُ مسجدٍ في الإسلام كلّه ، أُسِسَ بعد النّبوة ، أسّسهُ رسولُ الله ﷺ ، وأكملَ بناءه وهو يعملُ فيهِ بنفسه الشّريفة مع أصحابه ، وكان ﷺ ينقلُ حجارتَه مع المسلمين.

* وقد ذكر بعضُ أصحاب السّيرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان أول مَنْ وضعَ حجراً في قبلةِ هذا المسجد المبارك ، ثم جاء أبو بكر بحجرٍ فوضعَه ، ثم جاء عمرُ بحجرٍ فوضعه إلى جانبِ حجر أبي بكر ، ثمّ أخذَ الناسُ في البنيان.

* وذكر الحلبي : «أنَّه ﷺ لما أرادَ بناء مسجد قباء قال: «يا أهلَ قباء ، ائتوني بأحجارٍ من الحرّة»؛ فَجُمِعَتْ عنده أحجارٌ كثيرة ، فَخَطَّ القبلةَ وأخذ حجراً فوضعه ، ثم قال: «يا أبا بكر خذْ بحجرٍ فضَعْه إلى جنْبِ حجري»؛ ثم قال: «يا عمر خُذْ حجراً فضَعْه إلى جنب حجرِ أبي بكر»؛ ثم قال: «يا عثمان خُذْ حجراً فضَعْه إلى جنْب حجر عمر»[2].

* وجاء في «المغَانم المُطابَة» للفيروز أبادي أنَّ الخطابي روىٰ عن الشّموس

(١) لسان العرب (٦/ ١٣) بتصرف.

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٢٣٧).

بنتِ النّعمان وكانت من المبايعات قالت: «كان رسولُ الله ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد ألصقه إلى بطنهِ فيضعه ، فيأتي الرجل يريد أنْ ينقلَه فلا يستطيعُ حتّى يأمره أنْ يدعَه ، ويأخذَ غيرَه»[1] .

* وروى الزُّبيرُ بنُ بكار عن عتبةَ بنِ وديعة عن الشُّموس بنت النّعمان رضي الله عنها ، وكانت من المبايعاتِ قالت: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يؤسّسُ المسجدَ بقباء ، فيأتي الصّخرة أو الحجر فيحملُه بيده حتى انظرَ إلى بياضِ التّراب على سرّته أو بطنه ، فيأتي الرجلُ من قريش أو الأنصار فيقول: يا رسولَ اللهِ ، أعطني الحجرَ أحملُه ، فيقولُ ﷺ: «لا ، خُذْ حجراً مثلَه»[2].

* وأحسب أنَّ قرية قباء كانت كلّها في سعادةٍ غامرة ، تحتفي بالنّبي ﷺ وهو يبني مسجدَ قباء ، وهو أولُ مسجدٍ يُقام في المدينةِ ، ولا شكّ فالمساجدُ كلّها بيوتُ الله ، وهذا المسجدُ بالذات ورد ذكْرُهُ في القرآنِ الكريمِ ، وقد أثنى اللهُ عزّ وجلّ على الذين يرتادونه للصّلاة فيه ، قال تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨][3] .

* وأحسب أنَّ الشُّموسَ بنتَ النعمان الأنصارية من أهل قباء ، لأنها ذكرت

---

(١) انظر: المغانم المطابة في معالم طابة للفيروز أبادي (ص ٣٢٩) (قسم المواضع) تحقيق: حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة ـ الرياض ـ السعودية ـ ط١ ـ ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق نفسه ، وانظر: الإصابة (٨/١٣).

(٣) «مسجد التّقوى»: هذا اللفظ إشارةٌ إلى مسجد قباء ، وهو كما ورد في الآية: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨] ، وهذا المسجدُ «مسجد قباء» هو أوّلُ مسجدٍ بُني في الإسلام ، بناهُ النّبيُ ﷺ والمهاجرون مع إخوانهم الأنصار في قريةِ قباء حين وصلَ إليها النّبيُ ﷺ قادماً من مكةَ المكرمةِ مهاجراً هو ومَنْ معه.
وتقع قباء على بُعْدِ ميلين من المدينة المنورة على يسارِ القاصدِ إلى مكة ، فيها آبار ومياه عذبة ، بُني هذا «المسجد الأول» وكانت قبلتُه يومئذٍ إلى بيتِ المقدس ، وهو المسجدُ الذي أُسّس على التّقوى ، أمّا اليوم فقد وُسِّعَ هذا المسجد وأضحى مسجداً كبيراً ، وجاء في فضائل هذا المسجد أحاديثُ كثيرة. ومن الجدير بالذّكْرِ أنَّ لفظ «مسجد» قد ورد مفرداً عشرين مرّةً في القرآن الكريم في عشر سور؛ وجاء بصيغة «مساجد» ستّ مرات. وجمع كلمة مسجد مساجد؛ والمساجد: مكان مُصَلّى الجماعة.

القصّة السّابقة عن بناء هذا المسجدِ المبارك في تاريخ الإسلام.

* ولا نملكُ معلوماتٍ أخرى عن المبايعةِ الشُّموس بنت النّعمان الأنصارية، فمعظم المصادر التي بين أيدينا لم تذكرْ عنها سوى البيعةِ، وبناء مسجد قباء.

* رضي الله عن المبايعةِ الصادقةِ الشّموس بنت النعمان، وأسكنَها فسيحَ الجنَان.

* * *

# الفصْل الرابعُ
# مِن المبايعاتِ في بيعةِ الرضوان

* بيعةُ الرضوانِ ذاتُ قَدْرٍ عظيمٍ في تاريخِ الإسلام ، جاء ذكرُهَا في القرآنِ الكريمِ والسّيرة العطرة ، ففي القرآنِ العظيم رضي اللهُ عن المبايعين بيعةَ الرضوانِ ، وفي السّيرة كانوا يومَها خيرَ أهلِ الأرض ، وأيضاً كانوا من النّاجين من النّار كما روى مسلم في صحيحه عن أم مبشّر الأنصاريّة أنّها سمعتْ رسولَ اللهِ ﷺ يقول عند حفصةَ : «لا يدخلُ النّار إنْ شاءَ اللهُ منْ أصحابِ الشّجرة أحدٌ»[1] .

* ويوم بيعةِ الرضوان بايعَ الصَّحابةُ رجالاً ونساءً النبي ﷺ على الموتِ وعلى ألا يفرّوا من وجْهِ الأعداءِ المشركين ، وعلى الصَّبر .

* وكانت هذه البيعةُ بحقّ بيعةَ صدقٍ لحمايةِ العقيدةِ والجهادِ في سبيلها ، لأنَّ قريشاً كانت قد احتجزتْ عثمانَ بنَ عفَّان رضي الله عنه ، وتطايرتِ الإشاعاتُ بأنّه قُتِلَ ، فثارتْ لهذه الشّائعات عزائمُ أهل الإيمان ، ودعا الحبيبُ الأعظم ﷺ أصحابَه إلى البيعةِ ، فبايعوه بيعةَ الرضوان تحت الشَّجرة؛ وتسامعت قريشٌ بالعزيمةِ النّبويةِ في البيعةِ الرِّضوانيةِ على مناجزتهم ، فَرُعبتْ وزُلزلت قلوبُهم وأقدامُهم فزعاً ، وهنا أطلقَ المشركون عثمانَ رضي الله عنه .

* وفي بيعةِ الرّضوانِ يقول اللهُ عزّ وجلّ في المبايعين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦).

عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ١٠].

* ويقول عزّ وجلّ في فضْل المبايعين هذه البيعةِ المباركة مُظهِراً فضْلَهم ومكانتهم : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨].

* وبهذه البيعةِ المباركةِ التي نالَ بها المسلمون والمسلماتِ رضوان الله أصبحوا على استعدادٍ لمناجزةِ قريش ، وجعل كلّ واحدٍ منهم يرقبُ أمْرَ النّبي ﷺ لينالَ الرّضا فيما بايعَه عليه.

* وكان عددُ المبايعين يوم بيعةِ الرضوانِ ألف وأربع مئة ومن بينهم بعضُ النّساء ومنهنّ نسيبةُ بنتُ كعب أمّ عمارة الأنصارية التي ترسمُ جانباً من جوانبِ تلك البيعة المباركة فتقول: «مرَّ بنا رسولُ اللهِ ﷺ يوماً في منزلنا ، فإذا هو قد بلغَه أنَّ عثمانَ بنَ عفّان رضي الله عنه قد قُتِل ، فجلسَ ﷺ في رحالنا ثم قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أمرني بالبيعة».

فأقبل الناسُ يبايعونه في رحالنا ، فكأنّي أنظرُ إلى المسلمين قد تلبّسوا السّلاح وهو معنا قليلٌ ، إنّما خرجْنا عُمّاراً.

فكان رسولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ يبايعُ النَّاس. . . . »(١).

* ولكنْ ما الشجرةُ(٢) التي بُويع النّبي ﷺ تحتها وما شأْنُها؟!

* والإجابة عن هذا السؤال نجده في الصَّحيحين من حديثِ طارقِ بن عبد الرحمن حيث أخرجَ البخاريُ بسنده عنه قال: «انطلقتُ حاجّاً فمررتُ بقومٍ يصلّون ، قلتُ: ما هذا المسجد؟

* قالوا: هذه الشّجرةُ حيثُ بايعَ رسول الله ﷺ بيعةَ الرضوان.

* فأتيتُ سعيدَ بنَ المسيب ، فأخبرتُه ، فقال سعيد: حدثني أبي أنّه كان

---

(١) المغازي (ص ٥٢٢) بشيء من التصرف.

(٢) ورد لفظ «الشجرة» بهذه الصيغة (١٨ مرة) في القرآن الكريم. والشّجرة التي بايع المسلمون تحتها هي «سَمُرة» ، والسَّمُرة: نوعٌ من شجر الطّلح ، وسّمي المبايعون بـ «أصحاب الشجرة» أو بـ «الشّجريين».

فيمن بايعَ رسولَ الله ﷺ تحت الشّجرة ، قال: فلما كان من العام المقبلِ نسيناها فلم نقدرْ عليها ، فقال سعيد: إنَّ أصحابَ محمدٍ ﷺ لم يعلموها ، وعلمتموها أنتم؟ فأنتمْ أعْلَمُ»[١].

* وخرجَ في الحديبيةِ عددٌ من النّساء ، خرجْنَ لأداءِ العمرة ، لكنَّ قريشاً حالتْ دون ذلك ، فكانت من بركاتِ غزوةِ الحديبيّة بيعة الرّضوان.

* ومن النّساءِ المذكوراتِ في البيعةِ الرِّضوانيةِ تحت الشَّجرة: سيّدتنا أمّ سلمة أمّ المؤمنين ، وأمّ عمارة ، وأمّ منيع ، وأمّ عامر الأشهلية ، وأمّ كُرْز الكعبية ، وأمّ المنذر بنت قيس ، وأمّ هشام بنتُ حارثة ، والرُّبيّع بنتُ معوذ ، والفريعةُ بنتُ مالك؛ ولا تكاد تسعفنا المصادر بغير أسماء هؤلاء إلا بعد البحث المضني[٢].

* وفي رأيي أنهنّ كُن أكثرَ من ذلك ، فقد كُنَّ حوالي عشرين امرأة ، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النّبيَّ ﷺ لما رجعَ من الحديبيَّة أقامَ شهراً وبعضَ شهرٍ ، ثم خرجَ إلى خيبر ، واستنفر مَنْ حولَه ممن شهدَ الحديبية يغزون معه ، وذلك كما أمرَ الله عزَّ وجلَّ وأرادَ بعضُ الأعرابِ الذين تخلّفُوا عن الحديبية أنْ يخرجوا معه فقال لهم: «لا تخرجوا معي إلا رغبةً في الجهاد ، أمّا الغنيمةُ فلا أعطيكم منها شيئاً».

* وذكر أصحابُ المغازي والسّيرة أنّ النّبي ﷺ رضَخَ للنّساء في غزوةِ خيبر وكُنَّ عشرين امرأة فيهنّ صفيةُ عمته ، وأمّ سليم ، وأمّ عطية الأنصارية[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤١٦٣) ، واللفظ له ، ومسلم برقم (١٨٥٩). وعلّق النّووي على أنّ الصّحابة قد خفيَ عليهم مكان الشّجرة في العام المقبل ونسوها فيقول: «قال العلماء: سببُ خفائها أنْ لا يفتتن النّاسُ بها ، لما جرى تحتها من الخير ، ونزول الرضوان والسّكينة ، وغير ذلك ، فلو بقيت ظاهرة معلومة لخيف تعظيم الأعراب والجهال إياها ، وعبادتهم لها ، فكان خفاؤها رحمة من الله تعالى».

(٢) مثلاً من المبايعات النَّوار بنت قيس بن الحارث.

(٣) السيرة الحلبية (٢/ ٧٧٠) بتصرف ، وانظر: المغازي (٢/ ٦٨٥) ، وقد ذكر الواقدي أسماء بعض من خرجْنَ إلى خيبر فقال: «وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة: أمُّ سلمةَ زوجتُه ، وصفيّةُ بنتُ عبد المطلب ، وأمُّ أيمن ، وسلمى امرأة أبي رافع مولاة =

* كما جاء في مصادرَ أخرى أسماء نساء أخريات منهنّ: سهلةُ بنتُ عاصم بن عدي وابنتها، وزينبُ بنتُ أبي معاوية الثقفية، وأمّ أيمن، وسلمى امرأة أبي رافع، ورفيدةُ الأسلمية، وأمّ مطاع الأسلمية، وأمُّ الضّحّاك بنت مسعود الحارثيَّة، وأمّ العلاء الأنصاريَّة، وهند بنتُ عمرو بن حرام، وأمّ سليط أميمة بنتُ قيس الغفاريَّة وأمّ رمثة، وأمّ زياد الأشجعيَّة، وامرأة عبد الله بن أُنَيس، ونساءٌ منْ غفار؛ والله أعلم.

* خرج هؤلاء النّساء جميعاً إلى مكّة من أجلِ العمرة، وهُنَّ بصحبةِ النّبيّ ﷺ، وكأنّ حالهنّ كما قال الشاعر:

والمؤمناتُ الصّالحاتُ كأنّما ... فيهنّ سارةُ والرضيةُ مريمُ
من كلّ أمٍّ برةٍ لم يلههـا ... بعلٌ ولم يغلبْ نوازعها ابنم[1]
المسلمونَ يبايعون نبيّهم ... يستَمْسِكُون بعروةٍ ما تُفصَمُ
اللهُ مولاهُمْ ونصْرُ رسولهِ ... حقٌّ عليهم في الكتَاب محتّمُ
نهضُوا خِفافاً لو رأيتَ جموعَهم ... لَعَلمتَ أي النَّاس إيماناً همُ
ما منهمُ إلاّ على يَده يَدٌ ... للهِ ينظرُ نورها المتوسِّمُ

* وكان للنّساء يوم الحديبيةِ ببيعةِ الرضوان أثرٌ محمود، ومنهنّ سيدتنا

= النّبيّ ﷺ، وامرأةُ عاصم بن عدي التي ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر، وأمُّ عمارة نُسيبةُ بنتُ كعب، وأمُّ منيع وهي أم شباث، وكعيبةُ بنت سعد الأسلمية، وأم مُتاع الأسلمية وأمُّ سُلَيم بنت ملحان، وأمُّ الضّحّاك بنت مسعود الحارثية، وهندُ بنت عمرو بن حزام، وأمُّ العلاءِ الأنصاريّةِ، وأمُّ عامر الأشهليّة، وأمُّ عطيّة الأنصاريّة، وأمُّ سَليط». [المغازي (٢/ ٦٨٥)].

فهؤلاء اللواتي ذكرهنّ الواقدي (١٧ امرأة)، ويمكن لنا أنْ نستخلصَ أسماء النّساء الثّلاث الباقيات من المغازي، إذ ذكرَ منهنّ من خلال حديثه عن غزاة خيبر: أميّة بنت قيس بنت أبي الصَّلْت الغِفارية، وذكر امرأة عبد الله بن أُنَيس، وأمّ سنان الأسلميّة.

وممّا يدلُّ على أنَّ عددَ النساء كانوا عشرين ما ذكرته أمّ عمارة من أنَّ المسلمين أصابوا خَرزاً في خيبر، فقالت: «أصابَ المسلمونَ خرزاً في حصن الصعب بن معاذ، فأمر النبي ﷺ بمنْ معه منَ النّساء فأحْصِينَ، فكنّا عشرين امرأة فقسم ذلك الخرز بيننا». (المغازي ٢/ ٦٨٨) بتصرف يسير.

(١) «ابنم»: ابن.

أمّ سلمة رضي الله عنها ، وأمّ عمارة ، وأمّ المنذر بنت قيس ، وأم كُرز الكعبية ، وغيرهنّ.

* وفي الصَّفحات التّاليات سنقرأُ سيرَ بعضهنَّ ، ونعرفُ دورهنّ في البيعةِ المباركةِ بإذن الله.

**أولاً: أمّ سلمة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها:**

* أمُّ سلمةَ أمُّ المؤمنين السيدةُ المحجّبةُ الطّاهرةُ ، هندُ بنتُ أبي أمية المخزوميّة ، من المهاجراتِ الأول ، تزوّجها النّبيُ ﷺ في سنةِ أربعٍ من الهجرة ، وكانت من أجملِ النساءِ وأشرفهنّ نَسَباً ، وكانت آخرُ مَنْ ماتَ من أمّهاتِ المؤمنين ، ولها أولادٌ صحابيون: عمرُ وسلمةُ وزينبُ ، عاشتْ نحواً من تسعين سنة ، وكانت تُعَدُّ من فقهاء الصَّحابيات ، ولها جملةُ أحاديث[1].

* وسيرةُ أمّ سلمة مشهورةٌ معروفةٌ ، وقد تكلمنا عن بعضِها في ثنايا هذا الكتاب ، وفي حديثِ الهجرة ، والذي يهمّنا في هذا الفَصْل أنّها كانتْ في غزوةِ الحُديبية وبايعتْ بيعةَ الرضوان ، وكان لها الأثر المحمود والرأي الميمون يومئذ.

* فقد كانت غزوةُ الحديبية في شَهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، وكان معهُ ﷺ ألف وأربع مئة؛ أو ألف وخمس مئة نفس بين فارسٍ وراجلٍ ، وخرجتْ معه زوجتُه المصونةُ سيّدتنا أمّ سلمة رضي الله عنها؛ وفزعت قريشٌ لنزولهِ ﷺ ، فأحبَّ أنْ يبعثَ إليهم أحدَ أصحابه ، ووقعَ اختيارهُ على صهرهِ النّجيبِ الحسيبِ عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وأرسله إلى قريش وأمرهُ أنْ يفهمَهم أنَّ المسلمين جاؤوا عُمّاراً ، ولم يجيؤوا لقتالٍ ، كما أوصاه أنْ يدعوهم إلى الإسلام.

* وامتثلَ عثمانُ الأمْر النَّبوي ، ووصلَ ودخلَ مكّة ، وبلَّغَ الرّسالةَ المحمَّديَّةَ؛ ولكنَّ قريشاً عزّ عليها ذلك الأمر ، واضطربَ حبلُها ، وبلغَ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٣) بتصرف.

رسول الله ﷺ أنَّ عثمان قد قُتِلَ ، هنالك دعا ﷺ أصحابَه إلى بيعةِ الرّضوان ، فاستجابوا وبايعوه تحت الشَّجرة ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

* ثم تبيّنَ أنَّ عثمان لم يُقْتَل ، وجرتْ مفاوضاتٌ بين المسلمين وقُريش تتوَّجَتْ بالصُّلح بينهما على شروطٍ منها: أنْ يضعوا الحربَ عشْر سنين ، وأنْ يأمنَ النّاسُ بعضهم بعضاً ، وأنْ يرجعَ المسلمون عن قريش عامَهم هذا فإذا كان العامُ القادمُ قدموا وخلّوا بينه وبين مكّة فأقام فيها ثلاثاً؛ وكان من شروط الصّلح أنَّ مَنْ أتى قريشاً من المسلمين لم يردّوه إليهم ، ومن أتى المسلمين من أصحابِهم ردّوه عليهم[١].

* ويومها قال بعضُ الصَّحابة ـ وقد رأوا أنّهم هُضِمُوا حقّهم في بعضِ هذه الشّروط ـ: «يا رسولَ اللهِ ، نعطيهم هذا»؟ فقال ﷺ: «مَنْ أتاهم منّا فأبعده اللهُ ، ومن أتانا منهم فردّدناه إليهم جعلَ اللهُ له فرجاً ومخرجاً».

* دخل الناسُ يومَها من هذه الشروط أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون؛ وفي غضونِ هذه الأحداث ظهرتْ أمُّ سلمة رضي الله عنها ، وكانت عاقلةً عالمةً فقيهةً ، لها معرفةٌ بِقَدْرِ النبي ﷺ وهَدْيِهِ ، فقد كانت مستمسكةً بقولِهِ وفعلِهِ ﷺ مع المستيْقنين من أكابرِ الصَّحابة وأعليائهم كأبي بكر الصّديق رضوان الله عليه؛ فكان موقفُها واضحاً من هذه القضيةِ التي أشكلَتْ على بعضِ المسلمين؛ وذلك أنّه حينما فرغَ النّبيُ ﷺ من قضيةِ الكتاب والشّروط ، توجَّه إلى أصحابه وقال لهم: «قومُوا فانحروا ، ثمّ احلقُوا».

---

(١) في هذا التَّصرّف النّبوي الحكيم نستطيعُ أنْ نستخلصَ جواز صلح الكفار على ردّ مَنْ جاء منهم من المسلمين إلا النساء ، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «ومنها: جواز صُلْحِ الكفّار على ردّ مَنْ جاء منهم إلى المسلمين ، وألا يُرد مَنْ ذهَبَ من المسلمين إليهم ، هذا في غير النساء ، وأمّا النساء فلا يجوز اشتراط رَدِّهنّ إلى الكفار». (زاد المعاد ٣/ ٣٠٨).
أقول: «أما المؤمناتُ المبايعاتُ المهاجراتُ ، فقد نزل القرآن الكريم يأمر المسلمين بعدم ردّهنَّ إلى المشركين».

قالت أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها: «فو اللهِ ما قامَ منهم رجلٌ واحدٌ، حتّى قال ثلاث مرات».

* ولما لمْ يقمْ أحدٌ منهم؛ قامَ ﷺ فدخلَ على زوجه أمّ سلمة رضي الله عنهما، وذكرَ لها ما لَقِيَ من النَّاس من عدمِ الاستجابةِ وخشيَ عليهم الهلاك. فقالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: «يا رسولَ اللهِ أتحبُّ ذلك؟ اخرجْ، ثمّ لا تكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تنحرَ بدنَكَ، وتدعوَ حالقَكَ فيحلقَكَ».

* كان في رأي أمّ سلمة ومشورتها البركةُ في هذا المضمار، فقد هزّتِ الصحابةُ هذه المشورة، وثابوا إلى الطَّاعةِ، وأفاقوا من دهشتِهم وحيرتهم، لأنَّهم كانوا كما ذكر عروةُ بنُ مسعود الثّقفي: لم ينحروا ويحلقُوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسولَ اللهِ ﷺ يفعلُ هذا بنفسه، فقام فخرجَ، فلمْ يكلّم أحداً منهم حتّى فعل ذلك؛ نحرَ بدنه، ودعَا حالقه فحلقَه؛ فلما رأى النّاسُ ذلك قاموا فنحروا وجعلَ بعضُهم يحلقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بعضهم غماً أنْ يُحال بينهم وبين عمرتهم[1].

* وفي الحقيقةِ كان هذا الرّأيُ الميمونُ من أمّنا أمّ سلمة يشيرُ إلى حصافتها

---

(١) البداية والنهاية (٤/١٧٦) بتصرف، وللحديث أصل في الصحيح والمسند وكتب السيرة ويتبين لنا من خلال هذه الحادثة دور المرأة المبايعة في الإسلام، وأثرها بالشّورى، فقد استشارَ النّبي ﷺ امرأته أم سلمة في أمرِ النّاس حين أصابهم الذهول والجمود أمام ما يجري، ولم يصغوا لأمرِهِ وامتثالِهِ بسرعةٍ كعادتهم، حيث كان أمَرَهُم بالمبادرةِ إلى النّحرِ والحلقِ، وهناك أشارت عليه أمّ سلمة بأمرٍ حكيم كان فيه معالجة صحيحة للموقف.
وهذا يدلُّ على أنَّ المرأةَ في الإسلام لها أن تبدي رأيها، وبما تراه مناسباً مثل الرِّجال من أجلِ المصلحةِ العامةِ، عسى أنْ يستفيدَ من ذلك الحاكمُ المسلمُ أو القائدُ أو مَنْ دونَه في المسؤولية.
قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشّورى: ٣٨]، وأخرج التّرمذيُ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أحداً أكثر مشورةً لأصحابهِ من النّبي ﷺ».
وجاء في السّيرةِ النّبويةِ الصّحيحة للعمري (٢/٤٤٧) قوله: «وفي الغزوة نماذجُ أخرى من تطبيقِ النّبي ﷺ لمبدأ الشّورى في الإسلام، حيث استشار المسلمين في الإغارةِ على ذراري المشركين، وأخذَ برأي الصّدّيق رضي الله عنه، واستشار أمّ سلمة في أمرِ النَّاسِ لما لم يبادروا بالنّحر والحلق حين أمرهم، وأخذ برأيهم».

وذكائِها ، فهي تعلمُ أنّه لا يمكن للصَّحابةِ مخالفة النَّبي ﷺ ولا أنْ يراجعوه في أمرٍ يقوم به؛ وبهذا حسمَتْ مشورتُها المباركةُ أمراً كاد المسلمون أنْ يهلكُوا فيه.

* ولأمّ سلمة رضي الله عنها مشاركاتٌ أخرى في المغازي النّبوية ، كما أنّها واحدةٌ من المكثراتِ لروايةِ الأحاديثِ النّبويّة حيث روي لها (٣٧٨ حديثاً) فهي من أصحابِ المئاتِ ، وثانية أمّهات المؤمنين في الرّوايةِ بعد عائشةَ رضي الله عنها ، كما كانت ممن يُرجَعُ إليها في الفُتيا من الصَّحابة.

* ومناقب أمّ سلمة رضي الله عنها لا تُحْصَرُ في هذا المجال ، وقد تكفّلتِ المصادرُ بذكرها وتسجيلها ، فقد كانت حياتها حياةَ علْم وجهادٍ ورواية.

* وتُعَدُّ سيدتنا أمّ سلمة من الصَّحابيات المعمّرات فقد عاشت نحواً من تسعين عاماً ، وهي آخرُ أمّهات المؤمنين وفاةً ، وكانت وفاتُها سنة إحدى وستين من الهجرة ، ودُفنت في البقيع.

* رضي الله عن أمّنا أمّ سلمة ، ونفعَنا بسيرتها ، وحشَرنا في معيّتها.

## ثانياً: أمُّ المنذر بنتُ قيس الأنصارية رضي الله عنها:

* في صحيفةِ المبايعاتِ نجدُ السيّدةَ أمَّ المنذر سلمى بنتَ قيس الأنصاريَّة النّجاريّة ممن حظينَ بشرفِ البيعةِ يوم الرّضوان تحت الشَّجرة ، وكانت قبلها قد بايعتِ النّبيّ ﷺ بعد الهجرةِ ، ولهذا وصفَها أبو نُعيم الأصبهاني بقوله: «ومنهنَّ المصليةُ للقبلتَيْن ، المحافظةُ على البيعَتيْن ، سلمى بنتُ قيس النّجارية»[١].

* قال ابنُ حجر: «سلمى بنتُ قيس الأنصاريَّة النّجاريَّة تكنى أمّ المنذر ، وهي أختُ سَليط بن قيس ، كانت ممن بايعتْ تحت الشّجرة وصلَّتِ القبلتين»[٢].

(١) تهذيب حلية الأولياء (١/ ٢٩٠) إعداد صالح الشامي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ٦١٦) طبعة دار الفكر ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

* وأمُّ المنذر من أسرةٍ طيِّبةِ المنبتِ ، طاهرةِ النّساء ، فقد أسلمَ مِنْ نساء هذه الأسرة أختان لأمّ المنذر وهما: أمُّ سُليم بنتُ قيس ، وعميرةُ بنتُ قيس ، وبايعتا رسولَ اللهِ ﷺ.

* كانت أمُّ المنذر قد بايعتِ النَّبيَّ ﷺ عند قدومهِ المدينةَ المنوّرةَ ، وقد أخرجَ الإمامُ أحمد حديثها في البيعة عنها ـ وكانت إحدى خالاتِ[1] رسولِ الله ﷺ ، وقد صلَّتْ معه القبلتَيْن ، وكانت إحدى نساء بني عديّ بن النّجّار ـ قالت: جئتُ رسولَ الله ﷺ فبايعتُه في نسوةٍ من الأنصار ، فلمّا شرطَ علينا أنْ لا نشركَ باللهِ شيئاً ، ولا نسرقَ ، ولا نزني ، ولا نقتلَ أولادنا ، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروفٍ؛ قال: «ولا تغشّشْنَ أزواجكنَّ». قالت: فبايعناه ، ثمّ انصرفنا؛ فقلتُ لامرأةٍ منهنَّ: ارجعي فَسَلِي رسولَ اللهِ ﷺ: ما غشّ أزواجنا؟

قالت: فسألتُه قال: «تأخذُ ماله فتحابي به غيره»[2].

* أما البيعةُ الثانيةُ لأمّ المنذر ، فكانتْ تحتَ الشَّجَرَةِ في الحديبيةِ ، إذ بايعَ الصَّحابةُ النّبي ﷺ بيعةَ الرضوان ، وكانتْ في السَّنةِ السَّادسةِ من الهجرة ، وفازت أمُّ المنذر برضا اللهِ عنها إذ بايعتْ تحتَ الشَّجرة ، ولهذا سمّيت أمّ المنذر مبايعةَ البيعَتَيْن.

* وكان لأمّ المنذر مواقفُ أخرى في عددٍ من الغزواتِ بمعيّةِ رسولِ الله ﷺ ، ففي غزوةِ بني قريظة وهبَ لها النّبيّ ﷺ رفاعةَ بنَ سَمَوْءل خال صفيّة بنت حيي أمّ المؤمنين ، فأسلمَ رفاعة ، لأنّه كان يلوذُ بأمِّ المنذر.

---

(١) كان سيّدنا رسول الله ﷺ يقولُ عن بني النّجار الأنصار الخزرجيين: إنّهم أخواله؛ لأنَّ سلمى أمّ جده عبد المطلب كانت منهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٣٨٠) ومعنى قوله ﷺ «تحابي به غيره»: أي تعطيهِ إيّاه وتسامحه إرادة الميلان إليها. يقال: حبَى فلاناً: أعطاه بلا جزاء ولا مَنّ أو من عام. وحاباه محاباة وحباء: نصرهُ واختصّهُ ومالَ إليه.

* وفي تلك الغزوة أيضاً أعرسَ النَّبيُّ ﷺ بريحانةَ بنتِ زيد في بيتِ أمّ المنذر[1].

* وفي مجالاتٍ أخرى كان لأمّ المنذر رضي الله عنها نصيبٌ من الزّيارات النّبوية لها، فقد كان النّبيّ ﷺ يزورها ويأكلُ عندها، وثبتَ أنّه ﷺ زارَها ومعه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، وأكلا عندها.

* أخرج أبو داود وغيره عن أُمِّ المنذر بنتِ قيس الأنصاري قالت: «دَخَلَ عليّ رسولُ اللهِ ﷺ ومعه عليّ، وعليٌّ ناقِه، ولنا دَوَالٍ معلّقة، فقام رسولُ اللهِ ﷺ يأكلُ منها، وقام عليّ ليأكلَ، فطفقَ رسولُ اللهِ ﷺ يقول لعليّ: «مَهْ إنّك ناقِهٌ» حتى كَفَّ عليّ.

قالت: وصنعتُ شعيراً وسلْقاً، فجئتُ به، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا علي أصبْ من هذا فهو أنفعُ لكَ»[2].

* وتُعدُّ أمّ المنذر من رواياتِ الحديثِ النّبوي أيضاً روى عنها عددٌ من المشاهير، ومناقبُها كثيرة.

* رضي الله عن المبايعةِ الوفيةِ أمّ المنذر، وأحسنَ نزلَها إنّه سميع مجيب.

**ثالثاً: أمُّ هشام بنتُ حارثةَ الأنصارية رضي الله عنها:**

* كُنَّ خمسَ أخواتٍ كَتَب الله لهنَّ الإسلام فأسلمْنَ وبايعنَ رسولَ اللهِ ﷺ عند مَقْدَمهِ إلى المدينةِ المنورةِ، بينما صحبَتْه واحدةٌ منهنّ إلى الحديبيةِ وبايعَتْ بيعةَ الرضوان.

* هؤلاء المسلماتُ المبايعاتُ هُنَّ: سودةُ وعمرةُ وأمُّ كلثوم وأمةُ الله

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٩ و١٣٠). واقرأ سيرة «ريحانة» بتوسُّعٍ في موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» تجدْ خيراً كثيراً ومعلوماتٍ وافيةً بإذن الله عز وجل.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٥) في الطب. ومعنى «ناقِه»: متماثلٌ إلى الشّفاء. و«السِّلق»: نبات يؤكل.

وأمُّ هشام[1] بناتُ حارثةَ بنِ النّعمان الأنصاري رضي الله عنهم أجمعين.

* كان حارثةُ من النّجباءِ الكرماءِ الأجوادِ، فكُلَّما أحدثَ النّبي ﷺ أهلاً، وهَبَ له حارثةُ منزلاً بعدَ منزلٍ، وكان حارثةُ أوّل مَنْ وهَبَ للنّبي ﷺ خُطَطَه ومنازلَه في المدينةِ المنورةِ.

* وهذا يعني أنَّ حارثةَ وبناتِهِ وأهلَه كانوا في الجوارِ النّبوي المبارك، وكانتِ المعيَّةُ النَّبويةُ والحارثيَّةُ واحدةً في بعض السَّنوات، إذ كان البيتان: النّبوي والحارثي يخبِزَان في تنُّور واحد.

* قالت أمُّ هشام في توضيح هذه المعيّةِ المباركة: «كان رسولُ الله ﷺ معنا، وإنَّ تنّورَنَا وتنُّورَه واحدٌ سنةً أو بعضَ سنَةٍ»[2].

* ومعنى قول أمّ هشام بأنَّ تنّورهم وتنّور النّبيّ ﷺ واحدٌ، يشيرُ إلى معرفتها بأحوالِ الشَّريفة، وقربها من منزله.

* وهذا القربُ من منزلهِ الشّريفِ ﷺ جعلَ أمَّ هشام تحفظُ كثيراً عن النّبي ﷺ، وخصوصاً ما كان يخطبُ به مِنْ علىٰ المنبر، فقد حفظتْ سورة ﴿قٓ﴾ من فمهِ الشّريفِ، فقد أخرجَ مسلمٌ بسنده عنها أنّها قالت: «ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا عن لسانِ رسولِ الله ﷺ، يقرؤوها كلّ يوم جُمعة على المنبر، إذا خطبَ النّاس»[3].

* وأضافت أمُّ هشام إلى حفظِ القرآنِ الكريمِ روايةَ الحديثِ النّبويِ الشّريفِ، ثم الصّحبة النّبوية إلى ساحاتِ الجهاد، فقد كانتْ من عدادِ الجيشِ المتوجّه إلى الحديبيةِ وعددُهُ قرابة ألف وأربع مئة مسلم ومسلمة.

* وعندما حصلت المبايعة تحت الشجرة بايعت أم هشام مع المبايعين وفازت بلقب: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨]، فالرضا هو الغاية العظمىٰ التي يطمح لها كل مسلم ومسلمة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٤٢). و«التّنوّر»: اسمٌ لموقدِ النّار للخبز؛ معروف عند الناس.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٧٣).

* وفي ديوان الشَّجريين سجّلَتِ المصادر[1] أمَّ حارثة ممن بايعْنَ وبُشّرنَ بالجنّة وبأنّهنّ من خيرِ أهلِ الأرض يومئذ.

* ولا نعلمُ متى توفيتِ السّيدةُ أمّ هشام بنت حارثة ، إذ لم تتحدثِ المصادرُ عن ذلك ، ولكنّا نعلمُ أنّها تركت في دنيا المبايعاتِ أثراً حميداً وذكْراً طيباً وقدوةً صالحة[2] لكلّ النّساء في كلِّ العصورِ فرضي الله عنها وأرضاها.

**رابعاً: الفريعةُ بنتُ مالك الأنصارية رضي الله عنها:**

* فريعةُ بنتُ مالك بن سِنَان الخُدريّة الأنصاريّة أختُ أبي سعيد الخُدري ، شهدتْ بيعةَ الرّضوانِ ، وبايعتْ يومئذٍ وحظيت بالرّضوان من الكريمِ المنّان.

* في غزوةِ أحد حظيَ أبوها مالكُ بنُ سِنان بالشّهادة ، وقال النّبي ﷺ في حقّه مبشّراً إيّاه بأنّه من أهلِ الجنّة: «مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ من أهلِ الجنّة فينظرْ إلى هذا»[3] وأشارَ إلى مالكِ بنِ سِنان رضي الله عنه.

* والسّبب في هذا الحديثِ أنَّ النّبيَّ ﷺ لما جُرِحَ في أحدٍ ، امتصَّ مالكُ بنُ سنان الخدري دمَ رسولِ الله ﷺ ثمَّ ازدرده ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «من مسَّ دمي دمَه لم تصبْه النّار»[4]. وفي رواية: «مَنْ سرّهُ أنْ ينظرَ إلى مَنْ لا تمسّه النّار فلينظرْ إلى مالك بن سنان»[3].

* وعاشت ابنةُ الشّهيد في المدينةِ محافظةً على أمورِ دينها ، تستفيدُ مما يصلُ إليها من العلْمِ والفقْهِ والتّوجيهات النّبوية.

* ففي يومٍ من الأيامِ أصابَ الفريعةَ وأسرتَها جُوعٌ شديدٌ أقضَّ مضاجعَهم

---

(١) قال ابنُ الأثير: «أمّ هشام بنتُ حارثة بايعتْ بيعةَ الرضوان» (أسد الغابة ٧/ ٣٩٢).

(٢) من ذلك حفظها القرآن الكريم من فمِ رسولِ الله ﷺ ومعرفتها أحواله الشّريفة ، وهذا يمكن أنْ تستفيدَ منه نساؤنا هذه الأيام في الاستماعِ للقرآنِ الكريم بالوسائلِ المتعددة المتنوعةِ والسّهلة ، ودراسة السّيرة النبوية.

(٣) السّيرة الحلبية (٢/ ٥١٥).

(٤) المصدر السابق نفسه. واقرأ سيرة مالك بن سنان في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنّة» طبعة دار ابن كثير الرابعة بدمشق.

وأَجْهد نفوسهم وأجسامهم ، وأشارتِ الفريعةُ إلى أخيها أبي سعيد وقالت له: «يا أبا سعيد ، اذهبْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فسَلْهُ لنا ، فو اللهِ لا يُخيِّبُ سائله ، لأنّك منه بإحدى اثنتين: إمّا أنْ يكون عنده فيعطيكَ ، وإما أنْ لا يكون عنده فيقول: أعينوا أخاكم».

* وذهبَ أبو سعيد ، فلمّا اقتربَ من المسجدِ النّبويّ سمعَ صوتَ رسولِ الله ﷺ يخطبُ فيقولُ: «مَنْ يستَغْنِ يُغْنِهِ الله» فرجعَ ولمْ يسألْ شيئاً بعد أنْ سمعَ تلك النّصيحة النّبوية.

* رجعَ أبو سعيد ، وكانت أختُه فُريعة تنتظرُ وقد أرهقَها الجوعُ ، فلما بَصُرَتْ بأخيها وليسَ معه شيءٌ ، قالت: «مالكَ يا أخي؟ فو اللهِ ما يخيبُ سائلُ رسول الله ﷺ».

* وأخبر أبو سعيد الفريعة بما سمعَ من خطبتِهِ ﷺ في المسجدِ النّبوي عن طلبِ السّؤال من الله عزَّ وجلَّ ، فاستحسنتِ الفريعةُ تصرّف أخيها ، حيث عادَ ولم يسألْهُ ﷺ وقالت له: «أحسنتَ يا أخي».

* وصَبَرا صبراً جميلاً ، وفي اليوم التّالي وجدَ أبو سعيد دراهمَ يهود ، فابتاعَ بها وأكلوا ، وعلمَ ﷺ بذلك ، فما زالَ يحسنُ إلى أبي سعيد[1].

* ولهذه السّيدةُ فريعةُ بنتُ مالك مواقفُ مشهودةٌ في السّيرةِ النّبويةِ ، فقد كُتِبَتْ في عدادِ المجاهدين المبايعين بيعةَ الرضوان ، وفازتْ بالفوزِ العظيم ، قال النّووي «شهدتِ الفريعةُ بيعةَ الرّضوان مع رسولِ الله ﷺ»[2].

* وكانت السيدةُ فريعةُ ممن روى الحديثَ النّبوي عن النبي ﷺ ، إذ روتْ ثمانيةَ أحاديث ، وروت عنها التابعيةُ زينبُ بنتُ كعب بن عُجرة حديثَها المشهور في سكْنَى المتوفى عنها زوجها في بيتها حتى يبلغَ الكتابُ أجله.

* وقصّةُ هذا الحديث معروفةٌ مشهورةٌ ، فقد كانت متزوجةً من سهلِ بن رافع الخزرجيّ ، فخرجَ مرّةً في طلب عبيدٍ له ، فغدروا به وقتلُوهُ بطرفِ القَدومِ

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٩٠ و٢٩١) بشيء من التصرف.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (ص ٦١٨) طبعة دار الفكر.

قُربَ المدينةِ ، وجاء نعْيهُ إلى الفريعةِ فوقعتْ في حيرةٍ من أمرها إذ إنّ زوجَها لم يتركْ لها شيئاً ، تقولُ الفريعةُ: «فسألتُ رسولَ الله ﷺ أن أرجعَ إلى أهلي ، فإنَّ زوجي لم يتركني في مسكنٍ يملكُهُ ولا نَفَقَه». أجابَها النّبيّ ﷺ وقال: «نعم». وخرجتِ الفريعةُ حتى إذا كانت في المسجدِ ، دعاهَا ، وسألَها: «كيف قُلتِ»؟ فأعادتْ عليهِ القصّة من أولها وذكرتْ له شأْنَ زوجها سهل بن رافع. وهنا قال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «امكثي في بيتكِ حتى يبلغَ الكتابُ أجَله». وأذعنتِ الفريعةُ للأمرِ النّبوي وقالت: «فاعتددتُ في بيتي أربعةَ أشهرٍ وعشْراً»[(١)].

* وعندما تولّى سيدنا عثمانُ الخلافةَ ، أرسلَ إلى السّيدةِ فُريعةَ بنتِ مالك ، وسألَها عن الحكم النّبوي في قصّتها ، فأخبرتْهُ ، فاتّبعه وقضى به بينَ المسلمين.

* هذه شذراتٌ من حياةِ هذه المبايعةِ الكريمةِ الفُريعةِ بنتِ مالكٍ الأنصارية ، ويظهرُ أنّها عاشت إلى نهايةِ الخلافةِ الراشدةِ لأنّها التقت عثمان بنَ عفان رضي الله عنه وروتْ له حديثَها. والله أعلم.

**خامساً: أسماءُ بنتُ يزيد الأنصارية رضي الله عنها:**

* من بين نساءِ الأنصار تبرزُ السّيّدةُ أسماءُ بنت يزيد الأنصاريّة لتسجّل سبقاً ميموناً في البيعةِ النّبوية؛ فقد ذهبتْ مع أمّ سعد بن معاذ ، ومع أختها حوّاء إلى النّبي ﷺ عند مقدمهِ المدينةِ ، فبايعْنَه بيعةَ الإسلام ، وحظينَ بالسَّبْقِ المحمودِ الذي جعل أسماء تفتخر قائلة: «إنا أولُ مَنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ»[(٢)].

* بايعت أسماءُ بنتُ يزيد بيعةَ الإخلاصِ والصّدقِ ، والزّهدِ في الدنيا ومتاعِها ، فالبيعةُ ليستْ كلاماً باللسانِ ، وإنّما هي عملٌ بالجوارحِ ، وتطبيقٌ لأمرِ اللهِ ، وتَخلٍّ عن كلّ مالَهُ علاقة بزخارفِ الدنيا غير المجديةِ ولا النّافعة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٧٠ و٤٢١) ، ومن الجدير بالذكر أنّ السيدةَ فريعةَ بنتَ مالك لما انقضتْ عدتها تزوّجها سهلُ بنُ بشير الأنصاري.
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢).

* ومنذُ اللحظاتِ الأولى لبيعةِ أسماء تظهرُ همّتها العظيمة ، ويظهر تُقاها . تقولُ أسماء: «أتيتُ النَّبي ﷺ لأبايعه ، فدنوتُ منه ، وعليَّ سواران من ذهبٍ ، فبصرَ بصيصَهما ، فقال: «ألقي السِّوارين يا أسماء ، أمَا تخافين أنْ يسوّركِ اللهُ بأساورَ من نارٍ؟!» .

قالت : «فألْقَيتُهما فما أدري مَنْ أخذهما»[1] .

* وحُقَّ لأبي نعيم الأصبهاني أنْ يصفَها بقوله: «أسماءُ بنتُ يزيد بن السّكن؛ النَّابذةُ لما يُورثُ الغرور والفتن»[2] .

* وكانت أسماءُ ذاتَ صفاتٍ قلّما تجتمعُ في امرأةٍ ، ومن هذه الصِّفات: الدِّينُ ، الفصاحةُ ، العقْلُ ، الصّدقُ ، الجهادُ. . . وقد وصفَها ابن عبد البر في «الاستيعاب» بقولهِ: «أسماءُ بنتُ يزيد. . . كانت من ذواتِ العقْل والدِّين» .

وقال عنها الذّهبيّ: «من المبايعاتِ المجاهداتِ. . . حضرت بيعةَ الرِّضوانِ وبايعتْ يومئذ» .

* ولأسماءَ أكثرُ من كنيةٍ عُرفت بها ، فقد كانت تكنى أمّ عامر وأمّ سَلَمة ، وقد أشارَ الحافظُ ابن حجر إلى ذلك فقال: «أسماءُ بنتُ يزيد بن السكن. . . الأنصاري الأشهلية ، أمّ سلمة ، ويقال أمّ عامر ، بايعتْ النّبي ﷺ وشهدت اليرموك»[3] .

* وقال ابنُ عساكر : «أسماءُ بنتُ يزيد، ويُقال: فكيهةُ بنتُ يزيد، أمّ عامر ، ويقال: أمّ سلمة الأنصارية الأشهلية ، لها صحبةٌ ، روتْ عن النَّبي ﷺ أحاديثَ صالحة ، وأسماءُ مِنَ اللاتي بايعنَ رسولَ الله ﷺ ، وشهدت معه بعضَ المشاهد ، وشهدت الفَتْح ، وشهدت اليرموك»[4] .

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٧٢).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٥٣).
(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ٣٣ ـ ٣٥) باختصار.

* وكانت السيدةُ أسماء جريئةَ القلبِ ، فصيحةَ اللسانِ ، بليغةَ المقالِ ، حتى عرفت بلقب: «خطيبة النّساء».

* ذكرت المصادر أنّها تكلّمت أمامَ النّبيّ ﷺ وأمامَ أصحابه بِكلامٍ يدلُّ على بلاغتها ، تقولُ المصادر بأنّها جاءت إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو جالسٌ بين أصحابه في المسجدِ فقالت: «بأبي وأمي أنتَ يا رسولَ اللهِ ، إنّي رسولُ مَنْ ورائي مِنَ جماعةِ نساءِ المسلمين ، كلّهنّ يقلْنَ قولي ، وعلى مثْلِ رأيي. إنَّ اللهَ تعالى بعثَكَ إلى الرّجالِ والنّساءِ ، فآمنّا بكَ واتبعناك ، ونحنُ معاشرَ النّساءِ مقصوراتٌ مخدراتٌ قواعدُ بيوت ، ومواضعُ شهوات الرّجال ، وحاملاتُ أولادهم ، وإنَّ الرّجالَ فُضّلُوا بالجُمعَةِ والجماعات ، وشهودِ الجنائزِ والجهادِ في سبيلِ الله ، وإذا خرجوا إلى الجهادِ حفظنا لهم أموالَهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجرْ يا رسولَ اللهِ؟».

فالتفتَ رسولُ اللهِ ﷺ بوجههِ إلى أصحابهِ فقال: «هل سمعتُم مقالةَ امرأةٍ أحسنُ سؤالاً عن دينها منْ هذه؟» فقالوا: «ما ظنّنا أنَّ امرأةً تهتدي إلى ذلك».

فالتفتَ ﷺ وقال لها: «انصرفي يا أسماءُ ، وأَعْلمي مَنْ وراءكِ منَ النساءِ أنَّ حُسْنَ تبعّلِ إحداكنّ لزوجِها وطلبها لمرضاته ، واتّباعها لموافقته ، يعدلُ كلّ ما ذكَرتِ للرّجال». فانصرفتْ أسماءُ وهي تهللُ وتكبّرُ استبشاراً وسروراً بما قال لها النّبيّ ﷺ[1].

* ومن خلالِ هذا التّوجيه النّبوي لأسماء إلى حسْنِ التّبعُّل ومداراةِ الزّوج وطاعته نجدُ توجيهاً نبوياً آخر لجماعةٍ من النساء كانت أسماءُ برفقتهنّ.

* روت أسماء قالت: «مرَّ بي النَّبيّ ﷺ وأنا في جَوَارٍ أترابٍ لي ، فسلّمَ علينا ، وقال: «إياكُنَّ وكفْرَ المنعمين».

---

(١) انظر: أسد الغابة (٧/ ١٧ و١٨) ، والاستبصار (ص ٢١٨ و٢١٩) مع الجمع والتصرف اليسير. ومعنى «حسن التبعل»: حسن الطاعة ، وتبعلت المرأة للزوج: تزينت ، وامرأة حسنة التبعل: إذا كان مطاوعة لزوجها.

وكنتُ من أجرئهنّ على مسألتِهِ فقلتُ: «يا رسولَ اللهِ، وما كفرانُ المنعمين»؟

قال: «لعلَّ إحداكنَّ تطولُ أيمتها بينَ أبويها، ثم يرزقُها الله زوجاً، ويرزقُها منه ولداً، فتغضبُ، فتكفرُ، فتقول: ما رأيتُ منكَ خيراً قط»[1].

* وكانت السيدةُ أسماء شديدةَ القربِ من البيتِ النّبوي، فهي التي زيّنَتْ عائشةَ أمّ المؤمنين يوم زفافها وكانت تُدعى: أسماء عائشة، أو أسماء مقيّنة عائشة.

* ذكرَتْ أسماءُ هذا فقالت: «إنّي قيّنتُ ـ زيّنْتُ ـ عائشةَ رضي الله عنها لرسولِ الله ﷺ، ثم جئتُه فدعوتُه لجلوتِها، فجاءَ فجلسَ إلى جانبها، فأُتي بقدحِ لبنٍ فشربَ، ثمّ ناولها، فخفضتْ رأْسَها واستحيَتْ، فانتهرتُها وقُلت لها: خُذي من يدِ النّبي ﷺ. فأخذتْ فشربتْ شيئاً، ثمّ قال لها النّبي ﷺ: «أعطي تربَك» فقلتُ: يا رسولَ الله، بل خذْهُ فاشربْ منه، ثم ناولنيهِ منْ يدكَ، فأخذه فشربَ منه ثم ناولنيه، فجلستُ ثم وضعتُه على ركبتي، ثم طفقتُ أديرهُ، وأتبعُه بشفتي لأصيبَ منه مشْربَ النّبي ﷺ»[2].

* وذات مرّةٍ كان رسولُ اللهِ ﷺ في مسجدِ بني عبد الأشهل وقد صلّى المغرب، فرأته أسماءَ هناك، فاغتنَمتْها فرصةً، وأحبّتْ أنْ تجودَ بالطّعام وتكرمَه، فجاءت بلحمٍ وأرغفةٍ، ثم قالتْ للنّبي ﷺ: «يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأمّي تَعَشَّ». وكانَ مع النّبي ﷺ أصحابه، فقال لهم: كلُوا باسمِ الله» فأكلَ هو وأصحابُه الذين جاؤوا معه، ومَنْ كان حاضراً من أهلِ الدار، وكانوا قرابةَ أربعين رجلاً، وباركَ اللهُ في الطّعام فلمْ ينقصْ، ثمّ إنّه شربَ من قِربةٍ كانت لأسماء، ثمّ انصرفَ، فأخذتْ أسماءُ تلك القربة ـ وكانت من جلْد ـ فدهنَتْ موضعَ فمه الشّريف ورفعتْها، فكانت بعد ذلك تسقي منها المريضَ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٧).
(٢) الفتح الرباني (٢١/١٦) بشيء من التصرف. وتقصد بقولها «لأصيبَ منه مشرب النبي ﷺ»: أي حتى تتبركَ بموضعِ شربهِ ﷺ.

وتشربُ هي وأهلُها منه رجاءَ البركة[1].

* ولأسماء مواقفُ أخرى مع رسولِ الله ﷺ ومن أبرزِ هذه المواقف مشاركتُها في الجهاد، حيث شاركت في غزوةِ الخندق، وبايعتْ مع المبايعين بيعةَ الرِّضوان في الحديبيةِ، ثم بعدها خرجَتْ إلى خيبرَ مع عشرين امرأةٍ من الصّحابيات ممن شهدنَ بيعةَ الرِّضوان، خرجنَ ابتغاءَ الأجْرِ والمثوبة:

خرجْنَ مِنَ الخُدورِ مُهَاجِراتٍ ... فَلا دَعَةٌ ولا ظِلٌّ ظَلِيْلُ
يَسِرْنَ مع النّبي على سَوَاءٍ ... ولا هَادٍ سِوَاهُ ولا دَليلُ
يُرِدْنَ اللهَ لا يَبْغِينَ دُنيا ... كثيرُ متاعِها نَزْرٌ قليلُ
عَقَائلُ في حمَى الإسلامِ يسمو ... بِهِنَّ من العُلَى فَرعٌ طويلُ
يجرِّدْنَ النُّفوسَ مُجاهداتٍ ... بحيثُ يُجرِّدُ العَضْبُ الصَّقيلُ
فلا ضَعْفٌ يعوقُ ولا لُغُوبٌ ... ولا وَلَدٌ يشوقُ ولا حليلُ
نِسَاءُ الصّدقِ ما فيهنَّ عيبٌ ... وليس لَهُنَّ في الدنيا مثيلُ[2]

* وبعد وفاةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ لم تتركِ السّيّدةُ أسماءَ الجهاد، بل توجَّهت مع الفاتحين إلى الشّام، واشتركت في معركةِ اليرموكِ، وأبدعَتْ يومَها، فَقَتَلَتْ من الرّومِ تسعةَ أنفارٍ بعمودِ فسطاط خيمتها[3].

* وظلت أسماءُ وفيةً لِبيعَتِها، ويظهرُ أنّها ظلت مع المرابطين المجاهدين في الشَّام، إلى دولةِ بني أمية.

* ويظهرُ أيضاً أنَّ هذه الصّحابية من المعمَّرات، إذ عاشتْ بعد اليرموك أكثرَ من نصفِ قرن من الزَّمان، وقد ذكر الإمامُ الذهبي أنَّ أسماءَ هذه قد سكَنَتْ دمشق فقال: «أسماءُ بنتُ يزيد أمّ عامر، وأمّ سلمة، قتلتْ بعمودِ

---

(1) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٣١٩ و٣٢٠) بشيء من التصرف.
(2) ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٣٢٩) بانتقاء، ومعنى: «ظل ظليل»: الدعة والراحة وخفض العيش. ومعنى «العضب الصقيل»: السيف القاطع المصقول، ومعنى: «اللغوب»: التعب والإعياء، و«حليل»: الزوج.
(3) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٦).

خبائِها يوم اليرموك تسعةً من الروم ، سكنَتْ دمشق ، وقبرُ أمّ سلمة الذي بمقبرةِ البابِ الصّغير هو قبرها إن شاءَ الله ، عاشتْ إلى دولةِ يزيد بن معاوية»[1] .

* وتُعَدُّ السّيّدةُ أسماءُ من نساءِ الأنصار المبايعات اللواتي أكثرنَ من روايةِ الحديثِ فهي تُذكَرُ مع أصحابِ العشرات إذ روي لها (٨١ حديثاً)[2] ، ولعلّ مردَّ ذلك إلى كثرةِ دخولها البيتَ النبوي الطّاهر ، وإلى صِلَتِها بأمّهاتِ المؤمنين ، يُضاف إلى ذلك أنّها كانت تخدمُ رسولَ الله ﷺ ، وهذا مما زاد في رصيدها العلمي والفقهي ، فرضي الله عن أسماء بنت يزيد ، وجعلَها في مستقرّ رحمته .

## سادساً: الرُّبيِّع بنت معوِّذ الأنصارية رضي الله عنها:

* كانت السيدةُ الرُّبيِّعُ بنةُ معوِّذ الأنصارية النّجارية من المبايعاتِ تحتَ الشّجرة ، وكانت تغزو مع رسولِ الله ﷺ فتداوي الجرحى ، وتردُّ القَتْلى إلى المدينةِ ، فأبوها من فُرسانِ المدرسةِ المحمديةِ وأحدِ المبايعين لرسولِ الله ﷺ ، وأحدِ الذين اشتركوا في قَتْل أبي جهل[3] لعنه الله وأخزاه. فالرُّبيّعُ إذن هي غصنٌ من دوحةٍ زاهيةٍ زاكيةٍ ، أصلُها ثابت في منابتِ الإسلام ، وفروعُها متطاولةٌ في السَّماء.

* كانت الرُّبيّع جاريةً صغيرةَ السّنّ عندما هاجرَ النّبيُ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرةِ ، ولعلَّها كانت مع جُويريات من بني النّجّار اللواتي كُنَّ في استقبال الحبيبِ الأعظمِ سيّدنا محمّدٍ ﷺ وهنّ يقلْنَ منشدات مغتبطات :

نحـنُ جَـوارٍ مـنْ بنـي النَّجّـار     يـا حبَّـذا محمّـدٌ مـنْ جَـارِ

* فخرجَ إليهنّ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وقال لهنّ : «أتحببني»؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٩٦ و٢٩٧) بتصرف يسير ، وتوفي يزيد بن معاوية في (١٤ ربيع الأول) عام (٦٤هـ) ومعنى هذا أن أسماء عاشت إلى ذلك الوقت.

(٢) جوامع السّيرة النّبويّة (ص ٢٧٨).

(٣) قال الذهبيّ: «وأبوها من كبار البدريّين ، قتل أبا جهل» (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٨).

قلْنَ في براءةِ الصَّادقين: «نعَمْ يا رسولَ الله نحبُّك».

فقال ﷺ: «اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي يحبكنّ» وفي رواية: «واللهِ أحبّكم» وفي رواية أخرى: «وأنا والله أحبّكم» قالَها ثلاثاً[1].

* وكان رسولُ الله ﷺ نازلاً في بني النّجّار الأخيار الذين شرفُوا بهذا النّزول إلى آخر الدهر، ولله درّ الإمام السّبكي إذ يقول في تائيته:

نــزلْـتَ علـى قَـومٍ بـأيْمـنَ طـائـرٍ ... لأنّــكَ ميمــونُ السَّنَــا والنَّقيبــةِ
فَيــالبنــي النَّجّــارِ مــن شَـرفٍ بـهِ ... يجـرُّونَ أذيـالَ المعَـالـي الشَّـريفـةِ

* والرُّبيِّعُ بنتُ معوّذُ من صغارِ الصَّحابياتِ ولكنْ كما قال الذّهبيّ: «لها صحبةٌ ورواية»[2] كما أنَّ للسيدة الرّبيّع هذه مناقبُ تختصُّ بها عن غيرها من ذلك أنَّ النّبيَّ ﷺ زارَها صبيحةَ عرسِها.

* أخرج البخاريُ بسنده إلى خالد بن ذكوان قال: قالتِ الرّبيّعُ بنتُ معوذ بن عفراء: «جاءَ النّبي ﷺ فدخلَ حين بُني عليَّ، فجلَسَ على فراشي كمجلسِكَ مني، فجعلتْ جويرياتٌ لنا، يضربْنَ بالدُّف، ويندبْن مَنْ قُتِلَ مِنْ آبائي يوم بدر، إذ قالتْ إحداهنّ: وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غَد. فقالَ ﷺ: «دعي هذهِ، وقولي بالذي كنتِ تقولين»[3].

* ومما يُضاف إلى رصيدِ الرُّبيّع بنت معوّذ أنَّ النّبيّ ﷺ أعطاهَا حليّاً من البحرين وأمرها أنْ تتحلّى به، فقد وردَ ما يدلُّ على حفاوةِ النّبي ﷺ بالرّبيّع من أنّها أتتِ النّبي ﷺ بوعاءٍ منْ رطَبٍ، وآخر من عنب أو قثّاء، فناولها حلياً أو ذهباً وقال لها: «تحلَّي بهذا»[4].

* وبهذا نالت السّيدةُ الرّبيّـع رضي الله عنها قدراً وتشريفـاً وحفـاوةً من

---

(١) السّيرة الحلبيّة (٢/ ٢٤٦) بتصرف. ولعل عميرة بنت معوذ أخت الربيع كانت مع الجواري اللاتي رحّبن بمقدم النّبيّ ﷺ عند هجرته.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٧).
(٤) الاستيعاب (١٢/ ٣١٥) بتصرف يسير.

النّبيّ ﷺ ، ولعلَّ هذا التّشريفَ النبويَ لهذه المبايعة جعلَ موسى بن هارون الحمّال يقول عنها : «الرُّبيّعُ بنتُ معوذ بن عفراء قد صَحِبتِ النّبي ﷺ ، ولها قَدْرٌ عظيم»[1] .

* وهـذا القَـدْرُ أهَّلَهـا لأنْ تسكُـبَ وضـوءاً للنّبـيّ ﷺ وتصـفَ وضـوءه للمسلمين ، فقد أخرجَ أحمد وأبو داود وغيرهما بسندٍ عن محمد بن عقيل عن الرُّبيّع بنت معوّذ رضي الله عنها قالت : «كان رسولُ اللهِ ﷺ يأتينا ؛ فحدثتنا أنّه قال : «اسكبي لي وضوءاً» . فذكرتْ وضوءَ رسولِ الله ﷺ ، قالت فيه : فغَسَلَ كفّيه ثلاثاً ، ووضّأ وجهَه ثلاثاً ، ومضمضَ ، واستنشق مرّة ، ووضّأ يديه ثلاثاً ثلاثاً ، ومسحَ برأسِ مرتَيْن يبدأ بمؤخّر رأسه ثم بمقدمه ، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما ، ووضّأ رجلَيه ثلاثاً ثلاثاً»[2] .

* ومن هنا استطاعتِ الرّبيعُ أنْ تصفَ النّبي ﷺ لحفيدِ عمار بن ياسر فقالت : «يا بنيّ ، لو رأيته لرأيتَ الشّمس طالعةً»[3] .

* وكانتِ الرّبيعُ امرأةً لا تخشى في الحقّ لومةَ لائم ، أحبّتِ الإسلامَ واعتزّت به ، ولها مواقفُ تثيرُ الإعجاب ، وخصوصاً في الجهادِ ، فقد أخرجَ البخاريُ بسنده عنها قالت : «كُنّا نغزو مع النّبيّ ﷺ فنسقي القومَ ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحى والقَتْلى إلى المدينة»[4] .

* ومن مشاهدها بيعة الرّضوان ، قال ابنُ الأثير : «كانت من المبايعاتِ تحتَ الشَّجرة بيعةَ الرِّضوان»[5] . وقال ابن حجر في «الإصابة» : «كانتْ من المبايعاتِ بيعة الشَّجرة ، وكانت ربّما غزتْ مع رسولِ الله ﷺ»[6] .

* وفي مجال العلْم والرواية ، تُعدُّ الرّبيّعُ من أصحابِ العشَرات في روايةِ

---

(١) الاستيعاب (١٢/ ٣١٥).

(٢) سنن أبي داود (١/ ٢٠) باب : صفة وضوء النبي ﷺ وأحمد في المسند (٦/ ٣٥٩).

(٣) انظر : أسد الغابة (٧/ ١٠٩).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٣).

(٥) أسد الغابة (٧/ ١٠٨).

(٦) الإصابة (١٢/ ٢٥١).

الحديث إذ روت (٢١ حديثاً) ومروياتها في الصَّحيحين والسُّنن والمسَانيد ، أمَّا وفاتُها فكانت سنة (٣٧ هـ) أو (٤٥ هـ) ، وكانت حياتها حياةَ علم وجهاد رضي الله عنها . .

* * *

# الفصل الخامس
# مِن المبايعاتِ بعْدَ الحُديبية

* إنَّ المؤمنَ مهما كانت حالُه لا يقبلُ دنيّةً ، ولا يرضى بهوانٍ ، ويبذلُ جهده لمدافعةِ ظالميه ، فإذا ما غُلِبَ على أمرهِ ، أسرَّ المقاومة ، وانتظرَ مع اليوم غداً يبلغُ فيه مراده ، ويحقّقُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشّورى: ٣٩].

* ويذكرُ القرآنُ الكريمُ والسيرةُ النبويةُ أنَّ المسلمين قد هزموا أوّلَ تاريخهم في مكّةَ المكرمةِ ، وطُردوا من ديارهم ، فرفضُوا الاستسلامَ للبغي ، واشتبكوا مع عدوهم في حروبٍ مُرّةٍ ومريرةٍ ، وصبروا وصابروا الليالي والأيّام حتى تحقّق لهم النَّصْرُ.

* ومن الناسِ مَنْ يستوعرُ الطَّريق ، ويستصعبُ سبيلَ الكفاح ، وينتهزُ الفرصةَ لقبولِ الأمْرِ الواقعِ ، ولا يرى حرجاً في الاستخذاءِ أمام عدوه ، حرصاً على سلامتهِ أو سلامةِ أهلِه ، ولهؤلاء وأمثالهم يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

* إنَّ الوفاءَ للإسلامِ ولنَبيّ الإسلام محمدٍ ﷺ يفرضُ الولاءَ له والاتّباع لما جاء به من عندِ اللهِ؛ والبراءة ممن يخالفُ ذلك ويعترضُه ، وهكذا فعل الصَّحابةُ الكرامُ ، رجالُهم ونساؤُهم ، شيْبُهم وشبّانُهم ، وعملوا ما لا يستطيعُ فعله أحدٌ في سبيلِ اللهِ تعالى ومرضاته ، ولذا فإننا نقرأُ في القرآنِ العظيم هذه الآية التي يقولُ الله تعالى للمسلمين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ

لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤].

«فالمسلمون الأوّلون لا يشترون بذلك الخصومة أو يجنحون إلى التّهجّم ، إنهم يردّون العُدوانَ ، ويعلنون بقاءَهم على دِينهم إلى آخرِ رمق[1]».

* إنَّ في تحديدِ العلاقاتِ المختلفةِ بين المسلمين في العهدِ النّبوي ، وبين أعدائِهم في الدِّينِ والعقيدةِ أسساً مهمةً ، وقواعدَ واضحةً رسمَها القرآنُ الكريمُ لأهلِ الإيمان ، وللصّحابة الكرام رجالاً ونساء ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة : ٨ و٩].

* ومن هنا جاءتِ البيعةُ بيعةٌ عنوانها الحقّ والبعدُ عن أهلِ الرّيبة ، وذلك لبناء مجتمعٍ متماسكٍ سُداه محبّة الله تعالى ولحمتُه الإسلام ، وعلى هذا الأساس الصّريح الواضح كانت معاملاتُ الصّحابةِ وعباداتهم.

* ولعلَّ بيعةَ المؤمناتِ بعد الحديبية هي التي عزّزت هذه المفاهيم ، وجعلتْ من المجتمعِ المسلمِ مجتمعاً صافياً نقياً لا مكان للمشركين أو المشركاتِ فيه.

* فقد حدث في معاهدةِ الحديبية عندما أملىٰ المشركون شروطهم[2] على

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم لمحمد الغزالي (ص ٤٥٢) دار الشروق ـ القاهرة وبيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٦م.

(٢) كانت شروطُ صلح الحديبية بين رسولِ الله ﷺ وقريش على النحو الآتي:
أ ـ وضعُ الحربِ بين المسلمين وقريش عشر سنين ، يأمنُ النّاس فيهنّ ، ويكفُّ بعضهم عن بعض ، وأنّ بينهم عيبة مكفوفة ، فلا إسلال ـ أي سرقة ـ ولا إغلال ـ أي خيانة ـ.
ب ـ مَنْ أتى من قريش إلى محمد ﷺ بغير إذنِ وليه ردّه عليهم ، ومَنْ جاء قريشاً من مع محمد ﷺ لم يردّوه عليه.
ج ـ مَنْ أحبّ أن يدخلَ في عقدِ محمد ﷺ وعهده دخلَ فيه ، ومن أحبَّ أنْ يدخلَ في عقدِ قريش وعهدهم دخل. فدخلت خزاعةُ في عهدِ النبي ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.
د ـ أنْ يرجعَ النبيُّ ﷺ وأصحابه من غيرِ عمرة هذا العام ، فإذا كان العامُ القابل خرجَ عنها=

المسلمين أنْ فرضوا هذا البند العجيبَ وهو: مَنْ ترك مكّة مُسلماً لم يجزْ لأهلِ المدينة أنْ يستقبلوه مهاجراً معهم؛ ومَنْ تركَ المدينةَ مرتداً فلأهل مكّة أنْ يؤمنوه ويطمئنوه!!

* وقبلَ النّبي ﷺ هذا الشَّرط الغريب، وهذه الجاهلية المتكبرة؛ ولكنَّ مشيئةَ الله تعالى كانت فوقَ كلّ شيء، وهو الغالبُ على أمرهِ، فقد شاءَ اللهُ أنْ يكون أهلُ مكّة أنفسهم هم أوّلُ من يُكْوَى بنارها، ويَسْعى لإلغائها؛ والتخلّصِ منها.

* لكنَّ عدداً من النّساء في مكّة شرحَ اللهُ صدورهنَّ للإسلامِ فأين يذهبْنَ؟! تذكرُ السّيرةُ النّبويةُ أنّه ما استقرَّ المقامُ للنبي ﷺ حتّى جاءت نسوةٌ مؤمناتٌ من قريش منهنّ أمّ كلثوم بنتُ عقبة، فجاء أخواها عمارةُ والوليدُ حتى قدما على النّبي ﷺ فكلماه فيها أنْ يردَّها إليهما فأبى، وروي أنّه قال لهما: «كان ذلك في الرّجالِ لا في النّساء».

* وعندها تنزّلَ الغيثُ الإلهيُ بشأْنِ هؤلاء النّساء المؤمنات، لقد نزلَ الوحيُ آذناً بقبولهنّ في المدينةِ، فلا مساغ لتشريدهنّ في الأرضِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ[1] فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

* وهكذا صدّق اللهُ نبيّه فيما قال، وأنّ النّساء لا يدخلنَ في عقْدِ الرّجال، ولا في العهدِ الذي مضى، وأنهنّ يُختبرن، فإن ظهر إيمانهنّ، لا يُرجعن إليهم أبداً.

* ونلاحظ أنَّ المسلمين قد أُمروا أنْ يعوضوا المشركين الذين آمنتْ

---

= المشركون، فيدخلها المسلمون، ويقيمون بها ثلاثاً ليس معهم من السّلاح إلا السّيوف في أغمادها.

(١) «مهاجرات»: جاءتْ هذه الكلمةُ مرّةً واحدةً في القرآنِ الكريم بهذه الصِّيغة «مُهاجِرات». ومعنى «المهاجر»: مَنْ هجَرَ وطنَه، أي: تركَه وخرج إلى وطنٍ آخر ليقيم فيه، والمرأَة مهاجرة، والجمع: مهاجرات، ومن أوائل المهاجرات من الصحابيات: سيدتنا وأمّنا: أمّ سلمة، وليلى بنت أبي حثمة وغيرهما.

نساؤهم ، كما أنَّ هناك نساء لحقْنَ بأهلِ مكّة مرتدّات[1] ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠][2] وهذه تنظيماتٌ عادلةٌ تدلُّ على روحِ الدين ، ولم يَطُلْ بها عَهْد ، فسرعان ما فُتِحَتْ مكّة ، ودُكّتْ معاقلُ الوثنية ، وبُنيت الأُسَرُ المسلمةُ على التّوحيدِ الخالصِ ، وغابتْ أوهامُ الشّرك وحقائقُهُ عن مكّةَ وعن أهلِها ، وبدأ المجتمعُ المسلمُ حياته على نورٍ وهدى وبصيرة.

* بقي أنْ نعرفَ مَنْ اللواتي هاجرن من مكّة إلى المدينةِ عقب صلحِ الحديبية وبيعة الرّضوان ، وقد أمر الله عزّ وجلّ بامتحانهنّ ، وتبيّن صدقهنّ ، ومن ثم مبايعتهنّ على الإسلام.

* وتدلّ التّراجمُ النسويةُ أنَّ بيعةَ النبي ﷺ للنّساء كانت بيعةً واضحةَ المعالمِ بيِّـنَـةَ الشّروط.

---

(١) روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لَحق بالمشركين من نساءِ المؤمنين والمهاجرين ستّ نسوة: أمّ الحكم بنتُ أبي سفيان؛ كانت تحت عياض بن شداد الفِهري ، وفاطمةُ بنتُ أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة؛ كانت تحتَ عمر بن الخطاب ، فلما أراد عمر أن يهاجرَ أبتْ وارتدت ، وبروع بنتُ عقبة؛ كانت تحتَ شمّاس بن عثمان ، وعزّة بنت عبد العزيز بن نضلة ، وزوجها عمرو بن عبد ودّ ، وهندُ بنت أبي جهل بن هشام؛ كانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وأمّ كلثوم بنتُ جرول؛ كانت تحت عمر بن الخطاب ، فكلهنّ رجعنَ عن الإسلام ، فأعطى رسولُ اللهِ ﷺ أزواجهنَ مهورَ نسائِهم من الغنيمة» (تفسير البغوي ص ١٣٠٥) طبعة دار ابن حزم ـ بيروت (٢٠٠٢م).

(٢) قال البغوي: «العصم: جمع العصمة ، وهي ما يعتصمُ به من العقد والنّسب ، والكوافر جمع الكافرة ، نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاحِ المشركات ، يقول مَن كانت له امرأةٌ كافرة بمكة ، فلا يعتد بها ، فقد انقطعت عصمةُ الزّوجيّة منها».
وقال الزهري: «لما نزلتْ هذه الآية طلّقَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ امرأتين كانتا له بمكة مشركتَيْن: قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة ، فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان ، وهما على شركهما بمكّة ، والأخرى أمّ كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أمّ ابنه عبد الله بن عمر ، فتزوّجها أبو جهم بن حذافة بن غانم ، وهما على شركهما ، وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة ، وهي على دين قومها ، ففرقَ الإسلامُ بينهما ، فتزوّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص».
(تفسير البغوي ص ١٣٠٥).

* ولكنْ مَن المؤمنات اللواتي بايعْنَه في قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ . . . ﴾ [الممتحنة: ١٢]؟ وقوله عز وجل قبل هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ . . . ﴾ [الممتحنة: ١٠]؟ فمنِ المؤمنات هؤلاء؟

* ذكر بعضُ المفسِّرين أنّها سُبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميّة، بينما ذكر آخرون أنّها أمّ كلثوم بنتُ عقبة الأموية، وذكر جماعة أنّها أميمةُ بنتُ بشْر الأنصارية، وأجمع هؤلاء أنَّ سيرتها قد حَكَتْها سورة الممتحنة.

قال السُّهيلي: «هي المُمتحِنة، بكسر الحاء، أي المختبِرة، أضيفَ الفعلُ إليها مجازاً؛ كما سمّيت سورة براءة المُبعثِرة، والفاضِحة لما كشفَتْ عن عيوب المنافقين»[(١)].

* ومَنْ قال في هذه السّورة: الممتحَنة، بفتح الحاء، فإنّما أضافها إلى المرأةِ التي نزلتْ فيها، وهي أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط؛ قال الله تعالى: ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وهي امرأةُ عبد الرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن[(٢)].

* وذكر الأُذْكاوي في قولهِ تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ [الممتحنة: ١٠] قال: «قيل: إنّها نزلتْ في أميمةَ بنتِ بشر[(٣)] من بني عمرو بن عوف،

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٢٧و٤٦٠) وجمال القراء (١/ ٩٠ و٩٢)، والإتقان (١/ ١٥٥ و١٥٨).

(٢) إبراهيمُ بنُ عبد الرحمن بن عوف أبو إسحاق الزّهري المدني الفقيه، الإمام، أخو أبي سلمة الفقيه وحُميد، أمُّه هي المهاجرة أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. قيل: إنّه شهد حصارَ الدار مع عثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ وثّقه النّسائي وغيره، توفي سنة (٩٦هـ) رحمه الله.
(سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٢) و(العبر ١/ ١١٢).

(٣) ستأتي ترجمتها إن شاء الله.

وهي امرأةُ ثابت أو ـ حسّان ـ ابن الدّحداحة ، وتزوجها بعد هجرتها سهلُ بنُ حنيف[1] ـ رضي الله عنه ـ[2].

* وروي أنّها نزلتْ في سبيعةَ بنتِ الحارث الأسلمية[3] ، وهذا الأثرُ ذكره الواحدي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إن مشركي مكّة صالحوا رسولَ اللهِ ﷺ عام الحديبية على أن مَنْ أتاهُ من أهلِ مكّةَ ردَّهُ إليهم ، ومن أتى أهل مكّة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتابَ وختموه؛ فجاءت سُبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميّة بعد الفراغِ من الكتاب ـ والنّبي ﷺ بالحديبية ـ فأقبل زوجُها ، وكان كافراً ، فقال: يا محمّدُ ، ارددْ عليّ امرأتي ، فإنّكَ قد شرطتَ لنا أنْ تردّ علينا مَنْ أتاك منا ، وهذه طينةُ الكتابِ لم تجفَّ بعد ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية»[4].

* وذكرَ القرطبيُ في تفسيرِ الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ

---

(١) سهلُ بنُ حُنيف بن واهب الأوسي ، أبو سعيد؛ شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وثبتَ يوم أحد ، وكان بايعه يومئذ على الموتِ ، فثبتَ معه حين انكشفَ الناس عنه ، وجعل ينضحُ بالنّبل يومئذ عن رسول الله ﷺ ، فقال رسولُ الله ﷺ: «نبّلوا سهلاً ، فإنّه سهل» ، ثم صحب علياً ـ رضي الله عنه ـ من حين بُويع ، وإياه استخلفَ عليّ ـ رضي الله عنه ـ حين خرجَ من المدينة إلى البصرة ، ثم شهدَ مع علي صفّين. وهو والد أبي أمامة بن سهل ، وأخو عثمان بن حُنيف. وحديثه في الكتب السّتة ، توفي بالكوفة سنة (٣٨هـ) رضي الله عنه.
(الاستيعاب ترجمة رقم ١٠٤١)، و(سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٩) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: ترويح أولي الدماثة (٢/ ١٩٢) للأدكاوي؛ تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.

(٣) ستأتي ترجمتها إن شاء الله.

(٤) أسباب النزول للواحدي (ص ٤٤٤ و٤٤٥) ، وانظر الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٢٠٥) وقد أخرج البخاري في كتاب الشّروط برقم (٢٧١١ و٢٧١٢) عن مروان والمِسْوَر عن أصحاب رسول الله ﷺ حديثاً يؤيّدُ هذا المعنى مع اختلاف الصّحابية فعند البخاري أنّ الصّحابية هي أمّ كلثوم بنت عقبة ، وأثرُ ابنِ عباس الذي ذكره الواحدي هنا فيه أنّ الصّحابية هي سُبيعة بنتُ الحارث الأسلمية. ونقل ابن حجر عن الفاكهي: أنّ سبيعةَ بنتَ الحارث أولُ امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية إثر العقد وطي الكتاب ، ولم تخف فنزلت آية الامتحان (الإصابة ٤/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) و(تفسير الثعلبي (٩/ ٢٩٤).

مُهَٰجِرَٰتٍ . . .﴾ [الممتحنة: ١٠]، قال: «لما أمر المسلمين بتركِ موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشّرك إلى بلاد الإسلام، وكان التّناكح من أوكد أسباب الموالاة، فبيّن أحكامَ مهاجرة النّساء»[١].

* وقال القرطبيُ: «جاءت أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط، فجاء أهلُها يسألون رسولَ الله ﷺ أنْ يردّها. وقيل: هربتْ من زوجِها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد، فردَّ رسولُ الله ﷺ أخويها وحبسَها، فقالوا للنّبي ﷺ: «ردّها علينا للشّرط، فقال ﷺ: «كان الشرطُ في الرّجالِ لا في النّساء» فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية.

وقيل: إنّ التي جاءت أميمةُ بنتُ بشر، كانت عند ثابت بن الشّمراخ ففرّتْ منه وهو يومئذٍ كافر، فتزوّجها سهلُ بنُ حنيف فولدتْ له عبد الله. وقال مقاتل: إنّها سعيدةُ زوجةُ صيفي بن الرّاهب مشرك من أهلِ مكة. والأكثر من أهل العلم؛ أنّها أمّ كلثوم بنت عقبة.

* وروي أنَّ هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٠] نزلت في عُمارة[٢] بنت حمزة بنت عبد المطلب، حين أخرجها عليُ بنُ أبي طالب من مكّة في عمرةِ القَضاء والله أعلم[٣].

* قال ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ: «وقد اختلفَ العلماءُ في المرأةِ التي كانت سبباً لنزولِ هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّها سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلمية.

والثاني: أمّ كلثوم بنتُ عقبةَ بن أبي معيط؛ وهو المشهور.

والثالث: أميمةُ بنتُ بشر من بني عمرو بن عوف»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٤١) باختصار؛ وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٣).

(٢) ستأتي ترجمتها إن شاء الله، وقيل: إن اسمها أمامة بنت حمزة.

(٣) انظر: تفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ٥٩٦)، وترويح أولي الدماثة (٢/ ١٩٢)، ومغازي الواقدي (٢/ ٧٣٨).

(٤) انظر: زاد المسير في علم التفسير (ص ١٤٢٦).

* وقال الزَّمخْشَري عن هؤلاء النّسوة في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ [الممتحنة: ١٠] «سمّاهُنَّ مؤمناتٍ لتصديقهنّ بألسنتهنَّ ونطقهنَّ بكلمة الشَّهادة، ولم يظهرْ منهنَّ ما ينافي ذلك، أو لأنهنَّ مشارفات لثباتِ إيمانهن بالامتحان»[١]. وإليكم ترجمات هؤلاء المؤمنات:

## أولاً: أمُّ كلثوم بنتُ عقبة الأموية رضي الله عنها:

* هذه امرأةٌ قرشيةٌ حازتِ الفضلَ والعلْم منذ أنْ بزغتْ شمسُ الهدايةِ من أمّ القرى مكة، فقد أسلمتْ، وصلّت القبلتين، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ بمكّة المكرمة قبلَ الهجرةِ إلى المدينة.

* هذه المبايعةُ هي أمُّ كلثوم بنتُ عقبة بن أبي معيط الأموية القرشيّة المكيّة[٢].

* وفي سيرةِ هذه المرأة عبرةٌ لمن كان له قلبٌ يحب الحقّ وأهل الحقّ، وإذا اتّخذتها نساؤنا قدوةً لهنّ، فسيكنّ منَ الفائزات بإذنِ الله.

* نشأتْ أمّ كلثوم في بيئـةٍ تجمعُ المتناقضات بـآنٍ واحد، ولكنّها مع هذا، وذاك اجتازتْ كلّ الصّعوبات بنجاح، فكانت من السَّابقات إلى عزّ الإسلامِ، كما كانت من اللاتي شهدَ اللهُ لهنَّ بالإيمانِ، ونزل فيهنّ قرآنا يُتلى إلى ما شاءَ الله.

* كان والدُ أمّ كلثوم من كبارِ الفُجار الذين آذوا رسولَ اللهِ ﷺ، وممن عاث في الأرض فساداً حتى غدا من أهلِ النّار[٣].

* وعلى النّقيض تماماً كانت أمُّ السّيدة أم كلثوم أروى بنت كريز العبشميّة من المسلماتِ المُهاجرات، فقد أسلمتْ وهاجرت إلى المدينةِ المنورةِ،

---

(١) تفسير الكشاف (ص ١٠٩٩).

(٢) انظر ترجمتها في المصادر التالية: نسب قريش (ص ١٤٥ و٢٦٦)، وأسد الغابة (٥/ ٦١٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٦ و٢٧٧).

(٣) اقرأ سيرة هذا الفاجر وأعماله الدنيئة في كتابنا «المبشرون بالنار ص ١٤٠ ـ ١٥٩» طبعة دار ابن كثير الثانية بدمشق (٢٠٠١م).

وكُتبتْ في ديوانِ المهاجرات ، وكانتْ واحدةً من الصَّحابيات اللواتي عُمرنَ طويلاً ، فقد ذكروا أنّها عاشَتْ حتى بلغت تسعين عاماً ، وتوفيتْ في المدينةِ المنورة ، ودُفنت في خلافةِ ابنها عثمان بن عفّان رضي الله عنه وعنها[١] .

* ومن هنا نعرفُ بأنَّ سيّدنا عثمان بن عفان هو أخو أمّ كلثوم لأمِّها أروى بنت كريز ، فقد كانت أم كلثوم تجدُ في أخيها الإيناسَ ، فعثمانُ ـ رضي الله عنه ـ أحدُ كبار الصَّحابة وأحدُ السَّابقين الأولين إلى الإسلام ، وهو ذو النّورين وفضائلهُ لا تُحصى ، ومناقبهُ مشهورةٌ معروفةٌ في المصادرِ الموثوقةِ .

* وأما أخواها الشّقيقان : الوليدُ وعمارةُ ابنا عقبة ، فقد فتحَ الله عليهما بنعمةِ الإسلام يومَ فتح مكّة إذ أسلما وبايعا ، وأصبحا من الصَّحابةِ الذينِ شملتهم عناية الله ورحمته .

* وعلمت السّيّدةُ المبايعةُ أمّ كلثوم أنَّ اللهَ تعالى قد قَرَن بين المرأةِ والرَّجلِ في بعضِ الأمور الموصلة إلى دار القرار بسلامٍ ، فقد قرنَ سبحانه بينهما في ادّخار الأجْرِ والثّوابِ عنده ، وارتقاء الدّرجات العُلَى في الآخرة ، كما قرنَ اللهُ بينهما في جميع المكارمِ والفضائل ، وفي مقدمتها : الإيمانُ ، والإسلامُ ، والصّدقُ ، والصَّبرُ ، والوفاءُ ، والأمانةُ ، وغير ذلك من محاسن الشّمائل وكريمِ الصفات ، وقرنَ سبحانه هذه الشّمائل والصّفات بعضها ببعض ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥][٢] .

---

(١) الإصابة (١٢/ ١١٠ و١١١) بشيء من التصرف .

(٢) لعله من المفيد هنا ونحن في سيرة المبايعات ونساء الصحابة أن نشير إلى ما أورده ابن الجوزي في «زاد المسير» عن هذه الآية فقال : «في سبب نزولها خمسة أقوال :
**أحدها** : أنَّ نساء رسول الله ﷺ قلن : مالَهُ ليس يُذكر إلا المؤمنون ، ولا تُذكر المؤمنات بشيء؟! فنزلت هذه الآية . =

* وصبرتْ أمّ كلثوم بنتُ عقبة مع الصَّابرات في مكَة المكرمةِ حتى بدأتْ طلائعُ المهاجرين تتوجّه نحو المدينةِ المنورةِ جماعاتٍ ووحداناً ، وظهرتْ بعضُ الهجرات النّادرة في دنيا البطولة كهجرةِ أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وعمرَ بنِ الخطاب ، وصهيبِ بن سِنان ـ رضي الله عنهم ـ.

* وتذكرُ كتب السّيرة والطَّبقات أنّ كثيراً من نساءِ الإسلام قد هاجرنَ في صحبةِ أزواجهنّ أو أقربائهنّ ، وفي حين أنّ أمّ كلثوم مُنِعت من الهجرةِ مع المهاجراتِ ، وحيل بينها وبين هذه الرحلةِ الإيمانيةِ إلى دارِ الهجرة في المدينة المنورة بقربِ رسولِ الله ﷺ ، فبقيت مقيمة مع المستضعفين وعيناها تفيضُ من الدمعِ حزناً لأنّها لم تتمكنْ من الهجرة.

* وظلّت أمّ كلثوم في مكّة المكرّمةِ بضع سنين تقاسي العذاب وتتحمّلُ الشّدائد في سبيلِ الله تعالى ، وهي تنتظرُ الفَرَج أو أنْ يأتي اللهُ بأمرٍ من عنده.

* ومكثت أمّ كلثوم بمكةَ إلى سنةٍ سبعٍ من الهجرة ، ثم لحقتْ بالمهاجرين والمهاجراتِ في المدينةِ في زمنِ صلح الحديبية بين النّبي ﷺ وبين المشركين. وأخذت تستعدُّ للهجرة مهما تكن الظّروف ، وراحت تنتهزُ الفرصةَ المناسبةَ لكي تخرجَ من بين قومها وأهلِها وهم لا يشعرون ، حتى أزفَ وقتُ الرّحيل ، فخرجت في رحلةٍ عجيبةٍ إلى المدينةِ المنورة ، وسجّلتْ في ديوان العظائم من

---

= **والثاني**: أنَّ أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله؛ يُذكر الرجال ولا نُذكر؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ [آل عمران ١٩٥].

**والثالث**: أنَّ أم عمارة الأنصارية قالت: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي ، ما بال الرجال يُذكرون، ولا تُذكرُ النساء؟! فنزلت هذه الآية. وذكر مقاتل بن سليمان أن أم سلمة وأم عمارة قالتا ذلك فنزلت هذه الآية في قولهما.

**والرابع**: أنَّ الله تعالى كما ذكر أزواج رسوله ، دخل النساء المسلمات عليهن ، فقلن: ذُكرتن ولم نُذكر ، ولو كان فينا خير ذُكرنا. فنزلت هذه الآية.

**والخامس**: أنَّ أسماء بنت عميس ، لما رجعت من الحبشة دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، إن النساء لفي خيبة وخسار. قال: «ومم ذلك»؟ قالت: لأنهن لا يُذكرن بخير كما يُذكر الرجال. فنزلت هذه الآية (زاد المسير ص ١١٢٥).

النّساء المبايعات ، حتى قال ابنُ سعد عنها : «ولم نعلمْ قرشيةً خرجتْ من بين أبويها مسلمةً مهاجرةً إلى الله ورسوله إلا أمّ كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها»[1].

* وقال ابنُ عبد البر القرطبي : «أسلمتْ أمّ كلثوم بنت عقبة بمكةَ قبل أن يأخذَ النّساء في الهجرةِ إلى المدينةِ ، ثم هاجرت وبايعت ، فهي من المهاجراتِ المبايعاتِ. وقيل : «هي أوّلُ مَنْ هاجر مِنَ النساء ، كانت هجرتها في سنة سبع في الهدنةِ التي كانت بين رسولِ الله ﷺ وبين المشركين من قريش ، وكانوا صالحوا رسولَ الله ﷺ على أنْ يردَّ عليهم مَنْ جاء مؤمناً ، وفيها نزلت : ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾ [الممتحنة : ١٠] ، وذلك أنها لما هاجرت لحقها أخواها : الوليد وعمارة ابنا عقبة ليردّاها ، فمنعها الله منهما بالإسلام»[2].

* وقال ابنُ عبد البر عن هجرتها : «إنها مشَتْ على قدميها من مكّةَ إلى المدينة. . . »[3].

* ولكنْ كيف هاجرت وحيدة من مكة إلى المدينة؟! وكيف تخلّصت من أعين الرقباء؟

* روت أمّ كلثوم قصّة هجرتها هذهِ فقالت : «كنتُ بمكةَ أخرجُ إلى باديةٍ لنا قريبة فيها أهلي ، وكنتُ أقيمُ بالباديةِ الثّلاث والأربع ، ومن ثمّ أرجعُ إليهم ، فكانوا لا ينكرون ذهابي إلى الباديةِ ، ولا يدخلُ إلى نفوسهم شكٌ في شيءٍ من أمري ، إلى أنِ استقرَّ في نفسي الهجرة والمسير إلى المدينةِ المنورة ، واللحاق بأصحابِ رسولِ الله ﷺ.

* وذات يوم خرجتُ من مكةَ كأنّي أريدُ البادية ، وأريدُ أهلي هناك ، وعند ذلك رجعَ مَنْ كان يتبعني ويراقبني وكأنّه قد اطمأنَ إلى أنَّ انصرافي سيكونُ إلى

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٠).
(٢) الاستيعاب ترجمة رقم (١٣/ ٢٧٤ و٢٧٥).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٣/ ٢٧٦).

البادية ، بينما كان يدورُ في خلدي كيف المسيرُ إلى المدينةِ مهاجرةً إلى المؤمنين.

* ويممتُ وجهي نحو المدينةِ ، ورحتُ أغذُّ السَّير وأعدو ماشيةً على قدمي؛ وبينما كنتُ في طريقي ، إذا أنا برجلٍ من قبيلة خزاعة ، وقد رآني وحيدةً في الفلاة؛ فقال لي: «أين تريدين يا أختَ العرب»؟

فقلت له: «ما مسألتك ، ومَنْ أنتَ»؟

قال الرّجل: «إنّي رجلٌ من خزاعة».

ولما ذكر الرجلُ قبيلةَ خزاعة ، شعرتُ بشيء من الطُّمأنينة تسري في داخلي ، وأحسستُ بشيء من الأمنِ في قلبي ، حيث إنَّ قبيلةَ خزاعة كانت في عَهْد النّبي ﷺ وفي عقْده.

* ولما استوثقتُ من ذلك الرّجلِ ، وعلمتُ حسن نيّته ، قلتُ له: «يا أخا خزاعةَ ، إنّني امرأةٌ من قريش ، وإني أريدُ أنْ ألحقَ برسولِ الله ﷺ في المدينة المنورة ، ولا عِلْمَ لي بالطريق».

فقال الرجلُ: «إذاً أنا صاحبُكِ حتى أوردكِ المدينة».

* وانطلق الرجلُ الخزاعي ، ثم إنّه جاء إليَّ ببعيرٍ فركبتُه[1] ، وسار معي حتّى قدمنا المدينةَ المنورةَ ، وكان خيرُ صاحبٍ شَهْم في تلكَ الطريق ، فقد كان يقودُ بي البعير ، ولا واللهِ ما كان يكلّمني بكلمةٍ قط ، فكان إذا أناخَ البعير تنحّى عنّي ، فإذا نزلتُ جاء إلى البعير فقيّده بالشَّجرة ، وتنحى[2] ، حتى إذا كان الرَّواحُ جهَّز البعير ، فقرّبه وولّىٰ عني ، فإذا ركبتُ واستويتُ على ظهر البعير ، أخذ برأسهِ ، فلم يلتفتْ وراءه حتى أنزِل ، فلم يزلْ على هذه الحال حتى قدمنا المدينة.

* ولما وصلتُ المدينةُ ، لم أدخلْ على أخي عثمانَ بنِ عفّان ، وإنَّما

---

(١) تشير كثير من المصادر إلى أنها قد هاجرت ماشية على قدمَيْها؛ والله أعلم.

(٢) قصة هجرة أم كلثوم تشبه قصة هجرة سيدتنا أم سلمة رضي الله عنهما.

دخلتُ على أمّ سلمة أمّ المؤمنين وأنا متنقِّبةٌ ، فما عرفَتْنِي حتى انتسبتُ وكشفتُ نقابي ، وعندها التزمتني ثم قالت لي: «يا أمّ كلثوم ، هاجرتِ إلى اللهِ ، وإلى رسوله؟!».

قلت: «نعم ، وأنا أخافُ أنْ يردّني رسولُ الله ﷺ إلى قومي ، كما ردَّ أبا جندل ، وأبا بصير[1] ، وحال الرّجال ليس كحال النّساء ، والقوم مصبّحي ، فقد طالتْ غيبتي اليومَ عنهم خمسةُ أيام ـ وفي رواية ثمانية أيّام ـ منذ فارقتهم ، وهم يتحيَّنون قدر ما كنتُ أغيبُ ، ثم يطلبوني ، فإنْ لم يجدوني رحلُوا».

* وبعد قليل دخلَ النّبيُ ﷺ على زوجتـه أمّ سلمـة ، فأخبرتـه بأمري؛ فرحَّب بي وسَهّل؛ فقلتُ: «يا رسولَ اللهِ ، إنّي فررتُ إليك بديني ، فامنعني ولا تردّني إلى الكفّارِ يفتنوني ويعذبوني ، ولا صَبْر لي على العذابِ ، إنّما أنا امرأةٌ ، وضَعْفُ النّساء إلى ما تعرفُ ، وقد رأيتك رددتَ رجلين حتى امتنعَ أحدهما».

فقال رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ قد نقضَ العَهْدَ في النّساء».

* وكان أخواي عمارة والوليد قد لحقاني إلى المدينة ليردّاني إلى مكّة ، فمنعِني اللهُ منهما بالإسلام ، وخرجَ رسولُ الله ﷺ من عند أمّ سلمة ، وقد أنزلَ اللهُ آية الامتحان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ . . . ﴾ [الممتحنة: ١٠]»[2].

---

(١) اقرأ ترجمة أبي بصير في الاستيعاب برقم (٢٨٥٠) ، واسمه: عُبيد بن أسيد.

(٢) انظر: تفسير الخازن: (٧/ ٧٨) ، ومختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٥) ، وتفسير الآلوسي (٢٨/ ٧٦) مع الجمع والتصرف ، وانظر: غرر التبيان (ص ٥٠٧). ولمحمد حسين هيكل كلام هنا في هذه القضية فيقول ما ملخّصه: «أمّا المهاجراتُ من قريشٍ إلى المدينة فكان للنبي ﷺ فيهنَّ رأي آخر ، إذ رأى أنَّ النّساء إذا استجرن وجبت إجارتهنّ ، ثمَّ إنَّ المراة إذا أسلمتْ لم تصبحْ حِلاً لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه وبينها ، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ . . . ﴾ [الممتحنة: ١٠]». (حياة محمد ص ٣٧٨) بتصرف.

* لقد أنزل اللهُ تعالى قرآناً ، وفيه بيانٌ للحكْمِ في هذه القضية[1] ، قضية امتحان[2] النّساء المؤمنات عند الهجرة ، وعدم إرجاعهنّ إلى الكفّار إذا ثبتَ إيمانهنّ ، وعند ذلك امتحن النّبي ﷺ أمّ كلثوم بنت عقبة ، وغيرها من النّساء اللواتي هاجرنَ إلى اللهِ ورسوله.

* وكان امتحانُ الرّسولِ ﷺ للنّساء ولأمّ كلثوم ، كما ذكر ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أنْ تقسمَ باللهِ ما خرجت التماسَ دُنيا ، ولا عشقاً لرجل ، وباللهِ ما خرجت إلاّ حبّاً لله ولرسوله»[3] وفي رواية أخرى ، قال ابنُ عبّاس: «كان امتحانهنَّ أنْ يشهدنَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدا عبده ورسوله».

* ورد عن مجاهد رحمه الله أنَّه قال: «قوله تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾: سَلُوهُنَّ ما جاءَ بهنَّ؟ فإنْ كانَ جاء بهنّ غضبٌ على أزواجهنَّ ، أو سخطةٌ ، أو غيره ، ولم يُؤْمِنَّ ، فارجعوهن إلى أزواجهنّ».

* وقال قتادة رحمه الله: «كانت محنتهنَّ أنْ يستخلفن باللهِ ما أخرجكنّ النُّشور ، وما أخرجكن إلاّ حبُّ الإسلام وأهله ، وحِرْصٌ عليه ، فإذا قُلْنَ ذلك قُبِلَ ذلك منهنَّ».

* وقال عكرمة: «يُقال لها: ما جاء بكِ إلاّ حبُّ اللهِ ، ولا جاء بكِ عشقُ رجلٌ منّا ، ولا فراراً من زوجكِ ، فذلك قوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

* وقال زيد: «كانت المرأةُ من المشركين إذا غضبتْ على زوجها ، وكانَ بينه وبينها كلام ، قالت: واللهِ لأُهَاجِرنَّ إلى محمّدٍ ﷺ وأصحابهِ ، فقال الله

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٨/ ٢٥٦).

(٢) لامتحان النساء وفيما كنّ يمتحنّ ثلاثة أقوال:
**أحدها**: أنّه كان يمتحنهنَّ بـ«شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله».
**الثاني**: أنّه كان يستحلفُ المرأةَ بالله: ما خرجتُ من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا حباً لله ورسوله.
**الثالثُ**: أنّه كان يمتحنهنَّ بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط قال: قد بايعتك. (زاد المسير ص ١٤٢٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ٦٧).

عزَّ وجل: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إنْ كانَ الغضبُ أتىٰ بها فردّوها ، وإن كانَ الإسلامُ أتى بها فلا تردّوها».

* فإذا قالتْ المبايعة بأنَّ سبب خروجها هو محبّةُ اللهِ ورسوله ذلك اكتُفِي به في إيمانها ، وحَرُمَ إرجاعها إلى المشركين ، وذلك لأنَّ المرأةَ بشكلٍ عام لا يُؤمَنُ عليها الفتنة.

* أدت أمّ كلثوم الامتحان بنجاحٍ كبير ، وحلفت بأنّها ما خرجتْ في هجرتها إلاّ إلى الله ورسوله ، وقطعتَ بذلك أملَ كلّ مَنْ يودُّ ردَّ النساء إلى أهليهنَّ ، حتى إنَّ قريشاً رضيت بأنْ تحبس النّساء.

* وبهذه الواقعة التي رسمتها أم كلثوم ، أضافتْ إلى رصيدها الإيماني زاداً عظيماً أشارَ إلى قوة يقينها ، وصفاءِ عقيدتها ، بالإضافةِ إلى أنَّ الله تعالى قد سمّاها مؤمنة بنصِّ القرآن الكريم ، وهذه هي المنقبةُ الفريدةُ التي لا يدانيها شيء.

* لقد بايعَ النبيُ ﷺ على الشّروط المذكورة في آيتَي الممتحنة (١٠ و١١)[١].

* وأثبتتْ أمُ كلثوم بنتُ عقبة رضي الله عنها بأنّها قد هاجرتْ إلى اللهِ ورسوله ، وبايعتْ على الشّروطِ التي بايعَ عليها النّساء ، ومكثتْ في المدينةِ المنورة ، وكانت أوّل مسلمةٍ مهاجرةٍ إلى المدينة على هذه الطريقةِ ، وحماها اللهُ وحفظها من سوءِ المشركين ، ومن كيدِ أخويها.

* وذكرت المصادر أنَّ أمَّ كلثوم لما خرجت من مكَّةَ وقدمت المدينة كانت لا تزالُ عاتقاً[٢] ، فأقامتْ زمناً بلا زوج ، ومن ثم خطبَها أربعةٌ وهم: الزُّبيرُ بنُ العوَّام ، وزيدُ بنُ حارثة ، وعبدُ الرَّحمن بن عوف ، وعمرُو بنُ العاص ، وأشار عليها رسولُ الله ﷺ بالحِبِّ زيد بن حارثة وقال لها: «تزوَّجي زيدَ بنَ حارثة فإنّه خيرٌ لك». ففعلت وتزوَّجته ، وولدت له زيداً ورقية ، ولما استُشْهِد

---

(١) انظر تفسير أبي حيان في البحر المحيط لهاتين الآيتين (٨/ ٢٥٦) وما بعدها.

(٢) «العاتق»: الجارية التي لم تتزوج. (القاموس المحيط ص ١١٧١).

زيد في معركةِ مؤتة ، مكثتْ أمّ كلثوم حتى انقضتْ عدتها ، وبعدها تزوّجها الزّبير بن العوّام ، فولدت له ابنته زينب[1] ، ثم إنّ الزبير طلّقها بناء على رغبتها .

* وبعد انقضاء عدّتها تزوجها عبدُ الرَّحمن بن عوف ، وعاشتْ معه حياةً رضيةً ، وولدت له حُميداً وإبراهيم ، وكان هذان الولدان من أكابرِ النّجباء والعلماء ، وقد سجّلَ ابنها حميدٌ أثراً عظيماً في ميدانِ العلْم ، والفِقْه ، والرِّوايةِ ، قال عنه ابنُ العماد : «كان عالماً فاضلاً مشهوراً ، توفي سنة ٩٥ هـ رحمه الله»[2] .

* ومكثت أمّ كلثوم بنت عقبة عند عبد الرَّحمن بن عوف إلى أن جاءته سكرةُ الموت بالحقّ في عام (١٨ هـ) فتزوَّجها بعده عمرو بن العاص فماتَتْ عنده[3] .

* ولأمّ كلثوم مناقبُ جليلة بين المبايعاتِ من نساء الصّحابة ، فقد كانت تقرأُ وتكتبُ ، وروتْ ، عن النّبي ﷺ عشرة أحاديث ، جاءت في كتب الحديث المعروفة عدا ابن ماجه؛ وأُخرِجَ لها من أحاديثها في الصَّحيحَيْن حديث واحد متفق عليه وهو : «ليس الكذّاب الذي يصلح بين النَّاس ، فينمي خيراً أو يقول خيراً»[4] .

* وفي ظلالِ الخلافةِ الرّاشدة عاشت السّيّدةُ المبايعةُ أمّ كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها حياةَ العلْمِ والعملِ والرّوايةِ والتّعليم ، وظلت رحلة هجرتها حديثَ النّاس إلى يومنا هذا ، وتذكر المصادر أنَّ أمَّ كلثوم توفيت في خلافةِ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

* وفي السِّجلّ النّسويّ الخالد النّاصع بجلائلِ الأعمال نجدُ اسمَ أمّ كلثوم

---

(١) انظر : الاستيعاب (٤/ ٤٦٦).

(٢) شذرات الذهب (١/ ٣٨٦ و٣٨٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٢٧و٦٢٨) ، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٧٧).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٢) ؛ ومسلم برقم (٢٦٠٥) ، ومعنى : ينمي خيراً : أي يبلّغه ويرفعه ويسنده إلى صاحبه من أجل الإصلاح .

بنت عقبة في الصَّفحات الأولى ، لتقتدي بها نساءُ القومِ قِدْماً ، وكذلك في كلّ العصور.

## ثانياً: سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلمية رضي الله عنها:

* في الرّحلةِ الميمونةِ مع المبايعات تبرزُ هذه السّيّدةُ المبايعةُ التي سمّاها ربّ العزَّة مؤمنةً ، وشهدَ لها ولمثيلاتها بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢].

* يقول الماورديّ: «لما هادنَ الرّسولُ ﷺ قريشاً على أنْ يردَّ إليهم مَنْ جاء منهم ، جاءت أميمةُ بنتُ بشر مسلمةً ، أو سعيدةُ زوجةَ صيفي ، أو أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، أو سُبيعةُ الأسلمية ، فلما طلبَ المشركون الرّدَّ ، منعَ اللهُ من ذلك نسخاً منه للرّدّ عند من قال دخلْنَ في العموم ، أو بياناً لخروجهنّ من العمومِ ، وإنهنّ لم يشترطْ ردّهنّ لسرعةِ انخداعهنّ إلى الكفْر ، وحفظاً لفروجهنّ عند مَنْ قال لم يدخلْنَ في العمومِ وإن كان ظاهراً في شمولهن»(١).

* إذاً فالمبايعةُ المهاجرةُ التي نتحدثُ عنها هي السّيّدةُ سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميَّة ـ رضي الله عنها ـ.

* هاجرتِ الصَّحابيةُ سبيعةُ بنتُ الحارث حبّاً للهِ تعالى ولرسوله ﷺ؛ وكذلك كانت هجرةُ المؤمنات من مكَّةَ إلى المدينةِ المنوَّرة.

* روي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] قال: «كانتِ المرأةُ إذا أتتِ النَّبيَّ ﷺ ، حَلَّفَها بالله:

ما خَرَجْتِ من بُغض زوج؛ وبالله: ما خرجتِ رغبةً بأرضٍ عن أرض؛ وبالله: ما خرجتِ التماس دُنيا؛ وبالله: ما خرجتِ إلا حبّاً لله ورسوله»(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرآن للعز بن عبد السلام ، وهواختصار تفسير الماوردي النكت والعيون (ص٥٨٨) دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
(٢) أخرجه البزار برقم (٢٢٧٢).

* ويمكن لنا الآن أن نستنتجَ بأنَّ هذه المبايعةَ النَّبويَّةَ للنّساء المؤمنات كانت في المدينةِ المنوَّرة ، لقوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة : ١٠] ، وهذا تصريحٌ واضحُ المعالم بأنَّ هذه البيعة الميمونة كانت في المدينةِ المنوّرة ؛ إذ إنَّ آيةَ بيعة النِّساء مَدَنيّة أيضاً .

* وهذا لا ينفي أن تكونَ هناك بيعةٌ ؛ هي بيعة العقبةِ الأولى ، حيث بايعَ النّبيّ ﷺ الأنصارَ الاثني عشر على بيعةِ النّساء ، وهذا يدلُ عليه حديث عبادة بن الصّامت ـ رضي الله عنه ـ قال : «بايعنا رسول الله ﷺ بيعةَ الحربِ على بيعةِ النِّساءِ على السّمع والطّاعة ، في عُسْرنا ويسْرِنا»(١) .

* ومن المُحْتَمل أنَّ النبيَ ﷺ كان يبايعُ أصحابه على بيعةِ النِّساء قبل نزول آية مبايعتهنّ(٢) .

* لقد بايعت السّيّدةُ سبيعةُ بيعةَ الحقّ على الحقّ ، والتزمت حدودَ البيعةِ وشروطها كما ينبغي ، فقد كان النبيُ ﷺ يبايعُ أصحابَه عند دخولهم في الإسلام على التزامِ أحكامه ، وكان أحياناً يبايعهم على ذلك بعد إسلامِهم ، تجديداً للعهد ، وتذكيراً بالمقام عليه ، ووفاءً له ، وحرصاً عليه .

* وفي الصَّحيحين عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ النَّبيَّ ﷺ أتى النّاس في يوم عيد ، وتلا عليهنّ هذه الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا . . .﴾ [الممتحنة : ١٢] ، وقال : «أنتنّ على ذلك»؟

فقالت امرأة منهنّ : نعم»(٣) .

* وفي قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ : نداءُ تشريفٍ وتعظيمٍ وتكريم للنّبي ﷺ حيث خصَّه اللهُ تعالى بذلك النّداء . وقوله ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ معناه : إنَّ المؤمناتِ مبايعاتٌ لك ، قاصدات للمبايعة ، على الشّروط المذكورة ، فبايعهنّ .

---

(١) انظر : تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٤٠٤) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٠٥) .

(٣) تفسير ابن رجب (٢/ ٤١٩) نقلاً عن البخاري (٢/ ١٢١٧) ، ومسلم (٣/ ١٨) .

* ومن بين المبايعاتِ لله ورسوله تأتي سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميّة مُسلمةً ، والنّبي ﷺ بالمدينةِ ، فأقبلَ زوجُها مسافر المخزوميّ؛ وقيل: صيفيّ بن الرّاهب ، فقال: «يا محمّدُ ، ارددْ عليَّ امرأتي ، فإنّك قد شرطتَ لنا أن تردَّ علينا مَنْ أتاكَ منّا ، وهذه طينةُ الكتابِ لم تجفّ» فنزلت الآيةُ تبين أنَّ الشّرط إنّما كان في الرّجال دون النّساء[1].

* وذكر ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعابِ» وابن الأثير في «أسد الغابة» وغيرهما أنّ السّيّدةَ المبايعةَ سبيعة بنت الحارث كانت امرأة سَعْد بن خولة ، فتوفي عنها بمكّة في حجَّة الوداعِ وهي حاملٌ ، فوضعتْ بعد وفاة زوجها بليال ، قيل: شهر ، وقيل: خمس وعشرون.

فقال لها أبو السَّنابل بن بَعْكَك: إنَّ أجلكِ أربعةُ أشهرٍ وعشْر. فلمَّا قال لها أبو السَّنابل ذلك ، أتتِ النّبي ﷺ ، فقالَ لها: «قد حللْتِ ، فانكحي مَنْ شئت» وبعضُهم يروي: «إذاً مَنْ ترضين فتزوّجي»[2].

* وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال[3]: «سُئِل عبد الله بنُ عبّاس ، وأبو هريرة ـ رضي الله عنهم ـ عن المرأةِ الحامل يُتوفى عنها زوجها.

فقال ابنُ عبَّاس: «آخر الأجلين».

وقال أبو هريرة: «إذا ولدت فقد حلّتْ».

فدخل أبو سلمة بن عبد الرّحمن على أمِّ سلمة زوجِ النّبيّ ﷺ ، فسألَها عن ذلك ، فقالت أمّ سلمة: «ولدتْ سُبيعةُ الأسلميةُ بعد وفاةِ زوجها بنصفِ شهر ، فخطبَها رجلان: أحدهما شابّ ، والآخر كهل ، فَحَطَّتْ إلى الشّاب ، فقال

---

(١) انظر: غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ١٩٣) ، وتفسير القرطبي (١٨/ ٤١) ، وانظر: غرر التبيان (ص٥٠٧) ومن الجدير بالذكر أن زوجها مسافر المخزومي لما أتى يستردها كان كافراً ، فلم يردها النبي ﷺ ، وأعطاه ما أنفق ، وتزوجها عمر رضي الله عنه (تفسير المراغي ١٠/ ٦٢).

(٢) انظر: الاستيعاب ترجمة رقم (٣٣٤٨) وللحديث أصل في صحيح مسلم برقم (١٤٨٤).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٥٨٩) باب عدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً. حديث رقم (٨٣).

الشيخُ: لم تحِلّي بَعْدُ، وكان أهلها غُيَّباً، ورجا إذا جاء أهلُها أنْ يؤثروه بها، فجاءت إلى النّبي ﷺ فقال: «قد حَلَلْتِ فانكحي مَنْ شئت».

* وأخرج الإمامُ مسلم في صحيحه قصّة سبيعة بنت الحارث الأسلمية في سندٍ رفعه إلى عبيد اللهِ بنِ عبد الله بن عتبة بن مسعود أنَّ أباه كتَبَ إلى عمرَ بنِ عبد الله بن الأرقم الزّهري، يأمره أنْ يدخل على سُبيعةَ بنتِ الحارث الأسلمية، فيسألها عن حديثها، وعما قال لها رسولُ الله ﷺ حينَ استفتَتْه، فكتبَ عمرُ بنُ عبد الله إلى عبيد الله بن عتبة يخبره: أنَّ سبيعَةَ أخبرته: «أنّها كانت تحتَ سعد بن خولة وهو في بني عامر بن لؤي، وكان ممّن شهدَ بدراً، فتوفي عنها في حجّةِ الوداع وهي حاملٌ، فلم تنشبْ أنْ وضعَتْ حملَها بعد وفاته، فلما تعلَّتْ من نفاسها تجملَتْ للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السَّنابل بن بَعْكك - رجلٌ من بني عبد الدَّار - فقال لها: مالي أراكِ متجمّلةً؟ لعلكِ ترجينَ النّكاح؛ إنّك واللهِ، ما أنتِ بناكح حتى تمرَّ عليك أربعةُ أشهر وعشرٌ.

قالت سبيعةُ: فلما قالَ لي ذلك، جمعتُ عليَّ ثيابي حين أمسيتُ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فسألتُه عن ذلك؟ فأفتاني بأنّي قد حللتُ حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتّزوّج إنْ بدا لي»[1].

* وتعتبرُ سبيعةُ بنت الحارث الأسلميّة واحدة من فقيهات الصّحابيّات، وإحدى راوياتِ الحديثِ النّبويِّ الشّريف، فقد روت عن النّبيِّ ﷺ عدّتها، وروى عنها: عمرُ بنُ عبد الله بن الأرقم، ومسروقُ بنُ الأجدع، وزفرُ بنُ

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في بابِ انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها، بوضع الحمل. حديث رقم (١٤٨٤). قال النّووي - رحمه الله - في التّعليق على هذا الحديثِ ما ملخصه: «أخذ بهذا جماهيرُ العلماء من السّلف والخلف، فقالوا: عدة المتوفى عنها بوضع الحمل، حتى لو وضعت بعد موت زوجها بلحظة قبل غسله انقضت عدتها، وحلت في الحالِ للأزواج، هذا قول مالك والشّافعي وأبي حنيفة وأحمد.. قال العلماءُ من أصحابنا وغيرهم: سواء كان حملها ولداً أو أكثر، كامل الخلقة، أو ناقصها، أو علقة، أو مضغة، فتنقضي العدة بوضعه إذا كان فيه صورة خلق آدمي، سواء كانت صورة خفية تختص النساء بمعرفتها، أم جلية يعرفها كل أحد، ودليله إطلاق سبيعة من غير سؤال عن صفة حملها».

أوس بن الحدثان ، وعبيد أبو سوية ، وعمرو بنُ عتبة بن فرقد[1] .

* قال ابنُ عبد البّر : «روى عنها فقهاء أهلِ المدينة ، وفقهاء أهل الكوفة من التّابعين حديثها هذا»[2] .

* روي لسبيعةَ عن رسولِ الله ﷺ اثنا عشر حديثاً ، وروى لها الجماعةُ والتّرمذي[3] .

* وروى عنها ابن عمر أنّ رسولَ الله ﷺ قال : «من استطاعَ منكم أنْ يموتَ بالمدينةِ فليمُتْ ، فإنّه لا يموتُ بها أحدٌ إلا كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يومَ القيامة»[4] .

* رضي الله عن المبايعة سبيعة وأجزل مثوبتها .

**ثالثاً: أميمةُ بنتُ بشر رضي الله عنها:**

* برزَ اسمُ هذه الصّحابية بين المبايعاتِ يوم البيعةِ بُعَيد الحديبية ، وقد ترجمَ لها ابنُ الأثير فقال : «أميمةُ بنتُ بِشْر ، من بني عمرو بن عوف ، أمُّ عبد الله بن سَهْل ، امرأةُ سهلِ بنِ حنيف؛ وكانت قبلُ تحت ثابت بن الدّحداحة ، ففرَّتْ منه وهو يومئذ كافرٌ إلى النّبي ﷺ ، فزوّجها سهْلَ بنَ حنيف ، وفيها نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ ﴾ [الممتحنة : ١٠][5] .

* وعلّق ابنُ الأثير نفسُه على هذه الرّواية بقوله : «قلتُ : هذا القول في نزولِ الآيةِ فيه بُعْدٌ ، لأنَّ بني عمرو بن عوف من الأنصار ، وهم بالمدينةِ ، وليسوا

---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/٤٧٨) ترجمة رقم (٨٩٠١) طبعة دار الفكر المحققة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م . وانظر : أعلام النساء (٢/١٤٨) .

(٢) الاستيعاب ترجمة رقم (٣٣٤٨) .

(٣) الاستيعاب ترجمة رقم (٣٣٤٨) ، وأسد الغابة (٥/ ٤٧٢) .

(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤/ ٧٤٧) .

(٥) أسد الغابة (٧/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية المحققة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٤م .

من المهاجرين حتى تنزلَ الآيةُ في هذه المرأةِ ، إنّما نزلت في المهاجراتِ بعد الحديبية ، منهنّ أمُّ كلثوم بنتُ عقبة بن أبي معيط»[1] .

## رابعاً: أمامة بنت حمزة رضي الله عنها:

* أمامةُ بنتُ حمزة بن عبد المطلب القرشيةُ الهاشميةُ ، إحدى المؤمناتِ التي جاء ذكرهنّ في تفسيرِ سورة الممتحنة ، وقد جاء ذكْرها عند القُرطبي في «تفسيره»[2] ، وعند البلنْسي في «تفسير مبهمات القرآن»[3] وعند الأدكاوي في «ترويح أولي الدّماثة»[4] ، وعند الصّالحي في «سُبل الهدى والرشاد»[5] وعند ابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة»[6] وحتى في ديوان شعر حسان بن ثابت[7] ، وغير ذلك من مصادرَ كثيرة.

* غير أنَّ آيةَ الممتحنة تدلُّ على أنَّها نزلت في السّيدة المبايعةِ أمِّ كلثوم بنت عقبة الأموية ، وعلى ذلك أجمعَ معظمُ المفسّرين وكتّاب السِّيرة والتّراجم.

* وأمامةُ بنتُ حمزة هذه اختلف مؤرِّخو سيرتها في اسمِها على أقوالٍ سبعة[8] ، ولم يجزمْ أحدٌ باسمٍ واحدٍ محدَّد ، غير أنَّ معظمَهم أشارَ إلى أنَّ اسمَها أمامةُ ، وبعضُ المصادر تشيرُ إليها بأنّها ابنةُ حمزة ، وهذا لا يضيرُ شيئاً

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٥٦).

(٣) انظر : تفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٢/ ٣٥٧ و٣٥٨ و٣٦٠ و٣٦١ و٣٦٢).

(٤) انظر : ترويح أولي الدماثة (٢/ ١٩٢).

(٥) انظر : سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٩٦ و٢٩٧).

(٦) انظر : غوامض الأسماء المبهمة (ص ٧٠٩) الخبر رقم (٢٥٠).

(٧) انظر : ديوان حسان بن ثابت (ص ٢١٨ و٢١٩).

(٨) قال علماءُ السّيرة والطبقات والتراجم: إنَّ اسمها: أمامة ، عمارة ، سلمى ، فاطمة ، أمة الله ، عائشة ، وبعضهم دعاها بكنية: أمّ الفضل ، أو أم أبيها.
قال ابنُ حجر : «أمامةُ هو المشهور» وترجم لها في الإصابة ، وعزاه لأبي جعفر بنِ حبيب ، وابنِ الكلبي ، والخطيبِ البغدادي في المُبهمات ، وسمّاها الواقدي عمارة ، وابن السَّكن فاطمة. (شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢/ ٢٥٩).

ما دامَ الأمرُ لا يتعلّقُ بالاسم ، بل بسببِ نزولِ الآية[1] في حقّ المؤمنات.

* وأمامةُ واحدةٌ من الفتياتِ اللواتي رضَعْنَ الإيمانَ من يَنْبوعه الدّافق بالوفاءِ والصّدق ، فقد نشأت بين أحضانِ أبوَيْن من ساداتِ الصّحابة وكبرائهم.

* فأبوها ، سيّدٌ من ساداتِ الفرسانِ ، وواحد من فتيانِ قريشٍ ، حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله رضي الله عنه وأرضاه.

* وأمّها سلمى بنتُ عميس ـ رضي الله عنها ـ وهي من السَّابقاتِ المبايعاتِ لرسولِ اللهِ ﷺ ، وهي أيضاً ممن نالتْ وساماً نبوياً عظيماً ، حيث قال عنها ﷺ وعن أخواتِها هذا الحديث المشهور: «الأخواتُ مؤمناتٌ»[2].

* وعاشت سلمى بنتُ عميس وابنتها أمامة في كنفِ حمزةَ بنِ عبد المطلب حيناً من الدّهر ، إلى أن كانت غزوة أُحُد ، فخاضَ غمارها ، وقاتل الكفّار ، حتى لقي اللهَ شهيداً ، وقد:

أُصِيبَ المُسْلِمون بهِ جميعاً    هُنَاكَ وقد أُصيبَ بهِ الرسولُ

* وفي سفْح جبلِ أحد كان مثوى الأسد الضّرغام حمزة رضي الله عنه ، ذاك الجبل الذي أحبّه النّبيُ ﷺ لأنّه يضمّ حمزة وصحبَه ، حمزة العمّ الأسد

---

(١) هي آية الممتحنة.

(٢) عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأخواتُ مؤمناتٌ: ميمونة بنت الحارث ، وأمُّ الفضل ، وسلمى ، وأسماءُ» (أخرجه النسائي في السّنن الكبرى برقم ٨٣٨٧).
وفي لفظ: «الأخواتُ الأربعُ مؤمنات: ميمونة ، وأم الفضل ، وسلمى ، وأسماء».
والأخواتُ المؤمناتُ الأربع هن:
١ ـ ميمونةُ بنتُ الحارث ـ أمّ المؤمنين ـ زوج النبي ﷺ.
٢ ـ وأمُّ الفضل بنتُ الحارث زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.
٣ ـ وأسماءُ بنتُ عميس زوج جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ.
٤ ـ سلمى بنتُ عميس زوج حمزة عم النبي ﷺ.
قال ابنُ عبد البر: «وأخواتُ أمّ الفضل لأبيها وأمّها: ميمونةُ بنتُ الحارث زوج النبي ﷺ ، ولبابةُ الصغرى ، وعصمةُ ، وعزةُ ، وهزيلةُ أخوات لأمّ وأب ، كلهنّ بنات الحارث بن حزن الهلالي. وأخواتهنّ لأمهنّ: أسماءُ ، وسلمى ، وسلامةُ بنات عميس الخثعميات ، فهنَّ ستُّ أخوات لأبٍ وأم ، وتسع أخوات لأم ، أمهنّ كلهنّ هندُ بنتُ عوف الكنانية. وهي العجوزُ التي قيل فيها: أكرمُ النّاس أصهاراً». (الاستيعاب ترجمة رقم ٣٤٤٥) بتصرف.

الشّجاع ، ولله درّ ابن جابر الأندلسي إذ يقول في سيّدنا حمزة :

عمُّ الرّسولِ شديدُ البأسِ حمزةُ مَنْ ... يُدعى لسطوتهِ في الحربِ بالأسدِ
فَعَنْ ندىٰ كفّه حدِّثْ ولا حَرَجٌ ... وعن مدى صيتهِ نبىءْ ولا تَحِدِ

* وكانت أمامةُ عندما حظي أبوها حمزة بالشّهادة لا تزالُ طفلةً لم تشبَّ عن الطَّوقِ بعد ، وعاشت بمكة في رعايةِ أمّها المؤمنةِ الصّابرة الصّادقة.

* وتمضي الأيّامُ إلى أنْ قدمَ رسولُ الله ﷺ من عمرةِ القضاء ، حيثُ اصطحب معه أمامة بنت حمزة ، وأخذها من مكّة إلى المدينةِ حيث يرقدُ أبوها حمزة قرب جبل أحد ، وراحت تسألُ عن مثواه حتى أرشدوها إليه؛ وبلغ هذا حسّان بن ثابت الأنصاري ، فانبعثتْ أنسامُ الشّعر وهمساتُه من بين شفتيه ، وراح يخاطبُ أمامةَ وينوّه ، بمناقب أبيها ويقول :

تُسائلُ عن قَرمٍ هَجان سَميدعٍ ... لدىٰ النّاس مِغوارِ الصَّباحِ جَسُور
أخي ثقةٍ يهتزُّ للعرفِ والنَّدىٰ ... بعيدِ المدىٰ في النَّائبات صبور
فقلتُ لها إنَّ الشهادةَ راحةٌ ... ورضوان ربٍ يا أُمامُ غفور
فإنَّ أباك الخير حمزةَ فاعلمي ... وزيرُ رسولِ اللهِ خيرُ وزير[1]

* وفي المدينةِ المنورة عاشتْ أمامةُ في كنفِ خالتها أسماءَ بنتِ عُميس ، حيث إنَّ : «الخالة بمنزلةِ الأم» ثم إنّ النبي ﷺ زوّج أمامة من سلمةَ ابنِ أمّ سلمةَ أم المؤمنين وقال : «هلْ جزيت سلمة» وذلك أنَّ سلمةَ هو الذي زوّج أمّه أمّ سلمة من رسولِ الله ﷺ[2].

* وظلتْ أمامةُ في المدينةِ بعد قدومها من مكّةَ ، وذكروا أنها قد روت الحديث[3] غير أنّنا لم نظفرْ بالمعلوماتِ التي تحدثنا عن وفاتِها وأخريات أيامها.

رضي الله عن أمامةَ وأحسنَ نُزُلَها.

* * *

---

(١) ديوان حسان بن ثابت (ص ٢١٩) ، و «أمام» : ترخيم أمامة.
(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ١٦٠) ودلائل النبوة (٤/ ٣٤٠).
(٣) أعلام النساء (١/ ٧٦).

# الفصلُ السّادسُ
# مِنَ المبايعاتِ بعد فَتْح مكّة المكرمة

* كانتِ البيعةُ يومَ فتحِ مكّةَ على الإيمانِ باللهِ عزّ وجلّ وتوحيده ، بشهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله؛ وعند الإمام البيهقي عن يومِ الفتح وبيعتهِ ﷺ: «فجاءَهُ الناسُ الكبارُ والصّغار والرّجال والنّساءُ ، فبايعهم على الإسلامِ والشّهادة». بعد أن عفا[1] عنهم وقال: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء».

* وقال ابنُ جرير الطبري: «ثم اجتمعَ النّاسُ بمكّةَ لبيعةِ رسولِ الله ﷺ على الإسلام ، فأخذَ على النّاس السَّمْع والطّاعة للهِ ولرسولهِ فيما استطاعوا ، فلما فرغَ من بيعةِ الرّجال ، بايع النّساء».

* وكان من المبايعاتِ في فتح مكّة: هندُ بنتُ عتبة ، وريطةُ بنتُ منبّه السّهميّة أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، والبغومُ بنتُ المُعَدَّل امرأة صفوان بن أميّة ، وأميمةُ بنتُ سفيان ، وأمُّ مرثد الأسلميّة ، وأروى بنتُ أبي العاص

---

(١) ما أجملَ العفو عند المقدرة! ما أعظمَ هذه النفس التي سمت كل السّمو ، فارتفعتْ فوقَ الحقدِ وفوقَ الانتقامِ ، وبلغتْ من النّبل فوق ما يبلغُ الإنسان! هؤلاء قريش يعرف النبي ﷺ منهم من ائتمروا به ليَقتلوه ، ومَنْ عذّبوه وأصحابه من قبل ذلك ، ومَنْ قاتلوهُ في بدر وأحدٍ ، ومن حصروهُ في الخندق ومن ألّبوا عليه العرب جميعاً ، هؤلاء جميعاً الآن في قبضة النبي ﷺ ، أمرهُ نافذٌ في رقابهم ، وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه . . لكنَّ النبي الكريم ﷺ ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريدُ بها أنْ تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبّار ولا بالمتكبّر ، لقد أمكنه الله عز وجل من عدوه ، فَقَدَر فعفا ، فضربَ بذلك للعالم كلّه ولأجياله جميعاً مثلاً في البرّ والوفاء بالعهد ، وفي سمو النّفس سموّاً لا يبلغه أحد . . (حياة محمد ص ٤٢٢) بشيء من التصرف والاختصار والتغيير .

الأمويَّة ، وآمنةُ بنت عفّان ، وعقيلةُ بنتُ عتيك العتواريَّة ، وفاطمةُ بنتُ الوليد ، وأمُّ حكيم بنت الحارث ، وأمُّ الحكَم بنت أبي سفيان وغيرهنّ ، وإليكم تراجم بعضهنّ .

## أولاً: هند بنتُ عتبة رضي الله عنها:

* هندُ بنتُ عتبة العبشميّة القرشيّة أمُّ معاويةَ بن أبي سفيانَ ، من النّسوة اللواتي بايعنَ رسولَ الله ﷺ ، أسلمتْ يومَ فتحِ مكة ، وروت عن النّبي ﷺ؛ وروى عنها ابنها معاويةُ ، وعائشةُ أمُ المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين[١] .

* كانت هند رضي الله عنها واحدةً من عقيلاتِ قريش حزماً ورأياً ، وفصاحةً وبلاغةً ، بل كانت واحدةً من شاعراتِ[٢] العربِ الفصيحات ، «وهي معروفةٌ بأنّها سيدةٌ بنتُ سادات؛ كريمةٌ لبيبةٌ نجيبةٌ شريفة»[٣] .

* اشتهرتِ السّيّدةُ هند بالحكمةِ ، والفِراسةِ ، والأنفةِ ، والعقلِ ، والكرمِ ، والحصافة ، والذّكاء ، ومَنْ أصدقُ من ابنها معاوية رضي الله عنهما عندما ذكرَها بقوله مشيراً إلى مكانتها : «واللهِ؛ إنّها في الجاهليةِ عظيمةُ الخطر ، وفي الإسلام كريمةُ الخبر»؟! .

* وعندما ذكرها الذّهبيُ في تاريخه أثنى عليها فقال : «كانت هندُ من أحسنِ نساءِ قريش وأعقلهنّ»[٤] .

* وقال عنها ابنُ عبد البر : «هند بنتُ عتبة أمُّ معاوية كانت امرأةً لها نفْسٌ وأنَفةٌ»[٥] وقال : «ثم ختمَ اللهُ لها بالإسلام ، فأسلمتْ يومَ الفتح»[٦] .

* وقال ابنُ الأثير في مفتتح ترجمته لها : «هندُ بنتُ عتبة القرشيّة الهاشميةُ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٣٧) .
(٢) انظر : شاعرات العرب (ص ٤٦٤ ـ ٤٦٩) .
(٣) جمهرة النساء وأعلامهن لهزاع الشمري (ص ٧٨٧) دار أمية ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٠هـ .
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٣٩٨) .
(٥) الاستيعاب (١٣/ ١٧٨ و١٧٩) .
(٦) الاستيعاب (١٣/ ٨١) .

أمّ معاوية ، أسلمتْ في الفتحِ بعد إسلامِ زوجها أبي سفيان ، كان بينهما في الإسلام ليلة واحدة ، وكانت امرأةً لها نفسٌ وأنفةٌ ، ورأيٌ وعقْلٌ. . . »[1].

* وقال النّووي: «هندُ بنتُ عتبة القرشية العبشميّة أمّ معاوية بن أبي سفيان ، أسلمت في الفتحِ بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة ، وحسُنَ إسلامها ، وشهدت اليرموكَ معَ زوجها أبي سفيان»[2].

* هذه نفحةٌ عن هند بنت عتبةَ القرشيّة العبشمية التي ملأت أخبارُها صفحاتِ التّأريخ النّسوي.

* تذكرُ المصادرُ المتنوِّعَةُ أخباراً طريفةً عن هند أقربُ إلى الأسطورةِ منها إلى الحقيقةِ ، ومن هذه الأخبار أنّها كانت زوجاً للفاكه بن المغيرة المخزوميّ أحد فتيان قريش المضْيافين ، ولكنّه أساءَ إلى هندٍ وتقوّلَ عليها ، فذهب بها أبوها إلى أحدِ كهّان اليمنِ فبرّأها ، وضربَ على كتفها وقال لها: «انهضي أيّتها الحرةُ ، غير قبيحة ، ولتلدنَّ ملكاً يُقال له مُعاوية!»!! فقامَ إليها الفاكهُ فأخذ بيدها ، فنثرتْ يدهَا من يدهِ وقالت: «ابتعدْ عنّي» فو اللهِ لأحرصنَّ على أنْ يكونَ ذلك من غيرك» ، فتزوجّها أبو سفيان ، فجاءتْ بمعاوية[3]!!!. .

* لهند رضي الله عنها أخبارٌ طريفة أخرى مع زوجها أبي سفيان ، فقد ذكروا أنَّ أبا سفيان سافر سفراً طويلاً حتّى تضرَّر من الغربةِ ، فاشترىٰ جاريةً ، فبلغ ذلك هنداً ، فغضبتْ عليه ، وكتبتْ إليه تقول:

يا قَليلَ الوفَاءِ ما كانَ فيما كانَ منَّا إليكَ مَا ترعَانَا
كيفَ يبقىٰ لكَ الجديدُ من النَّا سِ إذا كنْتَ تطرحُ الخُلْقَانَا[4]

* وكانت هندُ عاليةَ الهمةِ ، بعيدةَ النّظر ، حصيفةً ، سديدة الرَّأي قال أبو هريرة رضي الله عنه ما يؤكّد مقولتنا: «رأيتُ هنداً بمكة كأنَّ وجهَها فلقةُ

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٢٨١) بتصرف يسير.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (ص ٦٢٠).

(٣) انظر: تاريخ دمشق (تراجم النساء ص ٤٤٠ و٤٤١) بتصرف واختصار ، ونحن نشك في صحة هذه القصة ونعتقد بأنّها حيكت في غفلةٍ عن أعين أهل البصيرة.

(٤) المصدر السابق عينه (ص ٤٤٦) بتصرف يسير.

قمر ، ومعها صبيٌ يلعبُ ، فمرَّ به رجل فنظرَ إليه ، فقال : إنّي لأرىٰ غلاماً إنْ عاشَ ليسودنَّ قومَه . فقالت هند : إنْ لم يسُدْ إلا قومه فأماتَه اللهُ؛ وهو معاوية بن أبي سفيان»[1] .

* ربّت هندُ معاويةَ رضي الله عنهما على حبِّ الفضائل ومعالي الأمور ، وكانت ترىٰ فيه مخايل السُّؤدد ، والنّجابة ، والحلم ، والنّباهة ، ذكروا أنّها كانت ترقّصُه وهو صغيرٌ وتنشد :

إنّ بُنـــي مُعْـــرِقٌ كَـــريـــم مُحبّـــبٌ فـــي أهْلِـــهِ حَليـــم
ليـــسَ بفحّـــاشٍ ولا لَئيـــم ولا بِطُخْـــرور ولا ســـؤُوم
صَخْـــرُ بنـــي فِهْـــر بـــه زعيـــم لا يُخْلِـــفُ الظَّـــنَّ ولا يخيـــم[2]

* كان معاويةُ رضي الله عنه نابغةً حليماً كريماً كما توقّعت أمّه هند ، حتى إنّ سيدنا عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه لما ولّى ابنها معاويةَ الشام[3] قالت له : «يا بنيّ ، واللهِ إنّه لقلّما ولدتْ حرّة مثلك ، وقد استنهضكَ عمرُ ، فاعملْ بموافقته أحببتَ ذلك أمْ كرهتَه» .

* لقد كانت هندُ تؤمّل في معاويةَ آمالاً كبيرةً وأموراً عظيمة ، وهي كما قالت : «إنّه سيسودُ العرب جميعاً» ولذلك لما قال لها أبو سفيان مرّة : «إنّ ابني

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ولهذا كان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر والمباهاة انتسب مفتخراً إلى أمه قائلاً : «أنا ابن هند» .
(٢) شاعرات العرب (ص ٤٦٥) ومعنى «طخرور» : غريب ، و«يخيم» : يجبن ويخاف .
(٣) للذهبي كلامٌ جميل في هذا المقام ، حيث أشار إلى مناقب معاوية فقال : «حسبُك بمن يؤمِّره عمر ، ثم عثمان على إقليم ـ وهو ثَغر ـ فيضبطُه ، ويقومُ به أتمَّ قيام ، ويرضي النّاس بسخائهِ وحلمه ، وإنْ كان بعضُهم تألّم مرَّةً منه ، وكذلك فليكنِ الملك ، وإن كان غيره من أصحابِ رسولِ الله ﷺ خيراً منه وأفضلَ وأصلح ، فهذا الرجلُ سادَ ، وساسَ العالَم بكمال عقْلِه ، وفرطِ حلمه ، وسعةِ نفسه ، وقوةِ دهائه ورأيه ، وله هناتٌ وأمورٌ ، والله الموعد. وكان محبباً إلى رعيته ، عمل نيابةَ الشّام عشرين سنة ، والخلافة عشرين سنة ، ولم يهِجهُ أحدٌ في دولتهِ ، بل دانتْ له الأممُ ، وحكمَ على العرب والعجم ، وكان ملكه على الحرمينَ ، ومصر ، والشّام ، والعراق ، وخراسان ، وفارس ، والجزيرة ، واليمن ، والمغرب ، وغير ذلك . . . » (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٣٢ و١٣٣) .

هذا لعظيمُ الرّأس ، وإنّه لخليق أنْ يسودَ قومه».

قالت هند: «قومُه فقط؟! ثكلتُه إنْ لم يَسُدِ العربَ قاطبة»[1].

* وصدقتْ فراسةُ هند وخبرتها وحدسها ، فقد قال عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما في معاوية: «ما رأيتُ أحداً بعد رسولِ الله ﷺ أسْودَ من معاوية».

فقيل له «فأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهم»؟![2] فقال: «كانوا واللهِ خيراً من معاويةَ ، وكان معاوية أسود منهم ـ أي أكثر سيادةً منهم ـ»[3].

* ولما نزلَ الوحيُ على سيّدنا محمَّد ﷺ وأمره الله بتبليغِ الدَّعوة ، حرصَ ﷺ على أنْ يهتديَ النّاس ، ويدخلوا في دينِ الله ، وينغمسوا في رحمتهِ ، فكان يدعو الواحدَ والاثنين والجماعة ، وذات مرّةٍ دعا ﷺ أبا سفيان وهنداً إلى الإسلام ولكنّهما لما يستجيبا مع علمهما أنَّه على حقٍّ ، وقد شهدَ على هذا شاهدٌ من أهلهما ، وهو معاويةُ رضي الله عنهم أجمعين قال: «خرج أبو سفيان إلى باديةٍ له مُردفاً هنداً ، وخرجتُ أسيرُ أمامهما وأنا غلامٌ على حمارةٍ لي إذ سمعنا رسولَ الله ﷺ ، فقال أبو سفيان: انزلْ يا معاويةُ حتى يركبَ محمدٌ؛ فنزلتُ عن الحمارةِ ، وركبَها رسولُ الله ﷺ فسارَ أمامنا هنيهةً ، ثم التفتَ إلينا فقال: «يا أبا سفيان بن حرب ، ويا هند بنت عتبة ، واللهِ لتموتنَّ ، ثم لتبعثنّ ، ثمّ ليدخلنَّ المُحسنُ الجنّةَ والمسيءُ النّار ، وأنا أقولُ لكم بحقّ ، وإنّكم لأوّلُ

---

(1) البداية والنهاية (٨/ ١١٨).

(2) وما أجمل ما جاء في متن الشَّيبانيّة في مقامِ هؤلاء الأطهار:

ونشهــدُ أنَّ اللهَ خــصَّ رسـولَـه ... بـأصحـابـهِ الأبـرارِ فضـلاً وأيّـدا
فهـم خيـرُ خلـقِ اللهِ بعـد أنبيـائـهِ ... بهـم يقتـدي فـي الـدِّين كـلُّ من اقتدىٰ
وأفضلهـم بعـد النَّبـيّ محمّـدٍ ... أبـو بكـرٍ الصّدّيـقُ ذو الفضْـلِ والنّدىٰ
ومـنْ بعْـدِهِ الفـاروق لا تَنْـسَ فضلَـهُ ... لقـد كـان لـلإسـلامِ حصنـاً مُشَيَّـدا
وعثمـانُ ذو النُّوريـن قـد مـاتَ صـائمـاً ... وقـد قـامَ بـالقـرآنِ دهـراً تَهجُّـدا
ولا تَنْـسَ صِهْـرَ المصطفـى وابـنَ عمِّـهِ ... فقـد كـان حَبْـراً للعُلـوم وسيِّـدا
فكلُّهـمُ أثنـى الإلـهُ عليهـمُ ... وأثنـى رسُـولُ اللهِ أيضـاً وأكّـدا

(مجموع مهمّات المتوت ص ٣٧ و٣٨) باختصار

(3) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢ و١٥٣).

مَنْ أُنذرتم». ثم قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١١]؛ فقال له أبو سفيان: أفرغْتَ يا محمد؟ قال: «نعم»؛ ونزلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن الحمارة، وركبتُها، وأقبلتْ هندُ على أبي سفيان فقالت: ألهذا السّاحر أنزلتَ ابني؟

قال: لا واللهِ ما هو بساحرٍ، ولا كذّاب[1]».

* وجاءت غزوةُ بدر، وخرجَ المسلمون ومعهم أبو حذيفةُ بنُ عتبة أخو هند، بينما كان في صفّ المشركين أبوها وأخوها الآخر وعمّها شيبة وزوجها، ولما بدأتِ المعركةُ دعا أبو حذيفة أباه عتبةَ إلى المبارزةِ، فنمي الخبر إلى هندٍ فقالت تهجوه:

الأحْولُ الأثْعَلُ المذمومُ طائرهُ     أبو حذيفةَ شرُّ النَّاسِ في الدِّيْن
أمَا شكَرْتَ أباً رَبَّاكَ من صِغَرٍ     حتّى شببتَ شباباً غيرَ مَحْجُون[2]

* وقُتلَ السّادةُ العبشميون، ورُمُوا في بئرٍ ببدرٍ، وولّى سادةٌ آخرون الأدبارَ كاسفو البالِ، خاشعو الأبصارِ، ذليلو الحالِ، ووصلوا مكّةَ فلم يصدقْ أهلها الخبر إلى أنْ توالتِ الأنباءُ تحكي هزيمتَهم المنكرة، هنالك كثرَ نواحُ نساء قريش على القَتْلى، وجزن شعورهنّ، وندبنَ مَنْ مات، إلا هندُ بنتُ عتبة لم تصنعْ شيئاً من هذا، ومشىٰ نساءٌ نائحاتٌ من قريش إلى هندٍ وقلْنَ لها: «ويحك يا هندُ، ألا تبكينَ أباكِ وأخاكِ وعمّكِ وأهل بيتكِ»؟!

فقالت: «ويحكنّ، أنا أبكيهم فيبلغُ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا، ويشمتُ نساء بني الأوس والخزرج، لا والله؛ لا أبكي حتى أثأرَ من محمدٍ وأصحابه، والدهنُ عليَّ حرامٌ حتّى نغزوَ محمداً، والله لو أعلم أنَّ الحزن يذْهَبُ من قلبي لبكيتُ، ولكنْ لا يذهبُ حزني إلا أن أرىٰ ثأري بعيني من قَتَلَةِ الأحبّة».

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٢٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٦٦)، ومعنى «الأثعل»: مرادف الأسنان، و«محجون»: معوج، والمعنى: نشأت شاباً مستقيماً فكيف تبارز أباك.

* وجاءت غزوةُ أحد ، وخرجتْ هندُ على رأسِ خمس عشرة امرأة منهنّ: أُميمةُ بنتُ سعد بن وهب الكنانية ، بَرْزَةُ بنت مسعود الثّقفيّة؛ البغومُ بنتُ المُعَدَّل ، سُلافةُ بنتُ سعد بن شُهيد ، أمُّ حكيم بنتُ الحارث بن هشام ، فاطمةُ بنت الوليد بنِ المغيرة ، هند بنت منبّه بن الحجاج ، خُنَاسُ بنتُ مالك بن المضُرِّب ، رملةُ بنت طارق بن علقمة ، أمُّ حكيم بنت طارق ، قتيلةُ بنت عمرو ابن هلال، الدُّغُـنّـيَّـةُ أمُّ النّعمان وجابر ابنا مَسلك الذئب ، وعمرة بنتُ الحارث ابن علقمة[1].

*وكانت هندُ قد أغرتْ وحشيَ بنَ حرب وأوغرتْ صدره على أنْ يأخذَ لها بثأرِها من حمزةَ بنِ عبد المطلب رضي الله عنه الذي جندلَ أباها وجعله كأمسِ الدابرِ في غزوة بدر ، ووفّى وحشيٌ وعدَهُ المشؤوم ، وغدرَ بحمزةَ أسدِ الله وأسد رسوله ، وبَقَرَ بطْنَه؛ وقيل: «إنَّ الذي مثَّل بحمزة بن عبد المطلب معاويةُ بنُ المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، وقتلَهُ النّبي ﷺ صبراً منصرفَه من أُحُد»[2].

* وقال المصعب الزبيري: «معاويةُ بنُ المغيرة بن أبي العاصي ، قتلَهُ النبيُ ﷺ صبراً منصرفه من أحدٍ ، وهو الذي مثَّل بحمزةَ بنِ عبد المطلب بأُحُد»[3].

* ويؤيّد هذا القول ما جاء عن السّيدة المجاهدةِ المقاتلةِ نسيبةَ بنتِ كعب أمّ عمارة رضي الله عنها عندما قيل لها: «هل كنّ نساء قريشٍ يومئذ يقاتلنَ مع أزواجهنّ»؟

فقالت أمّ عمارة رضي الله عنها: «أعوذُ باللهِ ، لا واللهِ ، ما رأيتُ امرأةً منهنّ رمَتْ بسَهْم ولا بحجر ، ولكنْ رأيت معهنّ الدّفاف والأكبار ـ الطّبول ـ يضربنَ ويُذكِّرن القومَ قتلى بَدْرٍ ، ومعهنّ مكاحلَ ومراودَ ، فكلما ولّى رجلٌ أو تأخّر ،

---

(١) انظر: المغازي (١/ ٢٠٢ و٢٠٣) بشيء من التصرف.
(٢) الاستيعاب (١٣/ ١٨٠ و١٨١)؛ وانظر: نسب قريش (ص ١٧٣) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ١١٠) ومعنى «صبراً»: حبساً.
(٣) نسب قريش (ص ١٧٣) ، وانظر كذلك: الوافي بالوفيات للصفدي (٢٧/ ٢٣٠).

ناولتْهُ إحداهنّ مروداً ، أو مكحلةً ، ويقلنَ: إنما أنتَ امرأةٌ؛ ولقد رأيتهنَّ ولّينَ منهزماتٍ مشمراتٍ ـ وقد سَهَا عنهنّ الرجالُ أصحابُ الخيل ، ونجوا على الخيل ـ يتبعنَ الرجالَ على الأقدام ، فجعلنَ يسقطنَ في الطريق ، ولقد رأيتُ هندَ بنتَ عتبة قاعدةً خائفةً من الخيل ما بها مشيٌ ومعها امرأةٌ أخرى ، حتى كرَّ القومُ علينا ، فأصابوا منّا ما أصابوا ، فعندَ اللهِ نحتسبُ ما أصابنا يومئذ من قِبَلِ الرّماة ومعصيتهم الرّسول ﷺ»[١] .

* أمّا ما أُشيع بشدَّة من أنَّ هنداً قد شقّتْ بطنَ سيدنا حمزةَ رضي الله عنه ، وأخرجتْ كبده ومضغتها ، وفي بعض الرّوايات: أنها شَوتْ من الكبد ثمّ أكلت[٢]!!! فهذه القصةُ فيها نظرٌ وتحتاجُ إلى رويّة أكثر لأنَّها ممطوطة منفوخة مضطربة، وقد وقع في هذا الاضطراب كثير من القدماء والمحدثين المعاصرين.

* وممن تخبّط في هذا الأمر وخلط فيه محمد حسين هيكل إذا قال بأن هنداً والنّسوة وما فعل الرّجال ..... دون التّركيز ، وسأسوق لك كلامه حتى

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٤٧ و٤٤٨) بتصرف يسير جداً جداً. وجاء في المغازي مايؤيد مقولة السَّيدة نسيبة. إذ ذكَرَ الواقدي هذا فقال: «... وأقاموا النّساء خلفَ الرّجال بين أكتافهم يضربْنَ بالأكبارِ والدّفوفِ ، وهند وصواحبُها يحرّضن ويَذْمرنَ الرّجال ويذكرن مَنْ أصيب ببدر ويقلن:

نحـــــنُ بنـــــاتُ طـــــارقْ ... نمشـــــي علـــــى النّمـــــارقْ

إنْ تقبلُـــــوا نعـــــانـــــقْ ... أو تـــــدبـــــروا نفـــــارقْ

فـــــراقَ غيـــــرِ وامـــــق»

(المغازي ١/ ٢٢٥).

وفي موضع آخر قال الواقدي: «... وقد روى كثيرٌ من الصَّحابةِ ممن شهد أحداً ، قال كلُّ واحد منهم: واللهِ إنّي لأنظرُ إلى هندٍ وصواحِبها منهزمات ، ما دون أخذهنّ شيءٌ لمن أرادَ ذلك..». (المغازي ١/ ٢٢٩).

(٢) انظر: مثلاً: المصباح المضيء لابن حديدة الأنصاري (ص ٩١) ، دار الندوة الجديدة ط١ ١٩٨٦م كما وضعوا أبياتاً على لسانها تؤكد ذلك انظر المصباح المضيء (ص ٩٢) ونقول: «وقد أصبح بعضهم يدعو هنداً بألقابٍ مسجوعة مثل: هند الهنود ، آكلة الكبود.. وما شابه ذلك ، في حين أنَّ لفظ «هند الهنود» هو مديحٌ وليس من باب الذّم ، نسألُ اللهَ أنْ يهدينا إلى الصَّوابِ ، وأنْ يعفوَ عنّا».

نعرف الصواب ، قال: «أما هندُ بنتُ عتبةَ فلم يكفِها النَّصْرُ ، ولم يكفها قتْل حمزة بن عبد المطلب ، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمثّلن بالقتلى من المسلمين ، يَجْدَعْنَ الآذان والأنوف ، وجعلت هند لنفسها منها قلائدَ وأقراطاً ، ثم إنَّها بقرتْ بطنَ حمزة وجذبت بين يديها كبده ، وجعلَتْ تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغَ من شناعةِ ما فعلت ، وما فعلت النسوة ممن معها ، بل ما فعل الرّجال كذلك من الفظائع ، أنْ تبرّأَ أبو سفيان ـ زوج هند ـ من تبعتها ، وأعلنَ أنّه لم يأمرْ به وإن كان قد اشترك فيه ، بل قال يخاطبُ المسلمين: أنَّه قد كان في قتلاكم مَثلٌ ، واللهُ ما رضيتُ ، وما سخطتُ ، وما نهيت ، وما أمرت»[1].

* ويمكننا الآن أن نقولَ: «لقد شاعت قصّةُ تمثيل هندٍ بحمزةَ رضي الله عنهما حتى غدتْ من المُسلَّمات لدى كثيرٍ من الناس وبعض المثقَّفين ، ويحرمُ النّقاشُ فيها أو ردّها أو نَقْدها ، ويعتبرُ مَنْ يريدُ أنْ يضعَ النّقاط على الحروف في هذه القصّة من الخارجين عن قانونِ الضَّبط والتّصحيح ، أو تقويم بعض المفاهيم المضطربة وإزالة الغَبَش والضّباب عنها. ولا شك في أنّنا قد لاحظنا أنَّ معظمَ الرّواياتِ التي تحدثت عن قصّة هند وحمزة مضطربةٌ ، وأحياناً تستخدمُ لفظ: قيل ، أو زعموا ، أو إنّ النّساء مع هند خرجْنَ ومثّلْنَ بقتلى المسلمين؛ وما شابهَ ذلك من مثل قولهم: يقال إنَّ وحشياً هو الذي بقرَ بطْنَ حمزةَ رضي الله عنه. . . قد تكونُ هند ممّن مثّلَ بالقَتْلى مع الرّجال والنّساء ، ولكنها لم تكنْ وحدَها في ذلك الميدان تقطعُ الآذان وتجدعُ الأنوف. . . . المهمُّ في النِّهاية أنَّ سيّدنا حمزةَ كان شهيداً وهو ممن اتّخذهم اللهُ شهداء وهم عنده ممّن يُرزقون فرحين بما آتاهم من فضْلهِ؛ وأنَّ هنداً أسلمتْ وبايعتْ وجاهدتْ وصدقتْ ووفتْ بيعتها ، ثم إنَّ اللهَ عز وجل قد وعدَ الحسنى لِكِلا الفريقَيْن وهو أرحم الرّاحمين وهو المتصرّف في الأمور ، وهو فعّال لما يريد».

* ولهند رضي الله عنها مروءةٌ وهمةٌ ووفاءٌ ، فقد كانت ذاتُ صفاتٍ

---

(١) حياة محمد (ص ٣٠٠).

وفضائلَ ومكارمَ تستحقّ التّسجيل وهي لا تزالُ في جاهليَّتها لم يُفتَح عليها بالإسلام. من ذلك أنَّ سيِّدتنا زينبَ بنتَ رسول الله ﷺ لما أرادتِ الهجرةَ إلى المدينة ، منعها المشركون ، وآذوها ، وذلك بعد غزوة بدر ، فما كان من هند بنتِ عتبة إلا أن سَخِرتْ منهم وقالت تعيرهم:

أفـي السِّلـم أعيـاراً جفـاءً وغلْظَـةً وفي الحربِ أشباه النّساء العَوارِكِ[1]

* ولما سجى الليلُ وهدأتِ العيونُ ، دلفت هندُ إلى زينبَ وقالت لها: «بلغني عزمُكِ على الرَّحيلِ إلى المدينة» ثم عرضت عليها المساعدة بكلّ ما تقدر عليه امرأة شهمة في ذلك الحين ، فشكرتْ لها زينبُ شهامتَها.

* أما رحلةُ هند مع الإسلام والبيعةِ والمبايعاتِ فإنّها قالت لزوجها أبي سفيان: «إنّما أريدُ أنْ أتابعَ محمداً».

قال أبو سفيان: «يا هندُ قد رأيتك تكرهينَ هذا الحديث أمسِ».

فقالت هند: «إنّي واللهِ يا أبا سفيان ما رأيتُ أنْ عُبِدَ الله حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، واللهِ إنْ يأتوا إلا مُصلّين قياماً وركوعاً وسجوداً».

قال أبو سفيان: «يا هندُ؛ إنَّك قد فعلتِ ما فعلتِ ، فاذهبي برجلٍ من قومكِ معكِ».

فذهبت هندُ إلى عثمانَ ـ وفي روايةٍ إلى عمرَ ـ ومعها نسوةٌ ممن أسلمْنَ ، فذهبَ فاستأذنَ لها ، فدخلتْ متنقِّبةً متنكِّرةً؛ فقالت: «يا رسولَ اللهِ؛ الحمدُ للهِ الذي أظهرَ الدِّينَ الذي اختاره لنفسهِ لتَنْفَعَني رحمُك يا محمَّدُ ، إنّي امرأةٌ مؤمنةٌ باللهِ ، مصدِّقةٌ برسولهِ ، ثم كشفَتْ عن نقابِها ، وقالت: أنا هندُ بنتُ عتبة».

فقال لها النّبي الكريم ﷺ: «مرحباً بكِ».

ثم إنَّ النّبيَ الكريم ﷺ قرأَ عليهنَّ القرآنَ وبايعهنَّ وقال: «تبايعنني على ألا تشركْنَ باللهِ شيئاً».

---

(١) «السلم»: الصلح. و«أعيار»: جمع عير ، وهو الحمار ، و«العوارك»: النساء الحوائض. وتقصد هند أنهم هزموا في بدر كالعير ، وهم كالعوارك في الحرب لا حيلة لهم ولا قوة.

فقالت هند: «واللهِ إنّك لتأخذُ علينا أمراً ما تأخذُهُ على الرّجال، وسنؤتيكَهُ».

قال: «ولا تسرقْنَ».

قالت: «واللهِ إنْ كنتُ لأصيبُ من مالِ أبي سفيان الهَنَةَ والهَنَةَ، وما أدري أكانَ ذلك حلالاً لي، أمْ لا!».

فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول ـ: «أمَّا ما أصبتِ فيما مضى فأنتِ منه في حلّ».

فقال النّبي ﷺ: «وإنّكِ لهندُ بنتُ عتبة».

فقالت: أنا هندُ بنتُ عتبة، فاعْفُ عمّا سلَف عفَا الله عنك.

قال: «ولا تزنينَ».

قالت هند متعجّبة: «يا رسولَ اللهِ هل تزني الحُرّةُ؟!».

قال: «ولا تقتلنَ أولادكنَّ».

قالت: «قد ربّيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنتَ وهم أعلمُ».

قال: «ولا تأتينَ ببهتانٍ تفترينَه بين أيديكنّ وأرجلكنّ».

فقالت: «واللهِ إنَّ إتيانَ القبيحِ لَبُهتان».

قال: «ولا تعصينَني في معروف».

قالت: «ما جلسنا هذا المجلس ونحنُ نريدُ أنْ نعصيَكَ في معروفٍ».

فقال رسولُ اللهِ ﷺ لعمر: «بايعهنَّ واستغفرْ لهنّ اللهَ».

فبايعهنّ عمر، وكان رسولُ اللهِ ﷺ لا يصافحُ النّساء، ولا يمسُّ امرأةً ولا تمسُّه امرأةٌ، إلا امرأة أحلّها الله، أو ذات مَحْرمٍ منه[1].

* هذه قصةُ بيعةِ هند، وقد صاغها شعراً لطيفاً أحمد محرم في ديوانه

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٦ و٢٣٧)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٤٩ ـ ٤٥٨) مع الجمع والتصرف.

الشّهير «مجد الإسلام» فكان ممّا قال هذه الأبيات الجميلة:

يا هندُ حسبكِ مغنماً وكَفَاكِ ... إنَّ الذي يهدي النّفوسَ هداكِ
أقبلتِ ترخينَ القناعَ حَييّةً ... تخفينَ نفْسَكِ والنّبي يَراكِ
أو لستِ هنداً قُلتِ في خَجلٍ بلىٰ ... لا تخْجلي فاللهُ قد عَافَاكِ
يا هندُ إنَّ الحقَّ أعظمُ صولةٍ ... من أنْ يهابَك أو يهابَ أباكِ
ما مثلُه إنْ رمْتِ في الدّنيا أباً ... يا بنتَ عتبةَ منْ أبٍ يرعاكِ
مَنْ قدّم الدُّنيا فليسَ ببالغٍ ... ما قدّمت عندَ الرّسولِ يداكِ
بايعتِ أهدىٰ العالمين طريقةً ... ورضيتِ منه مهذّباً يرضاكِ
أعَجبتِ إذ ذكرَ الفواحشَ هادياً ... فنهىٰ اللواتي جئنَه ونَهاكِ
عارُ الزّنى يُخزي الوجوهُ وشرُّهُ ... يرمي البلادَ وأهلَها بهلاكِ
يا هندُ إنَّ اللهَ أمْضَى حكْمَهُ ... فكَفَاكِ سُوءَ عذابهِ ووقَاكِ
أوتيتِ زادك منْ تقىً وهدايةٍ ... فتزوَّدي سُبحان مَنْ نجّاكِ[1]

* ومناقبُ هندٍ كثيرةٌ منها أنّها أهدتِ للنّبي ﷺ جَدْيَيْن مشويَيْن بعد فتح مكة، فدَعا لها بالبركةِ، ومنها أنّها عندما أسلمتْ سارعتْ إلى صنمٍ لها فجعلته جُذاذاً بالقدوم وتقول: «طالما كُنّا منكَ في غُرور»[2].

وكانت تقول دائماً: «الحمدُ للهِ الذي هَدانا للإسلامِ»[3].

* ومن بدائعِ أقوالها في النّساء قولُها في المرأة: «إنّما النّساء أغلالٌ، فليتخذِ الرَّجلُ غِلاً ليده».

وحافظتِ السّيّدةُ هند على بيعتها يومَ الفتح، فعندما أخذتْ جيوشُ المسلمين تتجه غازيةً بلادَ الشّام، شاركت فيها، وكانت ممن حضرَ معركةَ

---

(١) ديوان مجد الإسلام (ص ٣٧٥) باختصار.
(٢) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٨١).
(٣) انظر: المصدر السّابق نفسه. ومن الجدير بالذكْر أنَّ السَّيِّدة هند بنت عتبة رضي الله عنها كانت تقول دائماً: «الحمد لله الذي هدانا للإسلام»، ثم كانت تقول: «لقد كنتُ أرىٰ في النّومِ أنّي في الشَّمسِ أبداً قائمة، والظّلّ منّي قريبٌ لا أقدرُ عليه، فلما دنا رسول الله ﷺ منّا رأيتُ كأنّي دخلتُ الظلّ».

اليرموك وحرّضتِ المسلمين على القتالِ والثّبات يومئذ.

* وفي عالَم الرّوايةِ النّسوية، كانت هندُ ممن روين عن النّبي ﷺ، وروى عنها سيّدتنا عائشةُ بنت أبي بكر وابنها معاويةُ رضي الله عنهم أجمعين، وأحاديثُها موجودةٌ في كتبِ الحديث.

* وظلتِ السّيدةُ هند مع الصّادقات المؤمنات، إلى أن لقيتْ ربّها في خلافةِ عمر رضي الله عنه..

## ثانياً: فاطمةُ بنتُ عتبة رضي الله عنها:

* فاطمةُ بنتُ عتبة بن ربيعة العبشميّة القرشية أختُ هند بنت عتبة وخالةُ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

* قال ابنُ الأثير: «أسلمتْ يومَ الفتح، وبايعت النّبيّ ﷺ»[1].

* أسلمتْ فاطمةُ إسلامَ العارفين، فقد رأىٰ أخوها أبو حذيفة بنُ عتبة رغبتها في الإسلام، أخذها لتبايعَ أمامَ النّبيّ ﷺ.

* فقد أخرجَ الحاكمُ عن فاطمةَ بنتِ عتبةَ رضي الله عنها «أنَّ أبا حُذيفة بنَ عتبة أتى بها وبهند بنتِ عتبة رسولَ الله ﷺ تُبايعه. فقالت: أخذَ علينا فشرطَ علينا».

قالت: قلتُ له: يا بن عمّ، هل علمتَ في قومك مِنْ هذه العاهاتِ أو الهنَاتِ[2] شيئاً؟

قال أبو حذيفة: إيهاً! فبايعيهِ، فإنَّ بهذا يبايعُ، وهكذا يُشْتَرط...»[3].

* وفي رواية أنَّ أبا حذيفة قال: «بايعيهِ فهكذا الشَّرط»[4].

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٢٢٣).

(٢) المقصود بالعاهات والآفات هنا: الزّنى والسّرقة وغيرهما. وسؤال فاطمة هنا دليل على شرف نساء قريش وعفتهنّ وبعدهنّ عن الخنا.

(٣) المستدرك (٢/ ٤٨٦).

(٤) الإصابة (١٣/ ٨٤)، وعند ابن الأثير قال: «بايعيه فهكذا يشترط» (أسد الغابة ٧/ ٣٢٣).

* وتروي أمنا عائشةُ رضي الله عنها بيعةَ فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها فتقول: «جاءت فاطمةُ بنتُ عتبة بن ربيعة رضي الله عنها تبايعُ رسولَ الله ﷺ، فأخذَ عليها: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. فوضعتْ يدها على رأسِها حياءً، فأعجبَ رسولُ الله ﷺ ما رأى منها».

قالت عائشة رضي الله عنها؛ فقلتُ لها: «أقرّي أيّتها المرأةُ! فو اللهِ ما بايعنا إلاّ على هذا».

قالت فاطمةُ بنتُ عتبة رضي الله عنها: «فَنَعَمْ إذاً».

فبايَعها ﷺ بالآية»[١].

* كانت فاطمةُ بنتُ عتبة رضي الله عنها فصيحةَ الألفاظِ، رقيقةً أديبةً، حلوةَ المنطقِ ذاتَ عقْلٍ وافرٍ، جامعةً بين مزيَتي الحسنِ والأدب، غيَّرهَا الإسلامُ ونَحَا بها نحوَ الخير، فقد كانت تقولُ وهي لا تزالُ مشركةً تخاطب بني هاشم الذين قتلوا ببدرٍ أباها وعمَّها وأخاها: «يا بني هاشم، لا يحبُّكم قلبي أبداً، أين أبي؟ أين عمّي؟ أين أخي؟ كأنَّ أعناقَهم أباريقُ الفضّةِ تَرِدُ أنفَهم قبل شفاهِهم»؟!

* وفاطمةُ هي نفسُها التي تُعرِبُ عن صدقِ بيعتها ووفائِها لرسولِ الله ﷺ يومَ الفتح فتقول: «يا رسول الله، قد كنتُ وما في الأرض قبّة أحبّ إليَّ أنْ تهدمَ من قبّتك، وإنّي اليوم وما في الأرض قبّة أحبُّ إليَّ بقاءً من قبّتكَ.

فقال: «أما إنَّ أحدكم لن يؤمنَ حتّى أكونَ أحبّ إليه من نفسِه»[٢].

* نعم كانت فاطمةُ عدوّاً للإسلامِ ولرسولِ الإسلام، لكنّها لما دخلتْ في دينِ اللهِ مع الدّاخلين، وبايعت رسولَ اللهِ ﷺ مع المبايعين، أذابَ الإسلامُ

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٣٧) بتصرف يسير جداً.

(٢) انظر: أسد الغابة (٨/ ٣٢٣)، وللحديث أصل عند مسلم برقم (١٧١٤).
وانظر الإصابة (١٣/ ٨٤)، والمقصودُ بالمحبة هنا: ترجيح جانبه ﷺ في أداء حقّه بالتزام دينه، واتباع سنته، ورعاية أدبه، وإيثار رضائه على كل من سواه من النفس والولد والوالد والأهل والمال والنفس.

أضغانَها ، وتلاشتِ الأحقادُ من أعماقِها ، وأصبحتْ في عدادِ المؤمناتِ الصَّادقات المبايعات ، وشرفَتْ بمعيّةِ البيعةِ الميمونةِ ، وعُدَّت من الصَّحابياتِ اللواتي رضي الله عنهنَّ.

* وتزوَّجَتْ فاطمةُ من عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولها معه أخبارٌ طريفةٌ.

* ولفاطمةَ روايةٌ ، وقد روت عنها مولاتها أمّ محمد بن عجلان.

* أخيراً لا نعرفُ متى وأين توفيتْ فاطمةُ بنتُ عتبة إذ لم تسعفنا المصادرُ التي بين أيدينا عن شيءٍ هذا. فرضي الله عن فاطمةَ وعفا عنّا أجمعين.

**ثالثاً: أمُّ الحكم بنتُ أبي سفيان رضي الله عنها:**

* لما كان يوم الفتح الأعظم لمكّةَ المكرمةِ حرسها اللهُ ، فتحَ اللهُ قُلوباً لأُناسٍ لم تكنْ تظنُّ أنّها ستغدو من الطَّائفينَ والقائمينَ والرّكّع السُّجود.

* في ذلك اليوم المجيدِ فتحَ اللهُ على البيت السُّفياني فآمنَ إيمانَ المحبّين ، وقَدِمَتِ الأسرةُ السُّفيانيةُ مبايعةً رسولَ اللهِ ﷺ بيعةَ الصّدقِ والإيمانِ والحقّ.

* ومن بين أفرادِ البيتِ السُّفياني الميمون جاءت أمُّ الحكم بنةُ أبي سفيان رضي الله عنها وبايعتْ وصدقتِ اللهَ بما عاهدتْه عليه من البيعة.

* قال ابنُ الأثير: «أمُّ الحكم بنتُ أبي سفيان القرشيّة الأموية ، أختُ أمّ حبيبة لأبيها ، وأختُ معاويةَ لأمِّه وأبيه ، أسلمتْ يومَ الفتح»[1].

* وفي تاريخه قال ابنُ عساكر: «أمُّ الحكم بنتُ أبي سفيان ، أختُ أمّ حبيبة لأبيها ، وأختُ معاويةَ لأبيهِ وأمّه ، أمّها هندُ بنتُ عتبة. أدركتْ أمُّ الحكم النّبيّ ﷺ ، وكانت ممَّنْ أسلمَ يومَ الفَتْح ، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ ، وحكَتْ عن أخيها ، وروى عنها ابنها عبد الرحمن بن عبد الله الثّقفي».

* كانت أمُّ الحكم زوجةً للصّحابي الجليل عياضِ بنِ غنم الفِهريّ الرّجلِ

---

(١) أسد الغابة (٧/ ٣٠٧ و٣٠٨).

الصّالحِ الجوادِ ، أسلم قبلَ الحُديبية ، ولكنَّ زوجَه أمّ الحكم لم يدخلِ الإيمانُ قلبها وقتذاك ، وآثرتْ أن تبقى على شركها ، إذ إنَّ أباها زعيمُ قريش وسيدٌ من ساداتِها ولا يزالُ على ديْنِ الآباء والأجداد.

* ولكنَّ الحقَّ أنزلَ بالحقّ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ، وكان الخطابُ الإلهيُّ موجّهاً إلى سيدنا عياضٍ ومَنْ هم في حكْمهِ ، فاستجابَ إلى الأمرِ الإلهي ، وسرّحَ أمَّ الحكم بإحسانٍ لأنّها أبتْ أنْ تسلم يومئذٍ ، وظلت على دينها.

* ثم إنها تزوَّجتْ عبد الله بنَ عثمان الثّقفيّ فولدتْ له عبد الرّحمن بن عبد الله الذي يقال له: ابنُ أمّ الحكم[1].

* ولم تكنْ أمُّ الحكم وحدها التي بقيتْ على دينها ، وفارقها زوجُها ، بل هناك بضعُ نسوةٍ ذكرهنّ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما قال: «خمسُ نسوةٍ من نساءِ المهاجرين رجعْنَ عن الإسلامِ ، ولحقنَ بالمشركين:

أمُّ الحكم ، وكانت تحتَ عياض بن غنم بن شداد الفِهريّ ، وفاطمةُ بنتُ أمية أختُ أمّ سلمة ، وكانت تحت عمر بن الخطاب ، وعبدةُ بنتُ عبد العزّى بن فضلة ، وكانت تحت هشام بن العاصي ، وأمُّ كلثوم بنتُ جرول بن مالك الخزاعيّة ، وكانت تحت عمر أيضاً ، وهندُ بنتُ أبي جهل ، وكانت تحت هشام بن العاصي»[2].

* وزاد الزّمخشري سادسةً وهي: بَرْوَعُ بنتُ عقبةَ ، وكانت تحت شمّاس بن عثمان ، فأعطاهم النبيُّ ﷺ مهورَ نسائِهم من الغنيمة.

* وفي يوم الفتح جاءت أمُّ الحكم مع وفدِ المبايعات ونُظِمتْ في عداد الصّحابيات ، وحدَّثَتْ بدمشق ، وتوفيت بعد عام (٦٠ هـ) رضي الله عنها.

---

(١) انظر: نسب قريش (ص ١١٠٥) بتصرف. وانظر: المغازي (٢/ ٦٣٣).
(٢) ترويح أولي الدماثة للأدكاوي (٢/ ١٩٣ و١٩٤) تحقيق وشرح: مروان العطية ومحسن خرابة ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠١م ، وانظر: غرر التبيان (ص ٥٠٨).

## رابعاً: البغومُ بنتُ المُعدَّل رضي الله عنها:

* في يومِ فتحِ مكّةَ تعرضت كثيرٌ من النّساء لهزّاتٍ وجدانية ، وبهرهنّ تكبيرُ المسلمين وتهليلُهم ورأين العبادةَ الحقيقية ، فزالتْ غشاوةُ الشّرك عنهنّ ، وطفقْنَ يأتين مسارعاتٍ ويبايعنَ رسولَ الله ﷺ على الإيمانِ بالله ربّاً وحده لا شريك له ، وبمحمّدٍ عبده ورسوله إلى العالمين.

* وجاءت سيدةٌ جليلةُ القَدْرِ من نساء القرشيّين وبايعت يومَها ، كانت هذه السيدةُ البَغُومُ بنتُ المُعَدَّل الكنانية امرأة صفوانَ بنِ أميّة الجمحي[1] ، وكان صفوانُ من كُبراء قريش[2] .

* أسلمت البغومُ قبل زوجِها وحَسُنَ إسلامها ، وشهدت كثيراً من الأحداثِ المهمّةِ وخصوصاً إسلام زوجها صفوانَ الذي غدا من الصَّحابة الأجوادِ بفضلِ اللهِ الذي أنعم عليهِ بالإسلام.

* والبغومُ على وزنِ صَبُور ، ومعنى كلمة بغوم: رخيمة الصّوت.

* قال ابنُ منظور في مادة «بغم» ما مفاده: «بغامُ الظّبية: صوتُها ، وهي بغومُ: صاحَتْ إلى ولدها بأرخمِ ما يكون من صوتها. والمبغومُ: الولدُ ، وأمُّه تبغُمُه: تدعوه.

وامرأةٌ بغوم: رخيمةُ الصَّوت ، ومنه سمّيت المرأةُ بغوماً»[3] .

* أقول: «ولا يوجدُ بين الصَّحابيات من اسمُها البغوم غير هذه الصّحابية البغوم بنت المعدّل الكنانية رضي الله عنها».

* ولما كان فتحُ مكّةَ هربَ زوجها صفوانُ بنُ أمية ، فلحقه عميرُ بنُ وهب رضي الله عنه وقد أخذَ له الأمانَ من النّبي ﷺ ، فرجع صفوانُ وأسلمَ وحَسُنَ إسلامه ، وشهدَ اليرموك ، وروى أحاديث ، وله أخبارٌ جميلةٌ مع النّبي ﷺ ،

---

(١) الإصابة (١٢/ ١٥٩). وفي بعض المصادر أنَّ اسمها «البغُوم بنت المُعَذَّل» بالذال.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦٣).
(٣) لسان العرب (١٢/ ٥١ و٥٢) بتصرف واختصار.

وسعدتْ زوجُهُ البغومُ بإسلامه؛ وهي أمُّ أولاده وهم: عبد الله الأصغر، وصفوان، وعمرو، فرضي الله عنها.

**خامساً: أمُّ حكيم بنتُ الحارث رضي الله عنها:**

* هذه امرأةٌ من عليةِ نساء قريش اللواتي نعمنَ بالإسلامِ قبل أزواجهنَّ. قال الزّهري: «إنَّ نساءً من المسلماتِ أسلمْنَ قبل أزواجهنّ، ثم أسلم أزواجهنّ بعدهنّ، فلم يفرقِ النّبيُ ﷺ بينهنّ، منهن: أمُّ حكيم بنت الحارث، وكانت تحت عِكْرمة بن أبي جَهْل»[1].

* فهذه المُبايِعَةُ يوم الفتح هي أمُّ حكيم بنتُ الحارث المخزوميةُ، أمُّها فاطمةُ بنتُ الوليد، أختُ خالد، ولأمّ حكيم صحبةٌ من النّبي ﷺ، فاستأمنتْه لبعلِها عِكْرِمةَ بنِ أبي جهل، فأمّنه[2].

* أسلمت أمُّ حكيم يومَ الفتح بمكّة مع أبيها الحارثِ بنِ هشام وأمّها فاطمةَ بنتِ الوليد ثم زوجها عكرمةَ وعددٍ من أهلها وعشيرتها، وكان قد سبقَهم إلى الإسلام خالُها سيفُ اللهِ والرّسول خالدُ بنُ الوليد فأكرمْ بهم جميعاً!

* ومن المثير أنَّ أمَّ حكيم شهدتْ أحداً مع زوجها كافِرَيْن، ولما أسلمتْ يوم الفتح، كان زوجُها عكرمةُ قد هربَ إلى اليمن، فاستأمنتْ له من النّبيّ ﷺ، واستأذنَتْه في أنْ تسيرَ في طلبهِ، فأذنَ لها، فردّتْه فأسلم[3].

* كانت السّيّدةُ أمّ حكيم هي السّببُ في إسلام زوجها عِكْرمة الذي ظلَّ يحملُ السّلاحَ في وجهِ المسلمين منذ فجرِ الإسلام إلى يومِ الفتح.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٠١). وقال عبد الله بن الزّبير رضي الله عنهما: «لما كان يوم الفتحِ، أسلمتْ هندُ بنتُ عتبةَ، وأسلمتْ أمّ حكيم بنتُ الحارث بنِ هشام امرأة عِكرمة بن أبي جهلٍ، وأسلمت امرأة صفوان بن أمية البغوم بنت المُعَدَّل من كنانة، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المُغيرة، وأسلمت هند بنت مُنَبِّه بن الحجّاج وهي أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص، في عشرِ نسوةٍ من قريش، فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح، فبايعنه..». (المغازي ٢/ ٨٥٠).

(٢) المصدر السابق نفسه بتصرف يسير.

(٣) أسد الغابة (٧/ ٣٠٩).

* كان عكرمةُ قد فرَّ ووصلَ إلى ساحلِ تهامة ، ثم ركبَ سفينةً وكادت تبحرُ به ، فأدركَتْه أمُّ حكيم وجعلتْ تلوّحُ له بثوبٍ ليرجعَ وتقول له: «يا بنَ عمّ ، جئتكَ من عندِ أوصلِ النّاس ، وأبرّ الناس ، وخيرِ الناس؛ يا بن عمّ لا تهلكْ نفسَكَ» .

* فوقفَ لها حتى أدركَتْه ، فقالت: «يا بنَ عمّ إنّي قد استأمنتُ لكَ رسولَ اللهِ ﷺ» .

قال: «أأنتِ فعلتِ هذا»؟

قالت: نعم يا بنَ عمّ! أنا كلمتُه فآمنَكَ» .

* ورجعَ عكرمةُ بصحبةِ زوجتهِ أمّ حكيم ، فلمّا دنا من مكّةَ ، قال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ لأصحابه مُعلّماً وموجّهاً ومرشداً: «يأتيكم عكرمةُ بن أبي جهل مُؤمناً مُهاجراً ، فلا تسبُّوا أباه ، فإنَّ سبَّ الميتِ يؤذي الحيّ ولا يبلغُ الميِّت» .

* ولما رأىٰ النّبي ﷺ عكْرمةَ ، وثبَ إليهِ ، وما على النّبي ﷺ رداءٌ فرحاً بعكرمةَ. ثم جلسَ رسولُ الله ﷺ فوقفَ عكرمةُ بين يديه ، ومعه زوجتُهُ متنقبةً ـ مغطيةً وجهها بالنقاب ـ فقال: «يا محمّدُ! إنَّ هذه أخبرتني أنّكَ آمنتني» .

فقال رسولُ الله ﷺ: «صَدَقَتْ فأنتَ آمِنٌ» قال عكرمةُ: «فإلامَ تدعو يا محمّد»؟ .

قال ﷺ: «أدعوكَ إلىٰ أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسولُ اللهِ ، وأنْ تقيمَ الصَّلاة ، وتُؤتي الزكاة ، وتفعلَ وتفعل» ، حتى عدَّ خصال الإسلام .

فقال عكرمةُ: «واللهِ ما دعوتَ إلا إلى الحقّ وأمرٍ حسن جميل؛ قد كنتَ واللهِ فينا قبلَ أنْ تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه وأنتَ أصدقُنا حديثاً ، وأبرُّنا بِرّاً. فإنّي أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهدُ أنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه» .

* فسُرَّ بذلك رسولُ اللهِ ﷺ ، ثم قال: «يا رسولَ اللهِ ، علّمْني خيرَ شيءٍ أقوله» .

فقال: «تقولُ: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه» .

فقال عكرمةُ: «ثم ماذا»؟.

قال رسول الله ﷺ: «تقول: أُشْهِدُ اللهَ وأشهِد مَنْ حضر أنّي مسلمٌ مجاهدٌ مهاجرٌ».

فقال عكرمةُ ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني اليومَ شيئاً أعطيهِ أحداً إلا أعطيتُكَهُ».

قال عكرمةُ: «فإنّي أسألكَ أنْ تستغفرَ لي كلّ عداوة عاديتُكها، أو مسيرٍ أوضعتُ فيه، أو مقامٍ لقيتُكَ فيه، أو كلامٍ قلتُه في وجهك، أو أنتَ غائبٌ عنه».

فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهم اغفرْ له كُلَّ عداوةٍ عادانيها، وكلّ مسيرٍ سار فيهِ إلى موضع يريدُ بذلك المسير إطفاء نورك، واغفرْ له ما نالَ منّي من عِرضٍ في وجهي أو أنا غائبٌ عنه».

قال عكرمةُ: «رضيتُ يا رسولَ الله. أما واللهِ لا أدعُ نفقةً كنتُ أنفقتُها في صدٍّ عن سبيل اللهِ إلا أنفقتُ ضعْفَها في سبيلِ اللهِ، ولا قتالاً كنتُ أقاتلُ في صدّ عن سبيلِ اللهِ إلا أنفقتُ ضعْفَها في سبيلِ الله، ثم أجتهدُ حتّى أُقْتَلَ شهيداً».

* وردّ عليه رسولُ الله ﷺ امرأته أمّ حكيم بالنّكاح الأوّل وأقرهما عليه(١).

* ولما توجهت جيوشُ الخلافةِ الراشدةِ نحو بلاد الشّام خرجتْ أمُّ حكيم مع عكرمةَ إلى اليرموك، وقاتلت يومَها وقُتِلَ عكرمةُ شهيداً، فخلفَ عليها ـ بعد انقضاء عدتها ـ خالدُ بنُ سعيد بن العاص، فلما كانت معركةُ مرج الصّفر في المحرم سنة (١٤ هـ) أراد خالدُ أنْ يدخلَ بها فقالت له: «لو تأخّرتَ حتى يهزمَ اللهُ هذه الجموع».

فقال: «إنّ نفسي تحدثني أنْ أُصابَ في جموعهم».

فأعرسَ بها، ثم وقعَ القتالُ، فجاهدَ خالدُ بنُ سعيد في الرومِ حتى لقيَ اللهَ شهيداً، وهناك ظهرتْ أمّ حكيم كأشدِّ ما يكون من النّساء، فاقتلعتْ عمودَ

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٣٩ و٤٠)، والمستدرك (٣/ ٢٤١) مع الجمع والتصرف.

الخيمةِ التي أعرسَ بها خالد فيه وقتلت سبعةَ أعلاجٍ من الروم[1].

* ثم بعد ذلك تزوّجت أمّ حكيم من عمرَ بنِ الخطاب وولدت له فاطمة بنت عمر[2].

* وتوفيت السيدةُ أمّ حكيم في الخلافةِ العمريةِ حوالي سنة (١٤ هـ) فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

(١) أسد الغابة (٧/ ٣٠٩) بتصرف يسير، وانظر: كتاب الأشراف لابن أبي الدنيا (ص ١٩٣).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٠٣).

# الفصل السابع

## قبسَاتٌ مضيئاتٌ من حياةِ المُبايعات

* قال حافظ إبراهيم:

صنَعْتُنَّ ما يُعْيي الرِّجالَ صَنِيعُهُ فَزِدْتُنَّ في الخَيْراتِ والبركَاتِ

* حقاً لقد صنعتِ النساءُ المبايعاتُ ما يعيي كثيراً مِنَ الرّجال ويعجزُهم:

فَلا التّأنيثُ لاسْمِ الشَّمسِ عَيْبٌ ولا التّذكيرُ فَخْرٌ للْهِلَالِ

* ويرحمُ اللهُ مصطفى صادق الرّافعي حيثُ يقول: «وأكملُ النساءِ تلك التي تنظرُ إلى الدّنيا بعينٍ متلألئةٍ بنورِ الإيمانِ، تقرّ في كلّ شيءٍ معناه السّماوي.. المرأةُ حقُّ المرأةِ هي تلكَ التي خُلِقَتْ لتكونَ للرّجلِ مادةَ الفضيلةِ، والصّبرِ، والإيمانِ، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوّةً، أي: زيادة في سرورِه، ونقصاً من آلامه. ولن تكونَ المرأةُ في الحياةِ أعظمَ من الرّجل إلا بشيء واحدٍ هي صفاتُها التي تجعلُ رجُلَها أعظم منها».

* ومن خلالِ الفصولِ السّابقة مع كرائمِ النّساء من سابقاتِ المبايعاتِ وفضلياتهنّ نستخلصُ بعضَ الأقباسِ النّافعةِ التي يمكنُ أنْ تستفيدَ منها نساءُ عصرِنا الحاضر بإذنِ الله، ويمكنُ حَصْر بعضَ هذه القبسَات في إضاءاتٍ مفيدةٍ من أهمِّها:

**أولاً:** أفضليةُ السّيدةِ الطّاهرةِ أمّ المؤمنين خديجةَ بنتِ خويلد ـ رضي الله عنها ـ فهي بلا شكّ أفضلُ نساءِ الأمّةِ على الإطلاق، وخيرُ نسائِها بشهادةِ النّبي

الكريم ﷺ ، حيث قال كما في الصَّحيح : «خيرُ نسائِها خديجةُ بنتُ خويلد ، وخير نسائها مريمُ بنتُ عمران»[1] .

* ولما دعا النّبي ﷺ إلى النّاس؛ أجابته السّيدةُ الكاملةُ الفاضلةُ خديجة طوعاً ، فلم تُحوجِهُ إلى رفعِ صوتٍ ، ولا منازعةٍ ، ولا تعبٍ ، بل إنّها ـ رضي الله عنها ـ أزالتْ عنه كلَّ نَصَبٍ ، وآنسَتْه من كلّ وحْشَةٍ ، وهوَّنَتْ عليه كل عسيرٍ ليمضيَ فيما أمرهُ اللهُ تعالى .

**ثانياً**: أمُّ المؤمنين خديجةُ بنتُ خويلد ـ رضوان الله عليها ـ امرأةٌ متفرّدةٌ في عالَم الفضائل ، ولها مكارمُ لم تلحقْها بها واحدةٌ من نساءِ النّبي ﷺ ، ولا نساءِ الصّحابةِ الكرامِ ، ومن هذه الفضائل الخاصّة :

١ ـ إنَّ السيدةَ خديجة لم تسؤهُ ﷺ قطّ في حياتها التي قضَتْها معه؛ والتي تقربُ منْ ربعِ قرنٍ منَ الزّمان .

٢ ـ إنَّ أمَّ المؤمنين الطَّاهرة لم تغاضبْهُ ﷺ مرةً واحدةً ، أو كانتْ سبباً لذلك .

٣ ـ لم ينلْها منه ﷺ إيلاءٌ ولا عتبٌ ولا هجرٌ قطّ .

٤ ـ ثناءُ رسول الله ﷺ عليها كلّما سنَحَتْ سانحةٌ وبشارتها بالجنّة ببيتٍ من قَصَب .

٥ ـ هي أمُّ الزّهراءِ فاطمةَ رضوان الله عليها ، تلك التي بقيتِ الذّريةُ من نَسْلِها .

**ثالثاً**: أسهمتِ المبايعاتُ في نصرةِ النّبي ﷺ ونصرةِ دينِ اللهِ تعلى ، فكنَّ السَّابقاتِ إلى هذه الدّوحةِ الفَينانةِ ، فكانتِ السيدةُ خديجةُ أوّلَ مَنْ آمنَ وصدَّق وبايعَ ، وكانت أمُّ عمارة وأمّ منيع المبايعَتيْن الوحيدتَيْن في بيعةِ العقبة؛ ثم تلا ذلك بيعاتٌ أُخَر للنّساء في مواطنَ عديدةٍ .

**رابعاً**: صبرتِ السّيداتُ المبايعاتُ لرسولِ اللهِ ﷺ صبراً جميلاً ، وصبراً

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٣٠) .

محموداً يُحتذىٰ به ، فقد ضربتْ سميّةُ بنتُ خبّاط أمّ عمَّار بن ياسر أجملَ آياتِ الصَّبر الجميلِ على فوادحِ البلاء والعذابِ الذي صبّه كفّارُ قريش عليها حتّى قَضَتْ نحبَها. فقد احتملتْ هذه المبايعةُ الصّابرةُ الأذى الشَّديد ، وقاستْ ألوانَ العذابِ وأنواعَه ولم ترتكبْ ذنباً ، بل إنَّ ذنبَها ـ كما يعتقدُ الكفّار ـ إيمانُها باللهِ ورسوله ، فكانت تُرمَى على الرّمضاء يسومُها الفّجار أقسى أنواعِ العذاب وهي صابرةٌ حتى صَعِدَتْ روحُها إلى ربّها راضيةً مطمئنةً ، لتسجِّلَ مَنقبةً فريدةً في ديوانِ العظائمِ ولتكونَ أوّلَ شهيدٍ في الإسلامِ على الإطلاق.

* كما صبرتِ السّيّدةُ المجاهدةُ أمّ عمارة المازنيّة على استشهادِ ابنها بين يدي لعينِ الكفْر مُسَيْلمة الكذاب ، واحتسبتْه عند اللهِ الذي لا تضيعُ عنده الودائعُ؛ وسجّلتِ السيدةُ المبايعةُ أمّ عمارة صبراً جميلاً في ديوان الصَّابرات ، عندما قُطِعَتْ يدُها في معركةِ اليمامة وهي بين اشتجارِ الرّماحِ وصليلِ السّيوف ، ولم تأْبه لها، بل كان هدفُها الأوّلُ القضاءُ على زعيم أهلِ الرّدةِ مسيلمة الكذاب.

* وأمّا السّيّدةُ أمّ منيع الأنصاريّة ، فلَها هي الأخرى وقفةٌ جميلةٌ مع الصَّبر ، إذْ إنّها احتملَتْ كلّ آلام الحمل ومشاقّه ، ومشاقِّ الطّريقِ ومصاعبه من المدينةِ المنورةِ إلى مكّةَ لتشهدَ العقبةَ ولتبايعَ نبيَّ الله ونبيَّ الإسلامِ محمداً ﷺ ، صبرَتْ على هذا كلِّه من أجلِ الفوزِ برضوانِ اللهِ تعالى. فهل تقتدي نساءُ عصرِنا الحاضرِ بهذه النّماذج الفريدة من نساء الإسلام نساء الصّحابة اللواتي هُنّ القدوةُ في كلّ مكرمةٍ وكلّ فضيلة؟

**خامساً**: ومن الدروسِ المستفادةِ أيضاً أنَّ هؤلاء المبايعات عملنَ على الدّعوةِ إلى اللهِ تعالى في محيطهنّ وفي أسرهنّ ، وكنَّ يعلِّمْنَ أولادهنَّ فضائلَ الأعمال ، كما كُنَّ يسأَلْن عما لا يعرفنه كي يتعلَّمْنَ.

* وقد لاحظنا كيف كانتِ السّيّدةُ خديجةُ أمّ المؤمنين تدعو بناتِها إلى الإسلام فاستجبْنَ معها وفُزْنَ بالسَّبق العظيمِ إلى موردِ النّورِ والخير.

* فالنِّساءُ المؤمناتُ ذاتُ أثرٍ كبيرٍ للقيام بأعمالِ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى في أوساطِ النّساء ، ولا شكَّ في أنهنَّ أقدرُ من الرّجال في مجالِ النّساء.

**سادساً**: إذا لزمَ الأمرُ في أمورِ الحربِ والجهاد ، فلا بأْس أن تشارك النِّساءُ بذلك؛ ويمكنُ لهنّ أنْ يقمن ببعضِ الأعمال التي تتناسبُ مع فطرتهنّ ، لتبليغِ الدَّعوةِ ، ويقمن كذلك ببعضِ متطلّبات الجهاد ، ومن شأنِ هذه المتطلَّبات السّرية؛ وعدم الظّهورِ والانكشافِ. وإنَّ دليلَنا على ذلك ما جاء في الصّحيح من أنَّ النّساء المبايعاتِ المؤمناتِ كنَّ يشارِكْنَ في غزواتِ النّبي ﷺ ، ويصحبْنَه في حروبهِ مع المشركين لسقاية العطاش ومداواة الجرحى ، فقد أخرج الإمامُ مسلم في صحيحهِ عن ثابت ، عن أنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسولُ الله ﷺ يغزو بأمّ سُلَيم ونسوةٍ من الأنصارِ معه إذا غزا ، فيسقينَ الماءَ ، ويداوينَ الجرحى»[1].

* وفي غزوةِ أحدٍ شاركت نساءُ المسلمين فيها ، ومنهن: السّيدةُ المصونةُ فاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ ، وأمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ أبي بكر ، وأمّ سليط وأمّ عمارة وأمّ سُليم الأنصاريات وغيرهنّ من أكابرِ نساء الصَّحابة[2] رضي الله عنهم أجمعين.

* وعلى النّساءِ في كلِّ زمانٍ ومكان أنْ يكنّ داعياتٍ إلى اللهِ تعالى ، متشبّهات بنساءِ الصّحابة ، فيقمنَ بالأعمالِ التي تناسبهنّ ، وأن يتعلمْنَ من سير نساءِ الصّحابة كل ما يهمهنّ من أمور ، فقد رأينا كيف شاركتِ النّساءُ في حربِ المسلمين مع الكفّار في أكثر من غزوة ، في أحد ، وفي خيبرَ ، وفي حُنين ، وغيرها ، وكانت لهنّ آثارٌ محمودةٌ في كلّ هذه الميادين الميمونة.

**سابعاً**: على العُلماءِ والفقهاءِ والدُّعاة أنْ يعملوا لإعدادِ المسلماتِ ليكنَّ داعياتٍ ، وأنْ يعلّموا النّساءَ بأنّ الدَّعوةَ إلى اللهِ تعالى من واجباتِ الإسلامِ عليهنّ ، كما أنّها من واجباتِ الإسلامِ على الرّجالِ المسلمين ، قال الله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٨٨).

(٢) كما شاركت الصَّحابيّات في معركة اليرموك ومنهنّ: أمّ حكيم بنت الحارث ، وهند بنت عتبة وغيرهما.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

* ولا مانع مِنْ أنْ يشيرَ العلماءُ والدّعاةُ إلى التُّراث الإسلامي ، وأن يذكّروا المسلماتِ والدّاعياتِ منهنّ بمواقف المسلماتِ المبايعاتِ السَّابقات في عصْرِ النّبيّ ﷺ ، وكيف كُنّ يحرصْنَ على سلامتهِ وحياتهِ ، لتكون قصصهنّ خيرَ زادٍ لهنَّ ، وكذلك حتى يتشجعن على أعمالِ الدّعوةِ إلى اللهِ تعالى والاندفاع فيها. ومن أمثلة ذلك من حياةِ المبايعاتِ أنَّ السّيدةَ أمّ عمارة المازنيّة لما جُرِحَتْ في أُحُدٍ غُشي عليها ، فلما أفاقت سألتْ عن النّبيّ ﷺ ، فلمّا علمت أنّه بخير نسيتْ جراحها وآلامَها. ولم تكنِ السّيّدةُ أمّ عمارة هي الوحيدةُ في هذا الميدانِ الكريم ، وإنّما وردتْ هناك قصصٌ كثيرةٌ عن كثيرٍ من النّساء الصّحابيّات[1] ، وكلّها تنصبُّ في نفسِ الهدف الذي عملتْ من أجله أمّ عمارة رضي الله عنها وعنهنّ.

**ثامناً:** نزلت آياتٌ قرآنيةٌ تبارك بعضَ مواقف الصَّحابيات ، وتزكّي أعمالهنّ ، بالإضافةِ إلى أنَّ القرآن الكريم قد اشتمل على سورتين تخصّان النّساء وهما: سورةُ النّساء وهي من السُّور الطّويلة التي نزلتْ بالمدينة وعددُ آياتها (١٧٦آية).

* وسورةُ الطّلاق وهي سورةٌ مدنيةٌ أيضاً ، وعددُ آياتها (١٢ آية) وتسمّى

---

(١) من هذه القصص المطربةِ العظيمةِ قصة السّيدةِ الكريمةِ حمنَة بنتِ جحش ـ رضي الله عنها ـ ، وذلك لما أُخبرتْ باستشهادِ أخيها عبدِ الله بنِ جحش وخالِها حمزةَ بنِ عبد المطلب في غزوة أحد؛ استرجعتْ واستغفرت.
ولما مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بامرأةٍ من بني دينار وقد أُصيبَ زوجُها ، وأخوها ، وأبوها ، مع رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ أحد أيضاً ، فلما نعوا لها ذلك ـ أي أخبروها بقتلهم ـ ، قالت: فما فعلَ رسولُ الله ﷺ؟
قالوا: خيراً يا أمّ فلان ، هو بحمدِ اللهِ كما تحبّين.
قالت: أرونيه حتى أنظرَ إليه؛ فلما رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدك جللَ يا رسول الله ـ تعني صغيرة هينة ـ ، ثم مضتْ وذكرتِ الله تعالى.
(السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ٢/ ٣٩٥).

سورة الطلاق: سورة النّساء الصُّغرى لاشتمالها على أحكامِ تتعلّق بهنّ.

**تاسعاً:** تحدّثَ القرآنُ الكريم بأسلوبهِ العظيمِ وبيانه المنير عن ثلّةِ المؤمنات من الصَّحابيات اللواتي جئْنَ النّبيَّ ﷺ مبايعاتٍ أو مهاجراتٍ، وقلوبُهنّ مفعمةٌ بالإيمان، وألسنتهنّ تلهجُ بذكْرِ الله، ليكنَّ القدوةَ الحسنةَ والأسوةَ الطّيّبةَ لمن يأتي بعدهنَّ من نساءِ المسلمين، فيقتفينَ آثارهنّ، ويسِرْنَ على دربِ البيعةِ الصَّادقةِ التي بايعنها.

**عاشراً:** إنَّ المرأةَ بمنزلةِ القلْبِ من الجسمِ، فإذا صلُحَتْ صلحَ الجسمُ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسم، وقد أدرك أعداءُ النّساءِ المسلماتِ ذلك وعملوا على تحطيمِ قيمِ الأخلاقِ عند النّساء، تقولُ المُبَشّرة «آنا ميلجان»: «ليس هناك طريقٌ لهدمِ الإسلام أقصرَ مسافةً من تعليمِ بناتِ المسلمين في مدارسِ التّبشير الخاصّة.. إنَّ القضاءَ على الإسلام يبدأُ من هذهِ المدارس التي أُنشئَتْ خصيصى لهذه الغايةِ، والتي تستهدفُ صياغةَ المرأةِ المسلمة على النَّمط الغربي الذي تختفي فيه كلمةُ: الحرام، والحياء، والفضيلة».

* وتقولُ هذه المُبشّرة: «ليس هناك طريقٌ لهدمِ الإسلام أقصرَ مسافةً من خروجِ المرأةِ المسلمةِ سافرةً متبرجةً».

**حادي عشر:** في الوقتِ الذي نجدُ فيه أعداءَ المرأةِ المسلمة يبذرون سموهم نجدُ أيضاً مَنْ يتحدّث عن مكانةِ المرأةِ في الإسلام، وكيف أحلَّها مكاناً رحْباً تحتَ ظلاله، وجعلَ النّساءَ شقائقَ الرجالِ. تقولُ «آني بيزانت»: «إنَّ المرأةَ في ظلِ الإسلام أكثرُ حريةً منها في ظلّ المذاهبِ الأخرى، فالإسلامُ يحمي حقوقَ المرأةِ أكثر من المسيحية، فبينما لم تنلِ المرأةُ في انكلترا حقّ المُلْكيَّة إلاّ منذ عشرين سنة، فإنَّ الإسلامَ قد أعطاها حقَّ التّملُّك منذ اللحظةِ الأولى»[1].

* وتقولُ «استان رايتنس»: «لقد وجدتُ في الإسلام الطُّمأنينةَ التي بحثتُ

---

(١) مكانك تحمدي (ص ٢٢٧) لأحمد محمد جمال ـ الكتاب السعودي ـ ط٤ ـ ١٩٨١م.

عنها. . إنَّ الإسلام قد منحَ المرأةَ مركزاً مرموقاً ، بينما هي في الأديانِ الأخرى أمَةٌ لا حقَّ لها» .

ثاني عشر: النّساءُ المسلماتُ المبايعاتُ هنَّ من كرائمِ النّساءِ في تاريخِ الإسلام ، بل في تاريخِ الدنيا ، وهنّ القدوةُ لنسائنا حتى يقتدين بأخلاقهنّ وسيرهنّ ، وينصرفْنَ عن تقليدِ النِّساءِ الغربيّات في سلوكهنّ وأزيائهنّ[1] وزينتهنّ وعاداتهنّ.

ثالث عشر: الدّعوةُ والمبايعةُ لم تقتصر على الرّجالِ وحدهم ، بل إنّ الإسلامَ أسهم نصيباً للنّساء ، فبايعَ النبيُ ﷺ مَنْ آمنَ منهنّ ، فالنّساءُ مخاطباتٌ بالإسلام ، ومكلّفاتٌ بواجباته ، ومن واجباته الدّعوة إليه.

* ومن المؤكّدِ أنَّ بيعةَ النّبيِّ ﷺ للنّساءِ «إنّما كانت بالكلامِ فقط من غير أخْذِ الكفّ ، وذلك على خلاف بيعةِ الرِّجالِ ، فدلَّ ذلك على أنَّهُ لا يجوزُ مسّ الرجُل بشرةَ امرأةٍ أجنبيّةٍ عنه؛ . . . . اللهم إلاّ أنْ تدعو إلى ذلك ضرورة كطبيبٍ ، ونحو ذلك. وليس من الضرورةِ شيوعُ العرف بمصافحة النساء ، كما قد يتوهم بعض النّاس ، فليس للعرفِ سلطانٌ في تغيير الأحكام الثّابتة بالكتاب والسُّنَّة»[2].

* ومن هنا نستدلُّ على أنَّ كلامَ الأجنبية يُباحُ سماعُهُ عند الحاجة الشّرعية ،

---

(1) شرع الإسلامُ الحنيفُ الحجابَ لصيانةِ المرأةِ وسترها ، والحجاب الذي شرعه الإسلام للمرأةِ هو حجابٌ كاملٌ سابغٌ للوجْهِ أيضاً ، أمّا ما نراه من تقليد الغربيات في لباسهنّ فهذا الهلاكُ بعينهِ ، وكذلك السّفور وكشف الوجه.
يقول الدكتور البوطي: «وإذا تأمّلْتَ في حال المسلمين اليوم ، وما عمَّ فيه من الفسقِ والفجور وسوء التّربية والأخلاق ، علمتَ أنّه لا مجال للقول بجواز كشف المرأة وجهها والحالة هذه. إنَّ هذا الانحدر الخطير الذي يسيرُ فيه المجتمع الإسلامي اليوم يقتضي ـ لضمان السّلامة والحفظ ـ مزيداً من الحذر في السَّير ، ومزيداً من التشدّد في أسباب الحيطة ريثما يتجاوز المسلمون مرحلة الخطر ، ويصبحون قادرين على امتلاك أمرهم وضبط أزمتهم بأيديهم». (فقه السيرة ص ٢٣١ و٢٣٢).

(2) فقه السيرة (ص ٣٨٣) بتصرف واختصار يسير.

وقد صحَّ هذا من مبايعة النّساء لسيّدنا رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة ممّا قرأناه في هذا الكتاب.

**رابع عشر**: الإسلامُ دينُ اليسْرِ والعلْمِ والمعرفةِ، فعلى أهلِ العلْم أنْ يبدؤوا بدعوةِ نسائِهم وأزواجِهم ونساءِ أسرهم وأقاربهم، فيدعوهنّ إلى الإسلامِ والعلمِ له، والدعوةِ إليه؛ وقد ذكرنا في ثنايا هذا الباب بيعةَ كثيرٍ من النّساء أسلمنَ وبايعنَ، وبعض النّساء عرفتِ الإسلامَ من خلالِ أقاربها، وقد رأينا أنَّ النِّساءَ المبايعاتِ قُمْنَ بأعمالٍ جليلةٍ في مجالِ البيعةِ ثمّ الدّعوة إلى الإسلامِ وذلك في مجالاتٍ لا يقدرُ عليها الرّجال.

**خامس عشر**: إنَّ نساءنا في العصرِ الحاضر إذا لَقينَ التّوجيهَ الصَّحيحَ كُنّ داعياتٍ إلى الإسلام، ولهنّ جميلُ الأسوةِ في رسولِ الله ﷺ حينما دعا ابنتَه فاطمةَ الزّهراء، وعمتَه صفيةَ بنتَ عبد المطلب في إنذارِه، وهو يلبّي قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

* * *

# الباب الرّابع

## أركان بيعة النساء وفوائدها

# الفصل الأول
# وقفةٌ مع أركانِ بيعةِ النّساء وبنودُها

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

* قبل أنْ نتوقّفَ مع بنودِ هذه البيعةِ، لا مانع منْ أنْ نتوقّف قليلاً عند بعضِ معاني المفردات لكي تتوضّح الصّورةُ أكثر في أذهاننا:

* «يبايعنك»: أي يلتزمْنَ لكَ الطّاعة. وقد قيل: إنَّ البيعةَ سمّيتْ بيعةً، لأنَّ صاحبها باعَ نفْسَه لله تعالى. والبيعُ والمبايعةُ مأخوذان من مدِّ الباع، لأنَّ المُتبايعَيْن للسّلعة كلّ منهما يمدُّ باعَه للآخر ويعاقدُه عليها، وكذلك مَنْ بايعَ الإمام ونحوه، فإنّه يمدُّ باعَه إليهِ ويعاهدُه ويعاقدُه على ما يبايعه عليه.

* «ولا يقتلن أولادهنّ»: أي ولا يئدْنَ البناتِ.

* «ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه»: الولدُ الذي كانت ألصقَتْه بزوجها كذباً وزوراً. و«الافتراء»: الكذب.

* «في معروفٍ»: أي في أمرِ برٍّ وتقوى.

* «فبايعهنّ»: أي فالتزمْ لهنّ ضمانَ الثّواب إذا وفّينَ بهذه الأشياء.

* «واستغفرْ لهنَّ»: اطلبْ لهنَّ المغفرة.

* إنَّ المعنى العام للآيةِ يتلخّصُ في مخاطبةِ النّبيّ ﷺ، بأنّه إذا جاءَك

النّساء المؤمناتُ مقدماتٍ لكَ الطّاعة ، ملتزماتٍ ألا يشركْنَ بالله تعالى شيئاً من صنمٍ أو حجرٍ ، ولا يسرقْنَ من مال النّاس شيئاً ، ولا يزنينَ ، ولا يئدن البناتِ كما كُنَّ يفعلْنَ ذلك في الجاهلية ، ولا يلصقن أولادَ الأجانب بأزواجهنّ كذباً وبهتاناً ، ولا يعصينَكَ فيما تأمرهنّ به أو تنهاهُنّ عنه كالنّوحِ ، وتمزيق الثّياب ، وجزّ الشَّعْر ، وشقّ الجيوب ، وخَمْش الوجوه ، وألا تخلو امرأةٌ بغيرِ ذي رحم محرم ، فبايعهنّ على ذلك ، والتزمْ لهنّ الوفاء بالثّواب إنْ هنَّ أطعْنَكَ في كلّ ذلك ، واطلبْ لهنّ المغفرةَ من اللهِ تعالى ، إنه هو الغفورُ الرحيمُ لهنَّ إذا وفيْنَ بما بايعْنَ عليه.

* وهذه البنودُ الميمونةُ هي الأسسُ الكبرى للعقيدة ، كما أنّها هي مقوماتُ الحياةِ الاجتماعية الجديدة في ظلالِ الإيمان وأفياء الإسلام.

* إنّها نقيةٌ نقاءَ الإسلام ، إنّها عدمُ الشّركِ بالله إطلاقاً في أي وجْهٍ وأيِ حال؛ وعدم إتيانِ الحدودِ من سرقةٍ وزنىً ، وعدم قَتْلِ الأولاد ، وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى ما كان يجري في الجاهليةِ من وأْدِ البناتِ ، كما أنّه يشتملُ قَتْل الأجنّة لسببٍ من الأسبابِ ، وهنّ أميناتٌ على ما في بطونهنّ ، فلا يلحقْنَ بأزواجهنّ غير أولادهنّ ، ويلتزمْنَ بطاعةِ النّبي ﷺ في كلّ ما يأمرهنّ به ، وهو ﷺ لا يأمرُ إلا بمعروفٍ ، وعندها إذا علمْنَ ماهيةَ هذه البنود ، وبايعنَ على هذهِ الأسس الشّاملة قُبلتْ بيعتهنّ ، واستغفر لهنّ الرسولُ ﷺ عمّا سلَفَ ، واللهُ هو الغفورُ الرحيم الودود ، يغفرُ ويرحمُ ويعفو ويقيلُ العثرات.

* ولا ريب في أنَّ من اجتنبَ الشّركَ والكبائرَ والمعاصي كلّها ، فإنّه من المفلحين ، ونجا مع النّاجين بإذنِ اللهِ ، وهكذا بايعتِ النساءُ النبي ﷺ على الشّروط المذكورة في الآيةِ ، فكُنّ من زمرة السّعداء.

* ومن الجدير بالذّكرِ أنّ وفودَ المبايعاتِ كانت قد تتابعَتْ منذ فجرِ الإسلام ، فأقبلتِ النِّساءُ يبايعْنَ فُرادى وجماعاتٍ ، يبايعن ويحملنَ مسؤوليةَ هذه البيعة العظيمة.

* وكانت مبايعةُ النّساء للنّبيّ ﷺ تقعُ أحياناً مع مجموعِ المبايعين منَ الرِّجالِ ، كالذي عرفناه من بيعةِ أمّ عمارة وأمّ منيع في العقبةِ الثّانيةِ وكذلك

مبايعةُ أخرياتٍ مع الرّجال في بيعةِ الرِّضوانِ ، كما كانتِ البيعةُ النّسويةُ تقعُ أحياناً في جماعاتٍ من النّساء وحدهنّ ، كما قرأنا في بيعةِ النِّساء في المدينةِ المنوَّرة بُعَيد الهجرة ، وأيّام فتحِ مكّة المكرمة ، وقد يحدثُ أنْ تبايعَ المرأةُ بمفردها كما بايعت سودةُ بنت عاصم ، وأمّ عاصم السّوداء.

* وكان سيدنا وحبيبُنا رسولُ الله ﷺ يؤكّدُ على المبايعين والمبايعات بأنْ يقولوا عند البيعةِ على الطّاعة: «فيما استطعنا» ، وذلك لفرطِ رحمتهِ بأصحابه ، وقد جاء عن المبايعةِ أميمةَ بنتِ رقيقة رضي الله عنها أنها قالت: «بايعنا رسولَ الله ﷺ في نسوةٍ فقال لنا: «فيما استطعتُنَّ وأطقتُنَّ»»[1].

* وهذه البيعةُ الميمونةُ هي البيعةُ التي سمّاها النّووي في شرحهِ لصحيح مسلم: «البيعة الشّرعية»[2] وهي تمثّلُ الأسسَ والمقوماتِ الكبرى للعقيدةِ ، كما أنّها مقوماتُ الحياةِ الاجتماعيةِ الجديدةِ التي محتْ آثار الجاهليةِ وفي مقدمتها: التَّوحيدُ وعدمُ الشّرك بالله عزّ وجلّ بأي وجهٍ من الوجوه ، وعدم إتيان الحدود المنهي عنها كالسّرقة والزّنى وعدم قَتْل الأولاد ، وعدم البُهتان ، فالنِّساءُ أميناتٌ على ما في بطونهنّ قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢]؛ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «يعني لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهنَّ». ولعل هذا التّحفّظ بعد المبايعة على عدمِ الزّنى كان من أجلِ الحالاتِ الواقعة في الجاهليةِ من أنَّ المرأة كانت تبيحُ نفْسَها لِعدَدٍ من الرّجال ، فإذا جاءتْ بولدٍ ، نظرتْ أيهم أقربُ به شبهاً فألحقَتْه به ، وهي تعلمُ مَنْ هو أبوه الحقيقي ، وعموم اللفظ يمثل هذه الحالةَ وغيرهَا من كلّ بهتان وزور وادّعاء. ثم يأتي المعروف ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ [الممتحنة: ١٢] ، فالمعروفُ هو جوهَرُ الفعاليات الإسلامية كلّها ، وهو اسمٌ جامعٌ لكلّ ما عرف من طاعةِ الله والتقرّب إليه ، والإحسان إلى النّاس ، وكلّ ما ندبَ إليه الشرعُ ، ونهى عنه من المقبحات.

* * *

(١) انظر: سنن النسائي (٥/ ١٥٢).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٥٣١).

# الفصل الثاني
# لا يشركْنَ بالله شيئاً

* الشّركُ من أقبحِ الذُّنوبِ وأعظمِها ، واللهُ تعالى يغفرُ كلّ شيءٍ إلا الشّرك به.

* وللشِّركِ معنىً واضحٌ في اللغةِ ، قال ابنُ منظور ما مفادُه ومجمله: «الشّركُ: كالشَّريك. وأشركَ بالله: جعل له شريكاً في مُلْكِهِ ، تعالى الله عن ذلك ، والاسمُ الشِّرك. قال اللهُ تعالى حكايةً عن عبده لقمانَ أنّه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. والشّركُ: أنْ يجعل لله شريكاً في ربوبيتهِ ، تعالى الله عن الشّركاءِ والأندادِ ، وإنما دخلتِ التّاءُ في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ لأنَّ معناه لا تَعْدِلْ به غيره فتجعله شريكاً له ، ومَنْ عدلَ به شيئاً منْ خلقِهِ فهو كافرٌ مشْركٌ ، لأنَّ اللهَ وحده لا شريكَ له ، ولا ندَّ لَهُ ولا نديد. وقال أبو العباس في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]؛ معناهُ الذين هم صاروا مشركين بطاعتِهم للشّيطان ، وليس المعنى أنّهم آمنوا باللهِ ، وأشركوا بالشَّيطان ، ولكنْ عبدوا الله ، وعبدوا معه الشّيطان ، فصاروا بذلك مشركين ، ليس أنَّهم أشركوا بالشّيطان وآمنوا باللهِ وحده. وقال الجوهري: الشِّركُ: الكفرُ ، وقد أشركَ فلانٌ باللهِ ، فهو مشْركٌ.

وفي الحديث: «الشّركُ أخفى في أمّتي من دبيبِ النَّمل».

قال ابنُ الأثير: يريدُ به الرّياء في العمل ، فكأنّه أشْركَ في عمله غير الله ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وفي حديث تلبيةِ

الجاهلية: لبيكَ لا شريكَ لك إلا شريك هو لك تملكُه وما مَلك ، يعنون بالشَّريك الصَّنم ، يريدون أنَّ الصَّنم وما يملكه ويختصُّ به من الآلهةِ التي تكون عنده وحوله النذور التي كانوا يتقربون بها إليه كلّها ملْكٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، فذلك معنى قولهم: تملكُه وما مَلك.

قال محمد بنُ المكرم: اللهم إنّا نسألكَ صحّةَ التَّوحيد والإخلاص في الإيمان ، انظرْ إلى هؤلاء لم ينفعْهم طوافُهم ولا تلبيتُهم ولا قولُهم عن الصَّنم: هُوَ لك؛ ولا قولُهم: تملكُه وما مَلك ، مع تسميتهم الصّنم شريكاً ، بل حبِطَ عملُهم بهذه التّسمية ، ولم يصحّ لهم التّوحيد مع الاستثناء ، ولا نفعَتْهم معذرتُهم بقولهم: «﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٢]؛ أي اجعلْه شريكي فيه...»[١].

* ولعلّي قد أَطَلْتُ قليلاً الوقفةَ تحت أفياء اللغة ، إلا أنَّ ذلك أفادنا شيئاً كثيراً ، وفتحَ أمامنا الأبواب لمعرفةِ خطورة الشّرك ، وأنَّ الشّركَ يحبطُ كلَّ الأعمال ، لذا فقد كانتِ البيعةُ واضحةَ المعالم ، يأتي في أولها التّوحيد ، فإذا كان المبايعُ أو المبايعةُ لله والرسولِ من أهلِ التّوحيد طبّقَ بقيةَ الأركانِ وبنودَ البيعة ، أما إذا تلوثتِ العبادةُ بالشّرك فلا ينفعُ شيءٌ معها ، فالشّركُ من أكبرِ الكبائر ، كما جاء في الصَّحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبرِ الكبائر؟

قُلنا: بلى يا رسولَ الله؛ فقال: الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدين ، وشهادةُ الزّور»[٢].

* وفي الصَّحيحَيْن أيضاً تحذيرٌ من الشّركِ وخطورتهِ والابتعادِ عنه واجتنابه ، فقد قال ﷺ: «اجتنبوا السَّبع الموبقات».

---

(١) لسان العرب (١٠/٤٤٨ ـ ٤٥٠) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٦٣١)؛ ومسلم برقم (٨٧) ، والترمذي أيضاً برقم (١٩٠١) ، ومعنى الكبائر: جمعُ كبيرة ، وهي كلّ فعل قبيح نهى عنه الشّرع ، وشدّدَ فيه النبي ﷺ وأعظمَ أمره. وعقوق: مأخوذٌ من العق ، وهو القطع. والزّور: تمويه الباطل بما يوهم أنّه حقّ.

قيل: وما هنّ يا رسولَ الله؟

قال: الإشراكُ بالله، والسّحرُ، وقتلُ النّفس التي حرّم الله إلا بالحقّ. وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الرّبا، والتّولي يوم الزّحف، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمنات»[1].

* وفي الصَّحيحين أيضاً دلالات كثيرة على عِظَم الشّرك وغلظته، وأنّه أعظمُ الذّنوب عند الله تعالى، ففي حديث طويل أوله أنَّ النّبيّ ﷺ سُئِل: أيّ الذّنبِ أعظمُ عند الله؟

قال: «أنْ تدعوَ لله نِدّاً وهو خَلقَك..»[2].

* ومن هنا كانتِ المبايعةُ للنّساء على صفاءِ العقيدةِ وعلى التّوحيد، وكان البندُ الأوّلُ من شروطِ المبايعة يقتضي ذلك، إذ إنّ الشّركَ أعظمُ الذّنوب، ولا يصلحُ معه عملٌ مهما كان.

* وقد اختلفَ العلماءُ من الصَّحابة وغيرهم في الكبائر وهل لها عدد يحصرها؟

فقال عبد الله بنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ هي أربعٌ.

وقال عبد الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ هي سبْعٌ.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ هي تسْعٌ.

وقال غيرهم: هي إحدى عشرة.

وقال آخرون: هي سبعون.

غير أنَّ هؤلاء جميعاً قالوا: إنَّ الشِّرك أعظمُها.

* قال أبو طالب المكّي: «جمعتُها ـ أي الكبائر ـ من أقوالِ الصَّحابة، فوجدتُها أربعةً في القَلْب وهي: الشّركُ باللهِ، والإصرارُ على المعصيةِ،

---

(1) أخرجه البخاري برقم (٦٤٦٥)، ومسلم برقم (٨٩). ومعنى «الموبقات»: المهلكات «المحصنات»: العفائف «الغافلات»: الغافلات عن الفواحش وما قُذفن به.

(2) أخرجه البخاري برقم (٤٢٠٧)، ومسلم برقم (٨٦) ومعنى «ندّاً»: أي نظيراً ومثيلاً.

والقنوطُ من رحمةِ الله ، والأمنُ من مكْرِ الله .

* وأربعةٌ في اللسانِ وهي : شهادةُ الزّور ، وقذفُ المحصنات ، واليمينُ الغموس ، والسّحرُ .

* وثلاثٌ في البطن وهي : شربُ الخمرِ ، وأكلُ مالِ اليتيم ، وأكلُ الرّبا .

* واثنان في اليدَيْن وهما : القتلُ ، والسرقةُ .

* وواحدٌ في الرجلَيْن وهو : الفرارُ من الزَّحف .

* وواحدٌ يتعلّق بجميع الجسَد وهو : عقوقُ الوالدين»[1] .

* إنَّ اللهَ تعالى لا تضرّهُ الذّنوب ، ولا يتأثّر بها ، بل يتأثّرُ بها العاصي ، لأنَّ اللهَ تعالى أرسلَ رسله ، وأنزلَ كتبه ، وخلقَ السّماواتِ والأرضَ ليُعْرفَ ويُعْبدَ ، ويكون الدّينُ كلّه لله ، والطّاعةُ كلّها له ، والدعوةُ له ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

* ومن هذه النقطةِ نجدُ أنَّ الله تعالى جعلَ الشّرك ظلماً عظيماً ، فالشّركُ أظلم الظّلم ، والتوحيدُ أعدلُ العدل ، وما كان منافاة لهذا المقصود فهو أكبرُ الكبائر .

* ومن الخير في دينِ الإسلام معرفةُ اللهِ وتوحيدُهُ ، ولأهميةِ التّوحيدِ جاء ذكره في أوّلِ بيعةِ المؤمنات في سورة الممتحنة كما مرَّ معنا .

* وقد حرَّمَ اللهُ الجنَّةَ على كلّ مشركٍ ، وأبىٰ اللهُ تعالى أنْ يقبلَ من مشركٍ عملاً ، أو يقبلَ فيه شفاعة ، أو يستجيبَ له في الآخرة دعوة ، أو يقيلَ له فيها عثرة ، فإنَّ المشركَ أجهلُ الجاهلين باللهِ تعالى ، حيث جعلَ له من خلقه نداً ، وذلك غايةُ الجهلِ به ، كما أنّه غايةُ الظّلم منه ، وإن كان المشركُ لم يظلمْ ربّه ، وإنّما ظلمَ نفسه؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النّساء : ٤٨] .

* لقد ربّى النّبيُ ﷺ الصَّحابةَ والصَّحابيّات على العقيدةِ الصّافيةِ ، وتركَهم

(١) الداء والدواء لابن قيم الجوزية (ص ٢٢٦) طبعة دار ابن كثير المحققة ـ ط٤ ـ ١٩٩٩م .

على المحجّةِ البيضاء ، وعلّمهم ما ينفعُهم في دنياهم وأُخراهم ، وكان في مقدمةِ ذلك كلّه شهادة التّوحيد التي هي مفتاحُ الجنّة ومفتاحُ كلّ خير ، ولقد سار الصَّحابةُ على هذا النّهج فكانوا مصابيحَ الهدى ، ونجومَ الدُّنيا في القولِ والعملِ فرضي الله عنهم أجمعين.

* لقد عرفَ الصّحابةُ أجمعون أنَّ الشّركَ هو أكبرُ الكبائرِ على الإطلاق ، ولا ينفعُ معه عملٌ صالحٌ ، ففي الحديث القدسي قال الله عزّ وجلّ: «يا بنَ آدم ، إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لكَ على ما كان منكَ ولا أبالي ، يا بنَ آدمَ لو بلغتْ ذنوبك عنانَ السَّماء ثمّ استغفرتني غفرتُ لك ، يا بنَ آدم لو أتيتني بقرابِ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشركْ بي شيئاً لأتيتُك بقرابها مغفرة»[1].

* إنَّ الشّركَ لا ينفعُ معه شيءٌ من مكارمِ الأخلاقِ؛ من حسنِ الخلقِ ولا لينِ الكلام ، ولا الكلام المعسول ، ولا الظّهور بمظهرِ المُحسنِ الذي يسعى في الخير ، أو المنفق في وجوهِ البرّ ، كما نشهدُ من أعمالِ غيرِ المسلمين ، أو نسمعُ عن أخبارِهم وإسهامهم في أعمالِ الخير ، أو نقرأُ ما في كتبِهم من آراء منصفةٍ حول دفاعِهم عن الحقّ أو المظلومين ، لأنَّ الشّرك محبطٌ للعمل ، وكلّ ما قدموا يكونُ هباءً منثوراً.

*إنَّ الشِّركَ باللهِ عزَّ وجلَّ عظيمٌ ، وسلوكٌ عقيمٌ ، ولذلكَ كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظهُ بألاَّ يقربَ الشّركَ لأنَّهُ ظلمٌ وأي ظلم ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

* حقاً إنَّ الشّركَ بالخالقِ البارئ لظلمٌ عظيمٌ ، ذلك لأنَّ حقَّ الله تعالى على عبادهِ أنْ يؤمنوا به ، وأنْ يعبدوه وحده ، ولا يشركوا بعبادته أحداً ، وأن يطيعوه بالتزامِ ما يأمرهم به ، واجتنابِ ما ينهاهم عنه ، فَمَنْ عبدَ غيرَ اللهِ مثلَ عبادَتِهِ لله فقد وضعَ عبادته في غير محلّها ، ورفع خلقاً من خَلْقِ اللهِ فجعلَهُ

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وقال: «حديث حسن صحيح».

مساوياً للهِ ولو في أمرٍ من الأمور ، أو صفةٍ منَ الصِّفاتِ ، وكلَّ ذلك ظلمٌ عظيمٌ ، لأنَّهُ يتعلّق بحق الله تعالى الخالق الرّزاق المنعم المحيي المميت في كبرى حقوقه على عباده وهو التّوحيد.

* إنَّ الشّرك بالله عزَّ وجل ظلمٌ للحقيقة العلمية ، لأنَّهُ لا يستحقُّ أحد أنْ يُعْبدَ من دون اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يستحقّ أنْ يُعبدَ مع اللهِ أحد.

* وكذلك فالشِّركُ ظلمٌ للواجبِ الأخلاقي والمنطقي ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الخالقُ الرازقُ المنعمُ بنعمٍ لا تُحصى ، والواجب الأخلاقي يُحَتّمُ على العبد أنْ يشكر الله عزَّ وجلَّ على نعمه ، فيؤمن به وحده ، ولا يشرك بعبادته أحداً. وهذا الأمر خاص بالرّجال والنساء ، وقد فهمه المبايعون والمبايعات وعملوا به بما يرضي خالقهم عز وجل.

* لقد كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يعلّمُ الصّحابياتِ على التّوحيدِ الخالصِ ، واجتنابِ الشّرك ، فعن أسماءَ بنتِ عميس رضي الله عنها قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «ألا أعلمكِ كلماتٍ تقولينهنَّ عند الكرب: اللهُ ربّي ، لا أشركُ به شيئاً»[1].

* وكانت الصَّحابيَّاتُ يتحريْنَ جميعَ الأحوالِ لمعرفةِ التّوحيدِ الخالصِ واجتنابِ الشّرك ، فقد أخرجَ الإمام أحمد عن أسماءَ بنتِ يزيد قالت: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في هاتين الآيتَين: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، و﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١ و٢]: إنَّ فيهما اسمَ الله الأعظم»[2].

* ولذا فقد لاحظنا من السّيدةِ هند بنتِ عتبة رضي الله عنها التزامَها بالتّوحيد فورَ إسلامها ، وتكسير أدواتِ الشّرك قائلةً: «لقد كُنّا منك في غُرور».

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٩) ، وأبو داود برقم (١٥٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦١) والترمذي برقم (٣٤٧٨).

# الفصل الثَّالثُ
# ولا يسْرِقْنَ

* الإسلامُ دينُ رحمةٍ وعدالةٍ ، يعملُ دائماً على حمايةِ المجتمعِ من جميعِ الآفاتِ ، ومنها السّرقةُ ، فقد جعل لها حداً ، وعقوبةً لكي يرتدعَ مرتكبها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨].

* ولما كانتِ السّرقةُ معهودةً كثيراً من النّساء كالرّجالِ ، صرَّح القرآنُ بالسّارقةِ للزّجر ، ومزيدِ العنايةِ بالبيان ، وإن كان المعهودُ إدراجَ النّساء في الأحكامِ الواردة في شأن الرّجال.

* والسرقةُ في اللغة : أخذُ المالِ مطْلقاً في خفاءٍ وحيلةٍ.

* وعرَّفَ الفقهاءُ السرقةَ بأنّها : أَخْذُ العاقلِ البالغِ مقداراً مخصوصاً ـ من المال أو الشّيء المسروق ـ خِفية من حِرْزٍ بمكانٍ ، أو حافظٍ ، ودون شبهة[1].

* وأجمع المسلمون على وجوبِ قطْعِ يدِ السّارق والسّارقة في الجملة.

* فالسّارقُ أو السّارقةُ عنصرٌ فاسدٌ في المجتمعِ إذا تُرِكَ سرى فسادُه في جسمِ الأمّةِ ، فلابدَّ من حَسْمِهِ بتطبيقِ الحدّ المناسبِ لردعهِ ، ومن ثمّ شرعَ اللهُ تعالى قطْعَ يدِ السّارقِ أو السّارقةِ ، تلك اليد الظّالمة التي امتدتْ إلى ما لا يجوزُ

(١) قال ابن حزم رحمه الله في «المحلّى»: «وجدنا السَّارقَ في اللغة التي نزل بها القرآنُ ، وبها خاطَبَنا اللهُ تعالى: هو الآخذُ شيئاً لم يُبِحِ اللهُ تعالى له أخذه ، فيأخذه مُتَمِلّكاً له ، مستخفياً به». (المحلّى ص ٢١٨٧).

لها الامتداد إليه ، تلك اليدُ التي تهدمُ وتخربُ ولا تبني ، تأخذُ بغير حقّ ، ولا تعطي ، تعملُ على الاضطراب وذرّ الفتنة وبذرِ الفساد ، وتخريبِ البيوت والأُسَر.

* قال ابنُ قيّم الجوزيّة: «إنّما قُطِعَ السّارقُ دون المنتهبِ والمغتصبِ ، لأنّه لا يمكنُ التّحرزُ منه ، فإنّه ينقبُ الدُّور ، ويهتكُ الحرزَ ، ويكسرُ القُفْلَ ، فلو لم يشرعْ قطعه ، لسرقَ النّاس بعضُهم بعضاً ، وعظم الضّرر ، واشتدتِ المحنةُ».

* وقد عاقبتِ السُّنّةُ السَّارقَ والسَّارقة إذا سرقَ ربع دينار ، فقد روي عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أنّها قالت: «تقطعُ يدُ السَّارق في ربعِ دينار فصاعداً» وقد جاء في الصَّحيح عنها من أنَّه ﷺ قال: «لا تقطعُ يدُ السَّارق إلا في ربعِ دينار فصاعداً»[1]. وكان ربعُ الدينار يومئذ ثلاثةَ دراهمَ إسلامية.

* وفي تخصيصِ القطْع بهذا القَدْرِ حكمةٌ ظاهرةٌ ، حيث إنَّ هذا القَدْرَ يكفي المقتصد في يومِهِ له ولمن يعولُه غالباً؛ فانظرْ كيفَ تقطعُ اليدُ في سرقةِ ربع دينار ، مع أنَّ دِيةَ اليدِ لو جُني عليها خمس مئة دينار ، لأنّها لما كانت أمينةً كانت ثمينةً ، ولما خانَتْ هانَتْ.

* وإذا اكتملتْ شروطُ السَّرقة ، وجبَ القطعُ ، وتقطعُ اليدُ اليُمنى[2] ، لقراءةِ ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فاقطعوا أيمانهما﴾ [ومحلّ القطع من مفْصَل الكفّ] ، لأنّ اليدَ آلةُ السّرقة ، فعوقب بإعدامِ آلتها ، واقتصرَ القطعُ على الكفّ[3] ، لأنَّ اليدَ إذا أطلقتْ ، انصرفتْ إليه ، وبعد قطعِها يُعمل لها ما يحسم الدّم ، ويندمل به الجرحُ من أنواعِ العلاج المناسبة في كلّ زمانٍ بحسبه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨٩ و٦٧٩١).
(٢) وذلك لإجماع المسلمين على ذلك.
(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير (ص ٣٨٢).

* ومن الجدير بالذكر بأنَّ إطلاقَ لفظ: السَّارق؛ يشملُ الأحرارَ والعبيدَ، والذّكورَ والإناث، والمسلمين والذّمّيين.

* ولهذا لما بايعَ النّبيُ ﷺ النّساء ووصل إلى قوله: ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾ قالتِ السّيّدةُ هندُ بنتُ عتبة ـ رضي الله عنها ـ وكانت حديثةَ الإسلام: «واللهِ إنّي لأصيبُ من أبي سفيان الهنات، ما أدري أيُحلُّهنّ لي أم لا؟» قال أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ: «ما أصبتِ من شيءٍ مضَىٰ، أو قد بقيَ فهو لكِ حلال»[1].

* إذاً فلا يجوزُ للنّساءِ المبايعاتِ أنْ يسرقْنَ من أموالِ الناسِ الأجانب مطلقاً، أما إذا كان الزّوج مقصّراً في نفقتها، فلها أنْ تأكلَ من مالهِ بالمعروفِ ما جَرَتْ به عادةُ أمثالِها، وإن كان بغيرِ علْمه، عملاً بحديثِ هند بنت عتبة ـ رضي الله عنها ـ أنّها قالت: يا رسولَ اللهِ! إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، لا يعطيني من النَّفقةِ ما يكفيني ويكفي بَنيّ، فهل عليَّ جناحٌ إنْ أخذتُ من مالهِ بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذي من مالهِ بالمعروف ما يكفيكِ ويكفي بنيكِ»[2].

* وقد وردَ أيضاً في كبرى المصادرِ الموثوقةِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قطعَ يدَ امرأةٍ سرقتْ.

* أما قصةُ هذه المرأةِ التي سرقَتْ، فنستمعُ إليها وإلى الحكْم فيها من أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيما جاء في الصّحيحِ وغيرهِ قالت: إنَّ امرأةً سرقَتْ في عهدِ النّبي ﷺ في غزوةِ الفَتْح، فأُتيَ بها رسولُ اللهِ ﷺ، فكلَّمه فيها أسامةُ بنُ زيد ـ رضي الله عنهما ـ فلما كلّمه فيها تلوّن وجْهُ رسولِ الله ﷺ، ثمَّ قال: «أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ الله»؟! فقال له أسامةُ: استغفرْ لي يا رسولَ الله!.

فلما كان العشيُّ، قامَ رسولُ الله ﷺ، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤١٦)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٥٢) مع الجمع والتصرف اليسير.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤١٨)، والحديث مخرّج في الصحيحين.

قال: «أمّا بعدُ فإنّما أهلكَ الناسَ قبلكم أنّهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشَّريفَ تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيفَ أقاموا عليه الحدّ! وإنّي والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمةَ بنةَ محمد سرقَتْ لقطعتُ يدها».

ثم أمر بتلك المرأةِ التي سرقتْ فقطعتْ يدها.

قالت عائشةُ: فحسُنَتْ توبتُها بعد، وتزوّجت، فكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتَها إلى رسول اللهِ ﷺ»[1].

* لقد أعطى النَّبيُّ ﷺ المثَلَ الصَّالح ـ في إقامة الحدّ ـ بنفسهِ وبأهلهِ قبل كلّ شيء، ولا يُعطّل حدّاً من حدودِ الله تعالى.

* بل لم يكنْ أسامةُ بنُ زيد وهو الحِبُّ بنُ الحِبّ ليحول دون إقامةِ حدودِ اللهِ تعالى، وتطبيقِ شريعته، وعلى هذه المبادىء العظيمة والصَّحيحة كانت عظمةُ الدِّينِ ونجاحُ الإسلام، وفوزُ الصَّحابةِ والصّحابياتِ بمرضاة الله تعالى، ورسوله ﷺ.

* وهكذا نجدُ أنَّه بتطبيقِ حدِّ الإسلام في القَطعِ تُحْفَظُ الأموالُ والأرواح، ويستتبُ الأمنُ، ومنَ المعلومِ أنَّ بلاداً كثيرةً من بلاد المسلمين تساهلت في هذا الحدِّ الشّرعي، فانتشرت فيها جرائم السَّرقةِ والقتلِ بنسبةٍ واسعةٍ من أجل الحصول على الثراء السَّريع غير المشروع.

* قال عبد الرحمن الميداني: «وتبعت هذه البلاد النّظم الوضعية المستوردة من أوروبا، فانتقلت إليها أوبئة الجرائم الموجودة في بلاد غير المسلمين، وضعفت بتركِ حدود الإسلام شروط الأمنِ، فكثُرتِ الجرائمُ، وفسدَ حالُ

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١١/١٨٦) وجاء في الاستيعاب أنّها فاطمةُ بنتُ الأسود ابن عبد الأسد المخزومية: هي التي قطعَ رسولُ اللهِ ﷺ يدها لأنّها سرقَتْ حُليّاً، وتكلّمت قريش فيها إلى أسامةَ بنِ زيد ليشفعَ فيها عند رسول اللهِ ﷺ وهو غلامٌ، فشفَعَ فيها، فقال له رسولُ الله ﷺ: «يا أسامةُ، لا تشفعْ في حدّ، فإنّه إذا انتهى إليَّ لم يكن فيه مترك، ولو أنّ فاطمةَ بنتَ محمد سرقت لقطعت يدها».
(الاستيعاب ترجمة رقم ٣٤٢٣)، والحديث في البخاري برقم (٣٤٧٥)، ومسلم برقم (١٦٨٨) ولكن دون أن تسمى المرأة.

المجتمع ، وكانت البلادُ في عافية من معظم هذا الفساد الذي انتشر ، لو أنّها حافظتْ على تطبيق أحكام الشّريعةِ الإسلامية ، التي تردعُ النّاسَ متى نُفِّذَتْ في عددٍ قليل من المجرمين ، والتّجربة الواقعيّةُ في بعض بلاد المسلمين أثبتت ذلك. من أجل ذلك كان الرسولُ ﷺ متى رُفِعَ إليه أمر السَّارق أمرَ بقطعِ يده وقال: «لو أنَّ فاطمةَ بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[1].

* وأودُّ أن أذكّرَ القرّاء بأنَّ الإسلامَ وضعَ هذه الحدودَ لإصلاحِ المجتمعاتِ ، ولخيرها ، كما أنَّ الإسلامَ أمر أهله ـ رجالاً ونساءً ـ بأن يعملوا ويمشوا في مناكب الأرض لاكتسابِ الرِّزقِ الحلال ، لا أنْ يسرقوا ويغصبوا الناسَ أموالهم ، ويبذروا بذور الفساد في المجتمع ، لأنَّ السَّرقة تؤدي إلى الشَّرِّ وتفكُّكِ الأواصر الودّية بين الناس.

* فإذا ما سعى الإنسانُ ، واكتسبَ الرِّزقَ الحلالَ ، فإنَّ في ذلك كرامة له ، وإعلاءٌ لهمتهِ ، وصوناً لمجتمعهِ ، وأسرته ، ومن هنا كانت السَّرقة عاراً كبيراً وعملاً شائناً لا ترتضيه الشَّريعةُ السَّمحة ، ولهذا عاقبت السَّارق بالبترِ لِبَتْرِ دابر الفتن.

* * *

(١) الأخلاق الإسلامية (٢/١١٦).

# الفصل الرابع
# ولا يزنينَ

* قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أكثرُ ما يُدخلُ الناسَ النّار: الفَمُ والفرجُ»[1].

* وفي الصَّحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتّارك لدينهِ المفارق للجماعة»[2].

* ومن الملاحظ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد بدأَ حديثه بالأكثرِ وقوعاً، ومن ثمّ الذي يليه.

* فالزنى[3] أكثر وقوعاً من قَتْل النَّفس، وقتلُ النفس أكثر وقوعاً من الرّدة.

* إنَّ مفسدةَ الزّنى مناقضةٌ لصلاحِ العالَم، فإنَّ المرأةَ إذا زنَتْ، أدخلتِ العارَ على أهلِها، وزوجِها، وأقاربها، ونكَّستْ رؤوسَهم بين الناس؛ فإنْ حملتْ من الزِّنى، وقَتَلَتْ ولدها جمعَتْ بين الزّنى والقَتْل، وإنْ هي حملته على الزَّوج أدخلتْ على أهلهِ وأهلِها أجنبياً ليس منهم، فورثَهم وليس منهم،

---

(١) أخرجه التّرمذي برقم (٢٠٠٤)، وقال: «حديثٌ صحيح»، وهو كما قال. وأخرجه ابنُ ماجه برقم (٤٢٤٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٨٤)، ومسلم برقم (١٦٧٦)، ومعنى: «لا يحلّ دم امرئ»: لا يُباح قتله. و«الثّيب الزاني»؛ الثّيب: من سبقَ له الزّواج ذكراً أم أنثى، فيُباح دمه إذا زنى.

(٣) «الزنى»: بالألف المقصورة في اللغة الفصحى، وهي لغة الحجازيين، وقد يُمدّ في لغة أهل نجد والنّسبة إلى المقصور زِنَويّ، وإلى الممدود زِنائِيّ.

ورآهم وخلا بهم وانتسبَ إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفاسدِ زناها.

* وأمّا زنى الرّجل فإنّه يوجبُ اختلاط الأنساب أيضاً ، وإفساد المرأةِ المصونة ، وتعريضها للتّلف والفساد ، ففي هذه الكبيرة خرابُ الدنيا والدّين.

* وللزّنى خواصٌ منها:

أنّه يوجبُ الفَقْر ، ويقصّرُ العمر ، ويكسو صاحبَه سوادَ الوجْه ، ويورثُ المقْتَ بين النّاس[1].

* ومن خاصيته أيضاً:

أنّه يشتتُ القلب ويمرضه إنْ لم يُمِتْه ، ويجلبُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ ، ويباعد صاحبه مِنَ المَلَكِ ويقربهُ من الشَّيطان.

* ولهذا شرعَ فيه القتْلِ على أشنعِ الوجوه وأفحشِها وأصعبها ، ولو بلغَ العبدُ أنَّ امرأتَه ، أو حرمته قُتِلَتْ ، كانَ أسهل عليه من أنْ يبلغه أنّها زنَتْ.

* وقد خصَّ اللهُ تعالى حدَّ الزّنى من بينِ الحدود بثلاث خصائص:

**أحدها**: القَتْلُ فيه بأشنعِ القتْلات ، وحيث خفَّفه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد ، وعلى القلبِ بتغريبه عن وطنه سنة.

**الثّاني**: أنّه نهى عباده أنْ تأخذهم بالزّناة رأْفَة في دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحدّ عليهم: فإنّه سبحانه من رأفتِه ورحمتِه بهم شرعَ هذه العقوبة ، فهو

---

(١) قال الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي المتوفى عام (١٩٤٤ م) في كتابه الشَّهير «دولة النّساء»: «أظنُّني في غيرِ حاجةٍ إلى تنبيه النّاظرِ في كتابنا هذا إلى تلك الأدواءِ الخبيثةِ التي تصيبُ الزُّناةَ في هذهِ الأيّام ، وإلى المآسي المؤسفةِ التي تنتهي بها في الأعمِّ الأغلبِ حالُ الزّناة من قتلٍ وعارٍ وشنارٍ وفقرٍ ، واللهِ يميناً لا حانثاً فيها ، ولا آثماً لقد أدركتُ من سَرَواتنا الذين كانوا منْ أغنيائِنا الذين يُشَار إليهم ، وبَعْدُ عشيةٍ وضحاها أضاعو ضياعَهُم ، وذهبَ الله بِذَهبِهم ، وكان سرُّ هذه المتربةِ هو الزّنى وحده ، نعوذُ باللهِ من نزواتِ نفوسنا». (دولة النّساء ص ٣٦٣).

ويمكننا أنْ نقول: «كان عصر البرقوقي عصر بركةٍ إذا قِيْسَ بعصرنا الحاضر وما نراه من مآسٍ وأمراضٍ تأتي على كلّ شيء ، وتحصدُ الزُّناةَ حصداً ، نعوذ بالله منها ، ونرجو الله أن يحفظنا ومجتمعنا من المعاصي».

أرحمُ بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمرِهِ بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفةِ من إقامةِ أمره.

**الثّالث**: أنّه سبحانه وتعالى أمرَ أنْ يكونَ حدُّهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون في خلوةٍ بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ في مصلحةِ الحدّ وحكمةِ الزّجْر.

* قال أهلُ العلْمِ والفقْهِ: «ويجبُ في إقامةِ حدّ الزّنى حضورُ إمامٍ أو نائبه ، وحضورُ طائفة من المؤمنين ، لقوله تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

* والزنى من أعظمِ الجرائم ، وهو يتفاوتُ في الشّناعة والإثمِ والقبح؛ فالزِّنى بذاتِ زوج ، والزّنى بذاتِ المحرم ، والزِّنى بحليلةِ الجارِ من أعظم أنواعه.

* ولما كان الزّنى من أعظمِ الجرائمِ وكبارِ المعاصي ، فقد رتّبَ اللهُ عليه حدّاً صارماً ، وهو الرجمُ بالحجارةِ حتى يموتَ ، أو جلده وتغريبه عن بلدهِ ، ليحصلَ بذلك الرّدعُ عن ارتكابه ، إضافة إلى ما ينشأُ عنه من الأمراضِ التي تفتكُ بالمجتمعات ، ولذلك نهىٰ عنه الشّارع أشدَّ النّهيّ ، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢][١].

* ومن اللطائفِ في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] ، فقد يُقال: ما الحكمةُ في أنْ بدأ اللهُ في الزّنى بالمرأةِ[٢] ، وفي السَّرقة بالرجل؟ والجواب: إنَّ الزنّى من المرأةِ أقبحُ ، فإنَّه يترتّبُ عليه تلطيخُ فراش الرجلِ ، وفسادُ الأنسابِ ، وعارٌ على العشيرة أشدُ وألزم ، والفضيحةُ بالحمل منه أظهرُ وأدوم ، فلهذا كان تقديمها على الرّجل أهم.

---

(١) معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي: بالعزم والإتيان بالمقدّمات ، فضلاً عن أنْ تباشِرَهُ؛ وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: عملاً قبيحاً ممعناً في القبح زائداً عليه؛ وقوله: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس طريقاً طريقه.

(٢) قال علماؤنا: «إنّما قدّمَ الزّانية لأنّ الزّنى في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه ، ولأنَّ مفسدته تتحققُ بالإضافة إليها».

* وأما السّرقةُ فالغالبُ وقوعها من الرجالِ ، وهم عليها أجرأُ من النّساء وأجلدُ وأخطرُ ، فقُدِّموا عليهن لذلك .

* وقد ثبتَ أنَّ النبي ﷺ قد رجمَ ماعزَ بنَ مالك الأسلمي ، كما رجمَ الغامدية ، فقد جاء في صحيح مسلم بعد أنْ أوردَ قصّة رجْمِ ماعز قال: فجاءتِ الغامديةُ ، فقالت: يا رسولَ الله ، إنّي قد زنيتُ فطهّرني ، وإنّه ردّها ، فلما كان الغد قالت: يا رسولَ الله ، لِمَ تردّني؟ . . . فو الله إنّي لحبْلَى .

قال: «إمّا لا ، فاذهبي حتّى تلدي» .

فلما ولدتْ أتته بالصَّبي في خِرقةٍ ، قالت: هذا قد ولدته .

قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» .

فلما فطمته أتتْه بالصَّبي في يده كِسْرة خبز ، فقالت: هذا ، يا نبي الله ، قد فطمتُه ، وقد أكلَ الطَّعام ، فدفعَ الصَّبي إلى رجلٍ من المسلمين ، ثم أَمَر بها فحُفِرَ لها إلى صدرها ، وأمرَ النَّاس فرجموها[1] .

* وتذكرُ كتبُ الطَّبقاتِ وغيرها أنَّ أبا كبيرَ الهُذَليّ قد جاء إلى سيّدنا رسول الله ﷺ ، وسألهُ أنْ يحلَّ له الزّنى ، فقال له النّبيُّ ﷺ: «أتُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إليكَ مثلَ ذلك؟

قال الرّجلُ: لا يا رسول الله .

فقال: له النَّبيُّ ﷺ: «فارضَ لأخيك ما ترضىٰ لنفسكَ» .

ثم إنَّ الرجلَّ قال: يا رسولَ الله ، ادعُ الله لي أن يُذْهِبَ ذلك منّي . فدعا له النّبي ﷺ[2] .

وفي هذه المناسبة يقول حسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

سَالَت هُذَيلٌ رسول اللهِ فاحِشَةً ضَلَّتْ هذيلٌ بما سالَتْ ولم تُصِبِ

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٩٥) ، وأبو داود (٢/ ٥٥٦) ، وأحمد (٥/ ٣٤٨).
(٢) الإصابة ترجمة رقم (١٠٤٤٥) بتصرف.

سـالُـوا نبيَّهـم مـا ليـسَ مُعطيهـم حتى المماتِ وكانوا عُرَّةَ العرب[1]

* إنَّ الإسلامَ يجعلُ من أهلهِ ـ نساءً ورجالاً ـ أمةً طاهرةً عفيفةً ، ولا يرضى للأمة أنْ تتلطّخَ بالذنوبِ ومنها الزّنى الذي استنكرتْه هندُ بنتُ عتبة عند البيعةِ بقولها للرّسول ﷺ: وهل تزني الحرّةُ؟ بالطبع إنَّ الحرائرَ لا يزنين ، ويريدُ الإسلام من النّساء أن يكنَّ عفيفاتٍ طاهراتٍ ، لأنَّ مستقبلَ الأجيالِ في أيديهنّ ، وعلى هذه المبادىء الجليلة بايعَ نساءُ الصَّحابة على العفّةِ والطَّهارةِ والنّقاء ، فرضي الله عنهنَّ.

* لقد حرصَ الإسلامُ على نظافةِ المجتمعِ الإسلامي وطهرِه وعفافهِ[2]، والمحافظةِ على النَّسل وصيانةِ الأعراض ، وصفاءِ الأعراق ، وعدم وجودِ عرقٍ مدسوسٍ في الأسرة يشاركُها في طعامِها ولباسِها وميراثها ، وهو ليس منها ، ويكون عليها مَحْرماً ، وهو ليس بمحرم.

* وللزّنى أخطارٌ ذميمة ، ونتائجُ وخيمةٌ ، فهو يؤدي إلى تفشّي الفساد ، وموتِ النّفوس ، وحلكةِ الوجوه ، وانتشارِ الأمراض التّناسلية الفتّاكةِ المهلكةِ للحرثِ والنّسل. وما ظهرتْ هذه الفاحشةُ في قومٍ علانيةً إلا ابتلوا بالطّواعين والأوجاعِ التي لم تكنْ في أسلافهم الذين مضوا قبلهم.

* وها نحنُ أولاءِ نرى الآن رأيَ العين كيفَ ابتليت بعضُ المجتمعاتِ الغربيةِ بالأمراضِ الفتّاكة لهذهِ المجاهرةِ بفاحشة الزّنى ، وعلى الرغمِ من تعدّد المسميات لهذه الأمراضِ من «إيدز» وغيرها ، فإنَّ ذلك يعتبر من الطَّواعين التي لم تكنْ في أسلافهم الذين مضوا.

* إنَّ الإسلام حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطن ، ولقد ثبتَ أنَّ أمةَ الإسلام هي أكثرُ الأمم محافظةً على طهرِ النَّسب ونقائه ، ولها في ذلك كتبٌ

---

(١) «سالت» أراد: سألت خفّف الهمزة لضرورة الشّعر. و«عرّة العرب»: شَرُّهم.

(٢) من كناياتِ العرب عن العفّة قولهم: «فلانٌ عفيفُ الإزار ، خفيفٌ من الأوزار». ويقولون: «فلانٌ طاهر الثّوب وطاهر الثّياب» إذا وصفوهُ بطهارة العرضِ والبراءة من العيب. ويقولون في ضد ذلك: «فلانٌ دنِسُ الثياب» إذا كان خبيث العرض.

ومصنفاتٌ وأصولٌ عظيمةٌ؛ وقد أثارَ هذا النَّقاءُ حفيظةَ الحاقدين على هذه الأمةِ العفيفةِ الطَّاهرة ، فعمل هؤلاء الحاقدون على أنْ ينالوا من نسبِهم وشرفهم ، فقامت دعوات السّفور ، وروّجوا لها وطبّلوا وزمّروا ، ثم زادوا الطّين بلة فدعوا إلى الاختلاطِ لتستويَ بذلك كلُّ الأمم ، وتنعدمَ العفّة [1]، ولا يصبح فخرٌ لأمةِ الإسلام على غيرها بهذا الشَّرف الوافي؛ ولقد عجزت أممٌ كثيرة عن بلوغِ هذا الشَّرف فلم تستطع أنْ ترتفع إليه ، ولما رأتْ عجزَها عن ذلك ، تآمرت على المسلمين ليهبطوا هم إليها ، وأخذوا يصوّرون المرأة الغربيةَ بأحسنِ الصُّور والمثاليات لتقتديَ بها المرأة المشرقية ، وصار بعضُ دعاةِ السُّفور والاختلاطِ يغوي المرأةَ المشرقية بقوله: «إنَّ المرأة المصرية ينبغي أنْ تصنعَ كما صنعَتْ أختها الفرنسيّة» . ولاحظْ قولَه المسموم: «أختها الفرنسيّة» ، ونسيَ قدوتَها من نساءِ الإسلامِ في عصْرِ الرسالةِ وما تلاهُ من عصورٍ ، وكيف كُنّ القدواتِ الصَّالحات لكلّ مَنْ أرادتْ أنْ تقتدي بهنَّ .

* إننا نعلمُ ما صنعتِ المرأةُ الفرنسيةُ في عصْرِ النهضةِ ، ونعلمُ ما تصنعُ الغربيةُ بعامة من تحررٍ من جميعِ الضَّوابطِ الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ ، وفي مقدمتها الأمومة ، حيث إنّ كثيراتٍ منهنَّ نسين هذه المهمةَ العظيمةَ التي تربطُ بين أفرادِ المجتمع بوشائج المودَّة ، وتطلعُ علينا وسائلُ الإعلام المتنوّعةِ والمتطوّرة بقصص عن نساءِ الغرب بما لا حاجة لذكْرها هنا لأنَّ في ذكرها ما يقززُ النفوسَ الصَّافيةَ ، ومع الأسفِ فقد جُسّدت كثيرٌ من القَصصِ في أفلامٍ سينمائية وتلفزيونيةٍ تسعى إلى تحسينِ القبيح ، وتقريبِ الخبائث إلى النفوسِ ، وتزيينها في نظرِ الناس ، وتحرير الغرائز من عقالِ التَّنظيم والعفّة ، وذلك لتمييعِ عقائدِ النَّاسِ ، ودفْنِ مكارمِ أخلاقهم وفضائلهم بين أستارِ هذه الأفلام المسمومةِ الهابطةِ المغرية .

* ومن أمثلةِ ذلك تشويه صورة هارونَ الرشيد في مشْهدٍ منْ فلْمٍ سينمائي

---

(١) «العفّة»: جماعُ معنى العفّة: الكفُّ عمّا لا يحلُّ أو ضبطُ النّفسِ وتنزيهُها عن كلّ ما يهوي بالإنسانِ إلى مستوى الحيوان. والعفّة أنواع: فمنها عفّةُ اللسان؛ وعفّةُ اليد ، وعفّة السّمع والبصر ، وعفّةُ البطن ، وعفّةُ الفرج. فعفّة الجوارح جميعها تؤدّي إلى عفّة الفرج.

غنائي بعنوان «رصَاصَة في القَلْب» حيث تظهرُ صورةُ هارون في أكثرَ من لقطةٍ بأنَّه زيرُ نساءٍ ولا هَمَّ له إلا الجواري الفاتناتِ وإلا إنفاق الأموال عليهنَّ ، والحقيقةُ فهذا الفِلْمُ كاسْمه: رصَاصة في القَلْب ، لكنْ قَلْب الحقيقةِ ودفنها ، وقلْب الحقائق إلى صُورٍ ذميمةٍ عن أكابرِ أهلِ الدنيا ومشاهيرهم ، وتصويرهم بأنّهم زناةٌ همّهم المرأةُ ليلَ نهارَ.

* إنَّ الزّنى أصلُ كلِّ بليةٍ وشرٍ ، وهو من أعظم أسبابِ نزولِ العقوبات الإلهيةِ؛ ومن المعلومِ أنَّه لما اختلطَ البغايا بعسْكرِ موسى عليه السَّلام ، وفشتْ فيهم الفاحشةُ ، أرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم الطاعون ، فمات منهم في يومٍ واحدٍ سبعون ألفاً ، وهذه القصّة مشهورةٌ في كتب التّفاسير.

* ولهذا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ شدَّدَ على هذا البند ، وحذّر من الزّنى لعظيم خطرهِ ، وكان عقلاءُ العرب يكرهون الزّنى ، ومنهم السّيّدةُ هندُ بنتُ عتبة التي استنكرت أنْ تزني الحرّة ، وكذلك زيد بنُ عمرو بنِ نفيل ، فقد كان في الجاهلية يقفُ وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبةِ ويقول: «يا معشر قريش ، إياكم والزّنى ، فإنّه يورثُ الفقر».

* ومن أخبارِ العرب في هذا المضمار أنّهم فضّلوا بِسْطامَ بنَ قيس على عامر بنِ الطفيل ، وعُتيبة بنِ الحارث بن شهاب ، ذلك أنَّ بسْطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عامرُ فارساً جواداً عاهراً ، وكان عتيبةُ فارساً عفيفاً بخيلاً ، فاجتمعتْ في بِسطام ثلاثُ خصالٍ شريفة ، فبذلك فضلهما بسطام.

* وقد وصف علماء الأمة قبح المعصية وحذَّروا منها ، لأنَّها تردي صاحبها ، تجعله من حلفاء الشَّيطان ، وفي قُبح المعصية يقول ابن حزم رحمه الله: «. . . وكثيرٌ من النَّاسِ يطيعون أنفسهم ، ويعصون عقولهم ، ويتّبعون أهواءَهم ، ويرفضونَ أديانَهُم ، ويتجنّبون ما حضَّ اللهُ تعالى عليه ، ورتَّبَهُ في الألبابِ السَّليمة ، من العفّةِ وتركِ المعاصي ، ومقارعةِ الهوى ، ويخالفون اللهَ ربّهم ، ويوافقونَ إبليسَ فيما يحبُّه من الشَّهوةِ والمُعصيةِ ، فيواقعون المعصيةَ في حُبِّهم ، وقد علمْنَا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ركَّب في الإنسان طبيعتين متضادَّتين:

* إحداهما لا تشيرُ إلاّ بخيرٍ ، ولا تحضُّ إلا على حَسَنٍ ولا يُتَصَوَّرُ فيها إلاّ كلُّ أمرٍ مَرْضيّ وهي العقل ، وقائدهُ العدل.

والثانية: ضدٌّ لها ، لا تشيرُ إلاّ إلى الشَّهوات ، ولا تقودُ إلا إلى الرَّدى ، وهي النَّفسُ ، وقائدها الشّهوة ، واللهُ تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

* فهاتان الطَّبيعتان قطبان في الإنسان ، وهما قوّتان من قوى الجسَدِ الفعَّال بهما؛ ففي كلِّ جسدٍ منهما حظُّه على قدْرِ مقابلتِهِ لهما في تقدير الواحدِ الصَّمدِ حين خلقَه وهيَّأَهُ ، فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً ، فإذا غلبَ العقلُ النَّفْسَ ارتدعَ الإنسانُ وقمعَ عوارضَهُ المدخولة ، واستضاء بنورِ اللهِ واتَّبعَ العدل ، وإذا غلبتِ النَّفسُ العقلَ عميتِ البصيرةُ ، ولم يتّضحِ الفرقُ بين الحَسَنِ والقبيحِ ، وعظُمَ الالتباسُ ، وتردّى المرءُ في هوّةِ الرَّدى مِهْواةِ الهَلَكَةِ ، وبهذا حَسُنَ الأمرُ والنَّهيُ ووجَبَ الاكتمالُ ، وصحَّ الثَّوابُ والعقابُ واستحقّ الجزاء[1].

* * *

---

(١) طوقُ الحمامة بتصرف.

# الفصل الخامسُ
# ولا يقتلْنَ أولادهنَّ

* من أركانِ البيعةِ النّسويةِ أنْ لا يقتلْنَ أولادهنَّ ، فالقتلُ بصورة عامةٍ محرّمٌ ، ومَنْهيٌّ عنه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء : ٣٣].

* وقد انتشرتْ في الجاهليةِ عاداتٌ سيئةٌ ، وغدت عند بعضِ القبائلِ العربيةِ من الأشياءِ المتعارفِ عليها ومنها : وأدُ البنات ، وقتلُ الأولاد خشية الفقر.

* ولما جاء الإسلامُ ، وأطلَّ بنوره على الدنيا ، عالجَ النّبيُ ﷺ هذه العاداتِ المقيتة ، وأخذ بيدِ الناس إلى شاطىءِ الخيرِ والسَّلام.

* وقد نهى الإسلامُ عن وأد البناتِ ، وقتْلِ الأولاد خشية الفقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١].

* وكانت بعضُ القبائل يقتلونَ أولادهم ، والمقصودُ هنا هو وأدهم بناتِهم ، فقد كانوا يئدونَهنّ خشيةَ الفائقةِ وهي الإملاقُ ، فنهاهم اللهُ ، وضَمِنَ لهم أرزاقَهم ، وقد كان بعضُ النّساء يوافقنَ أزواجهنَّ موافقةً ضمنيةً على وأْدِ البنات في الإذعان لمشيئةِ الزّوج أو التّواطؤ معه على ذلك ، وبعضهنّ كُنَّ يوافقْنَ على قَتْل الأولاد دونَ تفريق بين ذكَرٍ وأنثى ، خوفاً من الإملاقِ ، وزيادةِ أعباءِ الحياة.

* ومن الطّبيعي في فطرة النّساءِ ألا يوافقْنَ أزواجهنّ على قتلِ أولادهنّ ، إذ إنهنّ حملنَ الأولادَ تسعة أشهر ، وعانينَ المشقّةَ والتّعبَ والنَّصبَ ، ولكنّها الجاهليةُ التي كانت تلفّ بعضَ القبائلِ بثوبِ الظُّلمات والظُّلم .

* ولهذا فإنَّ النّبيَّ ﷺ لما بايعَ النّساءَ على ذلك ، كان من الشّروط المهمَّةِ ألا يقتلن أولادهنّ ، أو يسهمْنَ في ذلك ، لأنَّ دفْنَ البناتِ كان يفعله الرجالُ تارةً ، والنّساءُ تارة أخرى(١) .

* قال ابنُ كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ ، «وهذا يشْمَل قتْله بعد وجودِهِ ، كما كان أهلُ الجاهليةِ يقتلون أولادهم خشية الإملاقِ ، ويعمّ قَتْلَه وهو جنين ، كما قد يفعله بعضُ الجهلةِ من النساءِ ، تطرحُ نفسَها لئلا تحبَلَ إمّا لغرضٍ فاسدٍ أو ما أشبهه»(٢) .

* وقال القرطبيُ ما مفاده : «الموؤودةُ : المقتولةُ ؛ وهي الجاريةُ تدفَنُ وهي حيةٌ ، سميت بذلك لما يطرحُ عليها من التّراب ، فيؤُودها أي يثقلُها حتى تموتَ . . . وكانوا يدفنون بناتِهم أحياء لخصلتَين :

إحداهما : كانوا يقولون إنَّ الملائكةَ بناتُ الله ، فألحقوا البناتِ به .

الثانية : إما مخافةُ الحاجةِ والإملاق ، وإما خوفاً من السَّبي والاسترقاق .

قال قتادة : كانت قبيلة مُضَر وخُزاعة يدفنون البناتِ أحياء ؛ وأشدّهم في هذا تميم ، زعموا خوفَ القهرِ عليهنَّ ، وطمع غير الأكْفَاء فيهن .

وقد كان ذوو الشَّرف منهم يمتنعون من هذا ، ويمنعون منه .

وكان صعصعةُ جدُّ الفرزدق إذا أحسَّ بشيءٍ من ذلك وجَّه إلى والدِ البنتِ إبلاً يستحييها بذلك ، حتى افتخرَ به الفرزدقُ فقال :

ومنّا الذي منعَ الوائِدات ... فأحْيا الوئيدَ فلَمْ يُوأَدِ

---

(١) انظر : الفتوحات الإلهية (٧/ ٥٠٣) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨) .

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهنّ من آبائهنّ ، فجاء الإسلامُ وقد أحيا سبعينَ موؤودة»[1] .

* وقال عبدُ الله بنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: «كانتِ المرأةُ في الجاهليةِ إذا حملت حفرَتْ حفرةً ، وتمخَّضَتْ على رأسِها ، فإذا ولدت جاريةً رمَتْ بها في الحفرة ، وردّتِ التّرابَ عليها ، وإذا ولدتْ غلاماً حبسَتْه»[2] .

* وكان من هوانِ النّفسِ الإنسانيةِ في الجاهليةِ أن انتشرتْ عادةَ وأْدِ البناتِ خوفَ العار ، أو خوفَ الفقر ، وقد سجّل القرآنُ الكريمُ هذه العادة الشّنيعة التي جاء الإسلامُ ليرفعَ العربَ من وهدتها ، بل ويرفَع البشرية كلّها ، فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل : ٥٨ و٥٩] ، وقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ و٩] .

* وكان الوأدُ عند بعضِ القبائل يتمُّ في صورة غاشمةٍ قاسيةٍ ، غابت كلُّ عواطفِ الودِّ والرحمة عنها ، إذ كانت البنتُ تُدفنُ وهي حيّـةٌ!

* ومن العجيب أنَّ هؤلاء القُساة كانوا يفتنّون في هذه العمليةِ البشعةِ بشتى الطّرق ، ولا يقيمون للنفسِ البشريةِ وزناً ، فمنهم مَنْ يدفنُها مباشرةً ، ومنهم يدفنها عندما تبلغُ السّادسة ، وبعضُهم يتركُها ولكنْ ليس من بابِ الشَّفقة ، بل يمسكُها مهينةً إلى أنْ تقدرَ على الرعيِ ، فيلبسها جبّـةً من صوفٍ أو شَعْر ، ويرسلَها في الباديةِ ترعى له إبله .

* وأما القومُ الذين كانوا لا يئدون البناتِ ، ولا يرسلوهنّ إلى الرعي ، فكانت لهم وسائلُ أخرى لإذاقتها البخسَ والخسفَ والحيفَ والظّلم ، فكانت إذا تزوجتْ وماتَ زوجُها جاء ولّيه فألقى عليها ثوبَه ، ومعنى هذا أنْ يمنعَها من النَّاس ، فلا يتزوَّجها أحدٌ ، فإنْ أعجبَتْه تزوَّجَها ، وإن لم تعجبْه حبسها حتّى

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٧٨) ، و(١٩/ ١٥٢) مع الجمع والتصرف.
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٢).

تموتَ فيرثُها؛ أو أنْ تفتديَ نفسَها منه بمالٍ في هذه الحالة أو تلك ، وهناك صورٌ أخرى من الظّلم لا مجال لذكرها .

* ولما جاء الإسلامُ انبثقت كرامةُ المرأةِ ، وارتفعتْ مكانتُها ، وبايعَها على استمراريةِ الحياةِ لأولادها ، لأنَّ في ذلك الخير كله ، وبايعَ النِّساءُ المؤمناتُ على هذه الشّروطِ ، فكُنَّ من النّاجحاتِ ، وشهد لهنّ القرآنُ بالإيمانِ ، فما أعظم هذه الشّهادة! وما أحسنها! .

* إنَّ البيعةَ النّسويةَ متكاملةٌ ، فقد شرط اللهُ عزَّ وجلَّ على المبايعاتِ المسلماتِ قبل مبايعةِ النّبيّ ﷺ ألا يقتلْنَ أولادهنَّ لكي تتمَّ البيعةُ ، فبايعنَ على ذلك ، لأنهنّ كُنَّ يعلمنَ أنّ كثيراً من القبائلِ كانتْ تئدُ البناتِ ، حتى كان كثيرٌ من العقلاء منهم يُحيي الموءودات ، وهذا ما ذكرته أسماءُ بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «رأيتُ زيدَ بنَ عمرو بن نُفيل قائماً ، مُسنداً ظهرهُ إلى الكعبةِ ، يقول: يا معاشرَ قريش واللهِ ما منكم على دينِ إبراهيم غيري ، وكان يُحيي الموءودة ، يقولُ للرجل إذا أراد أنْ يقتُل ابنتَه: لا تقتلْهَا أنا أكفيكَها مؤونتها ، فيأخُذُها ، فإذا ترعرعَتْ قال لأبيها: إن شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئتَ كفيتُك مؤونتها»(١) .

* وكان يقال لصعصعةَ بنِ ناجية بن عقال التّميمي مُحيي الموءودات؛ وذلك أنَّه كان قد مرَّ برجلٍ من قومهِ وهو يحفرُ بئراً وامرأتُه تبكي ، فقال لها صعصعةُ: «ما يبكيك»؟

فقالت: «يريدُ أنْ يئدَ ابنتي هذه» .

فقال له صعصعةُ: «ما حملَكَ على هذا»؟

قال: «الفَقْرُ» .

قال: «فإنّي أشتريها منكَ بناقتَيْن يتبعُهما أولادهما ، تعيشون بألبانهما ، ولا تئدُ الصَّبية .

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٢٨).

قال الرجلُ: «قد فعلتُ».

فأعطاهُ صعصعةُ ناقتَيْن وجمَلاً كان تحتَه، ثم قالَ في نفسهِ: «ويحكَ يا صعصعةُ، إنَّ هذه لمكرمةٌ ما سبقني إليها أحدٌ منَ العرب».

فجعلَ على نفسهِ ألا يسمعَ بموءودةٍ إلا فداها، فجاء الإسلامُ وقد فدى ثلاث مئة موءودةٍ أو أربع مئة موؤودة[1].

* وفي روايةٍ أخرى ذكر صعصعةُ قصّة مفادها أنَّ النّساءَ اجتمعنَ بامرأةٍ جاءها المخاضُ فولدتْ بنتاً فأراد أبوها أنْ يقتلَها ففَداها صعصعة بناقتين وجملٍ، ثم مشَى وحدّث نفسه بأنَّ عمله هذا مكرمةٌ ما سُبِقَ إليها من العرب، وآلى صعصعةُ ألا يئد أحدٌ بنتاً له إلا فداهَا بناقتين وجمل، فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ محمداً ﷺ وكان قد أحيا قرابةَ مئة موءودة، وأنزل اللهُ تحريم الوأْدِ في البنات[2].

* وقد افتخرَ الفرزدقُ حفيد صعصعة بأعمالِ جدّه في عدّة قصائد ومنها:

أبـي أحـدُ الغيثيْـن صَعْصعـةُ الـذي ... متى تُخلفِ الجوزاءُ والنّجم يمطرِ
أجـار بنـاتِ الـوائـديـن ومَـنْ يُجِـرْ ... على الفقرِ يَعْلمْ أنّه غيرُ مخفرِ[3]

* وفي هذه الأخبار تظهرُ ضخامةُ عددِ الموءوداتِ عصر ذاك، فهنّ لَسْنَ بحكْمِ النَّادر، لذا نوّهَ القرآنُ الكريم إليهنَّ وذكرهنّ في مواضع، وشنَّع على الفاعلين فعلتهم النّكراء التي تخالفُ أبسطَ أمورِ الحياةِ الإنسانية، ومن هنا كان من شروطِ بيعة النساء ألا يقتلنَ أولادهنَّ.

* * *

(١) الأغاني (٢١/ ٢٧٩) بتصرف يسير جداً.
(٢) الأغاني (٢١/ ٢٧٩ و٢٨٠) بتصرف واختصار.
(٣) ديوان الفرزدق (٢/ ٦١٠) دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م، ومعنى «أحد الغيثين» غيث السماء وهو المطر، وغيث الأرض وهو أبوه أو جده صعصعة. و«مخفر»: لا ينقض العهد.

# الفصل السادس
# ولا يأتين ببهتانٍ يفترينَه

* قال ابنُ منظور عن البهتانِ في مادة «بهت» ما مفادهُ: «بهَتَ الرجُل يبهته بهتاً، وبهتاناً فهو بهَّات؛ أي قال عليهِ ما لم يفعلْهُ، فهو مبهوتٌ. والبهتانُ: افتراء، وفي التّنزيل: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾ [الممتحنة: ١٢]. وباهَتَه: استقبله بأمرٍ يقذفه به، وهو منه بريءٌ لا يعلمه فيبهت منه، والاسمُ البهتان. وبَهَتَ الرجلُ: إذا قابله بالكذب. والبهتانُ: الباطلُ الذي يُتَحَيَّرُ من بطلانه، وبهت فلان فلاناً إذا كذبَ عليه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾؛ أي لا يأتينَ بولدٍ عن معارضة من غير أزواجهنّ، فَيَنْسُبْنه إلى الزّوج، فإنَّ ذلك بهتانٌ وفريةٌ، ويقال: كانتِ المرأةُ تلتقطُه فتتبناه. والبهتُ والبهيتةُ: الكذبُ، وفي حديثِ عبد الله بنِ سلام رضي الله عنه في ذِكْرِ اليهود: أنّهم قومٌ بُهْت...»[(١)].

* وقد اختلفَ المفسّرون في البهتانِ المذكورِ في آيةِ بيعةِ النّساءِ في سورةِ الممتحنة، فأكثرهم قد فسّروه، بإلحاقِ المرأةِ بزوجها ولداً من غيره.

* واختلفوا في معنى قولهِ تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فقيل: لأنَّ الولدَ إذا ولدته أمّه سقطَ بين يَديْها ورجلَيْها.

ومن المفسّرين مَنْ فسّر البهتانَ المُفترى بالسّحر. ومنهم من فسّره بالمشي

(١) لسان العرب (٢/ ١٢ و١٣) باختصار.

بالنّميمةِ [1]، والسَّعْي في الفساد. ومنهم مَنْ فسَّره بالقذفِ والرميِ بالباطل.

وقيل: البهتانُ المُفترى يشْمَل ذلك كلّه، وما كان في معناه، ورجّحه ابنُ عطية وغيره؛ وهو الأظهرُ، فيدخل فيه كذبُ المرأةِ فيما ائتُمِنتْ عليه من حَملٍ وحيضٍ وغير ذلك.

ومن هؤلاء مَنْ قال: أرادَ بينَ يديها حفْظَ لسانِها وفمِها ووجهِها عما لا يحلّ لها، وبما بين رجليها حفْظَ فرجها، فيحرمُ عليها الافتراء ببهتان في ذلك كلّه.

ولو قيل: إنَّ من الافتراء ببهتان بين يديه: خيانة الزّوج في ماله الذي بيتها، لم يبعدْ ذلك.

* وجميعُ ما فُسّر به البهتان في حقّ النّساء يدخلُ فيه الرّجال أيضاً، فيدخلُ فيه استلحاق الرجلِ ولَدَ غيرِه، سواء كان لاحقاً غيره أو غير لاحق، كولدِ الزّنى، ويدخلُ فيه الكذبُ والغيبةُ. وقد قال النّبي ﷺ: «إن كان في أخيكَ ما تقولُ فقد اغتبته، وإن لم يكنْ فيه ما تقولُ فقد بهتَّه»[2].

---

(1) «النّميمة»: النّميمةُ هي السَّعيُ بين النّاسِ بالإفساد، لتحريض النّاس بعضهم على بعض، والإيقاع بينهم، وشحْنِ قلوبهم بالعداء والضغينةِ. والنّميمةُ قد تكونُ للإفسادِ بين صديقَيْن، أو شريكين، أو زوجين، أو قريبين، أو أسرتين، أو أي فريقين بينهما صِلات ومودّات أو علاقات تعاملٍ، أو ما شابه ذلك.
والنّميمةُ أخبثُ وسائلِ التّفريقِ الشّيطانيةِ، والنّمام يُظهِرُ لكلٍّ من الفريقين اللذين يفسدُ بينهما بوجْهٍ غير الوجْهِ الذي يظهرُ به للفريقِ الآخرِ. وصاحبُ الوجهَيْن هذا هو شرُّ النَّاس يوم القيامةِ، ولا يدخلُ الجنّة نمّام.
وقد وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمّ جميل امراة أبي لهب بأنّها حمّالة الحطب، وفسَّر هذا المعنى عدد من المفسِّرين وقالوا: «حمّالة الحطب: كناية عن كون هذه الخبيثة تمشي بالنّميمة». والنّمامُ فاسقٌ وعلى المؤمن أنْ يتثبّتَ من خبرِه، لئلا يقعَ في شرٍ وتهلكة، فكمْ جرّتِ النّميمةُ من شرورٍ عظمى في المجتمع الإنساني، وكم فرقت بين اخوين، وكم باعدت بين النَّاس، وأفسدتِ العلاقاتِ، وأثارتْ فتناً كبرى.
إنَّ دوافع النّميمةِ ترجعُ بالدَّرجة الأولى إلى الحسَدِ، أو إلى الكراهية، أو إلى الكبْرِ، أو ابتغاء الفتنة وإشعال الشَّرِّ بين النّاس، نسألُ اللهَ انْ يعيذنا مِنْ هذهِ الأمراض.

(2) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٩)؛ والترمذي برقم (١٩٣٤) وقال: «حسنٌ صحيح». إنَّ الغيبةَ منَ القبائحِ الاجتماعيةِ التي لا تليقُ بالمؤمنين أنْ يرتكبوها، فيغتاب بعضهم بعضاً. وقد حرّمها=

* وكذلك القذفُ ، وقد سمّى اللهُ تعالى قَذْفَ السَّيدة الصّدّيقةِ بنتِ الصّديق عائشةَ رضي الله عنهما بهتاناً عظيماً ، وكذلك النّميمةُ من البهتان .

* وكلُّ ما بَهَتَ صاحبه ، وحيّره ، وأدهشَه من قَوْلٍ أو فعلٍ لم يكن في حسابهِ ، فهو بهتانٌ ، فأخْذُ المالِ بالنُّهْبى أو بالدّعاوى الكاذبة بُهتان[1] .

* وفي تفسيره القيّم : «زاد المسير» يقول ابنُ الجوزي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة : ١٢] فيه ثلاثةُ أقوال :

**أحدها** : لا يلحقنَ بأزواجهنَّ غير أولادهم ، وذلك أنّ المرأةَ كانت تلتقطُ المولودَ ، تقولُ لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتانُ المُفْترى ؛ لأنَّ الولدَ إذا وضعَتْهُ الأمُّ سقطَ بين يديها ورجليها . وقيل : يأخذْنَه لقيطا ، أو ولَدْنه من زنى .

**الثاني** : السّحْرُ .

**الثالث** : المشيُ بالنَّميمةِ ، والسَّعي في الفَساد»[2] .

---

= الله عزَّ وجلَّ ونهى عنها ، لما فيها من تقطيعِ أواصر الأخوّة الإيمانية ، وإفسادِ المودّات ، وبذر بذور العداوات ، وذلك لأنَّ الغيبةَ في الغالبِ لا تبقى سرّاً ، بل يَصِلُ العِلْمُ بها لمن ذُكِرَ في غيبته بما يكره ، فَقَلَّ في الناس مَنْ يكتم حديثاً ـ وخصوصاً النّساء ـ وعندئذٍ يغضبُ ممَّنْ ذكره ، ويحقدُ عليه ، وربما ينتقم منه بمثل عمله أو بأقبح منه.
وفي نَشْرِ معايب النّاس ومثالبهم في المجتمع تشجيعٌ على الاستهانة بها ، وارتكاب مثلها أو أقبح منها ، لا سيما إذا كان المُتحدَّثُ عنه من المعروفين بالاستقامةِ ، أو ممّن يشار إليه بالبنان ، أو من الدّعاةِ إلى الخيرِ ، والآمرِينَ بالمعروف والنّاهين عن المنكر ، أو ممّن يُقتدىٰ بهم في أعمالهم العامة أو الخاصّة.
ومن المؤكّد أن غير المؤمنين والمفسدين يغتابون المؤمنين الصّالحين لنشْرِ الفَسَاد في الأرض ، والتشجيع على ارتكاب الآثام والسَّيئات ، وممارسة القبائح والمنكرات. وخلائقُ أهلِ الغيبةِ الذين يتظاهرون أمام إخوانهم بالمحبةِ والاحترام والتقدير، ثمَّ يطعنون فيهم في حال غيبتهم تُشْبِهُ خلائق المنافين ، فهم مخادعون يظهرون بوجهٍ ، ويخفون وجهاً ، وهم جبناء ، وهم حريصون على تحصيلِ المنافع من جميع الوجوهِ وإن كانتِ الوجوه مختلفة متضادّة.

(١) انظر : تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/٤٠٨ ـ ٤١١).

(٢) زاد المسير (ص ١٤٢٩) باختصار يسير.

* وأما جمهورُ المفسِّرين فقالوا بأنَّ معنى «ببهتان»: بولدٍ يفترينه بين أيديهنَّ ، ما أخذته لقيطاً؛ «وأرجلهنّ» ما ولدته من زنى[1] .

* فالنّساءُ إذاً ، مسؤولاتٌ عن كلّ هذا ، لأنهنَّ إذا كُنّ طاهراتٍ صالحاتٍ صلح المجتمعُ كلهُ وسار نحو الخيرِ والحقِّ ، وإن كنّ غير ذلك انهارَ المجتمعُ وتفتَّتَ.

* ومن المُسلَّماتِ أنَّ الأخلاقَ العربيةَ قامتْ أصلاً على دعائمَ متينةٍ ، منها: الاعتزازُ بالشَّرف ، والحرصُ على حسنِ الأحدوثة ، وصيانةُ المرأةِ ، فكان لابدَّ للرّجالِ والنّساء من العفّةِ ومن التّعفّف ، لأنَّ الاعتداء على العرضِ قد يجرُّ آفاتٍ وويلاتٍ ، ولذا فقد أكثرَ الرجال من الفخرِ بعفّتهم وصيانتِهم حرمةَ جيرانهم.

* وجاء الإسلامُ فعزَّزَ هذه الأخلاق ، وقدّر العفّة ، ومقَتَ المجاهرة بالفحشاء ، وحافظ على عفّةِ المرأةِ بجميع السُّبل ، فحذَّرها من الاختلاط لئلا تأتيَ ببهتان تفتريه ، وجعل السّتْرَ والعفَّة أعظم حُلاها ، وأجملَ خلالَها ، حتى إنَّ المرأةَ تفتخرُ بعفّتها فتقول: «واللهِ الذي لا إله غيره ، إنّكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسَبَكم ، ولا غيرتُ نسبَكم»[2] .

* وقد مرّ معنا أنَّ العفّةَ والطهارةَ قد بلغتْ بالمبايعاتِ مبلغاً عالياً حتى في عَصْر جاهليتهنّ ، ولقد كرهتِ السيدةُ المصونةُ هندُ بنتُ عتبةَ رضي الله عنها زوجَها الأوّل الفاكهُ بنَ المغيرة الذي شَكَّ بها ـ وكانت بريئةً عفيفةً ـ وقضى الكاهنُ ببراءتها ، وأرادَها الفاكهُ أنْ تعودَ إلى حظيرتِه الزَّوجيةِ ، فأَبَتْ أشدَّ الإباء ورفضَتْه ، وتزوَّجها أبو سفيان رضي الله عنهما.

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٩). و«البهتان»: الكذب العظيم والباطل ، والمقصود به في هذه الآية: إلصاق الأولاد اللقطاء بالأزواج. و«يفترينه»: الافتراء: الكذب واختلاق الأباطيل.

(٢) طهارة العرب لأحمد بن الأمين الشنقيطي (ص ١٥) .

* لقد أنفتِ السّيّدةُ هندُ من هذا الافتراءِ من زوجها ، وأنفت أن تكونَ منَ اللواتي يسترخصهنّ الرّجالُ ، وقد وردَ أنَّها لما بايعتِ النّبي ﷺ دهشتْ عندما تلا عليها قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ [الممتحنة : ١٢] فقالت : «وهل تزني الحرّة»؟ وفي رواية أنّها قالت: «ما أقْبَحهُ حلالاً ، فكيفَ بهِ حَراماً»[1]؟

* إنَّ المرأةَ المسلمةَ المبايعة حَصانٌ رزانٌ ، عفيفةٌ طاهرةُ الذيل ، تعرفُ أمورَ دينها ، فإذا احتاجها المجتمعُ المسلمُ خرجَتْ ولبَّثْ دون تبرّجٍ أو فتنةٍ أو تمايلٍ ، ثم عادتْ إلى بيتها وهي خفرةٌ ، فقد شاركت المرأةُ المبايعةُ في الملاحِمِ وفي الأمورِ العظامِ ، فضمَّدتِ الجرحى ، وسقتِ العطشى ، وقاتلتْ في سبيلِ اللهِ ، ولكنها في كل هذه الأمور كانت تحافظُ على رفيع أدبها ، وجمالِ عفافها وأنوثتها ، وما تعاطتْ لباساًمغرياً يسيءُ لحياةِ الرجالِ ويفسدُ مسيرتَهم في الحياةِ.

* ويذكر لنا التّاريخُ النّسوي أنَّ النّساء كُنَّ في صدر الإسلامِ طائفتين اثنتين :

**الأولى**: طائفة الحرائر.

**الثانية**: طائفة الإماء.

* وكان ما يمِّيزُ الحرائر من الإماءِ هو الاحتشامُ والكمال ، فكانت الحرائر يتقنَّعْنَ ولا يتبرجْنَ.

* أما الإماءُ فكُنَّ على العكس ، لا بأس بتبذلهنَّ وتبرجهنّ وسفورهنَّ.

* وأمَّا الحالُ الآن فقد تبدّلت في بعض الأمكنةِ ، إذ أخذت بعضُ السَّيِّداتِ الشريفاتِ بالتّخلّي عن الحجابِ ، وتقليد الغربيات ، في حين أنَّ هناك كثيرٌ من النِّساءِ نراهنّ محتشماتٍ كاملاتٍ ، يمكن أن يكنَّ قدوةً لغيرهنَّ.

* يقول عبد الرحمن البرقوقي: «على أنَّنا نحن الشَّرقيين إذا كنَّا نفخرُ على الغربيين بشيءٍ ، فهذا الشَّيُ هو احتشام نسائنا وكمالُهنَّ كان ، أمّا الآن فأيُّ

---

(١) طهارة العرب (ص ١٢).

مفخرةٍ لنسائنا بعد هذا التبرجِ المخزي ، والبِدْعَةِ التي ينعاها علينا العدوُّ قبل الصَّديق ، والغربيُّ قبلَ الشّرقي ، والزّنديق قبلَ المؤمنِ . . . اللهم اسألُكَ أنْ تهدي قومنها فإنهم لا يعلمون»[1].

* * *

(١) دولة النساء.

# الفصل السّابع
# ولا يعصينَك في معروف

* هذا هو البندُ الأخيرُ من بنودِ بيعةِ النّساءِ المباركةِ ، وهو يجمعُ الخيرَ كلّه ، إذْ إنَّ طاعةَ الرسولِ ﷺ واجبةٌ على المسلمِ والمسلمةِ ، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] ، قال القرطبيُ: «في البخاري عن ابن عبّاس في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنّما هو شرطٌ شرطَهُ اللهُ للنّساء»[١].

* والصَّحيح أنَّه عام في جميع ما يأمرُ به النّبي ﷺ وينهىٰ عنه ، فيدخلُ فيه النَّوحُ ، وتخريقُ الثياب ، وجزُّ الشّعر ، والخلْوةُ بغير محرم إلى غير ذلك ، وهذه كلّها كبائرُ ومن أفعال الجاهلية.

* فالأمرُ بالمعروفِ ، والنَّهيُ عن المنكر ، عدمُ عصيان الأوامِر الإلهية ، وطاعةُ الرّسولِ ﷺ كلّ هذا من مكارمِ الأخلاقِ الإيمانية ، ومن تمام البيعةِ وكمالها ، لما فيها من خدمةٍ اجتماعيةٍ ، وصيانةٍ للمجتمعاتِ عن الانزلاق في مزالقِ الانحرافِ.

* ولذلك حرص الإسلامُ الحنيفُ حرصاً شديداً على أنْ يجعلَ المسلمين والمسلمات حراساً لأسوارِ الفضائلِ ، وتعاليمِ الدِّين الحنيف ، والنّبي الكريم ﷺ هو القدوةُ الحسنةُ لأصحابه في هذا المضمار ، لأنَّ هذا الأمرَ مسؤوليةٌ دينية وأخلاقية معاً.

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٤٩).

* ولذلك كان من بنود بيعةِ أصحابهِ ـ رجالاً ونساءً ـ أن يقولوا الحقّ أينما كانوا ، وألا يخافوا في الله لومةَ لائم ، والقول الحقّ يتضمّنُ الأمرَ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر ، وعدم عصيان النّبيّ ﷺ.

* ومن المؤكدِ أنَّ وظيفةَ حراسةِ المجتمعِ لحمايتهِ من الانحرافِ وظيفةٌ اجتماعيةٌ إلزاميةٌ ، لا يجوز التّخلّي عنها في حالٍ من الأحوال ، فإذا قام المسلمون والمسلمات بوظيفتهم كان مجتمعهُم مجتمعاً سليماً من الآفات.

* وللنساء دورٌ كبيرٌ في بناءِ المجتمعاتِ الإنسانيةِ ، فإذا كُنَّ صالحاتٍ حصيفاتٍ متمسّكاتٍ بأوامرِ الله عزَّ وجلَّ ، والرّسول ﷺ صَلُحَ المجتمعُ بهنَّ ، لأنّهنَّ مسؤولاتٌ كالرِّجالِ في الأوامرِ والنّواهي ، ولذلك جاء لهنَّ الخطابُ بلفظِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ لأنهنَّ يدخلنَ تحت نطاقِ المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية والدّينية.

* ولهذا فإنّ كلمة «ولا يعصينَك» فهي من المعصية وتشملُ جميعَ أنواع المعاصي.

* وكلّ هذا إشارة إلى أنَّ الطاعةَ لا تكونُ إلا في معروف ، فلا يُطاعُ مخلوقٌ إلا في معروفٍ ، ولا يُطاعُ في معصيةِ الخالق.

* وقد استنبطَ هذا المعنى من هذه الآية طائفةٌ من السَّلفِ ، فلو كان لأحدٍ من البشَر أنْ يُطاعَ بكل حالٍ ، لكان ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ ، فلما خُصَّتْ طاعتُهُ في المعروفِ ، مع أنَّه لا يأمرُ إلا بما هو معروف ، دلَّ على أنَّ الطّاعةَ في الأصلِ لله وحده ، والرّسولُ مبلّغٌ عنه ، وواسطةٌ بينه وبينَ عبادهِ ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ فدخل في هذا البند الأخير: الانتهاء عن جميع المعاصي ، ويدخلُ فيه أيضاً: القيامُ بجميع الطّاعات على رأي مَنْ يرى أنَّ النّهي عن شيءٍ أمرٌ بضدِّه.

* وفسَّر ابنُ الجوزي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ بأنّ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّه النّوحُ.

والثاني: أنّه لا يدْعين ويلاً، ولا يَخْدِشْنَ وجهاً، ولا ينشرنَ شعراً، ولا يشققْنَ ثوباً.

والثالث: جميعُ ما يأمرهنَّ به رسولُ اللهِ ﷺ من شرائعِ الإسلام وآدابه[1].

* ولما تمتِ البيعةُ للنّساء على هذه الخصال، ذكرَ النبيُ ﷺ حُكْمَ مَنْ وفّى بها، وحكْم من لَم يفِ بها عند الله عزّ وجلّ.

* فأما مَنْ وفّىٰ بها، فأخبر أنَّ أجرَهُ على اللهِ، وهو الجنّة، ولا ريبَ في أنَّ مَنْ اجتنبَ الشّركَ والكبائرَ والمعاصي كلّها فلَهُ الجنّة، وعلى ذلك وقعتْ هذه البيعة. وكانت البيعةُ على الإسلام من خصائصِ النّبي ﷺ. وقد استدلّ العلماءُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا...﴾ [الممتحنة: ١٢].

* وتمت البيعةُ على هذه الشّروطِ المباركةِ، ووفتْ بها نساءُ الصَّحابةِ، وأطعْنَ اللهَ ورسوله في كلّ ما يأمرهنّ به من أمور، فالرّسولُ ﷺ لا يأمرُ إلا بمعروف وإلا بخيرٍ يوصلُ إلى النّعيم المقيم.

* قال ميمونُ بنُ مهران: «لم يجعلِ اللهُ لنبيّهِ طاعةً إلا لمعروف، والمعروفُ طاعةٌ»[2].

* وقال ابنُ زيد: «أمرَ اللهُ بطاعةِ رسوله، وهو خيرةُ اللهِ من خَلْقهِ في المعروف»[3].

* وذكرت امرأةٌ من المبايعاتِ قالت: «كان فيما أخذَ علينا رسولُ الله ﷺ ألا نعصيهِ في معروف: ألا نخمشَ وجهاً، ولا ننشرَ شَعْراً، ولا نشقَّ جيباً، ولا ندعوَ ويلاً»[4].

---

(١) زاد المسير (ص ١٤٢٩) بتصرف يسير.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٩).
(٣) و(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٩).

* إنَّ ضَرْبَ الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ونشرَ الشَّعر ، كلّها من أعمالِ الجاهلية وقد نهى عنها الإسلامُ ، بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ لعنَ النَّائحةَ والمستمعةَ.
وهكذا ربّى النّبيّ ﷺ أصحابه على الفضائلِ والمكارمِ ، فكانوا خيرَ أمَّةٍ أُخرجتْ للنّاس ، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

* * *

# الفصلُ الثّامن

## فوائدُ ونفحاتٌ من بيعةِ النّساء

* عشنا مع البابِ الرّابع في فصوله المتعدّدة مع أركان بيعةِ النّبيّ ﷺ للنّساء ، كما جاءت في القرآنِ الكريمِ ، والسّيرةِ العطرة.

* وفي هذه البيعةِ فوائدُ عظيمةٌ تستحقُّ التّسجيل والحفظ للاستفادة منها ، وخصوصاً جماعة النّساء في هذا الوقتِ الذي تكادُ الأمورُ فيه لا تظهرُ لهنّ بشكلٍ واضحٍ وجَلي. لذا فقد أحببتُ أنْ أضعَ بين أيديهنّ خاصّة ، وأيدي النّاس بعامة هذه النّفحات التي أرجو اللهَ تعالى أنْ ينفعَنا من خلالها.

**أولاً**: من خلالِ البيعةِ النّسويةِ وجدنا أنّها سلسلةٌ من التّربيةِ النّبويّةِ ، والتّربية الإيمانيّةِ للنّساء والرّجالِ ، لأنَّ هؤلاء الأخيارَ والصّحابة الأبرار كانوا هم خيرَ أمةٍ ناطَ اللهُ بهم تحقيقَ منهجهِ ، وتوصيلَ دينهِ إلى النّاس من خلال التّربيةِ والتّوجيهِ الذي يتلقّونه من النّبي ﷺ.

* فهؤلاء المبايعون والمبايعاتُ لهم عند اللهِ عزَّ وجلَّ منزلةٌ وحرمةٌ وبشاراتٌ وإكرامٌ ، فازوا بصحبةِ خيرِ الخلقِ واتّصفُوا بوصفِهِ فَهُمْ للنّاسِ وأعلامٌ ، فَلَهُمْ إعزازٌ واحترام:

هُمُ الصَّحابةُ للهَادي بهم وضَحَتْ ... طرقُ الهدىٰ وعلى الخيراتِ قد داموا
عليهـــم مـــن ســـلامِ اللهِ أطيبُـــهُ ... ما أفْطَرَ النَّاسُ يومَ الشّكِّ أو صَامُوا

**ثانياً**: لاحظنا من خلالِ بيعةِ النّساء وتفسيرها في ضوء التّفاسير أنَّ النفوسَ البشريَّةَ ليست كلّها ممّا يتأثّر ويستجيبُ ويستقرُّ منذ اللمسةِ الأولى ، فهناك

رواسبُ الماضي في العصرِ الجاهلي ، وهناك الضَّعفُ البشري ، وهناك العاداتُ والتّقاليدُ ، وكل هذه الأمور قد تعوقُ أحياناً عامل التّربية والتّوجيه ، ويحتاجُ الأمرُ إلى التّذكير والتّكرار ، والتّرغيب والتّرهيب ، وهذا ما فعلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ مع أصحابه ، حتى جذبَهم إلى طريقِ الخيرِ بتوفيقِ الله. فقد بذَرَ ﷺ محبةَ الله عز وجل في أرضِ القُلوب ، فأنبتَتْ سنابلُ هذه المحبة رجالاً ونساءً بايعوا المحبوب ، ففازوا بالنّجاةِ والعزِّ الرّفيعِ ، وكانوا كراماً بصحبةِ الحبيبِ الشّفيعِ.

**ثالثاً**: لاحظنا من خلالِ بنودِ البيعة أنَّ المرأةَ تسألُ عمّا لا تعرفُ ، وتسألُ أيضاً بقصد تعليمِ غيرها من النّساء بعضَ الأمورِ الشَّرعية ، كما فعلت هندُ بنتُ عتبة وغيرها ، فقد كانتِ الواحدةُ منهنَّ تسألُ رسولَ الله ﷺ عن بعضِ أمورها وحياتِها ، فيوضّحُ لها ويرشدُهَا إلى الخيرِ وإلى مرضاةِ الله تعالى ، وينهاها عن كلّ ما هو ضارٌ بالعقيدةِ وحتّى بالجسم.

**رابعاً**: رأينا كيف كانت المرأةُ في الجاهليةِ تعيشُ في ظلْمٍ واضطهاد حتّى من أقربِ الناسِ إليها ، وربّما كان ذلك الظلمُ صادراً من أبيها ، ولما جاء الإسلامُ أنقذَها مما كانت تعيشُه وتعانيه من وأدٍ وظلمٍ وإهانةٍ. قال النّبي ﷺ: «إنَّ الله حرمَ عليكم عقوقَ الأمّهات ، ومنعاً وهات ، ووأدَ البنات ، وكَرِهَ لكم قيل وقال ، وكثرةِ السّؤال ، وإضاعة المال»[1].

**خامساً**: الإنسانُ كريمٌ على الله ، ذكراً كان أمْ أنثى ، وكلاهما مكلّفٌ بتكاليفَ عليه أنْ ينفذّها ، فالرَّجلُ ليس هو الوحيدُ في هذه التّكاليف ، وليس هو الوحيدُ صاحبَ الحقّ في كلّ شيء ، بل إنَّ الإسلام هو الدّينُ الذي حفظ للمرأةِ حقّها ، وحماها من الذّلّ ومن الهوان ، فعلى المرأةِ أنْ تحمدَ اللهَ تعالى وتشكرَهُ على هذه النّعمةِ العظيمةِ ، وتتمسّك بهذا الدّين القويم ، فهو حصنُها الحصينُ ، وحرزُها الأمين ، ودرعها المتين.

**سادساً**: إنَّ المؤمناتِ اللواتي كُنَّ بمكّةَ لما وجدْنَ فرصةً للهجرةِ هاجرنَ إلى

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤١٩) ، ومسلم (٣/ ١٣٤١).

المدينةِ ، وبايعنَ الرّسولَ ﷺ ، وهنا نجد أنّه يجبُ على المسلمين انقاذُ المؤمناتِ من أيدي الكفار ، لأنهنَّ من فئةِ المستضعفين ، والنّساءُ لا يقدرن على تحمُّل ما يتحمّله الرجالُ. كما نلحظ أيضاً أنَّ المؤمنةَ تحتالُ على العدو كي تنجوَ من بطشهِ وظلمهِ ، وذلك كما فعلتِ المؤمنةُ المبايعةُ أمّ كلثوم بنتُ عقبة رضي الله عنها حتى تمَّ لها أمر هجرتها إلى الله ورسوله.

**سابعاً**: كرّم اللهُ تعالى الرّجلَ والمرأةَ جميعاً ، وعُنِيَ بهما أفراداً وجماعاتٍ ، وسوّى بينهما تسويةً عادلةً ، غير أننا إذا أردنا أنْ نوازنَ بينهما ، فإننا سنرى أنَّ أعظمَ جوانب التّكريم الفردي والنّوعي كان من نصيبِ المرأة ، لأنَّ الله تعالى استنقذَها من ركامِ القرون ، وضلالاتِ الجاهليّاتِ جميعاً التي جعلَتْها ضياعاً أو متاعاً بلا حقوقٍ ولا اعتبار ، وقد اتّضح لنا ذلك من خلالِ بيعة النّساء في ضوءِ القرآنِ العظيم والسّيرةِ العطرةِ ، ومن خلالِ بعضِ الآيات الأخرى في القرآنِ أيضاً ، يقول تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩]. ونلاحظُ في آيةِ الشّورى هذه تقديم ذِكْر الإناث في الهِبَةِ على الذّكور ، وذلك مراغمة لعوائدِ الجاهليةِ الفاسدةِ في هضْمِ المرأةِ وتأخيرِ منزلتها ، وكأنَّ المعنى: «إنَّ الأنثى أدْخَلُ في بابِ النّعمةِ والهبةِ الإلهيّةِ من غيرِها ، فأولى بكم أنْ تستقبلوها بالشّكران لا بالكفران».

ثامناً: النّساءُ شقائقُ الرّجال كما ذكر النّبيّ ﷺ ، لذا فالقرآنُ الكريمُ قد أخبرنا وعلّمنا أنَّ المرأةَ بأصلِ الخِلْقة شقيقةُ الرَّجلِ ، وصنوهُ في المنزلة ، وبضعةٌ منه ، وهما معاً أساسُ هذا الجنس الإنساني ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ ﴾ [النساء: ١]؛ وهذه الآيةُ هي الأولى من السُّورة التي سمّيت باسم «النّساء» وفصَّلت فيها أحكامهنّ ، وتسمّى باسم «النّساء الكبرى» أو الطُّولى تمييزاً لها عن سورة «النّساء القصْرى» والتي هي سورةُ الطّلاق ، وهذا

نوعٌ من الاهتمامِ البالغِ بأمر النّساءِ المؤمناتِ المبايعات ، إذ لم نجدْ سورة تسمّى باسم الرّجال مثلاً .

**تاسعاً:** لاحظنا من خلالِ البيعةِ المباركةِ أنَّ القرآنَ الكريم قد سوّى بين الرَّجلِ والمرأةِ في أصول المسؤولية والتّكليف ، وبالتّالي في الجزاءِ والخلودِ ، وقضى على كلِّ قيمِ التّفرقةِ بينهما في الأصل الإنسانيّ ، أو في الحياةِ الواقعيَّةِ من ناحيةِ الحقوقِ العامةِ ، أو الحقوق الشّخصيَّة ، إلا ما تقتضيه طبيعةُ كلٍ منهما. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ . . . ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فهذه الآيةُ تقررُ المساواةَ بين المرأةِ والرجلِ في الخلقةِ والتّكليف الذي مثّلتْ له بالهجرة وما يليها. ونلاحظُ اليومَ في المجتمع شباباً لا أثرَ للرّجولةِ عليهم ، يحبُّ أحدَهُم أنْ يتشبّه في مشيهِ وفي لباسِهِ ، وفي كلامه ، وفي حركاتهِ بالنّساءِ المائعاتِ ، فهم مخنّثونَ في طريقةِ حياتهم وتلكّفهم ، يقابلُهم في ذلك الفعل شابّات يتشبّهنَ بالرِّجال ، وقد لعَنَ النّبيُ ﷺ كلا النّوعين ، وأمرَ المؤمنين بإخراجهم من البيوت أينما وجدوا. أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعنَ النّبيُّ ﷺ المخنّثين من الرِّجالِ ، والمترجِّلاتِ من النّساء ، وقال: أخرجوهم من بيوتكم. قال: فأخرجَ النّبيُّ ﷺ فلاناً ، وأخرج عمر فلاناً»[1] . ولله در مصطفى صادق الرافعي إذ نَعىٰ المخنَّثين طريقتهم السَّيئة فقال:

ومـا عجبـي أنَّ النِّسـاءَ تـرجلَّـتْ ... ولكـنَّ تـأنيـثَ الـرِّجـالِ عجـابُ

**عاشراً:** احترمتْ بنودُ البيعة المؤمناتِ ، واستنقذتهنَّ من دائرةِ الإهمال ، ووضعتهنّ في إطارٍ من التَّعاليم الهاديةِ ، وقدّرت مهمتهنّ ، واعترفتْ بمكانتهنّ ، وجعلت لهنّ صوتاً مسموعاً ، وذكْراً حميداً إذا وفينَ شروط البيعة. ومن الواضح أنَّ شروطَ بيعةِ النّساء جميعها لصالحِ المبايعات في دِينهنّ ودنياهنّ ، حيث تجعل الحياة أمامهنَّ حياةً إيجابية فيها كلّ عناصر الخير ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨٣٤).

ختامها طاعة رسولِ الله ﷺ في كلّ ما يأمرُ وينهى ، وبالتّالي فهذه هي السّعادةُ الحقيقيةُ التي أرادها اللهُ للمؤمنات ، حتى يتسنّى لهنّ بناء الأُسر التي تصلح لإعمارِ هذا الكون على الفضيلةِ والخيرِ.

* ومن هذهِ النِّقاط نجدُ أنَّ المرأةَ تشتركُ مع الرّجلِ في جميعِ المسؤوليات التي ينبغي أنْ ينهضَ بها المسلم. ولذلك على الحاكم المسلم أن يأخذَ عليهنَّ العهدَ بالعمل على إقامةِ المجتمعِ الإسلامي بكل الوسائلِ المشروعة الممكنة ، كما يأخذ في ذلك على الرّجال ، ليس بينهما فيه فرق ولا تفاوت.

* «ومن هنا كان على المرأةِ المسلمة أن تتعلَّمَ شؤون دينها ، كما يتعلَّم الرَّجُل ، وأنْ تسلكَ كلّ السُّبلِ المشروعة الممكنة إلى التسلُّح بسلاح العلم والوعي ، والتَّنبُّه إلى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربّصون به ، حتى تستطيع أنْ تنهضَ بالعهد الذي قطعته على نفسها ، وتنفّذَ عقد البيعة الذي في عنقها»[1].

* وختاماً تعالوا نقرأ قول اللهِ عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

(١) فقه السيرة للبوطي (ص ٣٨٣) دار الفكر ـ دمشق ـ ط٨ ـ ١٩٨٠ م.

# فهرس المصادر والمراجع[1]

١ ـ القرآنُ الكريمُ.
٢ ـ الصَّحيحان.
٣ ـ السُّننُ الأربعةُ.
٤ ـ المسَانيدُ.
٥ ـ الإجابةُ لإيرادِ ما استدركته عائشة على الصّحابة: للزّركشي ـ تحقيق سعيد الأفغاني ـ دار القلم ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٦ ـ الإحكامُ في أصولِ الأحكام: لابن حزم ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
٧ ـ أحكام القرآن: لابن عربيّ ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٨ ـ أخبارُ مكّة: لأبي الوليد الأزرقيّ ـ تحقيق رشدي ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٣م.
٩ ـ أسباب النُّزول: للواحدي ـ تحقيق كمال زعلول ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

---

(١) رجعنا في إعدادِ هذا الكتاب إلى مئات المصادر والمراجعِ ، وإلى كثيرٍ من الدّراسات وكتبِ السّيرة قديمها وحديثها ليخرج في صورةٍ صحيحةٍ واضحة قدر المستطاع ، وقد ذكرت في هذا الفهرس بعض المصادر ، بينما تجدُ بقيتها منثورة في ثنايا الكتاب.

١٠ ـ **الاستبصارُ في نسَب الصَّحابة من الأنصار**: لابن قدامة ـ تحقيق علي نويهض ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١١ ـ **أُسدُ الغابة**: لابن الأثير ـ تحقيق مجموعة من الأساتذة ـ دار الكتُب العلميَّة ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.

١٢ ـ **الأشراف**: لابن أبي الدنيا ـ تحقيق د. وليد قصاب ـ دار الثقافة ـ قطر ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.

١٣ ـ **الإصابةُ وبهامشهِ الاستيعاب**: لابن حجر؛ وابن عبد البرِّ، تحقيق د. محمد طه الزّيني ـ دار ابن تيمية ـ القاهرة ـ ١٤١١هـ.

١٤ ـ **أعلامُ النّساء**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٩ ـ ١٩٨٩م.

١٥ ـ **الأغاني**: للأصفهاني ـ تحقيق عدد من الأساتذة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٢م.

١٦ ـ **ألف باء**: لأبي الحجّاج البلوي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ طبعة مصوّرة ـ دون تاريخ.

١٧ ـ **البدايةُ والنّهايةُ**: لابن كثير ـ دار الفِكْر ـ بيروت ١٩٧٨م.

١٨ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوالِ العرب**: لمحمود الألوسي ـ شرحه وضبطه محمد بهجة الأثري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٩ ـ **التّاجُ الجامعُ للأصول**: لمنصور ناصف ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٤ ـ دون تاريخ.

٢٠ ـ **تاريخُ الإسلام**: للذّهبي ـ تحقيق د. عمر عبد السَّلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

٢١ ـ **تاريخُ مدينة دمشق (تراجم النِّساء)**: لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ دون تاريخ.

٢٢ ـ **تاريخ المدينة المنورة**: لابن شبّه البصري ـ تحقيق فهيم شلتوت ـ دار التراث ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.

٢٣ ـ **التّبيين في أنساب القُرشيين**: لابن قدامة المقدسي ـ حقّقه محمد نايف الدّيلميّ ـ منشورات المجمع العلمي العراقي ـ ط١ ـ ١٩٨٢م.

٢٤ ـ **ترويحُ أولي الدَّماثة**: للأُدْكاوي ـ تحقيق مروان العطيّة ورفيقه ـ مكتبة العبيكان ـ الرّياض ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ **تغريدةُ السّيرة النّبويةِ**: لمحمد عايش عبيد ـ دار التّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٢٦ ـ **تفسيرُ البغوي**: للبغوي ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

٢٧ ـ **تفسير الثّعلبي**: للثّعلبي ـ تحقيق أبي محمد بن عاشور ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

٢٨ ـ **تفسيرُ روح البيان**: للبروسوي ـ تعليق أحمد عناية ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

٢٩ ـ **تفسيرُ السَّعدي**: للسّعدي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

٣٠ ـ **تفسير الطَّبريّ**: للطّبري ـ دار الفكْرِ ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.

٣١ ـ **تفسيرُ القُرآن العظيم**: لابن كثير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤م.

٣٢ ـ **تفسيرُ القرطبي**: للقرطبي ـ تحقيق سالم البدري ـ دار الكُتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

٣٣ ـ **تفسيرُ المُراغي**: للمراغي ـ بعناية: باسل عيون السّود ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.

٣٤ ـ **تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ**: للنّووي ـ دار الفكر ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٦م.

٣٥ ـ **تهذيبُ التّهذيب**: لابن حجر ـ دار الفكْرِ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

٣٦ ـ **ثمارُ القلوب**: للثعالبي ـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م.

٣٧ ـ **جامعُ الأصول**: لابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دار الملاّح ـ دمشق ـ ١٩٧٣م.

٣٨ ـ **الجليسُ الصَّالحُ الكافي**: للنّهرواني ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
٣٩ ـ **جمهرةُ أنسابِ العرب**: لابن حزم ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٤٠ ـ **جمهرةُ النّساء وأعلامهنّ**: لهزّاع عيد الشّمّري ـ دار أميّة ـ الرّياض ـ ط١ ـ ١٤١١هـ.
٤١ ـ **جوامعُ السّيرةِ النّبويةِ**: لابن حزم ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ورفيقه ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.
٤٢ ـ **حليةُ الأولياء**: لأبي نُعيم الأصفهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٧م.
٤٣ ـ **حياةُ الصَّحابة**: للكاندهلوي ـ بعناية نايفِ العبّاس ورفيقُه ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٦م.
٤٤ ـ **حياة محمد**: لمحمد حسين هيكل ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط٦ ـ ١٩٥٦ م.
٤٥ ـ **الدّررُ**: لابن عبد البر ـ تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ دون تاريخ.
٤٦ ـ **درُّ السّحابة في مناقب القرابة والصحابة**: للشوكاني ـ تحقيق حسن العمري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
٤٧ ـ **الدرُّ المنثور**: للسّيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.
٤٨ ـ **الدرّ المنثورُ في طبقاتِ ربّات الخدور**: ـ لزينب فواز ـ مكتبةُ ابن قُتيبة ـ الكويت ـ طبعة مصورة ـ دون تاريخ.
٤٩ ـ **دلائلُ النّبوة**: للبيهقي ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.
٥٠ ـ **دولةُ النِّساء**: لعبد الرحمن البرقوقي ـ مكتبة النّهضةِ المصريةِ ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.

٥١ ـ ديوانُ البُوصِيْري: للبُوصيري ـ تحقيق محمد سيّد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٧٣م.
٥٢ ـ ديوان حافظ إبراهيم: ضبطه أحمد أمين ورفيقيه ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ م.
٥٣ ـ ديوانُ حسّانَ بنِ ثابت: لحسّان ـ تحقيق د. سيد حنفي حسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤م.
٥٤ ـ ديوانُ الفرزدقِ: للفرزدق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.
٥٥ ـ ديوانُ المتنبي ـ للمتنبي ـ تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.
٥٦ ـ ديوانُ مجدِ الإسلام: لأحمد محرّم ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٤١٢هـ.
٥٧ ـ الرّوضُ الأُنُف ومعه السّيرةُ النبويةُ: علّق عليه ـ طه عبد الرّؤوف ـ مكتبة الكليّات الأزهريّة ـ القاهرة ـ ط ١٩٧١ م.
٥٨ ـ الرَّوضُ الفائق: لشعيب الحريفيش ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصورة دون رقم أو تاريخ.
٥٩ ـ الرَّوضةُ الفيحاءُ في تواريخِ النّساء: للعمري ـ تحقيق د. رجاء السّامرائي ـ الدَّار العربيَّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م، وأخرى بتحقيق حسام الحكيم ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.
٦٠ ـ زادُ المسير: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.
٦١ ـ زادُ المعادِ: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفيقه ـ مؤسسة الرّسالة ـ ط٦ ـ ١٩٨٤م.
٦٢ ـ زهر الاداب: للحصري ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٠ م.
٦٣ ـ سُبلُ الهدىٰ والرّشاد: للصَّالحي تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ورفاقه ـ لجنة إحياء التُّراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م.
٦٤ ـ سيرُ أعلامِ النّبلاء: للذّهبي ـ تحقيق جماعة من العلماء ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٢م.

٦٥ ـ **السّيرةُ الحلبيةُ**: لابن بُرهان الحلبي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٦٤م.

٦٦ ـ **السّيرُ والمغازي**: لمحمد بن إسحاق ـ تحقيق د. سهيل زكّار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٨ م.

٦٧ ـ **السّيرةُ النبويةُ**: لابن هشام بشرح الخشني ـ تحقيق د. همام سعيد ورفيقه ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨م. ومكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ ط٥ ـ ١٩٩٣ م.

٦٨ ـ **السّيرةُ النبويةُ الصَّحيحةُ**: د. أكرم العمريّ ـ مركز بحوث السّنّة والسّيرة ـ جامعة قطر ـ ١٩٩١م. ومكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ ط٥ ـ ١٩٩٣ م.

٦٩ ـ **سيرةُ ولدِ آدم (تائية الخطيب)**: لعبدِ الحميدِ الخطيب ـ مطبعة الشّؤون الإسلامية ـ قطر ـ دون تاريخ.

٧٠ ـ **شاعراتُ العربِ**: جمع عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٦٧م.

٧١ ـ **شذراتُ الذَّهب**: لابن العماد ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.

٧٢ ـ **شفاءُ الغرامِ بأخبار البلد الحرام**: للفاسيّ ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

٧٣ ـ **صحابةُ رسول الله في الكتاب والسُّنَّة**: لعيادة الكبيسي ـ دارالقلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.

٧٤ ـ **صحيحُ السّيرة النّبوية**: لإبراهيم العلي ـ دار النّفائس ـ الأردن ـ ط٣ ـ ١٩٩٨م.

٧٥ ـ **صفةُ الصّفوة**: لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ورفيقُه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩م.

٧٦ ـ **صيدُ الخاطر**: لابن الجوزي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.

٧٧ ـ **طبقاتُ فحول الشّعراء**: لابن سلام الجمحيّ ـ شرحه محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٧٨ ـ **الطبقاتُ الكبرى**: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٩ ـ **العزلةُ**: لأبي سليمان الخطابي ـ تحقيق ياسين السّواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٧ م.
٨٠ ـ **العقدُ الفريد**: لابن عبد ربّه ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقيه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٢ م.
٨١ ـ **عيونُ الأثر**: لابن سيّد النّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م.
٨٢ ـ **عيون الأخبار**: لابن قتيبة ـ طبعة مصورة عن دارالكتب ـ القاهرة ـ١٩٦٣ م.
٨٣ ـ **غررُ التّبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القران**: لابن جماعة الحموي ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٨٤ ـ **الفتوحاتُ الإلهيةِ بتوضيح تفسير الجلالَيْن للدقائقِ الخفيّة** ـ لسليمان بن عمر الشّهير بالجمل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
٨٥ ـ **الفُصُول في سيرة الرسول** ﷺ: لابن كثير ـ تحقيق محمد الخطراوي ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ ط٤ ـ ١٩٨٧ م.
٨٦ ـ **فضائل الصحابة**: للإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق وصي الله عبّاس ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣ م.
٨٧ ـ **فقه السيرة**: د. محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٠ م.
٨٨ ـ **الفلسفة القرآنية**: لعباس العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٩ م.
٨٩ ـ **القاموس الميحط**: للفيروز أبادي: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٤ م.

٩٠ ـ **الكاملُ في التّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ أو رقم الطبعة.
٩١ ـ **اللبابُ في علومِ الكتاب**: لابن عادلِ الدّمشقي ـ تحقيق مجموعة من العلماء ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.
٩٢ ـ **لسانُ العرب** ـ لابن منظور الإفريقيّ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.
٩٣ ـ **مجمعُ الزّوائد**: للهيثمي ـ دارالكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩٤ ـ **مجموعُ مهمّات المتون**: مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٩٤٩ م.
٩٥ ـ **محمدٌ رسولُ الله**: لمحمد عرجون ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٥م.
٩٦ ـ **مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**: لابن منظور ـ تحقيقُ عددٍ من الأساتذة ـ دارالفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٩٧ ـ **المدينة في العصر الجاهلي**: د. محمد الخطراوي ـ مؤسسة علوم القران ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
٩٨ ـ **المرأةُ العربيةُ في جاهليتها وإسلامها**: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٢ م.
٩٩ ـ **المرأة في التّاريخ العربي**: د. ليلى الصّبّاع ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٥ م.
١٠٠ ـ **المستدركُ**: للحاكم ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ دون تاريخ.
١٠١ ـ **المصباحُ المضيء**: لابن حديدة الأنصاريّ ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
١٠٢ ـ **المصباحُ المنير** ـ للفيومي ـ طبعة مصورة ـ دون تاريخ أو اسم دار أو رقم الطبعة.
١٠٣ ـ **المعارف**: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٧ م.
١٠٤ ـ **معجمُ البلدان**: للحموي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٠٥ ـ **معجمُ الصّحابة**: لابن قانع ـ ضبطه أبو عبد الرحمن المصراتي ـ مكتبة الغرباء الأثرية ـ المدينة المنورة ـ ط١ ـ ١٩٩٧م.

١٠٦ ـ **المغَازي**: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٠٧ ـ **المغانمُ المطابةُ في معالمِ طابة**: للفيروز أبادي ـ تحقيق حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٩٦٩م.

١٠٨ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د. جواد علي ـ جامعة بغداد ـ ط٢ ـ ١٩٩٣م.

١٠٩ ـ **مكانةُ المرأةِ في القرآنِ الكريم والسّنة الصَّحيحة**: د. محمد البلتاجي ـ دار السّلام ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

١١٠ ـ **مكانك تحمدي**: لأحمد محمد جمال ـ الكتاب السعودي ـ ط٤ ـ ١٩٨١م.

١١١ ـ **منحُ المدح**: لابن سيّد الناس ـ تحقيق عفت حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

١١٢ ـ **المنهاجُ القُرآني في التّشريع**: د. عبد السّتار سعيد جامعة الأزهر ـ القاهرة ـ ١٩٧٥م.

١١٣ ـ **المواهب اللدنية**: للقسطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.

١١٤ ـ **الموطأ**: للإمام مالك ـ صححه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ دون تاريخ ـ وطبعة أخرى محققة بدار ابن كثير بدمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.

١١٥ ـ **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**: لمحمد الغزالي ـ دار الشّروق ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٦م.

١١٦ ـ **نسبُ قريش**: لمصعب الزّبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣م.

١١٧ ـ **نفح الطيب**: للمقّري ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار اصادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.

١١٨ ـ نهايةُ الأربِ في فنون الأدب: للنويري ـ طبعة مصورة.
١١٩ ـ الوافي بالوفيات: للصَّفدي ـ طبعة دار إحياء التراث العربي المحققة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠م.
١٢٠ ـ وفياتُ الأعيانِ: لابن خَلِّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

**ومصادر ومراجع كثيرة وردت في ثنايا الكتاب**

# فهرس الموضوعات



## الباب الأول

## حياة النِّساء قبل الإسلام وبعده

## الباب الثاني

## همساتٌ مع البيعة والمبايعات



## الباب الأول

## بيعة النساء وأطوارها في العهد النبوي

## الباب الرابع
## أركان بيعة النساء وفوائدها